

# السَّيْفُ وَالنَّارُ

## في السَّودَانِ

تأليف  
سلاطين باشا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

0205637



Bibliotheca Alexandrina





رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر من  
المدينة المصرية العامة للكتاب



# السيف والشار في السودان

تأليف

سلاطين باشا

وتعريب جريدة البلاغ

مكتبة الحرية

أم درمان - السودان



مكتبة الحرية

١٩٩٩

الاعراج الفني

---

محمود الجزار

## تقديم

يسرني ان اقدم للقارىء العزيز هذا الكتاب المهم : « السيف والنار في السودان » الذى كتبه سلاطين بلشاشا ، وتلبيت بتعريبه جريدة البلاغ ، وطبعته مكتبة الحرية بام درمان عام ١٩٣٠ ، وما هي الطبعة الثانية تصدر في سلسلة « تاريخ المصريين » .

واهمية هذا الكتاب تنبع من انه وثيقة نادرة من اهم الوثائق التى نشرت من الحوادث التاريخية التى جرت في مصر والسودان في فترة السيطرة المهدية على السودان ، وقد كتبه ضابط تيسلوى هو سلاطين بلشاشا الذى كان حاكما لدارفور عام ١٨٨٤ واعتقلته جيوش المهدى ، فادعى الاسلام ، ونسب الى الجيش المصرى واشترك معه في استرداد دنقلة وأم درمان ، وظل موظفا في خدمة حكومة السودان حتى عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الاولى ، فترك الخدمة وعاد الى النمسا ، وعندما عقدت الهدنة سنة ١٩١٨ انتخب عضوا في بعثة مؤتمر الصلح في باريس .

وقد تناول سلاطين بلشاشا في هذه المفكرات قصة الاحداث التى شاهدها بعينه وشترك في صنعها منذ استدعاه الجنرال جورديون الى السودان للعمل في خدمة الحكومة المصرية . فقد تحدث من الثورة في جنوبي دارفور وحصل الابطش وسقوطها في يد جيش المهدى ، وحملة هيكل بلشاشا الفاشلة على كوردوفان ، وسقوط دارفور ، وحصل الخرطوم وسقوطها ، ثم حكم الخليفة

عبد الله ، وحيلة الأبحاش بقلادة الملك حنا ، وحيلة ابن النجوى  
على مصر ، وهزيمة في واقعة توسكا سنة ١٨٨٩ .

ويختتم سلاطين باشا كتابه بفصل خالص عن مراره من  
الأسر الذي قضى فيه ١٢ عاما ، وتقييده للحكم المهدي ، مع تحليل  
ببصيرته له انتهى فيه الى أن المظالم التي ارتكبتها الخليفة عبد الله  
المهدي وأتباعه قضت على نحو ٧٥٪ من مجموع السكان في  
السودان ، أما بالحرب ، وأما بالجوع ، وأما بالأمراض الوبائية !  
أما الريح الباتى فلم يكن عند نهاية حكم الميهدى . أفضل جالاسين  
الرفيق ! وهو ما جعل السودانيين ينكرون ليل نهار فضائل الحكم  
المصري !

ولمى أن يجد القارئ العزيز في هذا الكتاب ما ينشد من  
غائدة ومعة .

والله الموفق

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لما كان التاريخ لا يخفى وله الأهمية القصوى للأجيال القادمة  
لكى يهتدوا على ما كان عليه سلفهم آتينا على أنفسنا بطبع كتاب  
السيف والنار عندما استطعنا الحصول على النسخة الأصلية .

تمال الله ان يكون عملنا هذا فيه خدمة للسودان الحبيب  
وآله ولى التوفيق ..

مكة الحرة ام درمان



## تمهيد

وعدنا في التمهيد الذي وضعناه لكتاب « التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر » لستر ويلفرد سكاون بلنت أن تصدر من بعده كتاب « السيف والنار في السودان » لسلطين باشا . وهذان الكتابان يعدان من المستندات التاريخية التي لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة الحوادث التي تطلبت على مصر والسودان من خمسين سنة وهي الحوادث التي مؤلفنا نعاني نلجها الى الآن .

فاليوم ها نحن نبرز كتاب « السيف والنار في السودان » وفاء بذلك الوعد ورغبة في أن تكون له الفائدة المرجوة في خدمة تاريخ مصر الحديث .

وسلطين باشا ، مؤلف هذا الكتاب ، هو ضابط تسماوى ولد سنة ١٨٥٧ م في فيينا وجاء الى مصر سنة ١٨٧٨ م وعمل في خدمتها بمينيه غوردون باشا حاكماً لدارفور سنة ١٨٨٤ ولكن لم يرض عليه في منصبه هذا قليل حتى اعتقلته جيوش المهدي فبقى أسيراً يهدى الاسلام والايمان بالمهدوية الى سنة ١٨٩٥ م وحينئذ فر الى الجيش المصرى واشترك معه في استرداد نفطة وام درمان .

وبقى سلطين باشا بعد ذلك موظفاً في حكومة السودان بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٤ ثم أعلنت الحرب العالمية فترك الخدمة في السودان وعاد الى التمسا وعمل في خدمة الصليب الأحمر .

ولما مكنت الهدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضواً في لجنة الصلح في  
باريس .

وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية السر وتجت بلشا  
الذي كان حاكماً للسودان ثم معتبداً لانجلترا في مصر . وهذه  
الترجمة الانجليزية هي التي اعتمدنا عليها في التعريب .

٢٦ يوليه ١٩٢٠

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الفصل الاول

### تمهيد

في يوليه سنة ١٨٧٨ عندما كنت ملازماً في الالى ولى العهد  
يودلف عد جنود البوسنة تسلمت خطاباً من الجنرال غورسون  
يدعونى فيه أن اذهب إلى السودان واشتغل في خدمة الحكومة  
المصرية تحت إدارته .

وكنيت في سنة ١٨٧٤ قد سمعت في السودان من طريق اسوان  
تذهب إلى كورسكو وبربر ووصلت إلى الخرطوم في شهر أكتوبر  
من تلك السنة وعرجت على جبال النوبة وبقيت مدة قصيرة في بلين  
حيث كان مركز الرسالة الكاثوليكية النمساوية . ومن هنا خرجت  
في اكتشاف جبال جولغان نايمة وجبال كاييرو ، وكنيت أود أن أطلب  
يقال في هذه الأصقاع ولكن حلق دون ذلك قيلم غرب الحوامة .  
ولما لم تكن لى مهمة سوى السباحة كان الحكومة طلبت عودتى إلى

الأبيض حلقة كردومان . وكان قيلم هؤلاء العرب تلجأ من  
جباية الضرائب المباحة التي مرضتها عليهم الحكومة . وقد أخذت  
الحكومة هذه الحركة بسرعة ولكن لهذه الظروف لم أر من الصواب  
الرجوع إلى التوبة وعلى ذلك قررت السفر إلى دارفور .

وفي ذلك الوقت كان حاكم السودان العام اسماعيل باشا  
أيوب متيماً في القاهرة حلقة دارفور وعندما بلغت الكلبه  
والقائول وجدت ما خيب رجائي فإن الحكومة قد تضررت مقصوداً  
تمتعت فيه دخول الأجانب في هذا القسم من السودان لأنه كان  
حديث العهد بالخضوع للحكومة وكان يخشى على حياة الأجانب  
فيه . فرجعت بلا توان إلى الخرطوم حيث عرفت أمين باشا  
( وكان في ذلك الوقت الدكتور أمين ) وكان قد أتى من مصر حينئذ  
في صحبة من يدعى كارل فون جرم .

وكان للجنرال غوردون حاكماً عاماً لمسيرات خط الاستواء  
وكان متيماً في لادو فكتبنا إليه نطلب منه أن يشرح علينا بما يراه .  
وبعد شهرين جابنا جوابه يدعونا إلى زيارته ولكن في هذا الوقت  
وانغلى خطاب من أسرني في فينا وهم يحثونني على الرجوع إلى  
أوروبا . وكنت أعاني مرض الحمى وكان لا يزال باقياً  
على سنة في الخدمة العسكرية فقررت الرجوع والنزول على رأي  
أفراد أسرني .

أما الدكتور أمين فقد قيل دعوة غوردون وخرج في السفر  
إلى الجنوب كما شرعت أنا في السفر نحو الشمال . وقبل الانقراق  
رجوت أمين أن يتكرني بالخير أمام غوردون وقد فعل . وكان  
أيضاً به لي لديه سبباً في تلك الخطاب الذي ذكرت أنني تسلمته  
وأنا بالبوسنة بعد ذلك بثلاث سنوات .

ومعد وصول أمين منحه خوردون رتبة بك وعينه حاكماً  
لبلدية لادو . وعند سفر خوردون تعين حاكماً علياً لمديريات خط  
الاستواء ، وبقي في هذا المنصب الى سنة ١٨٨٩ حيث عين مسر  
مستقلى مكانه .

وعدت أنا الى مصر من طريق صحراء بيوضه ثم دنقلة ووادي  
حلفا وبلغت النمسا حوالي سنة ١٨٧٥ .

وقد فرحت عندما تسلمت خطاب خوردون الذي وصل الى  
وثن في حرب ليبوسنه واشتكت الى أن اعود الى السودان ممينا  
في منصب ما . ولكن لم يؤذن لي بالسفر الا في ديسمبر سنة ١٨٧٨  
عندما انتهت الحرب وعادت فرقتي الى برنسبرج فالتقت في التبرق  
مرة أخرى للسفر الى امريكا .

وكان اخي هنري في الهربك تمضيتم ثمانية ايام في نيسا  
لودع افراد امرتي ثم ذهبت الى نيسا في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨  
وانا اجهل تماما انه سيضحي علي ١٧ سنة اري فيها الاهوال  
والغرائب قبل ان اري بلادي ثانياً . وكان عمري اذ ذاك ٢٢ سنة .

ولما بلغت القاهرة تسلمت تفرافاً من جيجار باشا بالسويس  
وكان قد عين مديراً لمصلحة التفرافات بالسودان وكان علي وشك  
ان يسافر الى مصوع لكي يفتش على الخط بين هذه البلدة وبين  
الخرطوم . وقد دعاني الى السفر معه الى سواكن فقبلت بكل  
سرور الانتفاع بهذه الفرصة التي تكرم علي بها . وافتقنا  
في سواكن فذهب هو علي ظهر الباخرة الى مصوع وشرعت انسا  
اهيئ نفسي للسفر الى بربر علي الجمال . وقد هاوطني علاء الدين  
باشا الذي كان حاكماً في ذلك الوقت والذي كان بعد ذلك في صحبة

هكس بالغا الذي قتل مع الجيش المصرى بأجمعه عنديا اصطدم  
به جيش المهدي في شيكان في نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

ولما بلغت بربر وجدت في انتظارى ذهبية بلور الجنرال  
غوردون غزلت اليها ووصلنا الى الخرطوم في ١٥ يناير سنة  
١٨٧٩ . وقد لقيت هنا احتراما ورحابة اذ قد خصنى غوردون  
بدار ليست بعيدة من القصر واتفق الى من يدعى على انندي لكرى  
يقوم بقضاء ما احتاج اليه . وكنت في اجتماعى بالجنرال غوردون  
اسمعه يتحدث عن الضباط النموسيين الذين همهم في طولطاسة  
عنفا كان في بعثة الدانوب وكان يحفظ لهم في قلبه لجل تكري .  
واتذكر قوله لى : انه من الخطا ان تغير ملابعتنا البيضاء السابقة  
بملابعتنا الزرقاء الراهنة .

وعينى غوردون مخلصا ماليا وطلب الى ان اتوم بالتفتيش في  
البلاد ولخصى شكليات السودانيين الذين كانوا يعارضون في دفع  
الضرائب التى لم تكن تعتبر عادحة . واطاعة لهذه الاوامر تمت الى  
سنار ومزوغلى عن طريق المسلية ، ومرت على جبال توتالى  
ورجرج وكاشانكرو القريبة من بنى شغول ثم رامت تقريرى الى  
الجنرال غوردون واوضحت ق هذا التقرير ان الضرائب غير عادلة  
وان معظمها يقع على مائى اصحاب الاملاك الصغيرة من الارض .  
لما كبار الملاك فكان من السهل عليهم ان يرضوا الجباة بببالغ  
صغيرة فينجوا من الضرائب الا ما قل منها . وعلى هذا كان مقدار  
كبير من الارض لا تؤخذ عليه الضريبة بينما يقوم الفقراء بسد العجز  
ودفع ضرائب ثقيلة عن املاكهم . واينت لفضلا عن هذا النظام  
السيىء ان الامالى مستاءون من الطرق الجائرة التى يتبعها جباة  
الضرائب وجطم من الجنود والباشبوزق والشابجية . ولم يكن هم  
هؤلاء الموظفين سوى الحصول على الثروة بأسرع ما يمكنهم على



حسب السكان التعماء الذين كانوا يخضعون لسلطانهم الوحشية القاسية .

وكنت كثيراً ما أجد خلال أسفاري أن الأراضي التي يملكها المولطون ومعظمهم من الأتراك والشليجية لا تجبى عليها ضرائب ما . وعندما كنت أسأل عن مدة ذلك كان يقال أن هذا امتياز للمولطين لما يقومون به من الخدمة للحكومة ، وقد كانوا يستأمنون أشد الاستياء عندما اتول لهم أنهم يتسألون أجراً على هذه الخدمة .

ولكنني عندما قبضت على البعض منهم اقروا جميعاً بأنهم متضرون في دفع الضرائب . ووجدت في المسلمية وهي بلدة تجارية كبيرة تقع بين النيلين الأبيض والأزرق جماعة من النساء في سن الشباب وكان يملكن أفضل التجار وأكثرهم اعتباراً ويؤجرونهن للأغراض المسافلة بأجر عالٍ . وكان هذا العمل من التجارات الرابعة ووقعت في حيرة لا أفرى كيف لفرض الضرائب على هذه المنازل ، ولا أية خطة يجب اقتراحها . ولئن أعترف بأن تجاريي الماضي ومعارفي قد خدلتني في هذا الموضوع . وسمعت عندئذ بعضى التأم عن القيام بأى إصلاح ، ولم يكن لي من الخبرة بالشئون المالية سوى القليل أو العدم ، فلذلك وجدت من الصعب أن أستمر في عملي وقدمت استعفتي .

وكان فورديون قد سافر في هذه الأثناء إلى دارفور بخصوص البحث عن الحملة التي أرسلت لمقاتلة سليمان بن الزبير بلحاً ، ولكنه كان قبل أن يسافر قد رقى جيظراً إلى رتبة بلحاً وعينه حكماً عاماً مدة غيابيه . ففتتحت الفرصة وأرسلت إليه مع البريد تقريرى واستعفتى وتسلمت بعد مدة قليلة ظخراً منه بوائقي فيه على استعفتى من منصب المهتش الملى .

وقد ارتحت كثيرا الى تخلصي من هذا الواجب الكريه ، ولم  
الشعر بوخر الضمير لتركي هذا المنصب لاني شعرت بمعزى النام  
عن محالجه اذ كان فاسدا من الرأس الى العقب .

” وبعد ذلك بيلام تسلمت من غوردون تلخراغا عيني فيه مديرا  
لداره ، وهي تمتوى على الجزء الجنوبي الغربي لدارفور ، وامرتني  
بان اتوم اليها في الحال لانه كان على ان اتود حملة عسكرية لمقتلة  
السلطان هرون ابن السلطان السابق وكان يسمى للاستقلال ببلاد  
والخروج على الحكومة المصرية . وطلب مني غوردون ايضا ان  
اوافيه حين رجوعه من سفره الى مكان بين الأبيض وطرة الحضرة  
على النيل الأبيض . فارسلت جمالي الى هذا المكان حيث كانت  
ياخرة غوردون في انتظاره ونزلت انا الى الباخرة التي سارت بقا  
الى طرة الحضرة حيث خرجت وركبت مدة ساعتين حتى بلغت  
مخطة ابي جراد للطغرافية وعلبت من هناك ان غوردون لا يبعد  
هنا سوى أربع ساعات أو خمس ولنه كان في طريقه قاصدا بلوغ  
النيل . فركبت ثانيا ومرت ولم يمض على بضع ساعات حتى  
لقيته قاعدا في ظل شجرة كبيرة وكان يبدو عليه التعب والاعياء  
ويشكو من تورم قدميه . وكان معي لحسن الحظ قليل من الكونياك  
لحضرتي معي من الباخرة فالتفتش منه واستعد لاستئناك السفر .  
وطلب مني ان ارجع معه الى الحضرة لكي تتبلعت مما في مسألة  
دارفور ولكي يعطيني التعليمات الضرورية . وقد عرفني الى  
شخصين من حاشيته وهما حسن باشا حامي التجويد الحاكم العام  
السابق لكرديغان ودارفور ويوسف باشا الشلالى وكان هذا آخر  
من انضم الى جهتي في حلته لمخطة سليمان زبير والنحاسين .  
وامطينا الدواب ولكن غوردون حث دابته حتى ما استطعنا ان  
نتركه . وبلغنا طرة الحضرة ووجدنا جمالنا التي تعبل لمتنا  
والتي كنا قد ارسلناها قبل قليلنا قد وصلت تبلنا . وارست

الباهرة في وسط النهر وعبرنا نحن الى البر في قوارب . وكنت انا في مؤخرة القارب ويلهني يوسف بلشا الشلالى ولما كنت انا عطفان وكان بجانبه كوز رجوته أن يملأ من النهر ويقولني حتى اشرب . ورأى غوردون ذلك لمبتمس والفت الى وقال لى بالفرنسية : « ألا تعرف أن يوسف بلشا على الرغم من وجهه الأسود في مركز أعلى من مركزك ؟ كان يجب ألا تطلب منه أن يسقيك » فاعتذرت بالعربية الى يوسف بلشا وظلت له اننى طلبت منه الماء وأنا غلب الذهن فجلجيتى بلته مسرور لأن يخدمنى .

ولما وصلنا تولت انا وغوردون في الاسماعيلية ونزل يوسف بلشا وحسن بلشا في الباهرة الثانية بردين . ولخذ غوردون يشرح لى حالة دارفور شرها وأبدا وقال لى : انه يرجو أن توفق الحملة في الانتصار على السلطان مزون ، لأن البلاد حتى عليها مدة طويلة من الزمن وهي في حروب وسفك دماء وأنها لذلك في اشد الحاجة للى السلام والراحة . واخبرنى أيضا أن حملة جى الموجهة ضد سليمان زبير ستنتهى قريبا وأنه لن يمضى عليه زمن طويل حتى يقتل أو يهزم ، لأنه قد فقد معظم من عتده من البازنجر أو حملة الأكواس وأنه من المحتمل أن يصمد أمام الخبرات التى أوقفها به جى . وكقمت الساعة فوق العاشرة عندما ودعنى غوردون . وكان قد أبر بأشمال النار لأنه كلن يتوى السر الى الخرطوم وعندما سلمت وتحيت قل لى :

« طترامتك السلامة يا عزيزى سلاطين وليرارك الله . انى واتق بأكك مستعمل جهودك . معها كقمت الظروف . وربما جئت انا الى اكجلترا ولعلنا نلتقى بعد » .

وكانت هذه الكلمات أخرها سمعت منه ولكن من كان يمكنه  
 ان يتصور ذلك القدر الذى كان مخفراً لكل منا ؟ وفكرته لنا لظلمته  
 وسماواته ومنعها بلخنا الشط انتظرت هناك حتى تقوم الباهرة ثم  
 ما هي الا دقائق حتى سمعت ذلك الصير الحاد ورفعت المرساة  
 وتحركت الباهرة وولت وحما غوردون وقد ذهب بعيداً عنى الى  
 الأبد .

وفى صباح اليوم الثانى ركب الجواد الذى اعطانيه غوردون  
 وقد حملنى أربع سنوات بعد ذلك فذهبت الى أبو جراد ومنها  
 سافرت الى أبو شوقه وخصوصى ثم الى الأبيض حيث يوجد الدكتور  
 زوربخين المفتى المحي وكان على وشك ان يسافر الى دارفور  
 فاتفقنا على السفر معاً الى داره ، ثم استأجرنا الجمال بمساعدة  
 على بك شريف حاكم كوردفان وبهنا نحن على وشك الرحيل اذا  
 به ينولنى رسالة تلفزيونية تنبئ بسقوط سليمان زبير فى داره فى  
 ١٥ يولييه سنة ١٨٧٩ كما كان قد تنبأ غوردون عندما قتل لى انه  
 لايه خاضع أو مهزوم .

وهنا يجب ان أفكر انه عندما فتح زبير بلثا دارفور تركها  
 لعناية ابنه سليمان وسافر هو الى القاهرة ، وفى سنة ١٨٧٧ حين  
 غوردون سليمان هذا حاكماً على بحر الغزال ولكن نفسا خلاب  
 بينه وبين من يدعى ادريس ابتر أحد اهلى دنقلة وكان زبير يالسا  
 قد وكل اليه العناية ببعض المسائل . ولكن اسمى زبير تنتمى الى  
 قبيلة الجمالين الذين كان بينهم وبين الدنقلة تصاعد وتباغض .  
 والى اعتقد ان كثيراً من التلق فى السودان يرجع الى هذه الحقيقة .

من سكان مديريه بحر الغزال خليط من جهافل الزنوج التى  
 كانت مستطة كل منها من الأخرى حتى جاءهم حرب الدنقلة وحرب

الجمالين فاحمى نخية الاتجار بالعبيد . ويتسبب حرب الجمالين  
 انفسهم الى عيلى . هم النبى وهم ينضرون بهذا النسب . وياعون  
 الدنقلة به . والدنقلة ينتمون فى زعمهم الى العبد تنقل . والمأثور  
 ان هذا الرجل على للرقم من انه كان عبدا قد ارتفع الى ان صار  
 حاكم النوبة وان كان مع ذلك يدفع خراجا ليهنسة الاسقف القبطى  
 للبلاد الواقعة بين سراسن . ودبا . وقد اسس تنقل هذا بلدة سماها  
 دنقلة . وصار مكان هذا القسم بعد ذلك يدعون دنقلة . وغلبتهم  
 من اسل عربى ولكنهم لا يخلطهم بالسكان قد فسدوا مرتبتهم .  
 وهم بالطبع يؤكدون انفسهم للعرب ولكن الجمالين لا ينفكون  
 ينكرون ان اصلهم من العبد تنقل ويعملونهم بالاحتقار والارداء .  
 ويحب على للقارىء ان يذكر هذه العلاقة بين النعمالين والدنقلة  
 لانه يتوقف على فهمها فهم كثير من حوادث السودان التى وقعت  
 بعد ذلك .

وانتهى الخلاف بين سليمان زير وادريس الى شجار . فشكا  
 ادريس سليمان فى الخرطوم وطلب معاونة الحكومة وحصل على  
 جيش بقيادة جيسى باها ثم تلا ذلك تلك الحملات التى انتهت بسقوط  
 سليمان فى بحر الغزال . وكان جيسى قد وعده بالابتاء على حياته  
 ولكن الدنقلة دسوا له فاعجم . وكان له شريك يدعى رابح لم يسلم  
 معه خوفا من انتقام الدنقلة . فاحذ كوكبة من الجنود وسار بهم  
 فى الشمال الغربى لعلهم يجازف ويتقدم الاموال حتى بلغ قطرا  
 قريبا من بحيرة تشاد فاستولى عليه وصار ذا خطر عظيم فى  
 خطوط القارة السوداء .

وهناك مسألة اخرى يجب ان نذكرها بخصوص الغلايات  
 بين القبائل لما لها من الاثر فى حوادث السودان التى وقعت بعد  
 ذلك ولتى نضمن لذلك شرحها مع بعض التبسيط .

لما زار غوردون دارفور زيارته الثانية عرف وتحقق من أن  
تجار الأبيض السودانيين يبيعون الأسلحة واليارود للثائر سليمان  
وكتفوا بالطبع يعطون عليه لما ينالون منه من الربح . وكانت هذه  
الفتنة الحربية ترسل بواسطة الجلالة أو سفار التجار بين  
الأبيض وبين بحر الفزال وكان هؤلاء يربحون منها ربحاً عظيماً  
مثال ذلك أن ثمن البنديّة ذات الانبوتين كلن من ستة عبيد الى  
ثمانية . وكان ثمن صندوق الخراطيش عبداً أو عبتين . وقد حاول  
الموظفون في الأبيض وقف هذه التجارة ولكن الصعوبات كانت  
عظيمة . وكانت قبائل العرب الرحل تسكن المراكز الواقعة بين  
كردفان وبحر الفزال . وكان بين هؤلاء العرب قبائل الرزيقات  
والحوامة والحمو والمسيرة . وكان من السهل على التجار  
للجلالة أن يخرجوا قوافل صغيرة وأن يجتازوا ويختبئوا في الغابات  
الكثيرة التي لم يكن يمكنها أحد . ولذا اتفق أن موظفاً مصرياً  
التقى بهم فانه كان يمكن التغلب عليه بسهولة صغيرة .

وكان غوردون يعرف كل هذا ؛ ولذلك أمر بوقف للتجارة بكل  
انواعها بين بحر الفزال والأبيض . ولم كذلك التجار بترك المراكز  
الواقعة جنوب الأبيض والطويشة وطريق داره وحصر تجارهم في  
الجزء الشمالي والخرى ما دامت الحرب دائمة في بحر الفزال .  
ولكن على الرغم من الدقة التي اتبعت في تنفيذ هذه الاوامر كسفن  
الرياح النافخ من التجارة مع سليلي اكبر واتوى اخواء من أن تطفئ  
هذه الاوامر حتى كان التجار لا يعبأون بالكشف ابرهم . ولم يكن  
في يد الحكومة ما يمكنها من أن توقف هذه التجارة التي زادت بدلاً  
من أن تنقص بعد خروج هذه الاوامر . فبعد غردون لهذا السبب  
الى ومائل حاسمة وامر المشايخ والعرب بأن يقبضوا على التجار  
الجلالة ويوصلوهم بالقوة الى داره وطويشة وام شنيه والأبيض  
والتي عليهم تبعة وجود الجلالة في بلادهم بعد تاريخ معين .

• وانتهر العرب الحريصون هذه الفرصة واخذوا ينهبون الجلابية بل التجار الوادعين الذين عاشوا بينهم ريثاً طويلاً والذين لم يكن لهم أقل دخل في تجارة المهريلت الحربية • فجمعوا التبع والزوائد بلا تمييز ودهبوا بفنك ربحاً عظيماً • فما هو ان ذاعت اوامر غوربون حتى حمل العرب على التجار حلة حلبة لم يأخذوا منهم تجارتهم فقط بل أخذوا كل ما يملكونه حتى جردوهم من كل شيء وسلبوهم كاليهم وهم تتريباً مراة يعدون بالمثلث الى طويقة وداره ولم شنبه • وكلن هذا عقاباً عظيماً لهم على مساعدتهم اعداء الحكومة •

وكان كثير من هؤلاء التجار قد اتلموا بين الصرب سنوات وكلن لهم زوجات واولاد وسريكت واملاك كبيرة وقمت كلها في ايدي العرب • والحق ان هذا الانتقام من هؤلاء التجار الذين كانوا يتجرون بالمهريلت الحربية وبالعبيد كان هائلاً وان كفتوا هم يستحقونه على مبدأ السن بالسن والعين بالعين • وكنت نتاليج هذا العمل بعيدة المدى • وفلك لان معظم هؤلاء الجلابية كفتوا من النجمايين الذين ذكرناهم فانفجست بينهم من ذلك الوقت وبين العرب الذين اذلهم وابلحوا تجارتهم عداوة لا تزال مستمرة لان الدلائل تدل على انها في الزيد لا في تخلص •

ولو اعتبرنا الثورة والانسانية لقلنا ان هذا الاعتداء على الجلابية يستحق المناقشة من حيث عدالته • ولكن عند تدقيق الفحص نجد ان الظروف لم تكن تسمح بمعالجة هذا الظرف الاستثنائي بالوسائل السياسية او بروح المطلق الاتساق فله لم يجد في الحالة وقتئذ سوى اتخاذ اجراءات شديدة فعالة • والعرب انفسهم يقولون : « نار الغابة ظلمه الحريق » يمتنون بفلك انه اذا شبت النار في الغابة لم يكن سبيل النجاة منها الا بلهراق جزء من الغابة

بحيث اذا وصلت النار الكبرى لا تجد ما تكله فينجو الإنسان منها  
بما هو فيه في المكان الذي أحرقه هو نفسه . وهذا المثل يقبل التطبيق  
على الحالة التي ذكرناها .

ولما كان لهؤلاء التجار الجلابة ( وجلبهم من الجمالين والسليجية  
والدنقلية ) أكابر في وادي النيل وكان لهم أصدقاء يشتركون معهم  
في الغلبة وسائر التجارة لوجدت أوامر غوردجون سخطاً بينهم إذ  
لم يكانوا يسهون العلة في ضرورة اتخاذ هذه الإجراءات الشديدة .



## الفصل الثاني

### اقامتي في دارفور وتاريخها السابق

عاشنا الأبيض أنا والدكتور زريوخين المنتش الصمى الذى كنت قد تلمذته في القاهرة وكنت مخرجتنا للأبيض في يوليو سنة ١٨٧٩ فأخذنا طريقنا الى الفوجية آخر محطة تلغرافية ، وهنا تعلمت رسالة تلغرافية من غوردون يقول لى فيها انه مسافر الى الحبشة في مهمة مع الملك يوحنا .

ولما بلغنا ام شنجة وجدناها مزدحمة بالجلابة الذين طردوا من الجنوب وكنت حالتهم تبحث على الشفقة . ومن الغريب انه شاعت عنى إشاعة ملتصاما أن غوردون خالى ، ولعل سبب ذلك ذلة عينى وانى كنت حليفاً ، وكان الجلابة ينظرون الى بعين الخوف لهذا السبب وكثرتوا يعتدون غوردون أصل بلانهم الحاضر . وأخلوا يفتروننى بالمرائن لمولوتهم فأخبرتهم بأن ام شنجة ليست داخلة ضمن نطاق أعمالى ، ولذلك لا يمكنى مساعدتهم . وقالت ايضا انه لو كان فى مقدورى مساعدتهم من مالى الخالص لما فعلت .

وقد خالفت هذه القاعدة في حالة واحدة ولكن قبل أن ألقى هذه الحادثة يجب ان اقول : انه لا ينبغي الحكم على عملى من وجهة

الأدب المسيحية فقط بل أنا أقر بأن خرجت من حدود الشريعة الإسلامية ولكن عندما يقرأ القارىء القصة يلجمها سيوافقنى على جميع ما علمته ويشارك معى فى المواطن التى يعترضنى على هذا العمل .

بعد زيارتى فى أحد الأيام طائفة من التجار وطلبوا منى أن أتوسط فى مسألة شطب عمده ١٩ سنة وأصله من الخرطوم . وقصوا على أن هذا الشطب قبل مغادرته الخرطوم كان قد خطب ابنة عم له جبيلة ولكنها فقيرة وتواعدا على الزواج بعد أن يسافر الشطب فى تجارة ويجمع بعض المال . فلما وصل إلى أم شتجه عرف عجزنا فخطبة الفتنة به أشد الاقتتال . ولم يخبرنى هؤلاء العجائز من الشطب . هل هو طمخ فى أموالها أو لا . ولكن المسألة انتهت بأن تزوجته هذه العجوز ووجد هو نفسه أنه أصبح ثرياً فلم يكن له رغبة فى الرجوع إلى الخرطوم وتطبيق أمراته . ولمنت أخبره ابنة عمه فى الخرطوم فاستولى عليها ذهول وطلب إلى أن أحل هذه المسألة . فملاذا لفعل .

فاستدعيت الشطب وكان جبيلاً وجميلاً فوق المألوف فقصت به فى ناحية وأخذت أكله بكل جد ووقار وأظهرت له سوء عمله فى الزواج بعجوز أجنبية منه وكيف أن خطيبته تبكى حتى كاد يذهب بضرها وهى وإن كانت فقيرة ولكنه يجب شرفاً أن يرمى مودتها ووعده لها . فتردد مدة طويلة ولكنه أخيراً رضى بأن يذهب إلى القاضى ويطلق هذه العجوز . وكنت قد استدعيت القاضى وأخبرته أنه إذا طلق الشطب زوجته يجب عليه أن يضرب المرأة بهذا الطلاق بكل رفق ولطف لئلا لا ترغب فى شوهاء ، واستوثقت من كثراب الشطب بأنه بعد طلاقه يجب أن يسافر إلى الخرطوم ثم أوصيت موظف الحكومة فى أم شتجه بأن ينهى هذا الشطب بعد يومين من

طلاقه ويكره بهم بعثته في الهلدة بعد هذين اليومين . وأوعزت له بأن يقول ما شاء أمام العجوز ويلقى على نبعة الخلاف بشرط أن يجهد في أن تعطى الشاب مبلغاً من المال يقوم بحاجته مدة سفره إلى الخرطوم . ولم أكن أتصور وأنا أعمل هذا العمل الزوينة الهائلة التي أثرت على رأسي . ففى الساعة الرابعة بعد الظهر وأنا بنسطح على الضجرب فى عشى سمعت صوت امرأة غاضبة ترغف فى أن ترانى تحدثت من تكون هذه المرأة واستمدت لعلها ولمرت بدخولها . وما هو أن صارت فى العشة حتى رأت الدكتور زربوخين الذى كان مسمى وتكثت عسلت فيه وهى هاتجة مجنونة : « إن أتبل الطلاق . هو زوجى وأنا زوجته . تروجنى على أصول الشريعة وأنا الرضى الطلاق » .

فدهش الدكتور زربوخين ونتم كلفت بكسورة باللغة العربية وأخبرها بأنه لا يعرف شيئاً من هذه المسألة وإن النبعة تقع على أنا وحدى . ولم أتمالك من النظر والذلل فى هذه المرأة الغريبة . فقد كانت ضخمة قوية عنيدة وكثت من الغضب بحيث لم تراعى أدب اللياقة الذى تراعيه القرقيات فى مخاطبة الرجال . فقد أنفقت برقعها لشدة عياجها . ويدا رأسها مغطى بمنديل حريرى عديد الألوان وقع بعضه على كتفها . وكان وجهها يضرب إلى الصفرة وقد كبته الإمبارير وفى كل من خديها ثلاثة خطوط من الوشم بين الواحد والآخر نحو نصف بوصة . وكان مطلقاً بأنفها قطعة من المرجان الأحمر ويتلى من أنفها قرطمان كبيران من الذهب أما شعرها فكان حلقاً صغيرة عديدة قد شملت لتقدمها فى السنن وظننت وأنا أنظر إليها أنى لم أر قط امرأة أكثر جمالة منها . وأنا فى هذه الدلائل وإذا بنسبها الذى تحول إلى تسكنى السؤال نفسه الذى سلكه للدكتور المرموب . فتركها حتى هدأت قليلاً ثم قلت :

« انى أدرك تملأ ما تقولين ولكن لا بد من الخضوع لما لا يضر منه فان زوجك سيرتك وانت لا يمكنك ان تتركى البلدة معه . وتقولين انك لا ترغبين فى الطلاق ولكن تذكرى ان الشريعة تصل للرجل الطلاق » .

مصلحتى هى : « لو لم تتوسط لما طلقنى . لعنة الله على يوم جعلنا به » .

قلت : « أرجوك الا تقولى ذلك فانت امرأة غنية واثن لك ان تجدى صعوبة فى الحصول على زوج أكبر سناً من زوجك الذى طلقك » .

مصرحت : « لا أريد لحداً غيره » .

قلت بحدة : « اسكتى . أتعرب زوجك السابق يريدون ان يتركك ويسلمو . وقالوا انه لا يربطه بك الا لمولك . والآن مهما قلت فانه سيقادرك غداً . امنت تفعلين من التزوج بشاب صغير قد كان يمكن ان يكون لحد أطفالك وانت عجوز » .

فقلت جنونها طعماً ففوت بهذه العبارة ولم تستطع ضبط نفسها فمررت برقعها ورفعت يديها لا اقرى ماذا كنت تريد ان تفعله لو لم يدخل القوامس ويجلبها عن القرية بالقوة وهو يحترها من الفضيحة التى تجلبها على نفسها بما لها هذه . وفى اليوم التالى سافر الزوج وهى فى غم شديد .

وبعد سنوات لقيت هذا الزوج وكان قد تزوج ابنة حمه فشكر لى منيعى وتخليصى له من مخالف تلك العجوز . ولكن فى

ذلك الوقت أباً سعيداً له أولاد عدة . وليس لي حاجة بأن اتول  
بأني نمت تلك الليلة مرتاحاً لهذا الصنيع الذي لم يكلفني شيئاً .

وبعد ذلك بيومين برحنا لم شنجه وبقنا في جبل الحلة فاستقبلنا  
هناك حسن بك أم كادوك شيخ قبيلة برني وكان على ولاء كبير  
للحكومة وقد منحه خوردون رتبة بك . وكان رجلاً كهلاً سمياً جداً  
عريض المنكبين ووجهه مستدير دائم الابتسام وقد يمكن أن نسميه  
« بولسطف السودان » جرياً على فكبير الذي سمي أكبر  
شخص مضحك في دراماته « بولسطف » فأننا بعد مفاوضات عندها  
انقلبنا الأحوال وصار التسلة مهبطاً سرناً. أنا وهو يلورين عند  
التظيفة وكان مزاجه البهيج هذا كثيراً ما يخلف عنا أعباء جيلنا  
التي كنا لا نتحملها أحياناً وكان أخوه أسماهيل على النقيض منه  
رجلاً طويلاً نحيفاً يميل إلى الجد . ولم يكن يتفق هذان الإخوان  
في شيء إلا في مسألة واحدة هي حب المريسة ( الجمعة السودانية )  
والتهلك على شريها . وكان لكل منهما أناء يدمى أنه بلبل توضح  
فيه هذه المريسة فيسلبقان أيها يفرغ أناءه قبل الآخر .

وقد دعواتنا إلى العشاء معهما وقبوى لنا خروف كللر على  
نحم الخشب يصخره عدة من الدجاج المشوي وطبق من المصيدة  
التي تؤكل في كل وجبة في السودان . وكان أيضاً على المائدة عدة  
آنية من المريسة . وقد طاب لنا الطعام فملكنا وفرحنا المريسة  
لهمنا وشربنا نحن شيئاً مما صنعنا من النبيذ الأحمر . وقد شرب  
حسن وأسماهيل كلاهما من النبيذ والمريسة ما شاءا وكان إثر الضر  
في الأول عندما صدمته حياهما أن جعلته يتدفق في الحديث لها الثاني  
فقد انعقد لساقه وصمت . وكان حسن يروي لنا بعض ما يحرره  
عن خوردون وقد أكلنا وجبن عندها عرف بسفره إلى الصينة .

وقال لي بلهجة الخزن : « قد لا يرجع غوردون من الحبشة وقد يسافر الى بلاده بلا نراه فللياً » ومن الغريب أن قوله هذه كان فيها شيء من الصحة . ثم ترك الغرفة وعاد بعد برهة ومعه سرج وسيف وهو يقول : « انتظر . هذا هو آخر ما أعطانيه غوردون لما رافقته الى الفلستر . ما اكتره واراقه » وعرض علينا اسماعيل سترة مطرزة بالذهب اهداها اليه غوردون . وقال حسن : « كان غوردون لا يعرف الكبر . في أحد الايام ونحن في الطريق الى الفلستر . صاد لحد الخدم طائراً فلما حططنا رحلتنا في الظهر وضع الطباخ قليلاً من الماء على النار حتى اذا غلى خمس فيه للطائر لكي ينزع ريشه . وراه غوردون يفعل ذلك فذهب اليه واخذ بمساعدة في نزع الريش فاحتفمت لنا اليه ورجوته ان يكفه من ذلك وانا لنقوم بدلا منه بهذا العمل » ولكنه قال لي : « وهل نطلبني لاجل من العمل ؟ اني تلعب على ان لخدم نفسي ولست في حاجة لان يقوم بخدمني في المطبخ رجل حائز لرتبة بك مثلك » .

ولم يكف حسن من مساهرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل وقد حكى لنا عن تجاربه لما فتح الزبيب دارفور ثم ما تلا ذلك من الثورة الى حالتها الحاضرة وكان كثيراً ما يعود الى ذكر غوردون . وما قاله : « كنت مرة مسافراً مع غوردون لبرخت وجاء غوردون يعودني في خيمتي . وبينما هو يحفني قلت له اني كنت متخفياً في الشراب وان وعكبي الحاضرة لم تحدث لي الا لانتقامي منه عند ايام . وكان قولي هذا هو الصيغة غير المباشرة التي اريتها منها ان يحفني غوردون شيئاً من الشراب . ولكن ساء مالي فلن غوردون ويخني وعفني وقال لي : « انت مسلم وديانتك تحرم تناول الخمر . اني في غلبة الدمشة . اطلع عن هذه العادة بكل منا يجب ان يطيع اوامر دينه » نظلت له : « لقد اعتدت الشراب طويلاً حياتي فلذا انتقمك منه الآن فلني امري ولكني سأعتدل في

المستقبل ، فبالت أمارات الرضا على وجه غورديون وهز يدي مسلماً وودعني وخرج وفي صباح اليوم التالي أرسل لي ثلاث رجالات من الكونيك وأوصلني بالامتدال في شربه .

وكان أخو حسن سليماً لا يئس بكلمة وكان مرتفعاً بهلاً كوياء وراء آخر من المريسة ويشربه بجد ووقار ونظام كأنه نظام بمساعة ولما انتهت من الشراب وقف في روية وثقة وحسب شاربويه وقال بلهجة الحزين : « نعم . نعم . الكونيك شراب طيب وهو ليس خيراً بل دواء وغورديون رجل عظيم بار ولن نراه ثانياً » .

ودعينا إلى الفراش في ساعة متأخرة ولربنا قبل نومنا إن نعد العواب للقيام في الفجر فلم نلم إلا وقتاً قصيراً . ولما استيقظنا وأرنا الركوب لنا والدكتور زربوذين نظرتنا حوالينا نبحت من أهل البيت لكي نودعهم قبل سيرنا . ونحن في ذلك وإذا بامساعيل يصر إلينا ويأمره يميل من أثر الشراب السابق وقال لنا : « أيها السادة اتقوا سمعنا على الدوام بأن بلاككم عدل وأنا والثق بأن الضيف هناك لا يسهو إلى رب البيت . وأمن عندما أمرتم الدواب التي تحبل أمتعتكم بالمسر سرق رجالكم السجادة التي وضعتها لكم لتقعدوا عليها » .

نبحت وتكلمت بأن أحد رجالى قد سرق هذه السجادة الثينة وأرسلت وراء الجبال قواماً لكي يدرك هذا اللص ويحضره وتمدت أنتظر ، وبعد مدة جاء القوام ومعه المسجادة ووراءه عسكريان من المومس اللثمانية الذين كانوا في مصيقتنا ولما استجوبنا هذا العسكري قال أنه حملها خطأ ولكنني لتلكدي من جريمته لمرت بجلطيه وأرسلته مسجينا إلى أم شنيجه . وقد تمكر مزاجي لهذه الحادثة لاني كنته أحمى أن اللص هذا يحكون على الأسجاد بما

يعود من القمم وكنت وأنتا يأتى إذا لم احلب هذا الخلق فلان  
مثل هذه السرقات مستكررة في المستقبل .

واعترفنا الى حصن واخيه ثم شرعنا في السمر الى الفلشر  
التي بلغناها بعد خمسة ايام ومررنا في طريقنا على برونس وارجود .

وقد كتبت الفلشر طول مدة القرن الماضي عاصمة دارفور وهي  
مبنية على تارتيج او رابيتين واحدة في الشمال واخرى في الجنوب  
وفصلها واد عرضه نحو ٤٠٠ ياردة يدعى وادي تندلى . وفي  
الغرب قلعة على تل حولها حائط من الطوب النيبى عرضه ثلاثة  
اقدام وحول الحائط خندق مبعه ١٥ قدماً . وكان في الاركان اربعة  
ابراج وبها مدايح تطلق فتابلها من فتحات صغيرة .

وكان هذا الحائط يحوى على مبلى الحكومة ومسكن  
الضباط ولجنة الجنود وكان الخيالة غير النظميين يسكنون خارجة .  
وكان سكان القلعة يستولون الماء من ابار في الوادي تبعد عنهم بنحو  
خمسین ياردة .

وكان مستجاليه بك وهو رجل ايطالى حاكماً على الفلشر وقد  
الاتى باليفر وخمس لنا امكنة في مبلى الحكومة وكنا قد اسبنا  
بعض من مسيرنا في الاطراف فقرر رأينا على ان نرتاح بضعة ايام .

وبعد ان اسفرحنا استأنفنا السمراتنا والدكتور زربوخين الى  
داره ورافقتا على سبيل التشييع بمنديجاليهيك واخبرنا ان زوجته  
مستحضر الى الخرطوم ولأنه قد طلب اجازة لكي يسافر ويستقبلها  
فيها ثم يحضر واپامنا الى الفلشر لما تزوجت عليه ان ينتظر حتى تنتهى  
مسألة الصلحان مزون . ثم يحضر وزوجته بعد ذلك ولكنه اجابني  
بأنه ليس هناك بقل خوف وان في البلاد جيوفد كافية لتتبع اى



حركة . ولكنى كنت متبعت بأن نفوذ هرون عظيم وأن هناك خوفاً  
على جنود الحكومة من شغبه عليهم . ولما كنت حديث العهد  
بالمجرى إلى السودان وقليل الخبرة بأحواله لم أدر على أن أعطي  
رأياً باتاً في الموضوع فودعته هو وسعيد بك جمعة الحكمدار وسرنا  
إلى داره من طريق كريت ورئيس الغيل وشعرية .

وكان لزيورخين هيئة تدل على أنه أكبر منى مناً وكنت له  
لحبة طويلة سوداء وكان يضع على عينيه نظارة سوداء لما أنا  
مكثت هيئتي تدل على أنى أكل عمراً بن الحقيقة علم يكن شارب  
هدئت الا قليلا وكانت لى سحنة الصبيان فكنا لا نسير فى أى مكان  
حتى يظنه الناس أنه هو الحاكم والطبيب أو الصيدلى . ولما قرينا  
غلبة سفرنا كان الدكتور زيورخين مريضاً بالحصى ولذلك تلخر بدابته  
حتى ومضى وتبدأ حتى وصلت إلى شعرية قبله . وشعرية هذه  
على سفر يوم من داره . وكان أهل القرية يعتمدون لاستقبالنا  
فكسوا المنزل ووضعوا الحصر ووضع القلنس والشيخ سجداً  
لكنى يستريح الحاكم القلنس . وبرك جللى وتزلت عنه ولما سالونى  
عن شخصي قلت اننى احد حرس الحاكم والخبرت من مصر من  
الحرس بالا يقولوا شيئاً . وأخذ القرويون يسألوننى عن الحاكم  
الجديد فقلت لهم : « إنظنه سيجتهد بأن يعمل ما فى جهده وأنه يعمل  
للعدل والتسامح » .

فقال واحد منهم : « ولكن هل هو شجاع طيب القلب » وكان  
هذا السؤال تصعب الاجابة عليه . فقلت : « يبدو عليه كاتبه  
لا يخاف ولكنى لم اسمع شيئاً عن شجاعته . وأظن أنه طيب القلب  
ولكنه بطبيعة الحال لا يمكنه أن يرضى كل أحد » .

فقال آخر : « لو كان لنا حاكم مثل غوردون بلاشاً لرضى كل  
واحد وامنت البلاد . بأنه لم يتوقف قط عن الاعطاء على الفلن

والطائفهم وما جاده فقير قط وعاد خائباً ولم أسمعهم يتكلم بعضهم  
 إلا مرة واحدة وذلك حين كان سليمان زير في داره فأتته الفتى إلى  
 القاضي وقال أن بين السودانيين من لا يستحق أن يعمل بالرقعة  
 به . فقال القاضي : « أجل سمعته يقول ذلك ولكنه كان يشر  
 بقوله هذا إلى الجلالة وتجار النيل الذين كانوا يشتركون مع الزير  
 وأبته في جميع التجارات غير الشرعية التي كانوا يتكسبون منها » .

وقال شيخ القرية واسمه مسلم ولد كباشي : « غوردون  
 بطل . فقد كنت أنا أقستل معه في القفال مع عرب بيته والخوابير  
 في سهل مائه في يوم شديد الحر . وتقدم العدو وأنزلنا من الخط  
 الأول وكانت الحراب تلح علينا كثيفة من كل جانب ورأيت حرية  
 تلح على اليد شمرة من غوردون فما بلى ولم نزل التصر إلا لبقاه  
 هو واحتياطيه المؤلف من مائة رجل . ولما كنت الممة على اتحدنا  
 أخرج سيجارة وأسطعها . انى ما رأيت شيئاً قط في حياتى مثل هذا  
 وفي اليوم التالى عندما شرع في توزيع الخنثام لم يحب من ذله  
 أحد . ولم يحفظ لنفسه شيئاً وكان رفيقاً بالنساء والأطفال ولم يأت  
 يسبيهم كما هي عادتنا في الحرب بل كان يطعمهم ويكسوهم على  
 نفقته أو كان يردهم إلى منازلهم عند انتهاء الحرب . وفي أحد  
 الأيام سبينا عدة نساء بدون عليه وحجرناهن ولو علم بعملنا لرأينا  
 منه اللول » .

وبعد سكوت سألت عن الأحوال في داره وصفت الموظفين  
 لأنى كنت سمعت أنهم لا يوثق بهم ولهم لا ينتظرون بعين الرضا  
 إلى مجيئى .

وهنا وصل الدكتور زريوخين وسافر القفلة لوقف للخبز  
 والقلى وأموال القرية في نصف دائرة لاستقباله . لبا أنا بعد

فصحت جانباً واخضعت . واخضعت انصت لما يقول مسلم ولد كبلاني  
الذي بدأ يحيى الوالى الجديد ويصف له نرحه يقنونه وكسلان  
زرووخين لا يعرف من العربية الا القليل فارتبك اشد الارتباك اهذه  
التحية .

وقال لهم : « الحقيقة لئننى لست بالحكم . انا مفتش المحمة  
ولا بد أن الحكم قد وصل قبلى ولكن بالنسبة لأن الرجال الذين  
معهم قليلون ربما لم يحسبه أحد لذلك أنه هو الحكم » فتعجبت انا  
عندئذ وشكرت للترويين وأنا اضحك لظنهم وحسن استقبالهم  
واكتت لهم يانى ساعيل جهدى لكى ارضيهم وانى ينتظر منهم ان  
يعلموننى على انقاذ الاوامر . ولخذوا بالطبع يعترفون الى عن  
خطئهم ولكنى وضعت لهم انه ليس هناك ما يدعو الى هذا  
الاعتذار وقتلت لهم انى ارجب في ان تكون علاقتى بهم بمثابة حمية  
وانى ارجو ان تكون هذه رغبتهم ايضاً . ومن هذا الوقت صار  
مسلم ولد كبلاني من اهل استقلى ويتى كذلك في اوقات الفرح  
والحزن على السواء حتى برحت البلاد .

وقد هاجت هذه العادة الصغيرة شهوتنا للطعام وتمدنا  
وتناولنا طعاماً فاحراً من الضان المشوى ولما انتهينا امطينا الدواب  
واسترحنا في الليل تحت شجرة على مسير ساعدين من داره .  
وعند شروق الشمس ارسلت رسولا لكى يخبر بقوتنا ولما صرنا في  
ارياض المدينة خرجت الحامية واصطفت واستقبلنا استقبالاً  
عسكرياً وأطلقت سبع قنابل اكراماً لنا وكان معها حسن حبلنى  
الحكمدار ولوجال بك نائب الحكم والقاضى وبعض اعيان التجار  
وذهبنا جميعاً الى القلعة حيث دار الحكومة وقضينا نصف ساعة  
في التفتيش ثم ذهبنا الى مسكنى وأمرت بتهيئة بعض الغرف للكثير  
زرووخين في مسكنى لآتى اردت ان يقول عندى ضيفاً بضمة  
لهم .

وما كنا ننتهي من العشاء حتى سمعت ضوضاء بين الضم  
الذين كانوا يداومون رجلين من الخول اليها . وكان هذان الرجلان  
رسولين بحلان خطبا بن أحمد قاطنج وجبر الله وهما الرئيسان  
للحامية غير النظامية في بير جوى وهى على مسيرة ثلاثة أيام في  
الجنوب الغربى من داره . وقد قال فى الخطاب انهما علما ان  
السلطان هرون متغير عليهما وانهما بالنسبة لقلة عدد الحامية قد  
قرروا اخلاء مكلاتهما بما لم تكن امدادات من الحكومة وقالوا ايضا  
انهما اذا تركا مركزهما فان جميع القرى ستذهب .

ولم يكن ثم متسع من الوقت لتأجيل ماشرت حسن ابندى رغبى  
بان يعد مائتى جندي نظلى وعشرين فارسا للقيام فى الحال معى  
الى جوى .

وما انصف الليل حتى كان قد اعد كل شيء وودعت المكور  
زربوخين وقلت له الاول ان لراه بعد اربعة ايام او خمسة وخرجت  
متوجها نحو الجنوب الغربى .

وكتبت شيئا قويا فى المصايق الى الحرب وانى أفكر الآن مقدار  
فرحى الشديد للقائد السلطان هرون ومنجزته . ولم يخطر ببالى  
شيء من المصايق وانما كل ما كنت مشتتاً اليه انى كنت ارجو فى  
ان ابين لجنودى انى قادر على قيادتهم . وفى الصباح حططنا رجلا  
وكان جميع الجنود زنجياً حتى حبلطهم . اما الجنود الراكبة  
فكانوا من الاتراك والمصريين وخطبتهم جميعاً قلت لهم انى الآن  
غريب عليهم ولكن عليهم ان يعرفوا انى يستمد لأن اشاركهم مشلتهم  
فى كل وقت وانى ارجو ان يكونوا متمكنين حماسة وأن نسرع للقائه  
العدو . وكانت خطبتى بسيطة ولكن كان لها وقع فى نفوس الجنود  
وعندما انتهيت منها رفعوا اسلحتهم فى الهواء فوق رؤوسهم عليهم  
الطريقة السودانية وصاحوا بانهم لن ينفثوا عن الظفر او الموت .

وفي الظهر حططنا قرب قرية فاضت لراغب رجالي والحصم  
وكتفوا كلهم على اربعة ومعهم خيرة كافيّة . وكان مع كل جندي  
نارية من جلد المعز او الخزال واسمها سن ( وجميعها مستن )  
ولكن لم يكن معهم طعام . ولما سالت من سبب ذلك قيل لي :  
« اينما ذهبت في دارفور تجد الطعام » فذهبت الى شيخ القرية  
وطلبت منه تقديم كمية من الدخن . وكانوا يلقمون الدخن في الماء ثم  
ينسرونها ويمزجونه بالتمر الهندي ثم يكلونه . اما العسكرة فكانوا  
يفربونها وكانت مزارتها تطلق النار . والغالب ان الاوروبيين  
لا يستطيعون هضم هذا الطعام ولكنه مضججاً والجنود  
السودانيون لا ياكلون تقريباً شيئاً غيره وهم سائرهم الى القتال .  
وقد اعتدت لقوله بالتدريج ولكن وجدت انه اذا لم يكن الاسلح  
في صحة ثلثة ثلثة يعطيه سوء هضم شديد . ولحضر لنا شيخ  
القرية الدخن معه مصيدة وضعت على الرجال . وبينما هم  
ياكلون دعوت الضابط لان ياخذوا شطراً من اللحم المخلوط بالطح  
الذي كان معي فلففوه واستطبعوه فقلين انه افضل من الدخن  
والمصيدة وبعد ذلك طلبت من الكاتب ان يكتب لشيخ القرية صكا  
بمقدار ما تسلمناه منه من الدخن لكي يحط ثمنه من مقدار ما يدفعه  
لجانب الضرائب . ولكن هذا للرجل رغب فاكلا : ان طعام الجنود  
ليس فقط من واجباته بل ان اصول الفيلة والكرم تقتضيه .  
فقلت له : اني اعرف ان اعلى دارفور اسقياء ولكني لجد ان طعام  
٢٠٠ نفس يمدو جنود السقاء وانه لذلك يجب عليه ان يتسلم  
ثمن طعامه : فرفض اخيراً والمان الى جنيتي وقال : انه لم يبار  
الجنود على هذا المبدأ لسر السكان ولكن لسوء الحظ قد اعتاد  
الجنود اقتحام المنازل واخذ ما فيها حتى ان الاهالي صاروا  
يخشونهم ومنما ينزلون قراهم يجتهدون في اخفاء ما عندهم .  
فشكرت للشيخ قوله هذا ووجدته بانى سألح هذه الحالة : .

وعند غروب الشمس وصلنا الى بير جوى وكان بها حامية  
غير نظلية عندها ١٢ رجلا يقودهم أحمد قاطنج وجبر الله . وقد  
أخبراني ياتهما بمنا جواسيسهما لكي يعرفوا حركات البطلان  
هرون وأنها لا يظنان أنه قد نزل بعد من جبل مرة الى الوادي .  
وكنيت في غاية الامعاء وقد تملكتي الفعاس فذهبت الى خراشي لأتلم  
ولكن أفراد فرع الطبول أكراما لي وشريان رأسي منعني من  
النوم وفي الصباح شعرت أنني مريض . ولما جأني أحمد ورأى  
ما أنا فيه قال لي : « يمكننا معالجة هذا بإيمر سبيل » عندي  
رجل يوقف شريان الرأس في الحل وهو أفضل من الدكتور الذي  
في داره والحقيقة أنه ليس في داره دكتور وإنما هو سيدلي يقال له  
دكتور على سبيل التاديب والتجمل » .

قلت : « ولكن كيف يمكنه أن يعالجني ؟ » .

قال : « هذا شيء بسيط . يضع يديه على رأسك ثم يقول  
شيئا غيبرا بل تعود أحسن بما كنت قبل أن تمرض » .

قلت : « إذن أدعه الآن » .

وكنيت شلبا وجاهلا في تلك الأيام وخطر ببالي أن أحد هؤلاء  
العرب ربما قد زار أوروبا وعرف شيئا عن العلاج المغنطيسي وأنه  
قد أروى حياته لفائدة الناس وشعائهم . وأتى أعترف بأنني شعرت  
بشيء من التعلق لما علمه أحد لي . وبعد دقائق قليلة أدخل أحد  
الى غرفتي رجلا طويلا أسود له لحية بيضاء يظهر عليه أنه من  
مسكن بورنو وقال لي : « هذا هو الطبيب الذي سيصلوك من  
شربت الرأس » .

ولم يتردد الطبيب لحظة بل وضع يده على راسي وضغط  
 مدني بإبهامه ومبلمته ثم تمت جملة كلمات لم أنبها ويصق في  
 وجهي . نهبت واقفا لهذه الفتحة وضربته ضربة القشة على  
 الأرض . ولكن أهد واقفا بجانب مكثا على مكثته فرجساتي  
 الا انظر للمسألة هذه النظرة وقال لي : « ليس بصعقة علة ادب »  
 بل هو جزء من العلاج وستستفيد منه « ولكن الطبيب المسكين  
 الذي زابله نكته بتلمسه وقف بعيدا عني وقال لا وجع الراس من  
 الشيطان ويلزمي ان أطرده . وفي القرآن آيات تدل على امكان  
 طرده بالنفث وينفذ يقف عمله السيئ في رأسك » .

ولم أتمالك من الضمك على الرغم من مضايقتي وقالت :  
 « ولما اذن على عذرتي وعلى كل حال أرجو ان يكون ممرقا مسفرا  
 وأن تكون قد نجحت في طرده » ولم اسمح له بإعادة الرقية واعطيته  
 رايلا وامرته بالخروج . فخرج وهو يدعو لراسي بالشفاء ولكن  
 بقي على الرغم من هذا الدماء يولني .

ولم تلتني الى هذا الوقت اخبار عن هرون فبقيت طول اليوم  
 في فراشي وذات راس صديقاي قاطنج وجبر الله عدة مرات . والله عرض  
 على ثولهما جواده فرفضت قبوله . اما التالي فقد عرض على  
 لحدى ضمه وقال لي : « انها سفيرة جميلة وقد تربت تربية حسنة  
 في منزلي . وهي تعرف الطبخ واعمال البيت وتفهم في الأبراهيم »  
 فرفضت قبولها أيضا وتركني جبر الله وهو مكسور الخاطر لاني  
 لم أقبل حديثه . ولكني كنت مضطرا الى هذا العرض لاني بعد  
 ان جريت رقية الطبيب لم اكن شديد الرغبة في ان اسلم نفسي  
 لارام كنسة سودانية مهما كانت براعتها .

وفي صباح اليوم التالي استيقظت وقد عادت الى عائلتي  
 ولما لفتني احمد وأخبرته بأنني تمليت قل لي مورا : « أنا كنت

محققاً من أنك ستشفى لأن ميسى ( الطبيب ) لم يمسح يده على  
أحد، إلا شفاه ٤ .

ومضى يوم آخر بدون أن يأتينا خبر عن هرون . وفى اليوم  
التالى جمع الينا حولى الظهر أحد رسل جبرائيل وقال لنا أن  
هرون قد جمع رجاله ولكنه لم ينزل بعد من اللال الذى اتخذها  
محرأ له وقت الصيف . وفى الرابع ( من وصولنا لبيرو جوى ) جاءنا  
رسول آخر وقال أن هرون لما بلغه لى تركت داره وجمعت الى بير  
جوى لمقلته سرح رجاله الذين ذهبوا الى جبل مرة .

فلما اسقط فى يدي وذهب املى فى القتل عدت الى داره  
وكان الدكتور زريوخين قد برحها وترك لى خطيباً يقول لى فيه  
انه يرجو لى النجاح . ووجدت أيضاً الكاهن الذى صحبتى منذ ان  
كنت مفتشاً مالياً وجاء ملى الى داره قد جن مدة غيبه ووضعوه  
فى منزل بجوار منزلى فلما ذهبت اليه لى اراه وقد وعاتقنى وهو  
يسبح : « الحمد لله » . لم يفعل السلطان هرون شيئاً لك . زوجل  
بك رجل خائن احترس منه . لقد ابرت ببقاد النار فى القاطرة  
لكى يحطك القطار الى أوروبا حيث تتمكن من رؤية اهلك وسأذهب  
معك . ولكن يجب الحذر من زوجل بك فإنه وقد سليل » .

وكان ظاهراً أنه قد فقد عقله ولكن المجانين أحياناً يقولون  
الحق . فاخذت فى تهدئته حتى رقد وسمح صبر القاطرة ولوهمته  
لنى معه فى القطار ثم تركته لعمالية الضم وخرجت . وبعد خمسة  
أيام مات هذا المسكين وأظن أن سبب موته انفجار عرقى فى دماغه .

وشرعت أنا فى تغيير أمور مديرية داره وبعد شهر تسلمت  
خطيباً من مسجاليه بك يقول لى فيه ( وكان مكتوباً بالفرنسية )



انه قد علم على ان ينتهي من هرون ولذلك هو يلزمى بان اخرج  
سراً من طريق موالفى وحية بقسم من الجنود النظامية وادجه نحو  
جبل مرة وأغمر على نيورته حيث مقام السلطان هرون . وقال لى  
انه قد أرسل قوة من الفلكر عن طريق طرة وقوة أخرى من القل  
عن طريق ابي حرز وسيلتقى الجميع فى مكان واحد ويعلمون مما  
فى مقابلة هرون .

تأخمت للأمر وغارت داره ومضى ٢٢٠ جندياً نظامياً و ٦٠  
من البازنجر وسرنا حتى بلغنا نيورته حيث السلطان هرون فى  
جبل مرة فوجدناه قد جلا عنها وفى صباح اليوم التالى خرجت  
بفصيلة من الجنود أبصت من هرون ولكننا لم نذهب بمهبطاً حتى  
سمعنا عيترات نارية تطلق بمسرة من ناحية نيورته فركضت  
جواذى راجعا فوجدت الجنود الذين تركتهم قد اشبكوا فى قتال مع  
قوة أخرى معادية فالتزمت حالا انها إحدى القوات التى أرسلت  
لمساعدتى من الفلكر ولكننا لم نصل فى الوقت المعين لها . فلما  
وصلت الى نيورته ووجدت قوة مرابطة تحتلها أطلقت عليها النار  
وهى تصيها انها تابعة لجيش السلطان هرون . وقد تكلفت مشقة  
كبيرة فى وقف إطلاق النار التى قتل بسببها سبعة وجرح أحد  
عشر وجر عيلر فى ملابسى واصيب جواذى بمبارين .

ويعتقد فى نيورته عشرة ايام ولما لم يكن فى مقدورنا ان نحصل  
على أخبار صحيحة عن هرون قررت العودة . وكنا نحن فى عودتنا  
نمر على مدة ترى فتلقيناها لأن أهلها لم يكونوا ينتظرون مجيئنا من  
الغرب . وكان السلطان هرون قد جند معظم الرجال . أما الباقون  
فقد فروا الى اللال . ولكن رجالى تمكنوا من القبض على نحو  
ثلاثين امرأة من معنا مدة قصيرة . وقد توجه أهلنا إحدى  
القرى بنا فلم يتمكنوا من الهرب ولما رأيت ان جميعهم من النساء

أمرت الجنود بالوقوف حتى اتبع لهم الفرصة للفرار ثم أمرت الجنود أيضاً بأن يسروا سداً واحداً حتى لا يفرقوا في القرى ويمكنوا فيها .

ومما حدث أن أما مسكينة كانت تحاول الهرب فبأغشائها فمرت تلركة وراءها طفلين على صخرة وأخذت هي تعدو كالخزال على سدة الجبل . فذهبت إلى حيث الطفلين فوجدتهما عاريين ليس عليهما شئ سوى عقد من المرجان حول عنقيهما وخزام من المرجان أيضاً حول وسطيهما . وكان كلاهما أسود كالخراب والأرجح أنهما كذا توأمين يبلغ عمر كل منهما ١٨ شهراً . فنزلت من الجنود وذهبت إليهما فآخذا في الصراخ وكل منهما يمسك بالآخر فحبلتهما وأمرت خادمتي بأن يحضر قليلاً من السكر . فسكنا في الحال وحسرا يبتسمان خلال الدموع ويقرضان السكر الذي كان في الأرجح أعلى ما ذاقاه مدة حياتهما الصخرة الملعينة . وكان عندي منديل جبر لحملها على الدول معي لكي أتمكن من هدايتها فلففت كلا منهما في منديل ووضعتهما على الصخرة كما كنا ومرت بعيداً عنهما . ونظرت إليهما بعد مدة فراكيت أنسناً هو لهما يزحف على الصخر إليهما . فلما يلتقيهما حلتتهما ودغدغتهما بعد أن كانت قد يشمت من حياتهما . وأخذت هذين الولدين في لباسهما الجديد وعلى شفتيهما أثر السكر الحلو .

وبعد أيام ونحن لم نبلغ بعد داره جاعتي الأخبار بأنه في مدة غيابي من هذه البلدة أغار عليها هرون وانتهبها وفرثانياً إلى التلال ومعه الغنائم والسيايا المبيدة . فأخذت أدلاء من القرى المجاورة وخرجت لتعقبه ولما أن صرنا على مسافة سبعة يومين في الجنوب الشرقي من القلعة لقيت جنوده الذين لم يتوهموا مجيئنا .

وقد وقعت للاقتراب منهم بدون أن يروى ثم جعلنا عليهم حتى  
مرافقاهم هر مزيق واستولينا على مقادير كبيرة من الأسلحة وأفرجنا  
عن السبيلوا اللواتي كن في حوزتهم . وقتل جواد هرون ولكن هرون  
نفسه مع بضعة من أتباعه تمكنوا من الهرب وبعد أيام قليلة انتهزوا  
ألم جيوش لطل التي كان يتودها نور أنجره وقتل هرون وبقتله  
عاد السلام إلى البلاد وانتهت الثورة .

ولما عدت إلى داره وانأتى خطيب من جسي باشا من بحر  
الغزال يقول فيه أن الدكتور فلكن والعيسى ولسون مبعوث  
الرسالة الكتبية الإنجليزية في طريقهما من أوغندا إلى الخرطوم  
عن طريق داره ومعهما وفد من الملك متيسا إلى جلالة ملك انجلترا .  
ورجأتى جسي أن أقيم لهما جميع المساعدات التي في مقدورى وقال  
إنها قد شرما في السفر إلى داره في اليوم الذى كتب فيه هذا  
الخطيب . وقد وصلا إلى داره بعد ذلك بإيام قليلة وتمتعت  
بصحتهما مدة وجودهما ملدى .

وقد أخبرأتى عن أشياء مهمة لما أنا لقد حكيت لهما من آخر  
الأنباء الأوروبية وهى وإن كنت قد مضى عليها أشهر قد كانت  
مع ذلك جديدة عندهما .

وفى الصباح سمعت أن رجال وفد الملك متيسا لما راوا الجمال  
أول مرة خلفوا منها وغروا . فطقت للدكتور فلكن : « بما أنك  
ستضطر إلى التمام سفرك على ظهر الجمال فمن الصواب أن تعقد  
ركوب الجمال أنت ومن معك . فاحضر رجال الوفد حتى ندرهم  
على ركوبها » .

فذهب وأرسلت لنا في أحضر رجل من أحد التجار . وكان  
جملا سمينا ضخما وحضر رجال الوفد وآخرون غيرهم لما راوا

الجميل حتى طار صوابهم وفروا هائمين . ولم يوقنهم عن الاستمرار في المدعى سوى ثباتنا اذنا والدكتور فلنكن واضع لهم الدكتور فلنكن أن الجميل حيوان وديع صبور وانهم سيستأنفون السفر الى مصر علوه وليس فيه ما يدعو الى الضوب ولكنهم مع ذلك لم يقتضوا الا على حذر ووقنوا على مسافة منه لا يجسرون على لمسه وكان تمجيهم عظيماً عندما رلوا القواص يمتطيه ويمس به ويتيفه . واخيراً تطوع انجمهم لأن يركبه وساعتناه على صنبه وقام به الجميل وهو خائف ولكنه أخذ ينظر الى رفاقه من مكانه الصالحى ويوضح لهم سهولة ركوب الجمال وملاذه . والظاهر انه دعاهم الى ركوبه فقد برك الجميل وتكاثروا عليه جملة وارادوا جميعاً الركوب وحاول بعضهم أن يركب عنقه وتعلق آخرون بفتيه وتعلق نحو ستة منهم برجله ودهش الجميل لاول وهلة لهذا الازدحام حوله ثم تنبه وأخذ يضرب برأسه يميناً وشمالاً حتى نفخ جميع هؤلاء « الوجدنيين » منه وهب وقفا وهم يبعثرون حوله . وأظننى لم لضحك في حياتى قدر ما ضحكنا في هذه الفرصة . فقد ظن رعياً الملك مقيماً ( الوجدنيون ) أن الجميل جويل يتحمل اى عبء ويقوى على النهوض به ولبنوا مدة ذاهلين خائفين لا يقوون على الاقتراب منه ثانية . ولكن أخذوا بالتدريج يتعلمون ركوبه فبدأ واحد ثم آخر يقترب منه ويركبه حتى انه عندما جاء بمعدا سفرهم كانوا جميعاً يعرفون كيفية تيلاته .

وكان في منزلى عدة اولاد من الذين استخلصتهم من ايدى النخاسين ولما لم يكن للدكتور فلنكن خادم يخدمه فقد اقترحت عليه ان يأخذ معه احد هؤلاء الاولاد فقبل ذلك مسروراً وامطيته ضيقاً من الضمير يدعى كيسون وكان فكياً فعملم الدكتور على ان يربيه في أوروبا . وبعد سنتين ونصف سنة وانا بالغا فخر جاضى خطيب مكتوب بالانجليزية من كيسون هذا يشكرنى فيه لاني انقذته له

بالمصر مع الدكتور فلنكن الى « بلاد كل من فيها طوبى القلب رؤوفه »  
ويقول انه قد تنصر وانه اسعد الاولاد وارسل مع الخطاب صورته  
في ملابس افرنجية .

وجاء بهما د سفر صديتى وكنا فى القضايق اليه فركب الجميع  
جملهم وقلبوا الى الخرطوم من طريق طويشة .

وبعد مدة جئنى خطاب من مسجاليه بك يقول فيه انه  
سافر الى الخرطوم لكن يحضر زوجته ، ولكنه ما كاد يصل الى  
الخرطوم حتى نشب خلاف بينه وبين ولاة الأمور هناك فاستقال  
وعين بدلاً منه مديراً على دارفور على بك شريف الذى كان قبلاً  
مديراً على كردفان .

والربما من ختام سنة ١٨٧٩ أو فى أوائل سنة ١٨٨٠ تسلمت  
خطاباً مكتوباً بالفرنسية من غوردون كتبه منذ شهرين قبل وصوله  
الى خبره طليور فى الحبشة . وقد مزق الخطاب منذ سنين ولكنى  
التكر كلماته بالحرف تقريباً وهى :  
عزيزى سلاطين

لما انتهت مهمتى مع الملك يوحنا علمت على ان أرجع فى  
الطريق التى جئت منها . ولكنى ولنا بالجلاليت أدركنى رجال  
دائمون للرأس مدل واجبرونى على الرجوع وسياخلوننى محروساً  
الى كسلة ومنها الى مسوع . وقد لحقت جميع الأوراق التى  
يختص منها . وسيسقط فى يد الملك يوحنا عندما يعرف انه ليس  
رئيس بيته .

صديقك — غوردون



## الفصل الثالث

### حكومة دارفور

كانت سنة ١٨٨٠ سنة سلام وهدوء نسبين في داره . وكانت أهم أعماله إدارية فقد زدت تقريباً جميع القرى بنفسى وحرقت جميع القبائل المريبة القوية التي كانت على الدوام مشتبكة بعضها مع البعض في قتال متواصل أو موشكة على القتل وقد تمت عدة مرار بالصالح بينها .

ووجدت في ختام سنة ١٨٨٠ أن لدى عدة أشياء تستحق مراجعة الحاكم المعلم فطلبت الآن بالذهاب إلى الخرطوم لكي أقابل رؤوف باشا الذي سار حليماً عاماً بعد سفر غوردون وقد أحبيب طلبي فبرحت داره في سنة ١٨٨١ وتلفت الخرطوم بعد أسبوعين .

فذاك وجدت زروخين الذي رهب في واتزلاني بمنزله القريب من مكان الرسالة الكاثوليكية الرومانية وكان ملكاً للمرحوم لطيف دويونو وهو رجل ملطى كان نخاساً شهيراً .

وفي مدة إقامتي في الخرطوم كنت أحادث رؤوف باشا كثيراً عن أحوال دارفور والتحدث أنه يحسن عدلاً وانصافاً أن تغلف

الضرائب في الفاشر وفي كيبكيبه . وطلبت منه أيضا أن يأتني لي بأن  
 لجبر العرب على أن يعطوني كل علم عندها من المبيد لكي أبلأ بهم  
 للفراخ الذي يقع في الجيش بالأمراض والوقايات والمعدات .  
 وطلبت أيضا منه أن يأتني للمعرب بأن يدفعوا الضرائب مبيدا بدلا  
 من المواشي لاتي لأول بهذه الطريقة أن استرجع الى جيشنا جنود  
 ( البارتجر ) الذين كانوا ملتحقين بجيش سليمان زير وصلوا  
 الآن منفردين في التبتل وقلت ان معرفتهم بالاسلحة من أسباب  
 الخطر الدائمة للحكومة . فوافق رؤوف على جميع طلباتي واعطاني  
 صكا مكتوبا بذلك .

ولما كنت في الخرطوم جازني في يوم ما من يدعى حسن ولد  
 سعد النور وهو دارغوري وكان أبوه قد قتل مع وزير أحمد شحاته  
 في شقة . فوجداني أن اتصفح له لكي يعود الى دارغور لمقاييل رؤوف  
 باشا وطلبت ذلك منه عرضي . ولكنه بعد ايلم أرسل لي وقال انه  
 عند مغلي أمره وأنه لا يسمح بعودة هذا الرجل الى دارغور .  
 فقلت أن كل جنايته أنه اختاره في الثورة وقد فعل غيره ذلك وأنه  
 لا سبيل له الآن الى اوصول الأذى بالحكومة . ولكن رؤوف باشا  
 أبني أن يوافقني على رجوعه وشعرت أنا بالاهانة لاتي كنت وددت  
 هذا الرجل بأنه سيرجع فقلت لرؤوف باشا أنه بين الاثنين : أما رجوع  
 الرجل ولما قبول استعائتي وخرجت مضطرا لاستدعائتي بعد ذلك  
 بيومين وقال لي اني كنت مخطئا في وعد هذا الرجل بالرجوع فاقترعت  
 بخفي فقال لي انه سمح برجوعه وأنه يعتقد اني موظف عنيد  
 ولكي ذو كسبية ولذلك طلب من الخديو توليقي باشا ان يعينني  
 حاكما لدارغور وأن يمنحني لقب بك . ففكرته ولكنك لست له اني  
 سامعيل جهدي لكي احقق ثقته في .

ثم طلب مني رؤوف باشا ان اكتب له خطابا اتحمل فيه تبعة  
 بمسلكه نور في المستقبل . فكتب هذا الخطاب وأنا مسرور لاتي



شغرت أنه بعد كل ملتحمة من المشاق لأجل رجومه إلى وطنه  
مسيحين سلوكه وبقية ولاه وأمانته . ولما عدت إلى منزلي أرسلت  
في حضور نور وكان قد مضى عليه يومان وهو لا يدري ما تنهى  
إليه - نسأله فلما لقبرته بأنه قد آذن له بالرجوع إلى وطنه انكب  
على كدس واخذ يشكرني ويكثر من الدعاء لي . وشغرت بأنه رجل  
شريف يمكن الاعتماد عليه ولكني كنت وقتئذ لجهل لنى قد ضمت  
إلى جسدي ثعباناً .

وانتهت اجازتي بالخرطوم بسرعة بين الاستقاء الكثيرين .  
وقد وصل إلينا في أواخر يناير سنة ١٨٨١ الأستاذ كومبوني والأب  
أوهر ولدر والأب سخل وكانوا قد جاءوا من القاهرة . ووصل  
إليها أيضاً حسن باشا رئيس المالية ويوسفي وحامل القنصل  
وقد نزل أوهر ولدر ودخل في منزلي وكلم كل لنا من حديث معاً  
عن وطننا الحبيب .

وفي ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ وصل جسي باشا إلى الخرطوم  
وتبعته في غاية السوء . قد برح مشرى الرنى وركب النيل فاصدق  
إلى الخرطوم فنعجز السد مسبقته . والمد هو تلك التباخت التي  
نمو في النيل بكثرة بحيث يحتاج أحباً إلى قطعها بالقنوس لكي  
يشق طريقاً للسفينة ويبقى ثلاثة أشهر وهو يعالج اجتياز السد  
ولقى الأمرين من جوع وأمراض بين رجاله . ومات أكثر رجاله  
وصار بعضهم يأكل بعضاً للجوع . ثم انهجده أخيراً ملثروا في البأخرة  
بردين وحمله عليها إلى الخرطوم حيث عنيت به الراعبات . ولكن  
الصدمة التي نالت جسده كانت قد عدته فلم ينجح الدكتور زربوخين  
مع كل ما بذله في رد حالته إليه . ثم قررنا جميعاً أن يرسل إلى  
بصر ويقلنا كل مجهود لكي يفسر بالراحة والرباطية في سفره .  
وكان يرغب في أن يتخذ نفة خليفه المظا وكان خسياً . ولكن رؤوف

بأننا خضى أن نقول الأول عن ادارته في السودان بوجود هذا  
 الشخص مع جسي باشا فرفض أن يأتى له بمرافقته . ولكن الجاحى  
 والحاج زربوخين عليه جملاه يلين في النهاية ويسمع له بالمسافر  
 معه . وفي يوم ١١ مارس حملنا جسي الى ذهبية الحاكم العام حيث  
 سارت به الى بربر . ومن هناك حمل الى سواكن ونزل في البلخرة  
 التي نقلته الى السويس وكان قد تطلب عليه الضيف حتى لم يكن  
 يقوى على الحركة . ووصل الى السويس في ٢٨ مارس ونقل الى  
 المستشفى الفرنسي ولكنه مات بعد وصوله يومئذ .

ولم تكن الحال في هذه الاثناء على ما يرام في دارفور فقد كتب  
 الى زوجال بك يقول : ان عمر واد دارو قد سار سيرة سيئة في  
 ستة وسمعت خطابه هذا الى رؤوف باشا فامرسل اليه في الحال  
 تقرانا بأمره فيه بأن يسافر الى الفلار .

ولم يعد لى في الخرطوم ما يؤخرنى عن السفر فعزمت على  
 أن اتوم بأسرع ما يمكن لكي اتسلم أملى . ووضع رؤوف باشا  
 بلخرة تحت تصرفى لمركت الخرطوم في ٢٩ مارس ورافقتى الاستاذ  
 كويوتى والاب اوهرولدر الذى وعدته بأن أحمله على جملى الى  
 الأبيض . وقد شيعنا هتسل القنصل ومركو بولى بك وزربوخين  
 ومركيه الى طرة الحضرة حيث ودعناهم . ولم أفكر واتا أودعهم  
 أنتى لن الاتى منهم بعد ذلك سوى واحد وإن تقدر لى العودة الى  
 عاصمة السودان في ظروف غريبة . وبكت شيئا يملأى احسلى  
 بالركز الجديد الذى شغلته والتبعت العظيمة التى تحملتها بحماسة  
 وامل في المستقبل . ولكن الاكدار كتلت خفى هنا حظا آخر .

وبعد مسيرة خمسة أيام بلغنا الأبيض فبرحها الأسلاف ونام  
 بمسيلة في جبل نوية اما الاب اوهر ولدر فقد بقى مدة ثم سافر في  
 أعمال الرسالة الى دليخ في جنوبى كردفان . وبكت في الأبيض

بشعة أيام ثم تسلمت تلغرافاً لى أجوم الى لوجه فودعت صديقى  
ومرافقت اليها . وكان مقبلاً لى الا اربع صديقى الا بغيره فانه  
مات فى الخرطوم فى سنة ١٨٨١ .

لما التفتى اوهر ولدر فقد حكم علينا القدر بان يضى كل منا  
بمحن عديدة قبل أن نلتقى أسيرين عند المهدي الذى كان يوصى  
أن يطلب ويهتد كل نظيم او حكومة فى السودان :

ولما برحنا الأبيض غفقتا النير حتى وصلنا داره ونهنا الى  
الفاخر حيث بلغتها فى ٢٠ ابريل . ووجدت الاحوال الادارية قد  
بلغت درجة عظيمة من الارتباك والفوضى فقصيت بشعة اشهر  
وانا لجدد فى ايجاد شبه نظام فيها ونجست فى ذلك بعد ان جلت  
فى انحاء المديرية وباهرت عدة امثال بنسى وكهر وجسالى فى  
الاصلاح .

ولم لكن قد رايت بعد الجزء الشمالى الغربى من المديرية  
تطالت بأخبار القتال بين حرب البادية وحرب المهرية وعولت على  
زيارة هذا الجزء . وفى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ برحت  
الفاخر ومعى ٢٠٠ من الجنود المشاة وبعض الخيالة غير التنظيميين  
وكان يقودها مير واد مروه .

وبعد مغادرتنا الفاخر حططنا رحالنا للمبيت قرب آبار منسوب  
وهى تقع فى منتصف الطريق الى تبة فلما خيم الظلام خرجت لتلقى  
نحو الآبار وكنت ملابسى تشبه ملابىس الجنود فلم يكن من السهل  
معرفة شخصى وقمعت قريباً من الآبار أنظر الى النساء وهن  
يستكين . وجاء بعض الخيالة لى يستقوا خيولهم وطلبوا من النساء  
أن يعطينهم دلاء من . غرضت النساء وطقن لهم : « منلاً جرارنا  
لولا لم نعطيكم الدلاء » .

فقال أحد الجنود : « لكأنك تحكين علينا بالعقاب من الله .  
وهذا جزاء منح الحرية للبلاد . والله لو لم يكن سلاطين معنا  
لأخذناكن الآن وجراركن ملكاً لنا ، فاجبنه ثلاثاً » الله يطهر  
صبره . »

فرجعت وأنا في غاية السرور لأنى سمعت بأذى شهادة  
السودانيين بلديهم الى الأوروبيين الذين نجوهم من المظلم الذى  
كانت تنسم بها حكومة البلاد السابقة .

ولما برحنا كيكبية وصرنا على مسيرة نصف يوم منها اندركت  
رسل أرسلها الينا آدم عمر برسالة مكتوبة باللغة الفرنسية بعثها  
الى مركوبولى بك باسم الحاكم العام . وكنت قد أرسلت له بلا  
أنى توجه لم الى كيكبية من طريق القاهرة وهذا نصها :

« أغار درويش يدعى محمد أحمد بدون مسوغ على راشد بك  
وجنوده قريباً من حنير . وأباهه هو والجنود « الثورة خطرة جداً .  
أعمل اللازم فى مديرتك حتى لا ينضم الى هذا الدويش أى واحد  
من السلاطين » .

فكتب الرد فى الحال وهو : « وصلت الى الرسالة . وسأخذ  
الاجراءات اللازمة لاتخاذ لوامرك » .

وقد كنت سمعت قبل وصول هذه الرسالة الى بلدة ابن شيخا  
من مشايخ الدين قد ظهر وأخذ يتأوىء الحكومة ويحث الناس على  
العصيان . ولكن لما لم أسمع شيئاً منه من الحكومة بعنة رسمية  
استفتحت لن مسأله قد سمعت ولكن إبادة المدير راشد بك وجنوده

صارَت تبدو لى الآن فى غلبة الخطر ، والظاهر ان الحركة قد امتدت بمجاة ولكن من كان يمكنه وقتئذ التنبؤ بالنتائج الهائلة التى بلغتها فيما بعد هذه الحركة .

ولم يكن من الممكن الآن ان ارجع بعد ان شرعت فى السمر نحو حرب البادية وعرب المهوية بدون ان اثير القلق فى النفوس من طلة رجوعى فى نصف الطريق فعولت على ان اتهم هذه الجهة بفساد رجوعى .

ومن الغريب ان عرب البادية هؤلاء مع انهم محاطون من كل جانب بالمسلمين يكادون يؤمنون القبيلة الوحيدة التى لا تزال متعلقة بطادات الوثنية القديمة فى وسط افريقيا . لماذا سئل احد رؤسائهم ان يصرح بدينه قال : ( لا اله الا الله محمد رسول الله ) ولكنه لا يعرف شيئا غير هذه العبارة فهو يجهل القرآن ولا يتلى مع المسلمين .

وكانت عرب البادية يجتمع رجالها تحت شجرة كبيرة جدا من شجر الهجلك وقد غرقت ارضها بالزمل فينبئون على الله مجهول ما يريدون ويدعونه الى حمايتهم .

ولهم اعياد دينية تقع فى اوقات غير معينة فيسمعون الى النلال ويقفون على التمة التى يطلبونها بالجبر ثم ينبعون اضحياتهم ، وهم طوال الاجسام لهم هيئة شريفة ولونهم اسود شديد السواد ولكن اتوهم بديقة وانواهم متيرة وهم لذلك اشتهر بالعرب منهم بالزنج ، وشمالهم مشهورات بشعرهن الطويل النبط وبينهن جيلات يشبهن جيلات العرب . وهم يلبسون وزرة من جلود الحيوان ولكن البنساء والطبقة الغالية من الرجال يلبسون ملابس طويلة مصنوعة من قطن دارفور . وملابسهم غاية فى البساطة .

• فيهم لا يعرفون الجمع ولا يؤرمونه وانما يأخذون لب القرع  
الذي ينمو عندهم بكثرة وينعمونه في آنية مصنوعة من لحاء الشجر .  
ثم يقرصونه ويتركون اللب في الماء حتى يذهب عنه مرارته ثم  
يصلونه ويمزجونه بالبلح ثم يجففونه ويطحنونه طيحا خيرا مع  
اللحم فيكون طعما .

ولهم عادات غريبة في المراث . فلذا مات احدهم اجتمع  
لقربه وحملوه الى قبره في الجبل التي تقع عادة خارج الحلة أو  
القرية التي يعيشون فيها . فلذا دفن وقتوا مستمدين بتشار لهم  
القبور خاصة فينعون الى بيت الميت متسليقين فمن يلجئه جبل غيره  
غزو ربه أو قومه فيصير بذلك الوارث الوحيد لما ترك الرجل من  
مال ونساء ما عدا أم الموتي وله العقب متخذ في انما يتزوج النساء أو  
يسرنهن حسب حالته المالية فان عدد النساء يتوقف على غنى  
الرجل أو فقره .

ووصلنا أخيرا الى كلبو حيث اخبرني الزغاوة الكبير الشيخ  
صالح نفوسة بأن رؤساء عرب البادية سيحضرُونَ في القُد .  
وانتقلت معه على أن تكون شجرة الهجك مكان اللقاء والمفاوضة  
وان يكون ميعاد المفاوضة بعد ساعة من غروب الشمس ويكون  
هو ترجمانا بيني وبينهم . وامرت رجالي بنصب خيامهم على بعد  
نصف ميل من شجرة الهجك ثم سافرتهم في صباح اليوم التالي  
استعدادا للقاء رؤساء البادية الذين اخبرنا صالح المذكور بقدهم ،  
ورافقت مع ضباطي ومع السفوق عمر واد دارمو عتسسين على  
الجفود بلحى ملة ياردة ومعا الخدم وقولنا الى جانب الضيول .  
ثم ظهر لنا رؤساء البادية فلبسنا الينا معهم صالح واييهم مكتوبة  
الى صدورهم درؤوسهم منكم . وقد احضروا معهم ترجمانا  
فصلنا الحية بواسطة ثم امرت بنسط السجاد على الأرض

ودعوتهم الى الجلوس عليه . لما انا وخبيلتي بقدر طاعتنا عنلى  
الكراسى ثم تناولنا شيئاً من السكر والساء والمالح وشرعنا فى  
المناوذة .

وكان رجال البادية اربعة كلهم طويل شريف الهيئة ذو ملامح  
حسنة فى سن الكهولة وكفت ملايسهم جلابيب بيضاء اجضرها لهم  
صالح وكانوا يحصلون السيوف العربية المستقيمة وكانت اسلحتهم ؛  
جار النبى ويوش وممر وكركره ولكنى لست متاكفا بانهم لم يتخذوا  
هذه الاسماء العربية المطنطنة وقتياً للطرف الجاضر فقط . وكان  
التياعهم يلبسون بن ستن الى سيمين رجالا يلبسون للقصبان  
والجلود وقد يفتوا وراهم على يعد بنهم . وتجد صالح دنقومية  
قريباً من الشيوخ ومن المترجم .

وتكلم جار النبى مخاطبة المترجم قحلا « كرمى سلم » بقل  
المترجم : سلم يعنى انه مستعد للترجمة ثم شرع فى المناوذة  
قحلا

« نحن من قبيلة البادية وقد كان آبلونا ولجداونا وبنفسون  
الخراج لسلطان دارفور كل سنتين او ثلاث عنديا كان يرسل جباية  
لجميعه . وانتم الاتراك قد تغلبتم الآن على دارفور ولم تسألونا قط  
ان ندفع لكم خراجا . وانت ( لسلطين ) قد صرت حاكما للبلاد  
كما اخبرنا بذلك سديتنا ولخونا دنقومية ونحن نقر بطاعتنا لك  
وقد احضرنا معنا رمزا لهذه الطاعة عشرة خيول وعشرة جمال  
ولرسمين بقرة . فهل لك الآن ان تقرر قيمة الخراج المطلوب منا ؟ »

وصارت النوبة الى فى الكلام لبعد ان قلت « كرمى سلم »  
قلت انا انكركم على خضوعكم وساطلب خراجاً صغيراً ولكنى جئت

هنا لكن اطلب منكم ان تردوا الى المهرة بجمالهم التي سرقتموها  
وتردوا اليهم اسراهم الذين تحبينونهم الآن » .

فارتد جابر النبي هنيئة ثم قال : « منذ عهد آبلتنا ونحن في  
ثارات مع العرب المحيطين بنا فلماذا تظنناهم واسرنا منهم اسرى  
فمن حقنا ان نطلب لهداهم وكثيرا ما قبلنا قبلا فكذلك اسرى  
المهرة » .

فسالت الشيخ حسب الله عن صحة هذه الدعوى فاجاب  
بالاجاب . فسألته ثانيا هل كانت هذه العادة تجرى مدة سلاطين  
دارفور فقط او انها جرت ايضا بعد دخول دارفور في حكم الحكومة  
المصرية » .

فاجاب : « قبل ان تدخلوا البلاد. ومنذ سنتين غزت المهرة  
ببلادنا فحفظناهم فارتدوا هنا » .

فظهرت الى حسب الله ووجدت من عينيه ان الرجل يقول الحق  
فلقد « انه يكون ذلك » ولكنني لم اكن في ذلك الوقت لم احكم هذه البلاد .  
وانا اعرف انكم في تلك الايام كنتم تعملون ما كنتم تظنونونه صوابا  
ولست الوهم على ما كنت ولكني انا الآن الحاكم واطلب منكم السرير  
على رقبتي . فيجب اخذ ان تردوا الاسرى ولكن بما ان المهرة  
قد بدأوكم بالهجوم فانا نسمح لكم بان تحتفظوا بنصف الجمال برهانا  
على تسجاعتكم في رد غزوتهم » .

فخيم مسكوت طويل ثم اخذ الاربعة يتفاوضون معا . واخيرا  
اجاب جابر النبي بقوله : « سنطيع لمرأى . ولكن بما ان جميع الجمال  
يحتاج الى مدة طويلة لتفرقها في انحاء البلاد فلهذه من الأسهل علينا  
ان نرد الاسرى » .



قلت : « اذن التفتوا لما أقول وتنفوا هذه الاوامر بأسرع ما يمكنكم . ردوا الجمال وأما أمليكم من خراج هذا العلم لاني امرت ان من الصعب ان تنفوا الخراج وتردوا الجمال في وقت واحد » .

ورايانا ان هذه التسوية قد وافقتهم حتى صاروا يكتفون من الفخر والدعاء لطوليت منهم البقاء لصباح اليوم التالي . وقلت ان صالح سيمتني بكل حاجاتكم . ثم امتطينا خيولنا وامرت الجنود بان يطلقوا ثلاث طلقات . وقد ذهبوا عندما سكنت آذانهم لانهم لم يسمعوا إطلاق العيارات القلورية قبلا . ثم امرت صليحا بان يحضرهم لي في صباح اليوم الثاني وركضت جوادي الى مغرب خيلنا .

وتضيت طول النهار وأنا مشغول . البلب بشأن رجوعي الى الفاشر بدون ان يؤثر رجوعي في نجاحي . ولم يكن من المتيسر لي ان أبقى حتى أرى رد الأسرى وكنت أيضا قلقا بشأن ثوب الماء الذي أعطاه لنا المهرية وقد ويخت حسب الله لعدم ثقته بهذه المهمة .

ولما جاءوا في صباح اليوم التالي سألتهم هل أرسلوا الرسل لجميع الأسرى والجمال فأجابوني بأنني سألت لهم في لهجة التخييل اني لن أقدر على الانتظار لكي أرى تنفيذ أوامري بنفسى . فقال جابر الثاني : « نحن هنا يا مولاي لكي ننفذ أوامرك فبمكثك ان تسافر حين تشاء ونحن نسلم الأسرى والجمال الى دقنوسة وحسب الله » .

قلت : « عندي اقتراح آخر . عني لا أشك في إخلاصكم وولائكم ولكني أحب ان أزيد معرفتي بكم ولذلك أرى ان تصحبوني انتم ومن تريدون ان يرافقكم الى الفاشر وفي أثناء غيلكم تنتدبون من

رغبون في ندمه لكي يسلم الرجال والجمال لحسب الله الذي يسيتي  
 هنا مع دنقوسه . وعندما بلغني الاخبار وأنا بالناصر بأن مندوبيكم  
 قد فعلوا ذلك ارجوكم انا الى بلادكم مثقلين بالهدايا . انكم لم تزوروا  
 الناصر قبلا ولذلك رؤية عاصمة الحيرية وقوة الحكومة واني والى  
 بانكم متوافقون على اقتراحي هذا . وستسرون لما تشاهدونه  
 هناك حتى انكم متوافقون بعد ذلك دائما على كل ما اطلبه منكم  
 في المستقبل .

فقال صلح ان الاقتراح حسن ولكنه قد سبق ان رأى الناصر  
 ولذلك هو لا يرغب في زيارتها ثانيا . ورايت من وجوه الآخرين أنهم  
 يستحسنون الفكرة وبعد محادثات طويلة ولقوني على السحر معي .  
 وكانوا لهم بان سفرنا يتوقف على انتداب من يكون به لتسليم  
 الأسرى والجمال اخذوا يتشاورون بسرعة في انتداب عدد منهم لكي  
 يقوموا بهذا العمل ولما انتهوا بن ذلك زودهم بسعة رجال اخذتهم  
 واخبروني باستعدادهم للسفر . ولكنهم قبل ان يسافروا يطلبوا  
 مني ان يقسموا بمن الولاة موافقتهم على ذلك . وكان لاخذ هذه  
 الميعين حيلة فطلبها كما يلي :

احضروا سرج جواد ووضوه على الأرض ثم يشبهوا بوقته  
 قدرا محتوي على لحم خشبي متقد وخرقوا في السرج رمحا . ثم  
 تقدم شيخ بعد شيخ منهم ومار يتلو كل منهم كلمات ثم يقسم في  
 نهايتها اليمين التالية :

( لا تمنع ساقى هذا السرج وليطعننى هذا الرمح ولتاكلنى هذه  
 الكار اذا تكلمت بهذا العهد الذي اتعهد به امامه ) .

وبعد هذه اليمين المحروجة لم يكن ثم ما يريينى في ولاء هؤلاء  
 الناس او في شرفهم وأمرت بالشرع في السفر بعد الظهر وبرزنا

كانوا برفقة رؤساء البلدية وحاضيتهم وأمرت مسلحا وحسب الله بأن يخبراني عن تنفيذ الاتفاق وتسليم الرجال والجمال . وكنت راغباً في الوصول الى الفلشر بأسرع ما يمكن ولذا تركت رؤساء البلدية مع فرقة المشاة وأوصيت الضباط بالعناية بهم طول مدة سفرهم ثم اصطفت عمر واد دارهو وحرس الشايجية وأسرعنا في السفر الى الفلشر .

وكان أول ما سمعته من الأخبار عند وصولي وفاة أميليانى دانرنجر الذى كان في شقة . وقد كان قبلما يلمز القبة ولكنى كنت أرسلت اليه لكى يمثل الحكومة في جنوبى دارنور وكان يشكو من مرض القلب منذ سنوات ثم قضى عليه أخيراً . ولم ينهم الموظفون الذين حوله بسبب موته هذا المجلنى ولذلك استبهوا في أنه قد مات مسموماً محبوه على جبل وأرسلوه الى داره لمخصص الجنة الصيفى المقيم هنالك وقال أن الموت طيبى وبغئت الجنة في داره واقمت أنا نصبا من الحجر عليه تذكارا لهذا المواطن المسكين الذى لقي حتفه في هذه البلاد النائية .

ثم بلغنى أن في شقة قلائد قد جرت حديثا وانى محتاج لذلك للسفر الى داره والاطمئنة بها جملة أيام . وجاعتنا أيضا أخيرا مزجة عن الحلة في كردويلان والخرطوم ولكن كان المظنون في دوائر الحكومة أن الثورة ستقبع بالحلة العسكرية التى أرسلت لهذا الغرض وبعد أيام وصل رؤساء البلدية وقد أمرت بخية الناصر فيهم جميع جنود الحامية بالخروج والمرضى أمدهم وفي الليل أطلقنا جملة أسهم نارية اكراما لهم . وقد انتدبت المدير لكى يقوم بحراستهم وراحتهم ولكنى لسوء الحظ لم أتمكن من البقاء معهم طويلا . لما كانت الخوول تسريح حتى شرعت في السفر الى داره يصحبني عمر واد دارهو ومقاتل من الشايجية وانتدبت السيد بك جملة لكى يمثل الحكومة مدة غيبي .



## الفصل الرابع

### رواية الخليفة عن المهدي

ظهر لنا أن حركة الدراويش كانت خطيرة جداً . ولقد ولد هذا الرجل محمد أحمد قريباً من جزيرة أرغوا من عائلة فقيرة خاملة ولكن أفرادها كانوا يدعون أنهم من نسل النبي . ولكن هذه الدعوى لم يكن أحد يأبه لها وكان يعرف محمد أحمد هذا باسم الدغلاوي وكان أبوه غنياً قليلاً وقد علمه القراءة والكتابة وهو صبي وأخذته إلى الخرطوم ولكنه مات في الطريق في كريري حيث بنى ابنه له بئد ذلك ضريحاً سماه « قبة سيدي محمد الله » .

ولم يجد محمد أحمد من يعتمد عليه بعد وفاة أبيه فالتحق بعريس وينابر على القراءة وكانت نفسه تنزع إلى الفتنة في الدين فأحبهه لتفاديه وأوصاه بحفظ القرآن عن ظهر قلبه . ثم سلك إلى بربر وتكلم أحمد الخير قائم عليه تمليه الديني وعلى جملة سنوات في بربر يدوم ويقرأ وكان لتواضعه وكذلك محبوباً وفي حظوة من جميع المعلمين . ولما بلغ سن الرجولة فالتحق بربر إلى الخرطوم فصار تلميذاً للشيخ محمد الشريف وكان رجلاً وقوراً مشهوراً وكان أبوه نور الدائم صاحب الطريقة السميرية المعروفة .

وواجب شيخ الطريقة أن يكتب مقررات من الأدمية والحديث فيحفظها تلاميذه من ظهر قلب ويكررون ثلاثتها حتى يتموه بذلك لهم الطريق الى تصور الجنة التي هي غاية كل مؤمن . ولكل شيخ مذهب وهو يحمل اسم مؤسس الطريقة مثل طريقة الخلعية والفضرية والتفانية والسبئية الخ . وتلاميذ أصحاب الطرق هؤلاء يطيعونهم ويلزمونهم .

واظهر محمد أحمد تعلقه بالطريقة السبئية وتعلق بصاحبها الشيخ محمد شريف ثم رحل الى جزيرة ابه في النيل الابيض قريبا من كاتوه وحوله جماعة من تلاميذه المخلصين المتطعين به . وكانوا يدرسون بزرع الأرض كما كتبت فكتبهم هدايا عديدة من المؤمنين الذين كانوا يهرون عليهم في النيل صمودا او هبوطا وكان هم محمد أحمد مقيما في الجزيرة منذ سنوات متزوج ابنته محمد أحمد . وكان بخواه محمد وحيد يعيشان هناك وكانا يشتغلان بصنوع القوارب وهمولان أخاهما علي العيسى . وعمر محمد أحمد لنفسه تسعة صومعة في شاطئ النيل وكان يعيش هناك بعيدا عن الناس وكان يصوم عدة أيام ولا يزور رئيس الطريقة الا من وقت آخر لكي يثبت له أخلاصه .

وحدث في أحد الأيام أن محمد شريف جمع لنفسه ختنان لينقله مشيخ للطريقة والتلاميذ والذين لهم في القناء والرقص لأن الله يخفر في مثل هذه الظروف الخاصة في الإمرام ما يحدث من الخطايا والذنوب المخالفة ولكن محمد أحمد لما انطبع عليه من التقى والأصلاح استنكر القناء والرقص وغربب الطرب الأخرى . وأوضح لاصدقائه مخالفتها كلها للدين وأنه لا يمكن أى إنسان بها أن يقدسه ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه الأقوال محمد شريف فكبر من محمد أحمد وعظ تلاميذه واستنكر الحجاج التي

التي بها وطلب منه أن يبرر أقواله . وكلفت نتيجة ذلك أن تعجم محمد أحمد بالاعتذار وهو يتنزل أمام التلاميذ والاتباع وطلب الصفح . ولكن محمد شريف أخذ يلحظه ويصعب اليه الخيبة والخروج على شيخه بعد أن قسم يمين الولاء له ثم معا اسمه من قائمة الاتباع المفكورين في الطريقة السملقية .

بذل محمد أحمد وسفر ونهب إلى أحد أتباعه وطلب منه أن يصنع له « شعبة » والشعبة عبارة عن خضبة مطوية يؤضع الحق في شمسها فتضم عليه وتؤلم الإنسان بفلك الماء شديدة . ثم خرج على وجهه رماداً وعاد إلى محمد شريف في هذه الهيئة يزجرو الجبل ويقر بالقوة والندم ولكن شيخ الطريقة رفض أن يخالطه فعاد محمد أحمد خائفاً إلى أهله في أبيه وكان يحترم بل يمسى الطريقة السملقية الشيخين نور الدائم والطبيب احتراماً عظيماً ولذلك كان طرده من طريقتهما وقع عظيم في نفسه لا يكاد يحتمله .

وحدث بعد ذلك أن سائر محمد شريف إلى بلدة قريبة من أبيه فذهب إليه محمد أحمد في الضربة ووجهه ملطخ بالرماد يستغفر ويتوب ولكن الشيخ طرده فمطح الطرد وقال له : « أخساً عنى يا خائن . أخساً أيها الدنقلوى الشتى الذى لا يخاف الله والذى يخرج على معلمه ومولاه . لقد حققت قول من قال : الدنقلوى شيطان مجذو بجلد انسان . انك تشر الشقاق بين النفس فأخساً عنى فانى لن أخفر لك » .

وكان راجعاً يسمع هذا الكلام الجارح ثم انتصب وخروج والنوح تنهال من عينيه ولكن هذه الصعير لم تكن دعوى الندم بل دعوى الغيظ والحقد اللذين كان يطلو بهما قلبه وكان مما يزيد غملاً طة حيلته في غسل هذه الضربة من نفسه . فعاد إلى أهله وأخبرهم أن محمد شريف قد طرده وأن يقبله في الطريقة فاقبأ وأهـ

قد عزم على أن يطلب من الشيخ القريشي أن يقبله في طريقته  
وكان هذا الشيوخ قد خلف الشيخ الطبيب جد محمد شريف وقد اذن  
له في تعليم الطريقة السمكية وأعطاه العهد عنها وكان بينه وبين  
محمد شريف لهذا السبب غيرة شديدة .

وجاء جواب الشيخ القريشي يقول فيه أنه مستعد لقبوله .  
وتبع محمد أحمد هو وتلاميذه للذهاب إلى مسلمية حيث الشيخ  
القريشي وأخذ العهد منه . وبينما هو في ذلك وإذا برسفة بن  
محمد شريف قد وصله يقول له فيها أنه يهره بالقدوم وأنه قد  
عزم على التصحح منه وعلى الآن له بأن يعود إلى محبته  
الطريقة . فرد عليه محمد أحمد رداً لبياً قال فيه أنه لا يطلب التصحح  
لأنه لم يذنب وأنه لا يحب أيضاً أن يتقص مكانة الشيخ بأن يجتمع  
به جلف أجمل الناس وهو . متبلاوي خبي .

واستقبله الشيخ القريشي مرحباً وانتشرت حكاية رفض محمد  
أحمد قبول التصحح من شيخه في جميع أنحاء السودان . ولم يكن  
الناس قد سمعوا بمثل هذا العمل من قبل وأخذ محمد أحمد يصرح  
بأنه ترك مولاة القعيم لأنه قد خلف الدين جهرة . فغضب عليه  
الناس مطلقاً كبيراً لهذا السبب وجعلوا يتحدثون به وكثير منهم  
في حيوتهم وقد بلغت هذه الصلابة أهل دارفور وصارت حديثهم  
وصار هو بطلاً يعجب به لرفضه الطاعة لمولاة .

وحصل على الآن من الشيخ القريشي بأن يعود إلى أبيه حيث  
كان يزوره الناس من جميع البلاد فيكون به وصارت الجماعة  
تخرج إليه وترى فيه مطلوباً خرج على ظالمه وأبى القسم . وكانت  
تأخيه الهدايا تميزتها بين القرلة ولا يأخذ شيئاً منها لنفسه حتى  
صار يلقيه الناس بلعاب الزاهد . .





ثم سألهم الى كروغان حيث يكثر الفقهاء . وهم من اجهل  
الناس واكثرهم خرافات . فلقى نجلجا عظيما بينهم . ووضع رسالة  
وزعمها بين اتباعه المخلصين حضهم فيها على تطهير الايمان الذي  
تسد وانحط بفساد الحكومة وعدم احترام الموظفين اركان الدين .

ويعد أشهر مات الشيخ القريشي فذهب محمد احمد واتباعه  
الى مسلمية حيث بنوا له ضريحاً له قبة فذكراً له .

وحدث في هذا الوقت ان جاء رجل يدعى عبد الله بن محمد  
التعاليق من قبيلة البعلرة اى الذين يقتنون البقر وطلب من محمد  
احمد ان يدخل في الطريقة السمانية عقيله محمد احمد واقسم اليه  
بيمين الولاء . وكان عبد الله هذا تكبر اخوانه الأربعة وكان ابوهم  
يدعى محمد التقي من قسم الحبيزة من لحد التعاليق . وكان هذا  
اللفظ ينتسب الى « لولاد لم سورة » وكان لعبد الله أربعة أخوة  
ثلاثة ذكور وهم يعقوب ويوسف ومسلمي وأخت تدعى لمليلة .  
وكانت علائق ابيهم بأمرته مينة ، ولذلك هزم على مهاجرة العسردان  
والحج الى مكة ثم الاتابة في جوار الرسول بالمدينة . وقد وصف  
اولئك الذين عرفوا محمداً التقي هذا بأنه كان رجلاً صالحاً حترجياً  
يؤدى واجباته الدينية بدقة ويشفى الامراض بالتعاويذ والصلوات  
وكان أيضاً يعلم الناس القرآن .

وكان عبد الله ويوسف اشد اولاده عصياناً وقد لقي منهم  
الأميرين في تطهير بعض الآيات الضرورية للصلاة . لما يعقوب  
ومسلمي فكان فيهما شيء من طبع والدهما وعدونه وقد حفظا  
آيات القرآن وبعض الشروح وكانا يعاونانه على تأدية واجباته  
الدينية .

وقد اشتركت أسرة التعاليق في مقاومة الزبير عند فتح  
دارفور . وقد حكى الزبير بأنه عندما كان يقاتل في الشقة وقع

عبد الله أسيراً وكان أوشك أن يقتله لولا أن توسط بعض الفقهاء.  
وعرف له عبد الله هذه المثرة فجاءه يوماً يقول له إنه رأى في نومه  
رؤيا تتلخص في أن الزبير هو المهدي المنتظر وأنه هو عبد الله أحد  
أصحابه . قال الزبير :

« نقلت له أنني لست المهدي ولكني لعلني شهادة الصرب  
وأنهم اتفكروا الطريق قد جئت لفتحها وأمددة التجاره الى ما كنت  
عليه » .

ولما انتهى الصلح مع الزبير عاد التقى هو وأولاده من طريق  
ثقة وشقة التي بقوا فيها سنتين ثم غادروها الى دار قهر من  
طريق دار احمر والأبيض . وكثروا قد تولوا شيوخاً على شيخ دار  
قهر وبقوا عنده مدة لشهر ومات هناك . أبوهم الذي اعتنوا في  
شرطة وقيل موته أوصى أكبر أبنائه عبد الله بأن يحتسب ببعض  
المجاهدين ثم يهجر هو وأسرته السودان الى مكة حيث يعيشون  
بقية حياتهم ولا يرجعون الى السودان .

وسافر عبد الله وترك أخوته طبقاً لوصية أبيه في منزلة الشيخ  
حساكر . أبو كلام وسمع في طريقه من الشقاق بين محمد أحمد وخليف  
طريقة السماتية التابع لها وعلم على أن يذهب الى محمد أحمد  
وأن يطلب منه الأذن بالانتماء في طريقته .

وقد قال لي بعد ذلك الشيخ عبد الله بن السيد محمد خليفة  
المهدي : « كان سفرى شاقاً جداً . وكان كل ما أملكه في الدنيا حماراً  
له دبيرة في ظهره فلم أكن أستطيع ركوبه وإنما كنت أضع عليه  
قريتي وخرارة القمح وأبسط فوقهما ثوبي المصنوع من القطن  
وأسوقه ألهي . وكنت في ذلك الوقت البس ثوباً فضفاضاً من  
القطن مثل سائر رجال قبيلتي . أظنه تتذكر هذا الشرب  
يا عبد الغادر » .

• ( وكان يسميني عبد القادر فلذا كان أحد آخر قاعدة وله هذا الاسم فله كان يدعوني باسم عبد القادر صلاح الدين أي سلاطين ) .

وكنت ملائقي ولهجة كلامي تدلان على اني غريب ويعلمون عبرت النبل كلن كلما قبلني أحد قال لي : ماذا ترغب هنا . اذهب الى بلدك . ليس هنا شيء تسرقه وأهل النبل يسيئون الظن بنا لان التجار الذين كانوا يذهبون الى الغرب للزير كانوا يلاقون عتقا كبيرا من العرب وكنت حينما اسألهم : اين المهدي المصروف باسم محمد أحمد واين يقطن ؟ كانوا ينظرون الى متحججين ويقولون : وانت ماذا ترغب منه . انه لا ينجس اسمه بذكر اسم قبيلتك .

• ولكن لم ألق هذه المعاملة من كل الناس فان بعضهم كان يشفق على ويدلني على الطريق . وكنت مرة أجتاز قرية فأراد بعض أهلها ان يستلبوا مني حملي متعللين بأنه سرق منهم في العناب الملقى وكانوا ينجحون في ذلك لولا ان توسط رجل صالح واجازني القرية بحملي . وكنت طول الطريق عرضة للمخربة والنهبية ولولا ان البعض كان يشفق على ويمطيني شيئا من الطعام لمت جوعا . وبلغت بعد الجهد مسابية فوجدت المهدي مشغولا ببناء ضريح للشيخ القريشي . فما هو ان رأيت حتى ذهب عنى كل ما علقته من المشاق وتعدت راضيا أمليته وأسمع لقواله وتمليه . وكنت ساعلت لا أجسر على فتح فمي أمليه ثم تشجعت وأخبرته بقصتي والحالة السيئة التي صار اليها اخواني وعزمت عليه بلغة الرسول الا ما أدخلني في طريقته . فعدل ومد الى يده فقبلتها مشتاقا واقسمت له بالطاعة العمياء طول حياتي . وقد حافظت على هذا القسم حتى رنمه ملك الموت وسيرفعا أيضا يوما ما ولذلك يجب ان نستمد للعلة في كل وقت .

وكان عبد الله التماريني كثيرا ما يحادثني بمثل هذه الاحاديث يبعث الى في الليل لكي أسأله عما قدم آنا على الأرض ويعتمد هو

على العنبرييب التلخر المفروض بحصير السمف . وكان يلقى به  
ولا يطفى منى شيئاً في الأول لما بعد ذلك فصار يتضكك من  
جهن .

وكان يصحب التلق وكنت اخلو انا في ذلك فالتوت الحدود ولكني  
كنت ارجب في أن يتم حديثه فطقت له : « لجل يا مولاي لقد حنكت  
وعذك وكفك الله فبعد أن كنت محترراً مهيناً قد صرت الآن رئيس  
البلاد وملكها . ولقد كان يحق لأولئك الذين سبوك واهلكوك أن  
يسبكوك ويعترفوا بفضلك ففك لم تنقم منهم بل حطيت وتسلكت  
بهت بذلك أنك خليفة النبي » .

قال عبد الله : « لما ألقيت بين الولاء للمهدي لحضر أحد  
تلاميذه ويدعى علي وقتل له ولي : أكتما منذ الآن أخوان فليؤيد كل  
ملكنا الآخر وأنت يا عبد الله طمع ما يأمر بك به أخوك .

« وكان علي يجلسني وكان فقيراً مثلي وكان كلما أرسل إليه  
المهدي طعماً يشركني فيه فاصيب منه . وكنا في النهار نصلب  
الطوب لبناء الضريح وفي الليل ننام على فراش واحد وتم بناء القبة  
بعد شهر وكان الزائرون يتوافدون على المهدي بالآلاف فلم يكن  
لديه من الوقت ما يمكنه أن يراني أو يفكر في ولكني كنت أعرف  
أن لي في قلبه مكفة حتى أنه جعلني أحد حملة البيارقي ولما غلرنا  
المسلمية كلن الناس يهرمون اليانا لكي ينتظروا المهدي وكانوا  
يسموونه في ذلك الوقت باسم محمد أحمد فقط وكانوا يسمون الر  
أقواله ويرغبون في بركته .

« ولانقمتنا هذه الحال حتى بلغنا جزيرة أبيه . وكان نملأ  
قد بلها وكنت قد اضطررت الى إعطاء حباري للمقدم ( وهو رئيس  
التلاميذ ) لكي يجعل عليه رجلاً مريضاً . ولكننا وصلنا في النهاية

الى بيت المهدي وهنا اصابتى دومنتساريا شديدة قلقتني  
« احيى » على الى عشته المصنوعة من القش ولم تكن تكاد تصح  
التيه وكان ياتيى بطعمى ويحمل الى الماء للوضوء .

« وذهب في مساء احد الايام لاحضار الماء ولكنه لم يرجع .  
وفي صباح اليوم التالي ابلغت انه وهو يستقي من النيل حجم عليه  
تمساح وانقرسه . الله يرحمه . الله يغفر له » .

تكررت انا هاتين الحيلتين وقلت : « ما اعظم صبرك  
يا نولاي . من اجل ذلك قد رفع الله مرتبك . وهل لى يا نولاي  
ان اسلك هل امرت المهدي القفلة مدة مرضك » .

فقل : « كلا . فقد اراد المهدي ان يظلمنى . ولم يخبره احد  
بمرضى الا بعد وفاة على وجائى بعد ذلك في مساء احد الايام وكنت  
منهوكا لا اقوى على النهوض فتعد بجائى واعطتنى مديدة مسخرة  
من ثمرتى وقال لى : اشرب هذا وثق بالله فلك شئتلى .

« ثم فاندننى وجاء بعض الاخوان فصلونى بأمره الى عشة  
قريبة من عشته . وكان هو نفسه يمشى في عشة بسيطة . ومنذ  
اعطتنى المديدة ولنا آخذ في الحسن والشقاء على حد وعده لى فلكه  
لا يكذب ولا يقول الا الصدق » .

فأقول انا هنا : « المهدي لا يكذب ولا يقول الا الصدق وانث  
خليفة وقد سررت في أثره واتبعته لأوامره » .

ويوم الخليفة حقيقه فيقول : « فلها اتكررت منه حادث الى  
صحتى بسرعة لآتى ككنت اراه كل يوم وكنت ارى فيه نور عينى  
واسكن الى قريه . وكان يسألنى عن عائلتى ويقول انه يحسن بهم  
البقاء في كرموعان في ذلك الوقت وكان آخر شيء يفوه به لى قوله .

« ثقي بالله . ثم أكثر من زيارته له وكان ياتيني كل يوم مراراً وباح لي يوماً بصره وقال لي ان الله قد بعثه مهنياً وان النبي قد اخذ الى حضرة الانبياء والرسول ولكن قبل ان يقول هو ذلك لي كنت انا اعرف منذ رايت وجهه انه هو المهدي المنتظر . أجل ما كان اسعد ليلنا في ذلك الوقت . لا عيوس ولا متاعب . والآن يا سيد القاهر لقد سهرت وتاخرت . تم واذهب الى لراشك » .

فأسلم عليه وأقول ولنا خارج : « أطال الله عمرك وقواك على هداية المؤمنين في الطريق السوي » .

ووجد المهدي في شخص عبد الله أداة مطلوعة تقوم بها يطلبه منها . وبما يجب له الإنسان أنه لولا شجار محمد أحمد مع محمد شريف لما ارتفع شأنه . فله أصبح ذا شهرة بعيدة في جميع أنحاء الجزيرة ( أي القسم الواقع بين النيل الأبيض والنيل الأزرق ) وصار يثنى نفسه بالمرآكز العليا التي كتبت له في صحيفة القدر . وجعل يخبر أتباعه في السر ان الوقت قد آن لتطهير الدين وأنه سيقوم هو نفسه بهذا العمل فمن يرغب منهم الاشتراك معه فليتضم إليه . وكان يسمى نفسه « عبد الله » ويومهم من حضره أنه بعمل من وحى من الله وقد أحله الخليفة بكل ما يجب معرفته عن قبائل الغرب وأخبره بأن في هذه القبائل شجاعة وأيد وأنها اذا لاحت لها الفرصة للدخاغ من دين الله ورسوله فاتها لن تتأخر عن اغتنامها فذهب للموت أو الظفر .

ونصح الخليفة للمهدي بأن يقوم بسياسة في كردستان لكي يجذب اليه القبائل وعلم كلاهما الى دار قمر ( جمر ) حيث كانت عائلة الخليفة التي انضمت إليهما . وقد أخبر المهدي أعضاء هذه العائلة بأن الوقت لم يحن بعد بتركهم بينهم اما الآن فمن الأفضل ان يحضروا القبائل النازلة حولهم على الانضمام للمهدي .

ويرج المهدى دار لمر الى الابيض حيث زار الاعيان والمشايخ  
 وكان يحادثهم ويستطلع آراءهم ويأمر لترسلاته المستقبلية .  
 وكان يمر الى اولئك الذين يثق بهم كل الثقة انه أمين على رسالة  
 بطهر الأيمان الذى أفسده الموظفون . وكان السيد المكى رئيس  
 مشايخ الابيض امينه الذى وثق به وقد نصح له بان الوقت الحاضر  
 لا يلائم الثورة لان الحكومة قوية والتبطل منسقة بعضها على  
 بعض . ولكن المهدى كان أكثر تفاؤلا واتفق كلامها على الا يتحرك  
 الشيخ حتى يشرع المهدى فى الحركة التى سيحكم أمرها الى حين  
 اعلاتها .

ولما غادر المهدى الابيض سار الى تاج الله حيث التقى بك  
 آدم حاكم المركز الذى استقبله استقبالا حسنا ولكنه لم يصده  
 بالثابت لأن القاضي نصح له بالا يعد هذا الوجد ثم عاد الى أبيه  
 عن طريق شرقية .

وكان محمد أحمد فى كنفه سيجلته ينظر فى أحوال البلاد  
 ويتدبرها وقد أدرك أن الطبقات الفقيرة فى الأمة تكره الحكومة الشد  
 الكره وذلك لكثرة الضرائب الفاحشة المضروبة عليها كما بينت ذلك  
 فى أحد فصولى الماضية . وكانت هذه الطبقات تعاني ما يوقعه بها  
 الجباة الخلاط السفلة من ضروب الظلم والعسف . وكان بين هؤلاء  
 الجباة عد من السودانيين لم يكن ثقت منهم نرسمة لاثراء أنفسهم  
 وتوظيف أبنائهم بنية تحقيق هذا الغرض أيضاً . وقد عين غوردون  
 التاجر السودانى الثرى الياس ومنحه رتبة بكاً لئلا يسكن لهذا  
 التمييز أثر سوء فى نفوس الأهالى . وهذا القول ينطبق على  
 تعيين قريه وهو تاجر ثرى أيضاً يدعى عبد الرحمن بن نجا . وكان  
 كلامها على كفاية يعرف حالة البلاد وكيفية حكم الأهلى ولكنها  
 كلها يشغلان لمصلحتها .



وخرج عن تعميدهما أن انتشر روح التحاسد بين كبار  
 السودانيين الذين كثفوا يعتبرون أنفسهم أهلاً لمنح وظيفة الياس  
 أو تربيته عيد الرحمن . ولما أرسل الياس باشا الى مك آدم يطلب  
 منه دفع الضرائب رفض مك آدم هذا الطلب رفضاً باتاً مدعياً بأنه  
 من سلالة ملوكية وقدل في رفضه : « انى ادفع للتجار الثمان البضائع  
 التى اشترىها ولكنى لا ادفع لأحد خراجاً » وفى الوقت نفسه أرسل  
 الى الابيض يسأل هل مات الاتراك وسائر البيض حتى مسارت  
 الحكومة تبين التجار حكماً بدلاً من أن تبين الاشراف وذوى  
 البيوتات . وكان هذا سبب فصل الياس باشا وعبد الرحمن من  
 وظيفتهما وتعيين الاتراك والمصريين فى مكانهما .

أما من الموظفين الأوربيين فلم يكن فى السودان سوى عدد  
 قليل . وكثفوا محبوبين ومحترمين لأن الناس كثفوا يتقون بهم ولكنى  
 لا أشك فى أن بعض الاستياء كلن يعزى اليهم . ربما استروا  
 أواخر مصرها حسن النية ولكنها كفت تخلف عادات الأهلى  
 وتقليدهم . ثم انى لا أشك فى أن موثقنا تجاه مسألة الرقيق قد  
 أحدث استياء عظيماً بعيد المدى . فلن الدين يأنن بالرقيق وقد  
 كفت الأرض منذ عهد بعيد تفلح بالمبيد وكان المبيد يوكفون  
 بالعناية بالمائية . ولست أشك فى أن النخاسة كفت تتطلب ارتكاب  
 فظاعات وسفاهة نساء ، ولكن هذه الفظاعات لم يكن يبال بها أو يفكر  
 فيها مشغرو المبيد وكثفوا على وجه العموم يعملون مبيدهم معللة  
 غير سيئة . ولم تقتصر نحن على دفع تصدير الرقيق بل كنا أيضاً  
 نسمع شكوى المبيد . وكنا على الدوام نمرر المبيد الذى يشتكى  
 مولاه .

وانتهز محمد أحمد فرصة الاستياء هذه من وجوها العديدة  
 وكان يعرف أن الدين هو العامل الوحيد فى ربط هذه القبائل

المتفرقة . فأعلن أنه « المهدي المنتظر » فمات له بذلك شخصية غوق شخصية أى إنسان آخر وكان يبلل بذلك أن يطرد من السودان جميع الأوربيين والصريين والأتراك . ولكنه لم يكن يعتقد أن الوقت قد حان بعد لأن يملن جهاراً هذه الدعوة . فعمد إلى تأييد دعوته بزيادة الانتصار واستمر على ذلك حتى ماتت دعوته سرّاً مكتسوة .

وكان محمد شريف قد أخبر رؤوف باشا الحاكم العام سرّاً بنية محمد أحمد ولكن نزامه السابق معه جعل ولاية الأمور لا يختلفونه واستنجوا الله نفس لخصه الذى ذاعت شهرته لصالحه وتقواه . ولكن الحكومة علمت بعد ذلك من مصدر آخر أن محمد أحمد خطر على الأمن العام ونوت بنية صادقة على أن تنهى عنه .

ولهذا الغرض أرسل رؤوف باشا يطلب محمد بك أبو السعود وأمره بالمسير في البأخرة إلى أبيه وأحضار محمد أحمد إلى الخرطوم . ولكن أصحاب المهدي وانتصاره أحاطوه علماً بنية الحكومة وأخبروه أنه لذا حضر للخرطوم فسيتمثل بها وأن اعتقاله ليس إلا من نس محمد شريف ، فلما وصل أبو السعود بك إلى أبيه استقبله عبد الله التعلقي وشقيق محمد أحمد وفلّده إلى حيث مقام الشيخ . فأخبره أبو السعود عن التقارير التى بلغت للحكومة عنه وهى بالطبع كاذبة وعن الإشاعات التى تنساع عنه وطلب منه لذلك أن يسافر إلى الخرطوم ويكتب هذه الإشاعات التى أشيعت عنه أمام الحاكم العام . فاجاب محمد أحمد وقد وقف فجأة وضرب صدره بيده قائلاً : « ماذا تريد منى . وحق الله ورسوله ما أنا إلا سيد هذه البلاد وإن أذهب إلى الخرطوم لكى أبين نفسي » .

متراجع أبو السعود للوراء مذهباً من هذه الالهة واخذ  
يهدى روح المهدي بكلمات رقيقة . ولكن المهدي الذي كان قد  
رقب هذا المنظر التياترى مع عبد الله ومع شقيقه صار يتكلم بحماسة  
وحرارة ويحضر أبا السعود على أن يؤمن بما يقوله .

أما أبو السعود فكان الآن مهوياً بنفسه لا يبالي إلا بأن  
يرجع إلى الخرطوم ، ورجع بالفعل وأخبر الحاكم العام بصحبه  
مومته .

وأمر محمد أحمد أنه ليس هناك مجال لأضاعة الوقت وأن  
مستقبله يتوقف على مجهوده فلم يتوان عن الكتابة إلى جميع النصارى  
في أنحاء السودان يستلهمهم على الحكومة . أما الإنجليز الذين  
منه فقد أمرهم بأن يستمعوا للجهاد .

وفي هذه الأثناء لم يكن رؤوف باشا مهلاً أمر المهدي ، فقد  
حرف من حديثه مع أبي السعود أن خطورة المسألة عظيمة جداً  
فحزم على إرسال فصيلتين للقبض على المهدي ووعد كلا من قائد  
الفصيلتين بأن يرقبه إلى رتبة بكباشي إذا كان هو القبض عليه  
قبل الآخر وأراد من ذلك أن يحثهما على الاجتهاد والمنافسة ولكن  
حوادث هذا العمل كانت وخيمة جداً .

فإن الجيش الذي كان يقوده أبو السعود نزل البلخنة  
« اسماعيلية » وكان بها مدفع فبرحت الخرطوم في أغسطس سنة  
١٨٨١ وسارت إلى أبيه . وكان هذا الجيش مؤلفاً من فصيلتين على  
كل منهما قائد . وقد اختطف هذان القائدان الواحد مع الآخر والاتقان  
مع أبي السعود وعرف محمد أحمد بالحيلة الموجهة إليه فاستعان  
بتبيلتي دغيم وكثافة غامنتاه واستعد هو للمقابلة وأخبر من حوله

بان النبي قد ظهر له وقتل له أن كل من اشترك معه في هذا الجهاد سيمضى لقب « الشيخ عبد الناصر الكيلاني » ولقب « أمير الأولياء » وهما لقبان محترمان عند المسلمين . وعندما تفاقمت الحلقة وعظم الخطر لم يتقدم للجهاد سوى عدد قليل سلبوا أنفسهم وأموالهم المهدى .

ووصلت البلخنة الى ليه منذ غروب الشمس وعلى الرغم من أولمير أبي السعود نزلات الفيضان لأن كل ضابط كان يرغب في الحصول على رتبة بكباشي قبل الآخر . أما أبو السعود الذي كان قد انخرس الخوف في قلبه منذ قتل محمد أحمد لته مولى البلاد فقد وقف بالبلخنة في وسط النهر ومعه مدفعه . وكان الضابطان كلاهما مجهلان المكان وكلاهما يرغب في الحصول على رتبة بكباشي فسرا في طريقين مختلفين على الشواطئ المتوحشة قاصدين عثة محمد أحمد . ولكن محمد أحمد كان قد ترك عثته وأخذ اتصاره وصلحوا كلهم بالسبوف والحراب والهرابات واختبأوا في الدبسي . والتقت الفيضان عند القرية كل منهما قد أتت من جهة مقابلة للجهة التي أتت منها الأخرى وأطلقت كلتاها النار على القرية الخالية من السكان فاصابت كل منهما الأخرى وحدثت خسائر خطيرة من الطرفين . وفي وسط هذا الإربك هب اتباع المهدي من كمينهم وهربوا الجنود الذين كان قد نفذوا قوتهم المحتوية فتشتتوا في كل مكان . وتمكن بعض الجنود من أن يصل الى الشاطئ وأن يصبوا الى البلخنة ورعب أبو السعود وأراد أن يبحر بالبلخنة الى المخلوط في الحال . ولكن الريان أشار عليه بالمبقاء للصباح لعل بعض الفارين من الجنود يتمكنون من الوصول الى البلخنة . ولكن لم يأت أحد وفي النجر انطمت البلخنة تدر بانصاع سرعتها حلقة هذه الأخبار المحزنة .

ويمكن أن ندرك نتيجة انتصار محمد أحمد . فلما خرجوا من المعركة سالمين لم قتلهم خساائر قط لو اذا قتلوا تد اصبوا فاصليتهم كانت طيبة جداً . وقد جرح محمد أحمد في ذراعه فحمد جرحه عبد الله التعليقي ونصح له الا يخبر اتباعه به . والى هنا كان عهد اباعه لا يزال صغراً لان الناس كانوا يمتدنون أن الحكومة ستتخذ اجراءات فعالة لاجهاد حركته .

واخذ عبد الله وأخوته يحضون محمد أحمد على أن يجعل المسألة بينه وبين الحكومة بعيدة فعول بناء على حشهم أن يقوم الى جنوبى كردستان . ولكيلا يفهم اتباعه انه يتوئ للفرار من وجه الحكومة اذاع بينهم أنه قد اوحى اليه أن يذهب الى جبل ماسة . والماتور في السودان أن المهدي يخرج من جبل ماسة . وهذا الجبل في شمالى افريقيا ولكن المهدي تطلب على هذه الصعوبة بأن اسم جبل ماسة على جبل قدير الكائن بكردستان . وقبل أن يغادر أبيه عين خلفاء الأربعة طبقاً للوحى . ولولهم الذى كان يمثل أيا بكر الصديق كان عبد الله التعليقي . وثانيهم الذى يمثل عمر بن الخطاب كان على واد طو من قبيلة دغيم . وثالثهم الذى يمثل عثمان بن عفان لم يمين وقتنذ وقد عرض هذا المنصب على الشيخ السنوسى فرفضه . لما الرابع لمكان على الكرار وكان من اقارب المهدي وكان صبياً .

ورفض اصحاب القوارب أولاً نقل اتباع المهدي على النيل لانهم كانوا يخشون أن تعدهم الحكومة بمشركين مع محمد أحمد واتباعه . وكان قد انضم اليهم فريق من قبيلتى دغيم وكثانة العربيتين . ولكن محمد أحمد تطلب على معارضتهم وجعلهم ينقلونه في النهاية هو ورجاله الى الشاطيء الآخر . وسار الجميع الى دار تمر وكان محمد أحمد يدمو السكان الى الانضمام اليه ويطلب اليهم أن

يذهبوا معه الى جبل ماسة . واكتتت الحمامة عندئذ بين رجاله  
وكلفت لا تلتوت لمرمة يخبرون فيها السكان عن المعجزات التي  
يكتفيها المهدي .

وحدث مرة انه وقف برجاله في احد الأمكنة وكان قريبا منه  
شابط معه ستون جندياً وكان هذا الشابط المدعو محمد جمعة  
يجمع الضرائب وخطر في باله ان يهاجم المهدي ويقبض عليه ، ولكنه  
خوفاً من نعمة هذا العمل ارسل الى الأبيض يستشير ولاية الأمر  
ولكن قيل ان تكفيه التعليمات من الأبيض كان المهدي قد جاز المكان  
برجاله . وبعد سنوات لقيت محمد جمعة وهو في حالة تعيسة في  
لم درمان وقال لي : « لو كنت اعرف بأنه سيخضع علي بأن لمشي  
حقيقاً وان أستعجدي من الناس كسرة الخبز لما طلبت تعليمات من  
الأبيض وتركت هذا التقلد الذي اتقى بفر من يدي . لقد كان أفضل  
لي ان ألقب من ان أبيض هذه المعيشة النعسة » .

والتحقت فرقة أخرى للقبض على المهدي ولكنها هضت أيضاً .  
لقد كان جيجلر بلداً قد انتخب لهمة تحقيق اختلاس حدث يلتحق  
مع موظف في الأبيض وبين تاجر سوداني ثري يدعى عبد الهادي  
وسمع جيجلر بلداً بأن المهدي قريب منه وذلك حوالي آخر سبتمبر  
فلتفتد اليه محمد سعيد بلداً ومعه أربع مقاتل من الجنود للقبض  
عليه ولحضاره للأبيض . ولكن الحيلة ، اما عن قصد او احمال ،  
أخفقت في مهبها . فلان الجنود على ما يظهر خطوا رجالهم في المكان  
الذي نلم فيه اتباع المهدي في الليلة السابقة وبعد أن اضماعوا ثلاثة  
ايام بلا فائدة عدلوا الى الأبيض وهم موسومون بالخوف من قتال  
المهدي فزادت بذلك كرامة المهدي ووجاهته .

وكلفت نية محمد أحد ان يقضي بعض الوقت في جبل ناج الله .  
وسمع مك آدم بذلك فارسل اليه أحد أتباعه بهدايا من التبع والختم

ومعه رسالة مله ينصح له فيها بالتوغل بعيداً في الداخلية . المستمر  
في سره وبعد مشقات طويلة بلغ جبل غدير حيث كان يوجد قسم  
من قبيلة كلفة غير السكان الأصليين .

وكان راشد بك في ذلك الوقت حاكماً على نقوده وكان يعرف  
حركات المهدي ولذلك حول على الخارة عليه قبل أن يتقوى بمن  
ينضم اليه . وكان في نقوده رجل الملقى يدمى يرجوف وكان في  
الأصل يشتغل بالجيولوجيا في الخرطوم فأرسله رؤوف منتقياً  
لنصح تجارة الرقيق في أعالي النيل .

ونقدم الآن راشد بك ومعه يرجوف وكليكو بك ملك السلوك  
قاصدين غدير . وكان راشد يظل من أهمية المهدي فلم يكن يحفل  
بالتخاذ الحرس والاحتياطات تمكن له المهدي ولوقع به وقتل من  
رجاله ألف وأربعمائة ألف نفس . وكان هجوم المهدي مفاجئاً وسريعاً  
حتى لم يستطع راشد إرسال صاروخ في الهواء . وصعد راشد  
وقليل من معه للقتال ولكن رجال المهدي تكاثروا عليهم وقتلوه .

وقعت هذه الهزيمة في ٦ ديسمبر ومن ذلك الوقت لم يتردد  
محمد أحمد في المجاهرة علناً بأنه المهدي المنتظر . وكبر مقابله في  
أعين العرب ومع ذلك لم تكن علاقته مع جواره على ما يجب .  
وقد أثار الخليفة عبد الله التعاضد إلى هذه المدة وحكى لى عنها  
محل :

« لما بلغنا الغدير كنا في غاية الإعياء بعد هذا السفر الشاق  
الطويل . وكان للمهدي فرس واحد من تلك السلالة الحبشية  
الرجيلة أما أنا فقد سرت المسألة كلها تقريباً على نفسي . ولكن الله  
يهب القوة للمؤمنين الصابرين الذين يسلّمون أنفسهم وما يملكون

لأجل الإيمان . ولكن أخوتي يعقوب ويوسف ومسلمتي قد انضموا  
 إلينا وكذلك زوجة أبي التي كانت ترضع إيلي على صدرها . ولم  
 يرغب أخى هرون البقاء عني بجنا أيضاً . وكنت على النوم في  
 ظلي بشأن أخوتي وزوجة أبي ومسلمتي وأبني هذا الذي تراه عثمان  
 شيخ الدين ولم تكن مثلي السمر نهما نحن الرجال لأن المصائب  
 والكوارث تأتينا من عند الله ونحن نتحملها راغبين فلكرين لأن الله  
 قد اصطفاها لتعطي كلمته وترفع فيه الذي ليس مع الدواب وكنا  
 تعلم أخواننا . ولكن ( وهذا كان يبتسم ) تعلم الدين لم يكن ليأتينا  
 بالطعام لأولادنا ونسبنا وكان الناس يهرعون إلينا زرافات ولكن  
 معظمهم كان في لغة تريد من معنا وكثروا يأتون إلينا لكي نعو لهم .  
 أما المتيسرون فكانوا يتجنبوننا . أجل أن المال لعنة ومن كان غنيا  
 في هذه الدنيا فإنه لن ينعم بقميم الفردوس ولم تكن نحصل على  
 بحونة ما من الناس الذين كنا نجوز بلادهم وكان المهدي مع ذلك  
 يقسم ما يحصل عليه من القليل الذي لديه بين الحجاج الذين كانوا  
 يقصدونه وكان قلبي يتطرب عندما أسمع بكاء الأطفال والنساء ولكني  
 كنت عندما أنظر إلى وجه المهدي تعود إلى العلماتينة وأتي بالله .  
 أجل يا عبد القادر أن الصبر مفتاح الفرج . كن صبورا والله  
 يكفئك . »

وقد نيهت هزيمة رائد بك الحكومة إلى خطورة الحلفة  
 وهيأت تهزيمة بقيادة يوسف باشا عثمانلي وكان قد ظهرت مواهبه  
 في حملة جسي باشا في بحر الفزال وكان مشهوراً بصديق عزيمته  
 ومسالته . وهيمه أيضاً منذ آخر مؤلف من فرقة بن الطوبجية  
 ومعهم بعض المتطوعين بقيادة عبد الله وإد شيف الله ( فتبقى  
 أحمد وإد شيف الله ) وعبد الهادي وسليمان نيه . وأرسل هذا  
 المجد إلى كروغلان ،



وفي هذه الاثناء ارسل المهدي الرسل الى جميع الجهات تحل  
بشائر انتصاراته وهدايته ودعا جميع الاهل الى الانضمام اليه  
في الجهاد واطلق اسم « الانتصار » على اتباعه ووعدهم بأربعة  
أخماس الغنائم التي تفتح في الحرب . أما من مات منهم فقد ضمن  
له نعيم الفردوس . وبذلك استغلر الصفات الكفنة في نفس  
السوداني وأهملها الطبع والتعصب .

وكان جيش يوسف باشا شلالى يبلغ أربعة آلاف جندي  
يقودهم محمد بك علمان وحسن أفندي رفلى الذى كنت قد غطته  
أنا من وعظيته قبلا . أما الخيالة غير النظامية فكانت بقيادة طه  
ابن مسر وهو رجل شجاع . وقامت هذه القوة الخروطوم في ١٥  
مارس سنة ١٨٨٢ ومرجت على كوه حيث حطت رحلتها فأنظر  
المدد الآتى من الأبيض .

وقد وجد عبد الله شيف الله أن جمع المتطوعة ليس من المهمات  
السهلة . فقد كان الشعور العام أنه من الخطأ أن يقتل رجل  
صالح مثل المهدي ثم لم يكن هناك مطيع في الغنائم لأن اتباع المهدي  
لم يكونوا أحسن حالا من الضعاف . وزيادة على ذلك كان اليس  
باشا أغنى تجار كرموفان وحكمتها المعزول يكره شيف الله الشد  
الكره وقد استعمل مطوته في منع الناس من التطوع . ومع ذلك  
تمكن شيف الله من تجنيد بعض المتطوعة بألفائه مع ولاية الأمور  
وصارت قوته بين مئتي ألف من النظاميين ٢٠٠٠ قبل أن يبرح الأبيض  
والنتى بالجيش في كوه لصار مجموع الجيش ٦٠٠٠ وذلك حوالى  
منتصف شهر مايو .

واستراح يوسف باشا قليلا ثم تقدم نحو الغرب وضرب  
خياله في ٦ يونيو في مملت القريبة من جبل فدير وهو وائى بالظفر .

والحق أنه لم يكن هناك حسب ظاهر الأحوال ما يدعو مثل يوسف  
بأشأ ومحمد بك وأبو صدر إلى الخوف من طغاة من العرب قد  
اضطاعوا المرض والجوع والعري . ألم ينتصروا في الماضي جملة  
التصاريح في النيل الأبيض وفي ثوبيله ؟ ألم ينتصروا بحر الغزال  
وخصموا سلطان دارفور ؟ فماذا يمكن أن يفعل معهم هذا للفتنة  
الاعول الجاهل ؟

ولكن عبد الله واد ضيف الله لم يكن مغترا بقوته فقد حذر هؤلاء  
القواد من تصغير شأن المهدي . وقد وقع من ظهر جواده وهو  
خارج من الأبيض وهنا الوقوع يعتبر في السودان شؤما يخشى منه  
ولكنه كان يصرخ في الصحراء فلم يسمع له أحد . بل لم يكن أحد  
منهم يبنام « زبيبة » من الأشواك والأغصان حول الجيش وأنما  
اكتفوا بالقتال قليل من القس ومنعوا منه سيلها وأنها لم تكن  
منه مقدمة قط . وما جاء الفجر حتى جاءت طائفة المهدي التي  
اضطاعوا الجوع والعري والمرض وأوتعت بجيش يوسف بأشأ .  
وكان ذلك في ٧ يونيو . فقد جازوا المسايح الواهي وبأغفروا  
الجنود وهم ثيام نأهزوا عليهم فقتل يوسف بأشأ وأبو صدر وهما  
في جميع النوم حتى باب خيمتهما . ولم يضر نفاق حتى أبيدت  
جميع الجنود تقريباً . وكان لأبي صدر امرأة سرية لها رأت مولاها  
يقتل حيث إلى القطة وتلت النين منهم بمسكن في يدها ولكن  
ولدت نوى مولاها بطعنة حربة يلخت قلبها . وصعد عبد الله واد  
ضيف الله بعض الوقت ولكنه هو ورفقائه قضى عليهم بعد عدة  
جيرة من القتال .

وفي البلاد غير المتحضرة عندما يحدث شيء قريب يعزى على  
الدوام إلى قوة الهبة وكان هذا تأثير تكة يوسف بأشأ في عقول  
السودانيين المسلمين للخراعات فقد مضى ستون سنة كان القطار  
السوداني محكوماً عليها بالمصريين والأتراك .

معد كانت المادة المبيعة أن تصطب القبائل التي لا تدفع الضرائب المطلوبة منها ولم يكن أحد يجادل في حق الحكومة في هذا العمل . أما الآن فهذا الشيء قد ظهر وجمع حوله شرائط الرعام الذين لم يمتروا على الأعمال الحربية وليس معهم عدة السلاح وأوقع بجيوش الحكومة فلم يكن هناك من يشك إذن في أنه المهدي المنتظر .

وكانت هزيمة يوسف باشا سبباً في خضوع كردوغان كلها للمهدي فصار في إمكانه الآن أن يهيئ لنفسه القوة التي كانت تنقصه . فلفظ في جمع الأموال والأسلحة والخيول وسائر الخفايا يؤزمها على رؤساء القبائل التي انضمت إليه . وكانت هذه القبائل تعتقد أنه المهدي المنتظر الذي لا تحدده نفسه إلا بأقامة الدين ولا قيمة للأموال والامعة في نظره .

ومشت أخبار المهدي في كل ناحية وكانت هذه الأخبار إذا تنقلت بين أهالي كردوغان الذين لم يصيبوا إلا قليلاً من التسليم يبالغ فيها ببالغة عظيمة . وخرج من الأهالي عدد عظيم تركوا بيوتهم بقرى جبل غدير الذي كان يسمى الآن جبل ماسة وبعض من الأهالي تجمعوا حول رؤسائهم لملفظة موظفي الحكومة المشتكين في أنحاء البلاد .

وكانت هذه الأحوال توافق أهواء العرب الرحل فكانوا يدمرون الحرب الدنيئة بقتلون ويتجهزون الأهالي وقتلوا يتهمونهم بقتلهم للأتراك وفي الوقت نفسه أيضاً وجدوا في هذه الحالة طابئة من حيث عدم دفع الضرائب لذلك الحكومة المكروهة .

واتصل المهدي بتجار الأبيض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البادية بل جزءاً كبيراً من سائر البلاد . وقد

أدركوا هم الحالة تملأوا وكثفوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانبها واستمد كثير منهم المشيعة المهدي . وكان اليأس بآشا من أعظم المستقيين من الحكومة وكان يكره أحمد بك ضيف الله صديق محمد بآشا سميد وانفك جد واجتهد في الصر في جميع الأنصار للمهدي . وكان عدد كبير من صغار التجار ينتظرون تحصن الأحوال التجارية إذا سقطت الحكومة وكان هناك قليل من التجار يكرهون المهدي ولكنهم كثفوا يترقبون قوزه فلم تكن لهم حيلة سوى الانضمام اليه لئلا يقع زواجهم وأملهم غنية لرجالهم عندما يعقد له النصر .

لما مشيخ الدين فقد راوا في هذه الحركة ما يرمح بهلهم وكثفوا يفرضون بأن واحداً منهم قد تجرأ على أن يعلن عن نفسه كنه المهدي وكثفوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدي جميع الأتراك من البلاد ويعتق هو الحكم لها . وكان هناك عدد قليل — قليل جداً — من أولئك الذين كثفوا يعدرون الخطر الذي تستهدف له البلاد إذا مار المهدي وقد فعلوا كل ما يمكنهم لتنبيه الحكومة . ولكن عدد هؤلاء كما قلنا كان قليلاً فلم يكن لهم أثر في الحركة .

وأرسل اليأس بآشا ابنه عمر لكي يطلع المهدي على الحالة ويدعوه إلى المجيء إلى الأبيض . وكان محمد بآشا سميد ينتظر مجيء المهدي للأبيض ولذلك حفر خندقاً حول المدينة ظناً منه أن السكان سيصعدون الحصار ويقتل عليه أحمد بك ضيف الله بتصميم يفتي الحكومة فعمل وبنى حولها جداراً يرتفع السور . ولكنه لم يخله وقع في خطأ فاحش إذ بدلاً من أن يفتقر الحبوب استعداداً للحصار ويشتريها بالثمن غالية رخص أن يشتريها أولاً بالثمن التي تباع بها وقت السلم . ولم تضي مدة حتى بيعت الحبوب لأولئك الذين شتموا بالانقلاب في الحالة وعرضوا ثمنها أكثر مما عرضة محمد بآشا سميد .

وفي هذه الأثناء كان الأهل يفتنون في كل مكان . وكان العرب  
 الصالحون لا يلتقون بجباة الضرائب أو سرانم الجنود أو الموظفين  
 المتفترين حتى يفتوهم . وأغار عرب البديرة على سكان أبي حرز  
 وكانوا يبيدونهم . وكانت أبو حرز على سفر يوم من الأيَّام ولم  
 يتمكن من الهرب إلى الأيَّام سوى عدد قليل من الأطفال والنساء  
 والرجال . أما باقي السكان فاما أنهم قتلوا أو أخذوا أسرى وقت  
 غاراتهم في الصحراء المحرقة . وكان العرب يستقون الفتيات إذا  
 عثروا لها النساء المسلمات يكن يلائن الأحوال . فقد كان هؤلاء  
 العرب لكي يحصلوا على خلاغيلهن وأساورهن يقطعون أيديهن  
 وأرجلهم .

وبعد أيام قليلة أغار العرب على بلدة أشبلف في شمالي  
 كردستان فنهبوا وقد دافع عنها نور أيجره الذي كان هناك في ذلك  
 الوقت وساعده سنجق محمد آغا يلبو الذي كان قوامه عووديون .  
 ولكنهما اضطرا إلى التقهقر . وكان يلبو هذا كريها وقد فصل  
 العاجب في تقهقره فقد جمع النساء والأطفال في الوسيط وأمرهم بأن  
 يخلين شفاء العرب وكان يقول إن هذا الغناء ينفي الجوف عن  
 الطوبى . وكان يكر على العرب من وقت آخر حتى نجح في استرداد  
 جميع الفتيات تقريباً ووصل سالماً إلى داره .

وأغار العرب على داره هذه ولكنهم ارتدوا منها أولاً . ثم  
 عادوا وجمعوا جموعهم يتقدم الشيخ رحمة الله فطوقوا البلدة  
 ومنعوا عنها المؤن .

واجتمع جمع آخر من العرب في كشجيل فأرسل إليهم محمد  
 باشا صعيد لمصيلة من الجند فزقتهم ولكن الفصيلة فقتل من أرادها  
 حياءً كجيراً حتى أصبح أن يعبى لتبصارها حزيمة . واجتمع هؤلاء  
 العرب ثلثياً في بركة وكانت بها حامية مؤلفة من اثني رجل مقلوا

وحدثت نكبة أخرى مشابهة لهذه في اللحظ على النيل الأبيض حيث  
قتل ملثا جندي . وأغلز العرب أيضاً على الدويم فارتدوا عنها  
وخسروا إلى رجل .

وفي هذه الأثناء لم تكن رسل المهدي الذين أرسلهم إلى الجزيرة  
وأنين . فإن عرب جهينة والحوارة والأجلين ساروا إلى سنار  
يقودهم أبوروف محصرونها ولكن جاء السنجق صالح واد الملك  
بقوة من الشايحية فرفع الحصار عنها .

وحاصر الشريف أحمد طه مدينة أبي حرز الواقعة على النيل  
الأدق . وكان جيجلر باشا يقوم بوظيفة الحاكم العام رؤوف باشا  
وقد وصل إلى جوار المدينة فأرسل بك يوسف من الشايحية لمهاجمة  
القرار ولكنه هزم . واستحق بك يوسف من الفرار فنزل من ظهر  
جواده ويمسك مروته على الأرض ولمر لحد مبيده بأن يقتله .  
ويسافر جيجلر في الحال إلى الخرطوم وهياً مدداً عاد به وأغار على  
أحمد طه وقتله وأرسل رأسه إلى الخرطوم . ثم ظهر جوار سنار  
من القاترين بدون أن يفقد مدداً كبيراً من رجاله ولكن على الرغم  
من هذا النجاح البراقى كانت الحكومة تتسلم كل يوم أخباراً مزعجة  
عن الكوارث التي كانت تقع بجهوشها وبأسكان في عدة أنحاء من  
السودان .

وكانت نتيجة ذلك إرسال عبد القادر باشا حاكماً عاماً  
للسودان فوصل إلى الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢ وشرع بهمة  
في العمل على تحسين المدينة . وكان لبعده هذا تأثير في الأهالي  
الذين اتضح لهم أن الحكومة تقوى العمل بهمة . ولكنه في الوقت

نفسه أوضح لهم خطورة الحال . وقد أمشت دور الحكومة مثل  
مخازن المان والذخيرة والنفط خلت من جميع الطوارئ وسحب  
الحاكم العام إلى الخرطوم حليفته القلابات وسنهييت وجرد وكان  
الهدوء التام يشمل هذه المراكز .

وفي هذه الاثناء أدرك محمد احمد ان حضوره ضرورى لى  
يشعل النار الخالدة ويحبلها لهيباً أكلا . ولذلك قبل دعوة الياس  
بالا للتوجه إلى الأبيض وترك معه محمود شريف مع بعض الأتباع  
في جبل منسة للعنلية بزواجه وأولاده ثم هبط إلى الوادى وجسج  
جيوعه وسار بهم إلى عاصمة كرمولان الخنية .





## الفصل الخامس

### الثورة في جنوبي دارفور

لما غابت الشمس قاصدا داره في اوائل سنة ١٨٨٢ كان معه ٢٥٠ جنديا راجعا بقيادة عمر ودارهو ولم يكن هذا الحرس ضروريا ولكن رايته ان يؤثر في العرب واورهم ان لدى الحكومة قوات كبيرة تضد بها أية حركة تنفذها اليها فزعاجهم ...

ولما بلغت داره زرت جبر اميليتي ونصبت شاهدا بن الحجر عليه للثورة . وكان زيجال به يقوم مقامه في ادارة الاعمال وكانت الظواهر تدل على ان الحالة تفاقمت جدا . فقد خرج عرب الجنوب وهم الزيمفات والحبشية والمجالية على الحكومة فقد عقدوا عدة اجتماعات اعلن فيها ان الدراويش يهرعون للانتصواء الي راية المهدي الذي ارسله الله لاعلاء كلمة الدين . علمت منصور افندي حلي بن يسافر في الحال الى شقة لكي يعيد النظم الي نصيبه وكان معه ٢٥٠ جنديا نظائيا و ٢٥ جنديا راجعا .

نसर عن طريق قلعة ( كلاكة ) وحدث لنا الى العاشر لكي لجمع لمسلل الجنود التي كانت متورمة في انحاء البلاد لجمع الضرائب ولكن استعد بهم للطوارىء وقبل ان يغادر داره تحدثت

طويلا ومليا مع زوجال . وقد كتبت اعرف هذا الرجل معرفة تامة  
 عنهما كتبت حكما هذا وقد علمت انه تحدث مع عمر واد دارهو  
 كثيرا عن احوال المهدي واعماله واتفق معه على انه اذا استمر  
 النصر مفعودا بلوائه لهما ينضم الى . وكان هذان الرجلان افعى  
 من في المركز وكان لهما نفوذ عظيم بين الاهلى ولذلك كان انشغالهما  
 علينا خطرا جدا . فليت ان اتعجب اليهما وان اعمل كل ما يمكن  
 لمنع هذا الشقاق . فلما حدثت زوجال لم اشر الى متابعاته المتعددة  
 مع دارهو ولكني حرصت كلامي في الإشارة عليه بأنه بالنسبة  
 لقربته للمهدي وبالنسبة لاهم موظف كبير ينبغي له ان يماون  
 السلطة الشرعية في البلاد .

ولما ودمت الضبط والموظفين فصرحت لهم وجوب انتباههم  
 الدقيق لواجباتهم وأخبرتهم بأنى سأعود من الخارج في اقرب وقت .  
 ثم تركت الجنود الراكبة في داره ومرت الى العليسة التي بلغتها  
 بعد سمر ثلاثة ايام . وهنا علمت ان المصلحة الطفرافية في فوج  
 قد استولى عليها الثقرون ورأيت لذلك ان آثر بارسال المسد  
 الى كم شجعه .

وكان نظم البريد قد تعطل تماما واضطرت لهذا السبب الى  
 ان ارسل خطباتي الى الالبض والخرطوم في داخل قوائم الرياح  
 او بين نعلى الحذاء او لخطها داخل ملابس حاملها . وكتبت عد  
 طلبت من الخرطوم امدادى بالذخيرة ولكنها لم تصل الى اعمال  
 الموظفين فانها ارسلت الى الالبض متأخرة لانقطاع المواصلات لم  
 يمكن ارسالها الى .

وعلمت من داره ان ماحبو زعيم الرزيفات قد رفض ان ياتى .  
 علم لك بعد ذلك في ان جميع القبائل الجنوبية قد خرجت على

الحكومة وانها تنوى كل النية الانضمام للمهدى ففرت أن يكون  
مقاهى في داره غلظت ٢٠٠ جندي من المشاة و ٧٥ من الجنود  
الراكبة وسرت بهم الى داره .

وعند وصولي أبلغت وقوع حادثة كلفت في ذاتها تلفة ولكن  
نتائجها كانت خطيرة جدا . فقد سبق أن ذكرت بأنى وأنا مسافر  
الى الخرطوم التقيت فى الطريق بالشيخ على واد هجير من قبيلة  
المعالية لرافضى الى الخرطوم . وقد أثبت ولاءه للحكومة فعينه  
رئيساً لقبائل المعالية الجنوبية . وقد سمع هذا الشيخ بقرب عقد  
اجتماع حوب الزينبات بقيادة الشيخ بلال نجور بغية الانضمام  
الى المهدى فعول الشيخ على أن يحضر هذا الاجتماع ويقض  
على الشيخ بلال متبها اياه بالثورة .

فسر الى مكان الاجتماع مع حيه وبعض استعقله ورأى  
بعض الرجال المنتهين الى قبيلة قد حضروا ايضاً فطلب اليهم أن  
يخرجوا وينهلوا الى جانبه . ولكن لم يزال أحد يطلبه وحدث في  
أثر ذلك مشافهة حول فيها هجير وأستقلوه بحاملة قاسية عتية  
حتى اضطروا الى أن ينجوا بأنفسهم . ولكن حكمة لراهم انتشرت  
على غير وجه الحقيقة بحيث أنه ظنوا وصل هجير الى زوجته  
ومعه حموه وأستقلوه فقتلهم بقولها :

« راجلى اضليم وأبويا رجة » سفر يومين سموهم الى  
جيلة » .

ومعنى ذلك : « لوجى ظلم ( ذكر النعام ) وأبى انتى نعم  
حتى ألقيا قضيا سفر يومين في لحظة » .

واقضى بلال نجور اثر الهارين تصحبه العالمة مهجم على دار الشيخ مجير . ولخذ الذين حول الشيخ مجير يحتونه على الفرار الى شقة لينخل في حمية منصور . ولكنه كان يتصور من آلام الكلمات القاذرة التي ميره بها زوجته ترفض الفرار وقال :

« لن اترك لكى اتجو بنفسى . خير لى ان اقع بالسيف من ان تضحك منى ابراة » .

وقد وعد وافر وعده لقاته لائل الجوع حوله قبل الابطال حتى شلت حرية راسه تسفين فوق وهو يتلو الصلاة حتى مات . وقتل صوه ووقع في جانيه لما زوجته التي كانت مسبب كل هذا البلاء لقد وقعت اسيرة واستعبدت ودعته منصور طلى لكى اذهب الى شقة لرحبته فى الاتفاق مع اللقبائل لكى امثلا للحكومة وهذه الصفة يكون له تأثير اكبر فيهم . والترح ان نبلى قلعة حصينة فى شقة ونضع فيها مدغمين . ولما كان الاتفاق مع العرب ضروريا فلتى قررت اجابة طلبه وسلمت الى شقة ومضى ١٥٠ من الجنود النظلية و ٢٥ جنديا راكبا ومنبع .

وكنيت فى لثناء سفرى لسمع من الاخبار ما يثبت انتشار الثورة ولتنصلر المهدي ولما وصلت الى قرية المادبو فى دعين جاعنى رسول واخبرنى هذا الخبر القريب وهو ان منصور قد اثار على هذا الشيخ قريبا من شقة وقد معظم من معه وملت فى شبه حصار فى مرأى فلمسكت فى الحال فى طلب امداد من داره وبقيت مدة الانتظار فى دعين ولما لا لكك فى ان المادبو يلقى ان يهاجمنى وقد تحقق ظنى . وقد انضم الى الشيخ مقينى من قبيلة الحياتية ومعه ٢٥ من الصيلة والحق لن مائر هذا الشيخ الموالى لجديرة بلن تدون .

على مساء أحد والشمس توشك أن تغرب خرج رجلى  
مجمعون الصطب فأغار عليهم الماديو بخيوله التي تراثت لنا بأننا  
تقصد إلى زريتنا وهي نعدو . فلما رأهم الشيخ مفيى أصرج  
في الحال جواده وامطاه وأصرع حريته وقال لى :

« عارفى زين . أنا تور المظن أبو جلب من آدم . لنا  
يمور هالوت » \*

ومنى هذا « أنت تعرفنى جيداً . أنا التور النلطح : قلبى  
من سفر . لنا أبصت من الموت » .

قال ذلك وانفتح خارجاً من الزريبة ثم اختفى بين الأشجار  
ويعد لحظة عاد وحريته تقطر الدم ووراءه جواد قد استلبسه .  
وخرج شيخان آخران اثنيكا في قتال خفيف ففعدا جواداً وغنا  
جواداً آخر . وبعد هدية سمعنا طلقات الهنادق فخشيت أن يكون  
جيش الماديو قد وصل فطلعت للبريالة من العرب وجعلتهم يقفون  
بوقد الدماخ في الزريبة . ولكنى عرفت بعد ذلك بطلان أن ما وصل  
من جيش الماديو قوة صغيرة قد أحتت في أفعال الأشجار فأرسلت  
خمسین رجلاً لطردهم من مكنتهم لطردهم وفتلوا منهم ثلاثة .

وإى صباح اليوم ألتى ظهر العدو وهو يتقدم نحونا بقوات  
كبيرة فنلختنا في البوق وذهب كل جندى إلى مكته . وأغاروا علينا  
من الشمال الغربى وهم يهتمون بدخل من نارتا ، وكان فى وسط  
زريتنا ربوة موضعت فوقها دهوانا كنا قد وجعناها فى إحدى عشى  
الماديو فجعله أحد المصريين كرسياً . فتمعدت عليه وأخذت لأشرف  
منه على حركات العدو وأراقب أيضاً حركات جنودنا فى الزريبة .  
ولتقدم العدو حتى صار على مدى إطلاق النار وصار البندق يصغر

حول أذاننا . وقمت أنا لكي أعطى الأوامر وما كنت أترك الكرسي حتى مزلقته رصاصة فرايت من الأنسب ألا أهرع نفسي للرصاص .  
واقترب العدو منا كثيراً واشتدت نلره ولكن رجالنا كانوا محتجين فلم نصب إلا بأقل خسائر ولكن أصابت الدواب كتبت كثيرة بحيث خفت أن تقلى جميعا فامرت خمسين رجلا بالخروج بها من الجهة الجنوبية وداروا بها إلى الغرب وأهملوا النار في العدو بينما كنا نحن في الزريبة نطلق النار عليهم أيضاً فذلك العدو خسارة جسيمة حتى جلا من مكانه . ولكننا لم نل هذا النصر بنون أن ندفع ثمنه فقلنا لنذكر أننا خسرنا ١٢ رجلا .

وفي المساء استولى التعب على الرجال فنلهموا وكنا نتنظر قضاء الليل في هدوء ولكن حوالي الساعة الحادية عشرة موجئنا بإطلاق نار حامية . ولكن كل الظلام فحيداً فلم يمكن تسديد الرماية فامرت رجلى بالآ يجيئوا ولتر إطلاق النار ثم وقف نهائياً .

وطلبت الشيخ عيسى واقتربت عليه أن يرسل بعض رجاله لكي يبحثوا عن مكان للملاجئ ووعدتهم بالمكافأة الحسنة إذا هم أخبرونا عن مكانهم الحقيقي . فذهبوا وعادوا بعد ساعتين وأخبرونا بأن الملاجئ مع رجاله من البانجر في قرية . أما العرب فقد ذهبوا في جنوب القرية وغربها . وكنت قوتهم كبيرة ولكنهم لم يخفوا أية احتياطات للدفاع ، وذهب جواسيسنا إلى جوارهم وسمموا أحاديثهم وشحكهم واستنزههم بنا لأننا لم نجب على إطلاق النار علينا في الليل وقالوا أنه لم يمنعنا من ذلك إلا شدة خوفنا .

فلمستدعيت سبعين من رجالنا وأخبرتهم بأن الضابط يأتي لرغب منهم في ملجأ الملاجئ في قرية . وأنا إذا تطلنا قوة تزيد على قوتنا في المراء فأننا في الأرجح نخسر خسارة جسيمة . ولكننا

قد تحققتنا الآن أن العرب غير مستعدين فإذا هاجبناهم في الليل وهم على غرة غائهم يفقدون كل ما عندهم من قوة معنوية وتتاح لنا الفرصة بذلك للمعزة إلى دأره والحصول على مدد جديد نوافق الجميع على هذه الخطة وأراد الضباط أن ينفسوا إلى رجال هذه الخبرة ولكنهم رفضت ذلك .

وقد تركت خلفي ضابطين وأربعين من حملة الأبواق وسبعين رجلاً وخرجت أنا من الزريبة ومعى علفي الذي رفض أن يفرقني وخفيت أن يخرج أحد من رجال أبي سلامة ويفشى أمرنا فأمريت الضباط وسدنت عليهم بالاً يأقنوا لأحد بالخروج من الزريبة وأن يكونوا على يقظة تامة . وصرنا نلتهم بعذر يدلنا الجواسيس على الطريق . علم بعض ساعة حتى وجدنا أنفسنا على مقربة من العسر . وقد ثبت لمي أن جواسيسنا قد أبلغوا الصديق وكنت أنا أيضاً أعرف هذه الجهة من قبل . فالتفت فوقي فسمعت . أحدها يتوده محمد آغا سليمان أحد أهالي بورنو والآخر لقوده أنا ولقدنا نزعف إلى أن صرنا على بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ ياردة من العدو وهنا أمرت حامل البوق بحمل إشارة لإطلاق النار على العدو الواضع . وعقب ذلك ارتبك رجال العدو واختلطهم فترك رجال المادبو ( البانجر ) أسلحتهم وفروا . ولجئنا الضيول لهذه الحركة العجائبة في وسط الليل فجمعت في كل جهة والعرب في أثرها وبعد حقتق كانت القرية خالية وكنا نسمع جلبة المدبرين الذين هربوا من شرية قدرها سبعون رجلاً فقط .

بعد نجاحنا تملأنا واحتاج المادبو إلى مدة أيام لكي يجمع فيها رجله المدبرين وأمررت قريته وأرتفع ليهيها إلى السماء وأثار مكان المسكر المهجور . وغنمنا عدداً كبيراً من السروج والبنادق القديمة والقبائما كلها في النار ولكننا أبقينا بنادق رمنجنون ومدنا

الى الزريبة حيث حينا الجنود هناك اجماع فحية وكفوا في اشد  
القلق وهم ينتظرون رجوعنا .

ولم تكن قد وانتهى اخبار من داره ففرت العودة اليها وبعد  
مسير ثلاثة ايام وصلت الى البلدة حيث وجدت الاعداد والذخيرة .  
ولما كان الرجال الذين رجعوا معى منهموكين فقد قررت ان استبدل  
بهم رجالا من الامداد الجديدة والذهب لاجراء منصور حلمي . ولكنى  
في الصباح ذهبت اذ وجدت خطيبا يقول ان منصور في طريقه الى  
داره ولته سيبلغها في اليوم التالي . وكان هذا الخبر من ليسوا  
ما سمعت لان معناه مضاعفة الصعوبة في استمالة شعبة  
واحتلالها .

ووصل منصور في صباح اليوم التالي ومعهم قليل من العبيد  
الذين كانوا يتبعون من الاميال . وعليت انه قد ترك رجاله لما القاه  
العدو في قلبه من الرعب وعاد وحده الى داره . علم اتزان في محاربة  
هذا الضابط الجبان وبعثت عليه وارسلت الجواسيس في كل  
ناحية ابحت من جنوده ولم احد افكر في اعداد حملة لاستتقام  
شعبة . وبعد عشرة ايام جالسى الاخبار السارة بان هؤلاء الجنود  
قريبون من داره . وتظهر ان من يدعى على آغا جمعة تراجع بهم  
لما تركهم منصور الى داره وحياهم من بنوشات العدو وحبله  
جرحاهم وجاء معه بعض تجار شعبة الذين طلبوا حليته .

وكان سعيد بك جمعة في هذا الوقت حاكما على القلعة وكانت  
قد كبرت اليه مرارا لكنى لم يلبس بالجنود والذخيرة ولكنى وجدت  
انه لا يزد او لا يقدر على احطية طلباتى وسالطت الى خشية حيث  
كنت قد التفت مع الكباش الموالية على لعلى هناك .



## الفصل السادس

### حصار الأبيض وسقوطها

كبرت آمال المهدي بالانصارات المتعددة السابقة وكان الأبيض يلبس بحضه على القدوم إلى الأبيض فترك جبل غدير ومعه آلاف من العرب الفخاسين والمعتصمين واتحد بهم إلى كعبة وهي قرية صغيرة في أرياض الأبيض .

وأرسل من هناك الخيالة للاستكشاف ولدعوة الراغبين في الانضمام للمهدي وأرسل أيضاً إلى محمد يلبس سعيد يلبس به بالاضواء وقرىء خطاب المهدي أمام الخطباء فاقترح محمد به استكشاف قتل الرميل حملة هذا الخطاب ، وكان محمد يلبس سعيد غير موافق على هذا الاقتراح أولاً ولكنه وافق في النهاية وأقسم الرميل محوراً .

والم يظن المهدي بأي مجهود لاثارة من حوله لكن يحظ الدهماء الذين غولوه ويصف جنات النعم التي وعد بها المؤمنون الذين يشتركون في الجهاد . وفي سبيحة يوم الجمعة ٨ سبتمبر سنة ١٢٦١ هـ وهم يخلون حياصة وليس معهم سوى السيوف والحراب وجوعهم تموج نحو المدينة . وكانوا قد تركوا ما خلفوه من الأسلحة في حملة

رافد وشاللى . واخذ المتحصنون فى المدينة يصبون عليهم نيران  
البنادق ولكن هذه الجوع التى لم تكن تطيح الا الى الخنائم  
والاسلاب . لم تكن تبلى بمن يقتل منها فكتنوا يقتضون ويملأون  
الضائق ويجوزون الحواجز ودخل بعضهم المدينة . وفى هذه اللحظة  
امر الضابط نعيم الهندى حليل البوق بأن يعطى الاشارة للتقدم  
واخذ الاشارة حملة الابواب فى كل مكان فنادوا بالهجوم فخرجت  
الجنود الى سطوح المنازل وتعلقوا بالاسوار والحيطان وسبوا  
الفلر والرماس فوق رؤوس رجال المهدي . ورايت هذه الجوع  
الرماس ينزل عليها كالبرد فراجعت يبط الى الوراء . وحاولوا  
مرة اخرى أن يقتضوا نردتهم الجنود ثانياً وقتلهم يحدون بالآلاف  
واخيراً خرجوا ونشوا من المدينة وانتصرت حملة الأبيض انتصاراً  
باهراً .

وقد قتل فى هذا الهجوم شقيق المهدي المدمو محمد وشقيق  
الخليلة عبد الله المدمو يوسف وقتل أيضاً القاضي وعدد من الأمراء .  
وكان المهدي مدة الهجوم محتبياً وراء منزل صغير . ولو كان محمد  
بالحا سعيد سمع نصيحة أحمد بله ضيف وطارد الدراويش يصد  
لخلاتهم وتتهقرهم لكن نجح فى القبض على المهدي وتمكن من حلق  
الدماء الغزيرة التى اريدت بعد ذلك .

ولكن سعيد بلشاً قنع بهذا الانتصار الوقتى واعتقد أن المهدي  
قد سمى . وأنه لا يجرى على معارضة الهجوم وأن هذه الهزيمة  
ستحيط أغراضه وتزيل سلطته . وقد أمره القارب الهندى وأصدقائه  
هذه الحالة أيضاً ونصحوا له بأن ينتقل الى قل جانزارة الذى يقع فى  
الشمال الغربى من المدينة ويكث هناك يحاصر المدينة حصراً  
مكثوناً وينتظر الأسلحة والذخائر التى ارسل فى طلبها من جبل  
عدير .

وفي هذه الاثناء كانت طلين وهي مركز المرسلين المسيحيين في  
 حلة خطيرة وكانت بها حامية مؤلفة من ٨٠ عبداً . وكان المهدي  
 في طريقه الى الأبيض وقد أرسل أحد أتباعه وهو مكبر لكي  
 يشرع في يقتل من بها . وكان الأب أوهر ولتر والأب بونوي قد  
 اتفقا على الهرب الى ناكودة ولكن تدبيرهما حبط لجبن الضابط  
 الذي كان يقود فصيلة الجنود . فاضطروا الى اللجوء وسرق منهما  
 كل شيء وسيعا المنيرين الى الأبيض . ونحاول هنا المهدي هو  
 والخليفة عبد الله أن يجعلها مسلمين ها وسائر الزاهبت ولكنهم  
 رفضوا جميعاً .

وفي اليوم التالي أخذهم الجنود وحولهم الدراويش يزعمون  
 وينظرون الى سلجة مسيحية حيث اتهم عرض كبير . ثم أوهموا  
 جنيناً بالقتل ولكن على منهم في النهاية ووكّل أحد السوريين  
 الدرع جرجي استاميرلي بالعناية بهم . وكان هذا السوري من أهالي  
 الأبيض الذين انضموا الى المهدي .

وفي هذا الوقت ظهر نجم مذنب في السماء فاعتبره السودانيون  
 ذنباً يسقط الحكومة وأن المهدي قد ظهر على الأرض .

وأرسلت الحكومة تجريدة بقيادة على بك لطلب لرفع الحصار  
 عن بارة والأبيض . ولكن بينما كان الجنود يصيرون وقد بلغ بهم  
 العطش أغار عليهم حرب الجواة بقودهم قتي رحمة . وكان عدد  
 الجنود الفين ولم ينج منهم سوى مائتين تمكنوا من الوصول الى  
 بارة . وبعد ذلك هوجمت بارة وكانت بها حامية صغيرة فسمحت  
 وقامت مدة . ولكنها اضطرت في نهاية سبتمبر الى التسليم .

وسقطت بارة بعد حصار طويل منظم . وكانت الحامية قد  
 أوقعت بالمحاصرين وكلفتهم خسارة جمة . ولكن شبت نار في مخازن

الحبوب ثم نعل الجوع والمرى انمايلها ولم يكن هناك ابل ي  
المعونة فطلبت جنود الحامية من سرور الهندى الحكمدار ونور انجره  
ومحمد آغا جابو ان يسلموا . فسلموا المدينة في يناير سنة ١٨٨٣  
لمعد الرحمن واد النجوى الذى سلمهم الى جازاره .

واحتل المهدي بسقوط بلره فاطلق بائة مدفع . وسمعت  
للحامية في الابيض اطلاق النار فظنت ان الحكومة ارسلت جيشا  
لرفع الحصار . ولكن عندما عرفت الجنود الحقيقة وأن يارة قد  
سقطت تراخت عزائمهم وقت في امضاهم . فقد اوقعت اسعار التلوات  
اقهر وهم يعانون فته للجوع . فقد اوقعت اسعار التلوات  
يحيث أن لمن النقص كان قبل تسليم المدينة بشهر قد بلغ اربعمئة  
ريال للاربع . وثمان الجمل ١٥٠٠ ريال وثمان الفروج ٢٠ او ٤٠ ريالا  
وثمان البيضة ريالا او ريالا ونصفا . ولست احتاج الى وصف هذه  
الحالة فقد اغثنى من ذلك اخوائى في الأمر الأب ارهرا ولند والاب  
وسنبولى اللذان وصفا نظائع هذه الايام فلن اعيد ما قاله . انها  
يكفى أن اتول انه بعد حصار دام خمسة اشهر ذاق فيه المحاصرون  
اتواع الحرمان . ومات فيه عدد عظيم من الامالى ومن العامية جوعا  
لشطر محمد بافيا سعيد لله التسليم . وكان يرغب في احراق  
مخازن البارود ولكن الضابط رجوه الا يفعل ذلك فشا بحياة زوجاتهم  
واولادهم . فكتب الى المهدي يقول انه مستعد لتسليم المدينة .  
لتجلب المهدي بانه لا خوف عليه هو وسائر الضباط وفي صباح  
اليوم التالى ارسل وغدا مؤلفا من القطار برئاسة محمد واد عريف  
الى سعيد باشا يطلب منه ومن كبار الضباط أن يحضروا لديه .

وقد احضر الولد معه لكسية من المرقصت وهي لبس  
الدراويش المؤلف من رقع مخططة لكى يلبسها سعيد باشا  
وضباطه . فلبسوها وركبوا جميعهم الخيول وساروا والحزن

مخيم على وجوههم وغادروا تلك القطعة التي دافعوا عنها دفاع  
الابطال . وكان مع سعيد باشا محمد بك اسكندر الحكمدار ونسبهم  
المهدي وأحمد بك خليف ابيه ومحمد بك يصر وعدة ضباط آخرين .

واستقبلهم المهدي وهو قاعد على منجرب قد فرش بجلد  
جدي وبسط يده لهم لكي يقبلوها ومنا عنهم . وقال لهم انه يعرف  
انهم لم يقاوموه الا لانهم كانوا مخنوعين لا يعرفون انه المهدي الذي  
جاء يؤدي رسالة الهبة . وهو يعفو عنهم الآن ويطلب منهم ان  
يقسموا له يمين الولاء ويطيعوه في جهاده . ولما انتهى من ذلك  
اعطاهم ماء ولبأ وحشهم على الزهد في الدنيا والابتغال على  
الآخرة . ثم التفت الى سعيد باشا وقال : « لست اليومك باعتبارك  
تركيا لمفادك عن الديانة ، ولكنك لم تحسن في قتل الرسل لأن  
الرسل لا يقتل » .

وقبل ان يجيب سعيد باشا أسرع اسكندر بك وحمل :  
« مولاي المهدي . ان سعيد لم يأمر بقتل الرسل ، ولكني انا الذي  
فعلت ذلك بسخطي حكمدارا للقطعة وذلك لاني اعتبرتهم ثقلين .  
واتي اقر بانني لم احسن في عملي هذا كما قلت » .

عقال المهدي : « لم اكصد بكلامي الى ان تبرر عملك . فان  
الرسل قد نكلوا كل ما كانوا يرغبون فيه . فانهم لما اخذوا الخطيئة  
منى كانوا يرغبون في الاستشهاد وقد تحققت رغبتهم . وقد اتهم  
الله عليهم بالنعيم . ولعل الله ينحننا ما نلوه » .

وفي أثناء هذه المحادثة كان ابو اللجا ورجاله قد احتلوا القطعة  
بتدبير سابق واحتلوا ايضا مباني الحكومة ومخزن البارود . أما  
الامراء فقد احتلوا مساكن الضباط . وأمر المهدي والد العريف

وكان سعيداً سابقاً لسعيد باشا بأن يأخذه هو والضبط إلى منازلهم  
ولكنهم عندما يلغوها علموا أن الأبرار قد احتطوا وأن ألاكهم قد  
ضورت . وبعد قليل دخل المهدي المدينة وأمر بإخراج الحامية  
من الخنادق . أما النساء والأولاد الذين كانوا ينتظرون أسعافهم  
فقد أمروا بأن يخرجوا من المدينة وينضموا إلى معسكر المهدي والـ  
ياخذوا شيئاً معهم وفقت النساء تفتيشاً يلير القفس اذ كن يمعين من  
حلابمون وكل ما وجد معهن أرسل إلى بيت المال حيث وزعت الأموال  
بين الأبرار وسائر الأعيان . وكانت مظاهر التفتيش تؤلم القفس بأن  
جنود المهدي كثروا في طلب الذهب يجلدون الاهالي لكي وعترفوا  
بما عندهم .

وطلب أمير بيت المال أحمد واد سليمان سعيد باشا لكي  
يسلمه ما عنده من الأموال فاجاب سعيد باشا بأنه لا يملك شيئاً .  
وكان المشهور أنه رجل غني ولكنه انكر وكابر وبلغ النكاره المهدي  
فاستدعى واد سليمان وطلب منه أن يبحث مع خدم سعيد باشا .  
ثم طلب هو سعيد باشا وأخذ يصاحبه من الدين وكان كثيراً ما يسأله  
أهل المجتمعين من الناس لماذا لا يملهم على خزانته التي يحفظ فيها  
أمواله . وكان سعيد باشا يتكر ويلح في الابتكار ويقول أنه لا يملك  
شيئاً . ومعنى وقت ثم جاء واد سليمان الذي كان قد نجح في أن  
يصل إحدى الخانات على أن تعترف بالمكان الذي خبا فيه مولاها  
أمواله . وأسر إلى المهدي حتى لا يسمع الناس بأنه وجد الأموال  
خفية في حائط .

أما المهدي فلأشار عليه بالجلوس ثم أخذ يخطب للجمهور أمامه  
عن غرور الدنيا وضرورة الزهد . ثم التفت فجأة إلى سعيد باشا  
وقال : « لقد حطت يمين الولاء فلم تخفى أمر أموالك ؟ المال أصل  
البلاء فهل تنتظر أن تجوع أكثر مما جمعت ؟ » .

فقال سعيد باشا : « ليس عندي مال ربحته ظلمًا أو عدلًا -  
فأفعل بي ما تشاء » .

فقال المهدي : « هل تظنني رجلًا مثل سائر الناس » . الا تعرف  
انني المهدي المنتظر . وان لي قد كشف لي عن خزانك التي  
لخفيها في الحائط ؟ اذهب يا أحمد واد سليمان الى بيته ثم ادخل  
الى غرفته فتجد على الحائط الايسر قريبا من الباب مكان الاموال  
تجود الحائط من الجيس تجد اموال التركي فاحضرها اليها .

وكان سعيد باشا حدة فيلب واد سليمان قاعدا مقلبا هاهنا  
في جوار المهدي . وعرف ان مكان امواله قد افشى . ولكنه كان من  
الكبرياء والاثلة بحيث رفض ان يصرح بأنه قد كذب وسكت عن  
الكلام . وبعد دقائق عاد سليمان ومعه صندوق من التلك وضعه  
للم المهدي فلما فتحه وجده ملوئا بلذهب المجموع في اكبلس .  
وقد عدوا فيه سبعة آلاف جنيه .

ثم قال المهدي : « يا محمد سعيد . لقد كذبت ولكني سأعفو  
عنك . خذ يا أحمد هذا المال وقسمه بين الفقراء والمحتاجين » .

فتنهض محمد سعيد باشا وهو يقول : « انك تدعو الى الزند  
ثم تأخذ اموالي فأفعل بها ما شئت » ثم سار خارجا .

فقطب المهدي وقال بصوت خافت : « دا ما يتفعلنا » وبعد  
للم تمل عليه بعة وأمر بقتله كما قتل ايضا أحمد بك ضيف الله  
وعلى بك شريف ويس . وهذه كانت نهاية هؤلاء الرجال الاربعة  
الذين دافعوا عن الأبيض . والحق انهم كانوا جديرين بحظ احسن  
من هذا .





## الفصل السابع

### المهذية في دارفور

لما وصلت إلى خربة جهدت جهدي لكي لنظم قوة لمقاومة  
الناشور . وكانت القبائل التي طلبتها لمعونة الحكومة قد وصلت  
ومصار جيشي يتألف كما يأتي :

٥٥٠	جنود نظامية يبنغلي رمنجتون
٣٠٠	جلاية
١٣٠٠	بلانجر مسلحون
١٠٠	جنود مختطة
<hr/>	
٢١٥٠	المجموع ( ومنه ٦٠٠ يعملون رمنجتون )

وكان يقود البلانجر شرف الدين . وكان لدينا متدع جبلي  
و ١٣ رجلا من الطوبجية .

وكانت القبائل الموالية تتألف من البيجو والبركة والزغاوة  
( في جنوب دارفور والمصرية والتلجو والمالية الذين كانوا يساعدون  
الشيخ أبو سلامة . وكان عددهم كلهم نحو ٧٠٠٠ رجل يحملون  
الحراب و ٢٠٠ حصان .

وكانت الحامية التي خادرتها في داره مؤلفة من ٤٠٠ جنسدى نظامي و ٧ مدافع والطوبجية اللذين لها ٢٠٠ فرساً و ٢٥٠ من البازنجر وكانوا كلهم تحت قيادة زوجال بك الذي كان يؤدى وظيفة قائمقام بدلاً من أميلياتى بك وقد تركت معه من بدعى جونغلث روث وهو سويسرى كان قد ارسل الى السودان بشأن وقف النخاسة . وكان عالماً في اللغة العربية وقد أسررت اليه انى لا اتق بزوجلال بك وطلبت منه ان يعرف كل ما يمكن معرفته عنه من تراثه وطلعتنى على كل شئ يعرفه عنه .

وفي نهاية اكتوبر غادرت خشبة مع جميع الجيش وسربنا في اقليم الرزيقات وكان مقضى بالديس الكثيف والاحراج . وكنيا معرضين بذلك للهجوم فجعلت سر الجيش بحيث لا يمكن ان نباقت يمكن يبعث فينا الارتباك والاضطراب

او كان البازنجر في جنلقى الجيش ومعهم الابواق للتنبهنا عن اى خطر . وجعلت مؤخرة الجيش اقوى من الجنلخين وذلك حتى اذا هوجم جناح امكننا ان نجد الوقت الكافى لمزيد من قلب الجيش . وكان واجب المؤخرة من اشق الواجبات لانه كان عليهم ان يحموا بالجمال الذى تقع والا يغفلوا عن الفارين او الذين يتخللون . ولذلك جعلت السر في المؤخرة ملوبة فيمنه الجيش تصير مؤخرة ثم تصير ميمرة ثم تعود مينة وعلم جرا . وكانت ايضا خلفت الاعمال من البازنجر والجنود النظميين بهذه الطريقة .

وكانت اولى هذه الطريقة ان ابلغ شقلا بدون اية خسارة جدية وكان تصدى عند وصولى ان ابنى قلعة هناك واضع عليها المنفع ثم اترك الحامية هناك باخرج بتجريدات خفيفة الى الهلالد المضطربة حيث تتاح للفرصة لحملة الحراب بان يغنموا ما يمكنهم من ماضية الرزيقات .

وعند وصولي الى ديين وجدنا كبيت من الحبوب التي اخترناها  
المحبوب في القرية الجديدة التي بناها . فقمنا بها بين الجنود  
واطمأنت بأن متدهم من الزاد ما يكتفيهم جملة ايام . واسترحنا  
ثلاثة ايام وبلغنا ثلاثين لحي بدلونا على لكمة المياه في الطريق  
ثم استأنفنا المسير الى شقة .

وكانت مصوباً في هذه الايام تسلمت قيادة الجيش لشرف الدين  
وهو يليني في القيادة وامرته الا يتركني . وفي اليوم التالي عندما  
غادرنا قرية كندري وبعدنا ان استرحنا قليلا تصالح الجنود في  
المؤخرة بأن بعض الخيالة يتقدمون للهجوم علينا ونوقف في الحال  
كل رجل في مكانه وعلى الرغم من الحمى المستولية على ذهبت الي  
حرس المؤخرة ورأيت بعض الخيالة الذين ربما كانوا يملفون بعض  
مئات ولكن الاشجار كانت تخفيهم وكان لذلك من المستحيل  
تفجيرهم ففقدنا صحياً فالتفت لحرس جناحي الجيش بأن ينضموا  
الى ثم تقفمت ومضى خيالة الجيش ورسائل العرب وحصلت  
مناوشة بين الاشجار انتهت بتفجر العدو بعد ان غفنا منه سعة  
خيول . وبلغت خسارتنا سبعة خيول قتلت ، وغد رجلان وخرج  
البعض ثم طاردنا العدو مسلة وعدنا واستأنفنا السير حتى  
للقروب لمسكنا في مكان يدهى لم ورقة .

وكانت لا ازال اعانى الحمى فاخبرت شرف الدين بان يتبع  
التدبيرات التي اتفقنا اليه بشأن ترتيب الجيش . وفي الصباح  
شرعنا في المسير حتى اذا مضت ساعاتنا بلغنا ارضاً ترة راينا في  
جنوبها للشمس بعضاً من العشب التي يتيها عبيد الزرعات  
الذين يشتغلون في الحقول . وذهبت بمقدمة الجيش الى هذه  
العشب للحصا وكان الجنود يعاونون الخيل على السير في هذه  
الحماة التي كانت تنفرز فيها أرجلها . ونحن في ذلك واذا بنا نسمع

من المؤخرة اشارة الخطر تلاها في الحال اطلاق الرصاص فتمزقت المقبلة في العتاش وركضت جواذى الى الميسرة واخذت تسعين جنديا تظليا وذهبت الى المؤخرة ولكن كان جيشنا متأخرا فقد اطلق البلزنجر والجنود النظميون في المؤخرة اول طلقة وبينما هم يملأون انابيب البنادق لاطلاق الثانية هجم عليهم العدو بجسوع كثيفة فزحزحهم الى الوراء في ناحية . وراى جنودنا في القلب هذا الاخلال بين العدو والولى فامتدوا من اطلاق النسل . فاشترت لحمة الاوراق بأن يشعروا على جنودنا بالتردد ثم يسندوا مرماهم الى المراد العدو الذين اخططوا بنا ويصيبوا ايضا من واتى بمدد من الاعداء . وبهذه الطريقة ولقت الهجوم وقسمت لاعدو قسمين واحدة الى اليمين واخر الى اليسار . وذهب هذان القسمان الى ميمنتنا ويسرنا للاشتباك معها في القتل .

وكان الاخلال الآن حقا لا يمكن وصفه . فلان الاعداء العرب الذين دخلوا الى قلب جيشنا كانوا لا يزالون فيه وقد اعملوا سيوفهم في البلزنجر ولم يكن مع البلزنجر ما يدافعون به لانهم كانوا لا يحصلون سوى البنادق . أما الجنود النظميون الآخرون فلم يجدوا من الوقت ما يساعدهم على تجريد السيوف وذلك لمناجاة الغارة . ولكننا تمكنا في النهاية من قتل جميع العرب الذين جاؤوا الى قلب جيشنا . أما حرس المينة وحرس الميسرة فقد هوجموا من الأمام والخلف فلم يستطيعوا تحمل الصدمة وفروا في كل جهة فنتقاهم فرسان الرزيقات المخشون في الغابلات وقطوهم .

ولم تتم المعركة اكثر من عشرين دقيقة ولكن خسارتنا في هذا الوقت الطويل كانت عظيمة جدا . ومن حسن حظنا أن العدو لم يح في مطاردة الفارين من جناحى جيشنا . وتمكنا نحن من تطهير القلب من جنود العدو ولكن ضحاياتنا كانت كثيرة وكانت الخسارة بين

لؤلئك الذين أطاعوا اشارتنا بأن يرقبوا قليلة ولكن اصابت  
البازنجر الذين لم يدريوا كانت غير قليلة وقتل ايضا عدد كبير من  
جملنا .

وفي وسط الاختلاط رايت احد الاعداء يمر بالقرب مني ويحمل  
معه كيسا احمر يطوى على الفلفل الذي تطلق بها البنادق . وكان  
يبدو عليه انه يظن انه غنم شيئا عظيما . والحق انه كان بالنسبة  
الينا شيئا عظيما لانه لا لقدة من البنادق بدون هذه الفلفل . وكان  
يجانبني خاتم اسود لا يدركني فقلت له : « هناك يا كبير مرسة تجت  
بها شجاعتك التي كثيرا ما وصفتها لى . خذ حصاتي واذهب وراء  
هذا الرجل واحضر به الكيس الاحمر » .

نقل الى الحصان وفي يده حرية وطار به وبعد دقائق قليلة  
عاد ومعه الكيس الاحمر ومعه ايضا حرية حبراء بالدم .

واختفى نرسان العدو فعملنا اشارة الاجتماع ولكن لم يلب  
اللقاء سوى بضع دقائق فسمعتمهم قسعين ادهما للحرس والآخر  
يشتغل بجمع الذخيرة من اولئك الذين قتلوا . ووضعنا ما جمعناه على  
الجمال ثم سرنا الى قرية عالية يمكن منها مشاهدة السهل حولها .  
ثم جمعنا مقدارة من الاشواك وصنعنا بها دويبة بأسرع ما يمكننا  
خوفا من ان يملجنا العدو في أى وقت . وبعد ان انتهينا من ذلك  
عكرونا في الجرحى الذين حملناهم الى داخل القرية وعملنا كل ما في  
استطاعتنا لتخفيف الالم .

وكنت الجثث مبعثرة فوق الأرض لا يحصيها العد دع منك  
من قتلوا . للغرابة والعجيب انه في هذا المكان خلعته انهم لم  
طربوش وزير السلطان حسين وقتل في المعركة .

لم حان حين نداد الأسماء وهو واجب محزن . ووجدنا أنه قتل من ضباط المشاة الأربعة عشر عشرة وجرح واحد . وقتل من رؤساء الجلاية الشيخ خضر ومنجل مداني وحسن واد ستارات وسليمان واد فتح وعلى أحمد وحسيب وشكوب . ومن الطوبجية الثلاثة عشرة لم يبق سوى واحد لها اليوناني اسكندر الذي جرح في حين ولم يكن جرحه قد برىء بعد لقد قتل أيضاً . وجمعنا ونحن في حزننا الموتى لكي نقدم لهم آخر تجارنا . ووجدنا بين أقداس الجثث جثة شرف الدين بطمون في ظله ثم حفرنا في هذه التربة القويديا وحبرنا ندفن اثنين أو ثلاثة معاً في كل قبر .

أما الجرحى المصابين فلم يكن في ملبسونا أن نساعدهم كثيراً فإن أولئك الذين كانت جروحهم خطيرة كانوا يشتغلون بتضميدها بأنفسهم . أما الذين كانت جروحهم خطيرة فلم يكن عندنا لهم سوى الكلمات الطيبة .

وكانت رؤية هؤلاء الجرحى ما يؤلم النفس ويجعل الإنسان يشعر بمجزوء العام عن تخفيف ما بهم . ورأيت أحد الضمضم حقيقتي وكان بها بعض الأكتشة للتضميد فاختلتها وجعلت الضمضم بعض الجراحات . وأنا في ذلك خطر بياني إلى ثم أرى خادمي مرجان حسن وكان معه أحد جياشي . وكان صبيها سورياً ذكياً لم يكمل سنة السادسة عشرة من عمره وكان هادئاً شجاعاً شريف النفس . فقلت للصبي الذي يعمل حقيقتي : قل لي يا عيسى أين مرجان الذي كان يسوق جواشي مبروك ( وكنت له وضعت في جيوب مرجع مذكراتي وشراطيني ) قل لي أين هو . أنه صبي تضيي ولا بد أنه قد ركب الجواد ويمكن من الفرار .

ولكن عيسى يبت عليه امارات الحزن والوهن عند سؤال هذا  
فهز رأسه وشرقت عيناه بالدموع ثم سلبني قطعة من لجام الجواد  
فقلت له : « ما هذا ؟ »

فقال : « مولاي . لم آسبه أن أزيد حزني . لقد وجدت مرجان  
قريبا من هنا واقفا على الأرض ويصدره طعنة الرمح . ولما رأيته  
فيسم وقال : « لقد مررت بك ستأتي لكني ترائي . ودع مولاي  
وقل له اني لم أجهن ولم أسلم الجواد إلا بعد أن وقعت مطموئا  
في صدرى وقطعوا اللجام من يدي فجزوا به . قل لمولاي أن مرجان  
كان أمينا . أخذ السكين من جيبي فأنها لمولاي . أعطها له ثم سلم  
عليه كثيرا » .

ثم لمس عيوني برقائه فاستلمني السكين وهو يتفجع بالمني هذا  
الخبر لنا شديدا ووجدت قواي عند سماعه . أجل يا مرجان .  
ما أصغر منك وما أعرف نفسك . وما أقبح مصيبتى في فلقنا  
هذا الخادم الأمين بن الضديق المخلص .

وقلت لعيسى : « قل لي : كيف كانت النهاية ؟ » .

فقال عيسى : « كان عظيمان فحملت رأسه بين يدي ولم تضر  
بشئ دقائق حتى مات فنهضت . وتم كبره فقد كان على أن يؤدى  
أعمال ولم يكن ثم وقت لل بكاء » .

ثم توينا صياح الزربية وحفرنا الخنادق وراء ثم أمرت  
بفتح الطبول وفتح الأبواب وأطلقنا بضع عيارات وذلك لكي يعرف  
الفازون أو الجرحى الذين ارتطموا في الوحل أننا قد وجدنا ملجأ  
قريبا منهم . وجاءنا عدد كبير من هؤلاء في النهار . وفي آخر النهار  
نادينا الأسياء فوجدت أن عددا ٦٠٠ رجل ومعهم البقية المهزومة

الحزينة لجيش كان يبلغ ٨٥٠٠ رجل ولكننا مع ذلك مضينا  
بالعجبة . ولم يبق من فرساننا وشيائنا سوى ثلاثين ولا بد  
أن العدو قد غنم عددا كبيرا من الخيول وأن بعضها قد فر ودفع  
إلى دياره كل إلى مسكنه ولكن السفائر كانت كثيرة لدينا لأنها  
تخلت عن قتلا .

وعند الغروب عاد رجال الرزيقات فذهبوا إذ رأونا متحصنين  
مستعدين لمقاتلتهم وأرسل المادو رجاله من البازجر لمقاتلتنا ولكن  
بعد مناوشة قصيرة ودعاهم ثم خيم الظلام ووقف القتال .

وبينا أنا قاعد وأنكم مع الضباط اقرب منا الضيق  
عبد الرسول ومصلم وأد كياشي وسليمان ييجو واقترحوا علينا  
التفكير من مركزنا الحاضر ونحن في جنح الظلام لأنه لم يبق لنا  
أمل في الانتصار على العدو بعد خسارتنا القادحة . فقلت لهم :  
« نرغبون في التفكير الآن ولكن ماذا نصنع بجرحانا » هل نتركهم  
أرحمة الملو ؟ »

فاجلوا وصمتوا . فقلت لهم : « ليس التراجع حسنا .  
لقد كنت أنا أحادث الضباط في هذا المكان الآن ورأينا أن نبقى  
هنا عنه أيلم وليس أمامنا ما نخشاه سوى الجوع يمكننا أن نذبح  
الجمال المجروحة والضئيلة ونقتول بها الجنود ثم لا بد أن نجد  
ما نحتاج به أيضا هنا واللاذئ أن العدو سيهاجمنا ولكننا سنرده  
سهولة وبهذه الطريقة نمود الثقة إلى رجالنا بعد ما فقدوها للخسارة  
القادحة التي وقعت بنا . إلى أمراء الرزيقات فهم لن يفعلوا  
حادثين يترقبوننا . » وأنا واثق بأنه لا بد من الاصطدام مع المادو  
والشيخ جالكو وسائر رجاله من البازجر الذين سبق أن طردناهم  
إلى بحر الفزال . وسيستريح البحري ويعملون قليلا فأولئك



الذين ليس بهم سوى جراح طفيفة سيمضون على أقدامهم .  
أما من جراحهم يليفة فأننا نعلمهم على خيرتنا . وأظن أن القراحي  
هذا أفضل من اقتراحكم » .

وفي أثناء كلامي سمعت سلفانا يوافق على رأيي ولم أنه من  
كلامي حتى أمن الجميع عليه واتفق رأينا على البقاء .

لم تكلمت عوجها كلامي الى جميع الحاضرين وقلت :  
« هل تعرفون سبب عزيمتنا اليوم » ؟

فاجابوا بالنفي جميعا فقلت : « اليكم السبب » . في هذا  
المساء وجدت بين الجرحى قائد المؤخرة حسن واد ممتاز وقد قال لي  
ان شرف الدين لم ينفذ تعليماتي بشأن تهديد المؤخرة كما فعلنا  
في الايام السابقة فاشتاط الجنود النظاميون لهذا السبب وتركوا  
مكانهم وانضم كل منهم الى فرقة بدون إذن ولم يرسل مكانهم  
وجالا آخرين . وفي الوقت نفسه ترك العرب الموالون المؤخرة  
وانضموا الى الجناحين وعندما هوجم حسن واد متاركة لم يكن  
معه من الرجال سوى ٢٥٠ من البازغير لا يحملون سوى البنادق  
القديمة . وقد دفع شرف الدين من اعباله حياته ووقعت بنا الحسارة  
جميعا . وليس هذا وقت التألم فلنفكر في شيء آخر . انهبوا الى  
رجالكم وشمسوهم ثم ناسوا حتى يصيخوا مستعدين لا يأتي به  
الفد . ولكن أنت يا سيد اغافو له لا يمكنك أن تنام للجرح الذي بك  
ولذلك منصنع لك عنجريا قريبا من باب الزريبة وإذا حاول أحد  
أن يخرج بدون إذني فاضربه بالوصاس » .

فانفضوا من حولي وصرت وحدي فطلعت الكر في موقنتا  
والدبر . ورأيت أن من المرجح أن نتمكن من التفتل الى دارة وكان

لدينا أكثر من ٨٠٠ بندوية • ولكن شعرت بمراودة الخساسة  
 الماضية فقد نزل لحسن ضباطنا وخضيت أن يبلغ نياحنا من داره  
 فيكون له أسوأ أثر في رجال الحكومة والأهالي معا • فاقظت الكاتب  
 وأمرته بأن يكتب خطابين قصيرين : أحدهما لزوجـال والآخر  
 للحكيدار محمد فرج وأخبرتهما بأنه على الرغم من خسارتنا الكبيرة  
 فإن حالتنا حسنة وأنها ترجو أن نرجع إلى داره بعد أسبوعين •

ولكن إذا وصـل إلى داره بعض الفارين وأخلوا يشيعون  
 الإشاعات المقلقة من حالتنا فيجب اعتقالهم حتى أعود • ثم كتبت  
 أنا بضمة أسطر لجوتفريت روث أصف له الحالة وأخبره بأنني  
 سأرجع إلى داره قريبا مع اليالى من جيفسا وأنه يجب أن يتشجع  
 ويبحث الرجل في نفوس من له • وكتبت أيضا بضمة أسطر لأمي  
 وأخوتي وأودعهم لأنه لم يكن من الممكن أن نتبأ بما تنتهي إليه هذه  
 اللقائل ودجوت جوتفريت روث أن يوصل هذه السطور في حالة  
 نـقل إلى أهل في وطني •

وتناولت الخطابات الثلاثة وقتت إلى عبد الله لم دراسة شيخ  
 العرب المصرية الذين يظنون قريبا من داره فأخطته وقلت له :  
 « أين أخوك سلامة ؟ »

فقال وهو يشير إلى رجل قائم في جانبه : « هـاكه •  
 ثم أبقظه •

فقلت : « يمكنك يا سلامة أن تـضعني الآن أجل خدمة وهي  
 خدمة تفيدك أنت أيضا • التي أريد منك أن تأخذ هذه الخطابات  
 التي تراها وتذهب بها إلى داره وتسلمها للرجل الأوروي المسمى  
 روث • ولقد رأيته مرارا • واركب جوادى الذى كثير ما مدحته في

هذه المهمة • وعليك أن تسافر الآن وعندما تبلغ خط العدو المحيط بنا الآن ركض جوارك فالهم كلهم نيام فيسكنك أن تصدق في الظلام قبل أن يصعدوا خيولهم للعدو وراك • ومتى جرت خطوطهم فانت آمن وعندها تبلغ داره في بحر يومين وسأفانك بأعطائك فرس السوءاء التي في الجبيل في داره •

وبعنا أيا أتكم كان سلامة يفسد حزامه على وسطه وكل ما قاله لي : • أين الخطايا ٩ •

فناولتها له فاخلعها وقال : • إن شاء الله وبهمنة الله سأوصل هذه الخطايا إلى أصحابها • ولكنني أفضل أن أركب فرس فانه لم يكن يجري بسرعة فرسك إلا أنه يقوى على حمل • فهو يعرني وأنا أعرفه • وفي مثل هذه المهمة يكون التعارف مفيدا •

وأخذ يسرج فرسه وكسبت أنا رقعة إلى روث وطلبت منه أن يسلم الفرس السوداء لحامل الخطايا وناولتها سلامة بعدما أخبرته بمضمونها • ثم قاد فرسه إلى الباب وكان هناك سيد الغانولة يحمل على فراشه إذ كان مجروحا في ساقه اليمنى وذراعه اليسرى • فأخبرته بمهمة سلامة فأمر له بفتح الباب • وأعطى سلامة فرسه وحمل في يده اليمنى ومعه وفي اليسرى جلة مطارد صغيرة يزرقي بها العدو على بعد وشرع في السر •

فلعلت له : • مع سلامة الله • فقال : • أيا وائق بالله • واتاد في سبعة أولا حتى القرب من خطوط العدو وهو يسير على حذر • ثم سمعت ديدبة سريعة ثم عيارا أو عيارين ثم نيم السكوت كانه الموت • فقلنا جميعا : • ليكن الله معه • وعلنا إلى الزريبة وقد بلغ منا الإعياء وما هو إل أن انطرحنا حتى نمنا •

ولما استيقظت في الفجر وجدت الرجال يستقلون في التحصين  
وكان كما تبيت فان العدو عاود الهجوم . واضطرب اطلاق النار من  
الجانبيين منذ ولكن بالنسبة لكنا المشرف اضطر العدو الى التهاجر  
بعد ان اوقفنا به وكبدناه خسارة جسيمة . وقد قتل وجرح منا  
عدد قليل وكان من القتل على واد حجاز وهو جبال شجاع . ولما  
كانت نبتنا البقاء هنا بضعة ايام فان رجالنا جدوا في تحصين  
الزريبة واخذنا ندفن من ماتوا منا وكان الفساد قد انتشر في  
اجسامهم وامتلا الهواء برائحهم .

وقضينا في الزريبة خمسة ايام كان العدو يهاجمنا فيها مرة  
او مرتين كل يوم . وقد حدث في اليوم الثالث ان كريمة نور  
قائد منطقة المادبر قتل فتمطت هزائم العدو وفتروا في هجومهم  
عن ذي قبل .

ولكن نهض لنا عدو آخر وهو القبط . لقد اكلنا كل شيء  
يؤكل فالتفت لحوم الجبال ولم يكن لدينا حبة ذرة . وقد اتخذنا  
انا والاضباط في اللغة الاخيرة بكسرات من خبز الليرة كنا نطبخها  
مع ورق نبات يسمى كوال ونضرب هذا الخليط حتى يصير شبه  
عصيدة لا طعم لها . ولم يكن ثم ما يوجبنا بتخفيف وطأة العدو  
او ينجيهم جيئ لا تاذنا فلم يكن من الممكن ان نبقى اكثر مما بقينا  
وكان الجوع قد اثر فينا واضطربنا .

وعلى ذلك جمعت جميع رجالنا وكان عددهم نحو ٩٠٠ رجل  
كلهم ما عدا قليلا من العرب مسلح بالبنادق . اما العرب فكانوا  
لجهلهم بالبنشلية يؤثرون عليها حرايمهم ثم خطبتهم خطبة قصيرة  
قلت فيها ان دعاء شياطينهم ودؤسانهم تهافت بهم ان الانوار لنا وان  
نسامهم واولادهم ينتظرونهم مستأقنين لرويتهم ولكن من المحال

أن يصلوا اليهم ما لم يصلوا الايام بالصبر ويواجهوا المشاق بالجلد  
والشجاعة ثم ختمت خطبتي بقول أن أولئك الذين قد سكن الخوف  
قلوبهم قد فروا يوم المعركة وأما الذين يقفون أمامي الآن فقد صمدوا  
وعانوا المشقات وأن الله سيكافئهم على جهودهم بالنصر .

فأجابوا بالهتاف وبرفع البنادق فوق رؤوسهم وهذه إشارة للطاعة  
ثم صرفتهم وأمرتهم بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي . ثم نزلت  
عن البنطلقيات القديمة التي تخلفت عن القتلى زودها وجعلتها ثم  
القيتها في بركة أما البنطلقيات فقد أحرقتها . والقيتها كل ما لا حاجة  
لنا به في الماء وقسمنا الباقي بين الجنود . ففحص كل رجل بين  
١٦ الى ١٨ دسجة من الخراطيش ولكننا ألقينا البارود الذي  
يستعمل في البنادق القديمة لئلا يستفيد منها العدو . أما رصاص  
الخراطيش فلقد وضعناه تحت رؤوس من ماتوا حديثا .

فلما كان السبت وهو اليوم السابع لتعبتنا بعد طلوع  
الشمس خرجنا من الزريبة وألقنا القلب وحملناه القنبلة  
واللخرة والميعة واليسرة وشرعنا في التفكر وكان عندنا جملان  
فقط فبصلناهما بجران المنبع في القلب وأرسلت أنا في كل جانب  
فأرسلني للاستكشاف . وكان في القلب ١٦٠ جريما فكان القادر  
يمشي على أقدامه ومن لم يقدر حملناه على خيولنا القليلة . كل فرس  
يحمل رجلين أو ثلاثة وكنت أنا وأخويا بالسير على قفص ولكن الح  
على الضباط في الركوب فركبت لكي أشرف على القلعة حول الجيوش  
وكنا جميعا نعرف بأن العدو سيهاجمنا بعد خروجنا من الزريبة  
فملأنا المنبع وحولنا على ألا تبوح حياتنا رخيصة وكنا والتين بأننا  
إذا نجحنا في دمه مرتين أو ثلاثا فإنه لن يصاد الغارة علينا  
وقررنا أن نسير في الجهة الشمالية الغربية لأن الأرض هناك  
مكتشوفة ولكننا كنا نجهل مكان مياه الأمطار لأن أدلتنا قد فروا  
أو قتلوا .

وقيل أن مضى على صبيحنا ساعة هوجت مؤخرتنا فأدركت  
 ان الساعة العاشرة قد أزلت . فأمرت بالوقوف في الحال وضمت  
 اليحتاجين الى القلب . ثم اصططعت حرسنا مؤلفا من خمسين رجلا  
 وسرت نحو المؤخرة وكانت تبعد عنا نحو مائتي ياردة . ونقلنا المدفع  
 الى آخر القلب من جهة للأخرة وكلفنا الجرحى حمل البنادق  
 حتى لا يضيع وقت الجنود المقاتلة .

وقيل أن يظهر مشاة العدو كما نسمح ولح الداهم فاستعدنا  
 لهم بحيث أنهم عندما ظهروا سدنا اليهم النار من حرمي المؤخرة .  
 فتوقفوا قليلا ولكنهم كانوا يستعدون الى ككرة عظيمة وراهم  
 فتشجسوا وكل منهم قد شرع حريته في يده اليمنى وحمل تحت  
 ذراعه اليسرى عدة مطارد . وتمكنوا من الاقتراب منا حتى أصاب  
 بعضهم بعضنا وجالنا بالمطارد التي تزرى على بعد . ولكننا أصابنا  
 فيهم النار وكان مدفعنا يرميهم من القلب . فتقهقر رجالهم من حملة  
 العرب مصرنا وجها لوجه مع البلانجر وأصبح القتال بالنار من  
 الجانبين ولكن جاءتنا امدادات من القلب فاستطعنا بهم أن نرد العدو  
 بعد قتال عنيف دلم عشرين دقيقة .

وكنيت عند اطلاق اول عيار قد نزلت عن ظهر جراحي وهذا  
 معناه في السودان علم الأمل في الفراز والإصرار على واحدة من  
 اثنتين : الظفر أو الموت . ولما انتهى القتال تحلق الجنود حول  
 وأخطوا يهزون يدي بالنصر الأول الذي انتصرناه على العدو .

وبينا نحن لشتغل بالقتال من المؤخرة كانت ميسرنا قد  
 اشتبكت أيضا وانتصرت في النهاية ولكن خسارتها كانت جسيمة  
 وجرح أحسن قائد باقى لمى وهو زيدان آها جرحا بليفا . وكان  
 نوبى المولد وظهرت كفايته في حملة دارفور اذ قاد فصيلة مؤلفة

من ١٢ رجلا واستخلص بها مفعلا من العدو وكان قد غنمه منا .  
ولهذا العمل كوفي . بترقيته الى رتبة ضابط والآن اراه مصابا بمسار  
في رفته اليمنى . فسألته عن صحته فقال لي بعد ان هد يد الى :  
« اما وقد انتصرتنا لما بي من يأس » ثم ضط يده وبعد دقائق  
مات .

وقتل ايضا من جانبنا ٢٠ وجرح عدد كبير . فلدنا القتل  
بمجة إذ لم يكن لدينا من الوقت ما يسمح بالمر المميق ولكننا  
غطيناهم حتى لا نسير باننا تركنا قتلتنا بلا دفن ، ثم استأنفنا مسيرنا  
بحيطة وحمر ولكن تقطنا في انفسنا زادت عن ذي قبل .

وفي الساعة الثالثة عاود العدو الغارة على المؤخرة ولكن الغارة  
كانت خفيفة فطردها المغيرين بدون ان نخسر احدا . ثم وقفنا واحطنا  
النجوى بزدية منتظرين من العدو غارة أخرى . ولكننا دعشنا إذ  
لم تتلق عجة واحدة من العدو طول الليل ، وفي الصباح بعد أن  
نقد مأثنا استأنفنا السير . ونحن في مسيرنا عاود العدو الغارة  
ولكن هجومه هذه المرة كان أضعف من هجومه في الامس فطردها  
بالقن عنه . واستمر سيرنا حتى الظهر بدون ان نجد ماء . فتقينا  
في ظل بعض الاشجار واخذ رجالنا يبحثون عن نوع من الفجل  
يلقى « فايو » وهو كثير المصاوة وله ثلاث ورقات صغيرة تمل  
عليه فكان رجالنا يلقونه من الأرض ويصوته فيطلى عطفهم بعض  
الشيء . ولكن كنا مع ذلك في حاجة لازمة للماء . وبعد أن استرحنا  
استأنفنا السير ثانيا فالتقينا مصادفة براع من الرذيلات يسوق  
غتما . فتسابق الرجال الى الفم واحتازوها من راعيها الذي وقف  
مبهوتا مروحها لا يحاول الفرار وكان رجالنا يسوقون قتله  
لولا مساطتي . فامرت بوضع الفم في التلب واحضر الراعي الى  
يديه موثقان الى ظهوره وقبل أن استجوبه أمرت بتوزيع الفم

فى رأسى لخمسة رجال وما يتبقى لنا • وكان عدد الخراف يبلغ  
نحو مائتين • ما أجل هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا ونحن  
فى جوعنا هذا !

ثم التفت الى الرجل وقلت له انى لن أكتله اذا هو حبلنا الى  
غدير ماء واذا ألبت أماتته فانى أكالته وأسمح له بالذهاب الى أهله  
ترضى وقال : أن الغدران التى حولنا صغيرة ولكن اذا تكلفنا  
المسير مسافة ثمانية يمشى لنا بلوغ « القولة البيضاء » وهو غدير  
كبير نجد فيه ماء يكلينا أشهراً • وكنت غير واثق به فأمرت صنف  
ضابط وثمانية رجال بمراقبته والا يصلوه بعد عني • ثم استأنفنا  
المسير وفى المساء وقفتا وصنعنا زريبة بتنا فيها كالمادة ومرونا  
بضفة غدران ولكن لمعنا لم يكن يكفينا وكنا نقاسى التساهل من  
الطعن فما جاء الفجر حتى قمنا واستأنفنا المسير بعد ليلة قضيناها  
من الأذى عن شدة الطقس •

وعند الظهر أشار الدليل الى بضعة أشجار قال ان الغدير  
حدها • فوقفنا فى الحال وملأنا المذفع والبنديقيات وأمسكنا  
للمقاومة • فله ترجع لئى أن العدو سيقتدر عطفنا فينتظرونا تحت  
الأشجار ويهاجمنا بالنار • فأمرت الرجال بأن يراعوا النظام بكل  
دقة أو لا يستسلموا للعدو • ولكن ما كاد يظهر الماء حتى هرع  
إليه الرجال يترامون عليه بلا نظام •

وكانت قبلة المياه نائرة الآن فأرسلت التعليمات الى عمر  
بأن يداره لئى يقوم بمائتى جندي نظامى ومائتين من الخيالة الى  
بلاد المياه • وقررت فى الوقت نفسه أن أأكل الخواير الذين كانوا  
قد اتحلوا مع المياه • وذهب دأره الىهم وأدى مهمته بنجاح إذ  
عزم المساء على إقامة وفى وحدة • ولست أنا بمألة وخمسين جندياً



نظاميا وخمس مئة من الفرسان ومرت في طريق شميرية ودير أم الوادي حيث كان الخواريير ينتظرونني للهجوم على - ولكن بعد قتال قصير هزموا وتسلطوا وغنمنا منهم عددا كبيرا من الخراف والثيران -

ولما انتهيت من القتال بعثت الى دارهو لكي ينضم الى في دير أم الوادي بمن تبقى من رجاله - وبعد أيام قلائل أدركتنا وأخبرنا بكل أعماله وانتصارات المهدي في كردستان التي أفلتني قلعا عظيما -

وكنيت في الليلة التي أرسلت فيها الى دارهو التعليمات لكي ينضم الى قد جاءني رجل يدعى عبد الرحمن واد شريف وألح في مقابلي وكان هذا الرجل تاجرا معروفا في داره وقد سبق أن زار الخرطوم وبدأ كلامه على بقوله انه بالنسبة لمعاملتي العسنة له فانه رأى من واجبه أن يخبرني عن تسليم الأبيض وذلك حتى أتمكن من الاحتياطات اللازمة في مثل هذا الحادث - وكان هذا الخبر ضمانة قوية فتمكرته ووافق هو يصف لي كيفية سقوط البطة - لقد كان حاضرا فيها وقت التسليم ثم سافر الى أهله في داره وسمع وهو في طويشة عن وجودي في بگرام الوادي فأسرع في ادراكي حتى يبلغني أمر هذا السقوط -

ورأيت أنه من غير المفيد أن تبقي المسألة سرا فامتصيت دارهو ومليمان بسموني وأخذنا نتحدث مما في هذا الموضوع - وكان واضحا لكل منا أن هذا الخبر سيكون مشجعا لأولئك الذين يكرهون الحكومة وصار من الضروري لذلك أن أذهب الى داره -

ولما كنا قد عاقبنا اليما والخواريير فقد رأينا أن نرسل حملة الى طويشة وكتببت في اليوم التالي الى سعيد بك جمة بأن يجلو

عن أم شنبه ويأخذ معه الحامية وجميع الأهالي الذين يرغبون في تركها ويأخذهم جميعا إلى الفاشر . وكنت كذبت له أنه بالنسبة لسقوط الأبيض فإن العرب الآن سيوجهون نظرهم إلى أم شنبه وهم إذا حاصروها صار من المحال تخليصها منهم وأنه يجب بالنسبة للظروف الراحة أن يجمع الجيوش إلى الفاشر . وأمرته بإقامة حرس في فيفا وووده حتى تبقى الطريق مأمونة بين الفاشر وبين داره . ثم أمرت عمر واد دارهو بأن يقوم هو وجيشه في الحال إلى الفاشر وأن يوزع الثنائم التي عندها من الحيا بين جنوده وحامية الفاشر . ثم أعا غنمه من الخواير فيعطى للجيوش الحامية في داره . وفي نفس اليوم انفصلنا فذهبت أنا إلى داره وذهب دارهو إلى الفاشر .

وانتشر خبر سقوط الأبيض في كل مكان وظهر أثر ذلك في القبائل العربية فصاروا يجتمعون ويقررون الثورة على الحكومة .

ولما وصلت إلى داره أمرت بشراء كل ما يمكن من الذرة وكان مدخرها لدينا كمية كبيرة منها ولكني رأيت من الألفح أدخار أكثر مما عندنا . وتوصل إلى الشيخ عفيفي يقول أن قبيلته قد ثارت وانضمت إلى الرزيقات ولكنه هو لا يريد أن ينكث بعهده ، ولذلك قد ترك أسرته وعشيرته وقصد إلى عن طريق حلبة وأنه أرسل أخاه علي برسالة إلى بشاري بك واد بكير رئيس قبيلة بني حلبة حيث أقسم له بأن يمر في بلاده آمنا وأنه لذلك يأمل الوصول إلى في بضعة أيام .

وبينما أنا في انتظاره وإذا بأخبار سيئة تقول أنه قتل . وقد قلقت فيه أكثر العرب ولا لي . وتبين بعد ذلك أن بني حلبة الذين أمرهم رئيس قبيلتهم بأن يجيزوه أرادوا أن يأسفوا منه

اغتنابه وبعثه فرفض فقاتلوه فاطهر بأسا عظيما ولكن كمن له بضئ  
العرب وراه الأشجار واغتلوه بحراهم بينما كان يطرد العرب  
الذين هزجهم مرتين .

ورجع الى محمد واد عاصي الذي كنت أرسلته مع خاله واد  
امام الى كردوفان وأخبرني بالحالة هناك . وقد بشرني بأن الحكومة  
في الخرطوم تهيء جيشا للاستيلاء ثانية على كردوفان ولكن لابد  
من مضي وقت طويل قبل أن تهيأ التجربة وتشرع في السفر .

فأخبرته بإذاعة هذه الأخبار في كل مكان ثم سألته عن علاقته  
زوجال بالمهدي فأجابني على الرغم من أبعاده لم يتفق على وجه  
التأكيد هل تجري بينهما مكاتبات ولكنه لا يشك في أن المهدي  
يرسل رسالة الى زوجال فيخبرونه شفويا بما يرغب . وهؤلاء الرسل  
هم التجار الجائلون . وقد واثقتني على رأي بأن زوجال لمركزه  
وتربيته يعرف بواعث هذه الثورة ولذلك ليس من المرجح أن يشترك  
مع المختارين .

ولا شك في أن تسليم الأبيض قد أضعف مركزنا وكان علينا  
أن نعمل بخطر وحيلة ما دامت مديرية كردوفان كلها قد صارت  
في يد المهدي . وكنت أرجح أن أخبار واد عاصي عن استعداد  
الحكومة في الخرطوم لإرسال حملة للمهدي سيحصل المهدي يحتفظ  
بقواته ويجمع جيشه في مكان واحد للمقاومة . وعلى ذلك ليس من  
المحتمل أن يوجه جيشه إلينا . ورايت أن أروى كل وقتي للقبائل  
العربية التي هيجهما سقوط الأبيض ومشورات التصيب وكان  
يخشى منها أن تتحدى في هياجها وترتكب أي فسطط . ولم يكن من  
المستظر أن يتم تهيئة التجربة الخاصة بكردوفان قبل الشتاء فكان  
علينا أن نثبت وتقاوم بأية وسيلة حتى هذا الفصل .

وهل الرغم من إقامة مراكز حربية في لافا وفي ووده فان عرب  
الخوایر تجمعوا في أم الوادی والضم اليهم بعض رجال الميما  
الذين غلبهم القطاع المواصلات الى بلادهم وحسبهم سقوط الأبيض  
وكانوا يثيرون الهياج والفتن في جميع الميالك بين دارة والفاشر ولم  
تكو حامية لافا على مهاجمتهم . فعزمت لذلك على غزوهم لكي أرفعهم  
أن سقوط الأبيض لم يثبطنا والتقيت ٢٥٠ جنديا قديما مدريا على  
الحروب ثم دبرتهم بضعة أيام على قتال السنبجة وانضمت يوم شروعي  
في السفر عن كل أحد .

ثم أخذت جميع الخيول وكانت تبلغ نحو السبعين وأشرت على  
واد عامي بأن يطلعا على أخبار دارة ثم خرجنا وأسرعنا في المسير  
فلم يمشي يومان حتى بلغنا جوار بر أم الوادی حيث قد اجتمع عرب  
الميما والخوایر . ولم يكن معنا سوى أسلحتنا وذخيرتنا ولم نحصل  
ميرة لأن فئتنا كانت الهجوم ثم الرجوع . وفي اللحظة التي ظهر  
فيها العدو أمرت رجالی بتفتيت السنبجة . وقاتلنا البازيجر وبعد  
عشرين دقيقة نجحنا في تفريقهم ودخل بعض عرب الميما في صفوفنا  
فقتلوا كلهم بحراب البنادق ( السنبجة ) ثم أمرت الفرسان بأن  
يطاردوهم وأمرت الجنود النظاميين بأن يسهروا وراء الفرسان  
ليبحثوا عن مكان البطيخ لأن الفارين سيقتصدونه بالطبع لكي يقتصروا  
عطشهم وله تفلت هذه الأوامر وقملنا البطيخ ولقبضنا على عدد  
من النساء والأطفال وتفرق الرجال في كل مكان يبحثون عن الماء  
ومات كثير منهم عطشا . وفي اليوم التالي أحرقنا خيام العدو وأخذنا  
النساء والأطفال الى بر أم الوادی التي اعتزمتا الهجوم عليها الآن .  
فدافع العدو دفاع اليأس عنها وخسرنا ١٦ رجلا قتلوا و ٢٠ جرحوا .  
وأدركت من هذه الخسارة أن الجنود النظاميين عطشى قد قلوا جدا  
في حين أن العدو يزداد حتى بعد هزيمته .

ولما كنت الأوروبي الوحيد في بلاد غريبة وكان السكان حولي يملسون لي ويكرهونني كنت ألجأ إلى وسائل عديدة لكي أعرف المؤامرات والترسيمات التي تدبر حولي . وكنت أحياناً بواسطة القنود أو الهدايا التي أرسلها سرا أعرف ما سيحدث لي قبل حدوثه واحتاط له .

وكنت بواسطة الخضم أستغل البفايا اللواتي كن يضمنن المرسى أى الجبة الوطنية وكان يقربها عندهن رجال الطبقات الدنيا . وكان الخضم يخبرونني بأن رجالنا وهم يتصبون هذه الخمر ويسكرون يتكلمون عن ثورة المهدي التي لم يكونوا يظفون عليه . ولكنهم كانوا يقولون أن الحكومة قد عينت في المراكز العليا ناساً من النصارى لمحاربة المهدي ولذلك فالنتيجة يجب أن تكون سيئة . ومما قالوه أنهم وإن كانوا يحبونني إلا أنهم يمزون ما أصابنا من الخسارة وما تأسيناه من الآلام إلى أني مسيحي . وكنت متحفظاً بأن هذه الآراء ليست من ثمار ذهن الزوج الذين لا يبالون بالدين وإنما هي من ذهن أولئك الجنود الذين يكرهونني ويشتمون إزالة سلطتي وبث روح العصيان بين رجال .

وفتد قيامي من ببر أم الوادي جاءتني أخبار سيئة أيضاً . فقد أخبرني الخضم بأن بعض الجنود الذين يذهبون إلى حانة البقي التي كنت أذهبها لكي أخبرنا بكل ما يدور في حائتها قد انكمروا على ترك الجيش . وعلمت بعد البحث أن الداعين إلى ترك الجيش هم بعض من رجال قبيلة الفور وصفوف ضباطهم فانهم على قولهم قد سئموا هذا القتال وقد تحققوا أن أيام الاتراك قد باتت معدودة في السودان وانهم ينوون ترك جيوشنا والفحلب إلى جبل مرة للانضمام إلى سلطان دود بنجه خليفة سلطان هرون . ولما كان أكثر رجال من قبيلة الفور فاني شعرت بخطورة الحالة وأرسلت

من الحال الى البكياني محمد أفندي فرج وأخبرته بما سمعت .  
 مدحني وأكد أنه لم يسمع شيئا قط عن هذا الموضوع وأنه لن  
 يهل في الاستقصاء ومعرفة الجناة ومقاتلتهم . فأمرته بأن يلتزم  
 الحكم والا يفعل شيئا يلقي بيتهم الشك والتوجس . وأوصلت  
 وهو منى الى خادمي وأعطيت له صرة بها نقود وأمرته بأن يذهب  
 بها الى البني ويسطيها لها ويطلب منها أن تدعو هؤلاء الرجال الى  
 منزلها وتسقيهم على حسابها ما شاؤوا . وفي الوقت نفسه طلبت  
 منها أن تخطي الخادم بحيث يسمع ما ينور من الحديث بين الجنود  
 وأخبرها بأنها اذا فعلت هذه الأولم فاني اكاثنها مكافاة سنية .  
 وعاد خادمي بيته قائل وأخبرني بأن كل شيء قد رتب على ما تهوى .

وفي اليوم التالي أرسلت للبكياني وأعطيته أسماء ستة من  
 الرعاء وأمره بالقبض عليهم وزيادة على ذلك أعطيته أيضا التفاصيل  
 الخاصة بمراهم من الجيش وتاريخ ذلك .

وبعد نصف ساعة عاد معه الستة المقبوض عليهم وهم  
 مميون من خلف وكانوا كلهم من المغور . وكان وراهم عدد من  
 القواصين والنظرة فطردتهم ثم سألت هؤلاء الستة أمام ضابطهم  
 عن سبب خروجهم على الحكومة . فانكروا انكارا باتا وجود حاكم  
 انسة عندهم وأنهم يراء من كل ما نسب اليهم . فقلت لهم : ولكنني  
 أعرف انكم قدتم جملة اجتماعات في منزل خديجة . ولقد اتحت  
 لكم كل فرصة لكي تتمقلوا ولكنكم أبيتم الا الطغيان فأمس كنتم  
 عنما تخرجون المريسة واتلقتم على أن تظنوا تدبركم اليوم .  
 وكان غرضكم أن تقسموا اليكم الجنود وتخرجوا بأسلحتكم من  
 الباب الغربي للقلمة وبعد ذلك تذهبون الى السلطان عبد الله وكنتم  
 تنوون انفاذ خطكم بالقوة . ألم تقل أنت يا محمد أنه لديك متنا  
 رجل يطبوتك ويصلون ما تشير به عليهم ؟ الا ترون اني أعرف  
 كل شيء فما فائدة الانكار ؟ -

وسموا كلامي وهم سكوت وعزلوا أنهم قد ألقى تدبيرهم  
فاعترفوا بكل صراحة. وطلبوا الصلح والمغفرة . فقلت لهم : ه ليس  
هذا في يدي الآن . انهضوا الى ضابطكم واعترفوا له بكل شيء أمام  
سائر الضباط والفصل بعد ذلك للقانون .

ثم أمرت الضابط بتأليف محكمة عسكرية وإن يجعل جميع  
صفوف الضباط يشهدون المحاكمة ولكنني ألهتته بأن يجعل المحاكمة  
مقصورة على المقبوض عليهم وذلك حتى لا يقر سائر الجنود  
المشتريكين في المؤامرة . وفي عصر اليوم نفسه تسلمت محضر  
التحقيق والاعترافات ولكن لم يكن قد حكم بعد عليهم . فرددت  
الأوراق وطلبت النطق بالحكم فجاءني ضابطهم وأخبرني بأن المحكمة  
حكمت بضربهم بالرصاص ولكنها تطلب تخفيف الحكم ولكنني شعرت  
بضرورة التنكيل بهم حتى يحفظ بهم غيرهم فأبليت الحكم وأنا في  
أشد الألم والجزع وطلبت تنفيذ في الحال .

ثم أخرجنا المحكوم عليهم وحفرنا سميت حفر ووقفنا كلا منهم  
على حفرة خارج الزريبة وركع كل منهم ركعتين ثم ضربوا بالرصاص  
ولم يبقوا أقل خوف . وخطبت الجنود الحاضرين عن خطر المؤامرات  
وإن كل من يحدث نفسه بالثورة والفتنة سيعاقب مثل هذا العقاب  
وقلت لهم اني أقول أن تكون هذه المأساة الأولى والأخيرة من نوعها  
وإن تكون علاقتنا في المستقبل علاقة الصداقة .

وكنت حزينا مفيظا لهذا الحادث فقد تذكرت العدد الكبير الذي  
فقدناه في الحارك الماضية والآن اضطررنا الى اتخاذ أقصى الاحتياطات  
لحفظ النظام . وكان الدبلوماسيون حولى يسلمون جهنم لاضعاف  
سلطتي وهم يجهلون أنهم لو نجحوا في ذلك لا تحسنت حالهم  
والحقيقة أنه جاءهم زمن بعد ذلك كانوا يحسرون فيه على عصيانهم  
أوامر ذلك الأوروبي الذي يكرهونه الآن .

وأرسلت في ذلك المساء في طلب محمد أفندي فرج وسألته عن مجريات النهار وماذا كان وقع ضرب الجنود بالرصاص في سائر الجيش . وأسفدت الى ذلك انه يجب أن يعرف الجنود عدالة الحكم وإن الجانبين يستحقونه وإنما استعملنا الرأفة مع سائر من اشتركوا في المؤامرة ثم قلت : « والآن يا فرج أفندي الى أرغب في أن تكون صريحا مخلصا لي . وأنا أعرف أنك تميل الى وتطيعني ولولا ذلك لما طلبت أن أخاطبك وحدك هنا . فأخبرني الآن كيف ينظر الى الجنود والاضباط ؟ وهل يحبونني أو يكرهونني ؟ ولست بالطبع أفسد أولئك الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية » .

فقال فرج أفندي : « إن رجالنا لم يعودوا هذه الصرامة في الأحكام . ولكنهم مع ذلك متعلقون بك لأنك عواظب عليهم دفع المرتبات في مواعيدها وهذا شيء لم يألوه قبل . ثم هم يعرفون لك صديق في توزيع الغنائم بينهم . ولكننا خسرنا هذا العام خسارات فادحة ولذلك سلم رجالنا القتال » .

قلت : « ولكننا مضطرون الى القتال . فنحن لا نخرج للفتح أو لنجدة العربي وأنا شخصيا أؤثر الراجة والدعة » .

فقال فرج أفندي : « اني أفهم هذا بالطبع ولكن هذه الخسائر التي كان يمكن تجنبها قد أثرت في الجنود . فقد فقد أحدهم أبا وآخر أخاه وآخرون فقدوا بعض قراباتهم أو بعض أصدقائهم . وإذا استمر هذا فإن القتال يشق عليهم » .

قلت : « وأنا أيضا أدرك ذلك وإن كنت لم أفقد أبا أو أخا فاني فقدت أصدقائه . ثم الى أخاطر بحياتي العزيزة ، كما يخاطر الجنود بحياتهم . فانا على النوام معهم وجسمي عرضة للرصاص أو للحراب مثل أجسامهم » .



لقال : « انهم يعرفون ذلك تمام المعرفة ويجب عليك أن تشكرهم لاطاعتهم رجلا أجنبيا يعطرون بحياتهم به » .

فقلت : « حقا انى أجنبى أوروبى . وليس هذا سرا مكتوما ولا أبا أتعبر منه . فهل رجالنا مستأذون من ذلك ؟ أصدقنى » .

وكان محمد فرج من أحسن الضباط تربية . وقد درس فى عدة مدارس فى القاهرة ولكنه دخل الجيش جنديا بسيطا . وكان يعرف فى شهره الميزات التى يمتاز بها ، وكان على الدوام مستعدا لأن يتعلم من أولئك الذين حصلوا على تربية أعلى من تربيتة . ولم يكن متعصبا أو متدينا ولكنه كان حاد المزاج كثير التلحر . وكان تلصره وحدته جماع ما عنده من الصفات السيئة وقد قادته الى ارتكاب بعض الجرائم فنفى من أجلها الى السودان .

فلما طلبت منه أن يصدقنى رفع رأسه ونظر الى وقال : « ترغب منهم فى أن أخبرك الحقيقة . فهالكا : انهم لا يترخصون عليك لأنك أوروبى بل لأنك غير مسلم » .

والآن عرفت منه ما أردت معرفته . فقلت له : « ولم يترخصون على دهاننى ؟ لقد مضيت السنين الطوال فى دارفور وهم يعرفون انى مسيحي فما اعترض أحد على » .

لقال : « تلك أيام أخرى تختلف عن أيامنا الآن . فان هذا الوغد المدعو المهدي قد تستر بالدين وله أنصار يحضون الناس على اتباعه لكى يبلغوا أغراضهم السافلة » .

وقد انتشر بين جنودنا رأى لا أعرف من أول من اذاعة مقتضاه ان هذه الحرب دينية وأنتك لن تريح معركة فيها وإن الهزائم مستتوال

عليك حتى تقتل في النهاية . وأنت تعرف أن الجنود الجيلة  
يصدقون هذه الأقوال وهم يملكون هزائهم بأنك عسيمي . ورجالنا  
لا يدركون أن خسائرننا ناشئة عن تفوق العدو علينا في عدد الرجال  
واننا مادما لا نؤمل في مجيء امداد فاننا منسدر على الهزيمة .

قلت له : « هبني صرت مسلما فهل رجالنا يصدقون اسلامي  
ويؤملون في النصر وهل هذا يزيد ثقتهم في ؟ » .

فقال لي : « يصدقونك بلا شك او على الأقل كثرتهم تصدقك .  
ألم تمنح كل فرصة لاطهار احترامك لديانتنا وأجبرت غيرك على  
احترامها ؟ تأكد أنهم سيثقون بك . ولكن هل تغير دينك عن  
عقيدة ؟ » قال هذا وهو يبتسم .

قلت له : « اصبح يا محمد أفندي . أنت رجل ذكرى قد  
حصلت على تربية وتعرف أن الطيبة لا شأن لها فيما نحن فيه  
الآن . وفي هذه الدنيا يحتاج الانسان الى أن يعمل أعمالا تخالف  
عقيدته اما اضطرارا واما لسبب آخر . وحسبي أن يصدقني  
الجنود ويثقوا بي ويقلعوا عن خرافاتهم السخيفة . ولست أبالي  
بتصديق سائر الناس ، وأنا أشكرك الآن شكرا جزيلا وأطلب منك  
ألا تجعل هذا الحديث يخرج من فمك لأحد » .

وتركتي محمد أفندي فرج فتأملت وترويت قليلا في الموضوع  
ثم استقر رأيي على أن أظهر في اليوم التالي أمام الجيش كأي  
مسلم . وكنت على تمام المعرفة بأنني في اتخاذي هذا الموقف سيلومني  
البعض . ومع ذلك قد هزمت على نفسي نعتي لكني أقطع على  
السياسي، جيل مسالمهم وفتح لي الفرصة لأن أحتفظ بالمديونية  
التي عهدتها لي الحكومة المصرية . وكنت في شبابي لا أبالي كثيرا

بالدين ولكنى كنت أعتقد أنى بالتربية والعقيدة مسيحي مؤمن بالمسيحية وان كنت أميل الى التسامح وانى أن يختار كل انسان طريقة الصلاح التى يشتهيها . ولم يكن دعائى الى السودان بصفتى مرسلا مسيحيا وانما كانت المهمة التى اعرفها ومن أجلها ذهبت أنى موظف فى خدمة الحكومة المصرية .

وعند طلوع الشمس أمرت بعرض الجيش وانتظروا ثم أوصلت الى زوجال لكى يبعث الى القاضى أحمد واد بشير وأيضسا التاجر المعروف محمد أحمد . فلما حضرا حادثتهما فى القستون العامة ثم طلبت منهما أن يحضرا العرض معى داخل القلعة . ثم انخلت القيادة فى العرض وأمرت الجنود أن يسطفوا فى هيئة مربع ثم امتطيت جوادى ودخلت داخل المربع ومعى الضباط والموظفون ثم قلت :

« ايها الجنود ، لقد كابدنا المشاق العديدة معا ونزلت بنا الكوارث الفادحة . وما الكوارث الا معك الرجال . ولقد جاهدتم وقاقتم ببسالة الأبطال وليس عندي شك فى أنكم ستداومون على ذلك . فاننا نقاتل من أجل مولانا الخديو حاكم البلاد ومن أجل أنفسنا أيضا . ولقد اشتهرتم معكم فى الأبراج والأبراج وعندما كان يلوح الخطر كنت على الدوام معكم لا نخيم فى اللقاء . وانى وان كنت رئيسا فحياتى ليست أغلى من حياتكم » .

فصاح معظمهم : « الله يخليك » .

فاستألفت الولى : « ولقد سمعت أن البعض يعدنى أجنبيا غير مؤمن بالاسلام ولكنى اقول لكم انى مؤمن كما أنتم مؤمنون . أشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله » .

وعندما نطقت بهذه الشهادة رفع الجنود بنادقهم ثم هزوا  
رماحهم وصاحوا بالتهنئة وتقدم الضباط والموظفون لتهنئتي  
بالإسلام . ولما عاد النظم قلت اني سأصلي معهم ثم أمرت فرج الهندى  
بإعادة الصلوة ثم صرف الجنود .

ولما انتهى كل شئ دعوت زوجال بك والضباط لى يصربوا  
القهوة ويتناولوا القاء صى . ودعنى الجميع وهم يؤكدون  
لى فرحهم وطاعتهم ولما غادرونى أمرت فرج الهندى بأن يشتري عشرين  
ثورا وأن يوزعها بين رجالنا « كرامة » وأن يعطى لكل ضابط ثورا  
ودفعت أنا ثمن هذه الثيران .

وكان الأمر الذى أحدثه عملى فى رجالنا أكبر مما انظرت  
فلم أعد أرى منهم ذلك الاكراه الذى كنت أراء منهم عندما اطلب  
منهم الخروج فى التجريبات وأن كان عدونا يزداد كل يوم لى  
المدد والقوة .

وكان التجار الذين كنت أدفع لهم نفودا لى يرسلوا الى  
الاخبار قد أخبرونى بأن الجيوش ترسل من القاهرة الى الخرطوم  
وأن الحكومة تنهيا بسرعة لارسال تجريدة بقيادة ضباط أوربيين  
لاسترجاع كردوفان . أما الأهالى فقد انضموا جميعا بلا استثناء الى  
المهدى وكانوا مصممين على المقاومة .

وكانت جميع القبائل فى جنوب دارفور قد ثارت ولكن الجزء  
الشمالى بالنسبة لمراكزنا الحربية وبالنسبة لاتصال قبائله بصحر  
واستفادتهم من القوافل الصادرة من صحر اليهم لم تكن قد يست  
فيه بعد إمارة للثورة . ولم نجتمع بالطبع أية ضرائب منذ وقت  
طويل ولذلك كنا ندفع مرتبات جنودنا من المال الاحتياطى .

وبدأت انتصارات المهدي المتوالية تظهر أثرها في زوجال بك  
 ولاحظت تغيرا في سلوكه وإن كان على النوام يراعي اظهار الولاء  
 والطاعة . وقد وضع لي أنه في قلبه يحب الفوز للمهدي أين عه  
 لأنه كان يعرف أنه في مثل هذه الحالة سيحود فوز المهدي عليه  
 بأكبر المنافع . وكان محبوبا لدى رؤوسيه وكان بالنسبة إلى أهالي  
 السودان يعتبر حاصلا على قسط من التريبة والتعليم وكان يحلم  
 الناس مادامت هذه الخطة لا تمس جيبه ، وكان يشاع عنه أنه سخي  
 وكان ثريا له منزل كبير ومائة مبسوطة وأظن أن سبب حب  
 رؤوسيه له أنه كان يفتخر لهم ذنبوبهم ويسمح لهم بملء جيوبهم  
 بطرق خفية غير مشروعة . وقد توصل أكثر قرابته بواسطة نفوذ  
 إلى الحصول على مناصب حسنة وصاروا بذلك أربابا ، وعلى ذلك  
 رأيتني مضطرا إلى أن احتاط له . فإن حب الجمهور له وموافقته على  
 آرائه وأطاعته أوامري جعلتني أكره وجود شقاق صريح بيني وبينه .  
 ومثل هذا الشقاق لو حدث كان يؤدي إلى تقضي سلطتي . وعلى ذلك  
 اضطررت وقتيا إلى أن أتركه وشأنه . والمثل السوداني يقول :  
 « أبعد النار عن القطن وأنت ترتاح » . وكان هذا المثل ينطبق على  
 حالتنا ولذلك لزمعه .

ثم طلبت لرج أفندي وواد عاصي وقاضي البشير وكانوا كلهم  
 يوالون الحكومة ويرجون بقلوبهم نجاحهم فانضمت إليهم بالخطة  
 التي اتفقت عليها فاجتمعوا على الموافقة . ولما خرجوا استمعيت زوجال  
 بك وقلت له :

« اسمح يا زوجال . أنت معي هنا ولا يشهدنا نحن الاثنين  
 إلا الله . فأبى عليك المهدي قد فتح كردفان وقد سقطت الأيضي  
 وانضم إليه جميع الأهالي والبلاد التي بيننا وبين حكومتنا وأقامة  
 تحت يديه . وقد ماله قلبك إليه عندما رأيت نجاحه فهل سميت

كن : « صنعتك لك الحكومة ؟ وهل نسيت الوسام والرتبة اللذين منحكما المدير بوصاطة حكومة السودان ، وهل يمكنك أن تقضى واجباتك المكلف بها بحكم منصبك ؟ » .

فقال زوجال : « إن المهدي ابن عيسى ولا يمكنني أن أنكر أن قرابته لي تجعلني أميل إليه . ولكني مع ذلك قد قمت في الماضي بجميع واجباتي وأتمنى أن أقوم بها أيضا في المستقبل » .

فقلت : « لقد قمت بواجباتك على وجه العموم ولكنك لم تصل اتصال بالمهدي فلم تذكر ذلك عني ؟ » .

فاجابني زوجال بسرعة : « اني غير متصل به مباشرة ولكن التجار الذين يقعون عليه من كردوفان ينقلون الى رسائل شفوية عنه وقد اقسمت حملة هذه الرسائل الا اخبرك ، وهذا هو السبب في كتمانى امر هذه الرسائل ولكني اؤكد لك أنه ليس فيها سوى اخبار عن كردوفان وأنه لم يحاول أن يجعلني أنضوى الى لوائه » .

فقلت له : « ليكن الأمر كما قلت . فاني لا اطلب منك أن جرد نفسك ولكن اخبرني ماذا سمعت عن تلك التجربة التي بهتها الحكومة لاسترجاع كردوفان » .

فقال : « سمعت أن جيشا عظيما وصل الى الخرطوم وأنهم سيطرولون به فتح كردوفان » .

فقلت له : « إن يحاولوا ذلك فقط بل هم سينجحون في فتح كردوفان . وأنت يا زوجال رجل تقهم وتعرف أني اذا اضطررت بالطروف فانه يمكنني أن أمتنع أذاك ، ولكني لا أظن أنه من الحكمة

أَنْ أَهْضِلَ ذَلِكَ الْآنَ . دَعْ عَنْكَ أَنَّهُ مَا يُؤْلَمُنِي أَنْ أَتَّخِذَ أَجْرَاحَاتِ ضَمِكَ  
فَلَمَّا خَلَعْتَ الْحُكُومَةَ يُولَاهُ حِلَّةَ طَوِيلَةٍ كَمَا أَنَّكَ صَادَقْتَنِي مَدَّةَ طَوِيلَةٍ  
وَلِذَلِكَ فَأَنَا مُسْتَعِظٌ عَنْكَ الْآنَ وَبِمَكْنِكَ أَنْ تَلْجُبَ إِلَى كَرْدُوفَانٍ . فَإِنَّ  
الْحُرُكَاتِ الدِّينِيَّةَ يَكُونُ لَهَا لَمَّةٌ وَزَوْقٌ عَلَى بَدَنِ قِيَعُطَفٍ عَلَيْهَا  
الْإِنْسَانُ ، وَلَكِنْ عِنْدَ الْإِحْتِكَافِ بِهَا تَطْهَرُ حَقِيقَتُهَا مُنْجَذِبٌ عَنْهَا بِجَازِيَتِهَا  
وَتَزُولُ عَنْهَا رَوْعَتُهَا . وَسَاكِلُكَ بِحِلِّ رِسَائِلٍ إِلَى الْخُرُطُومِ سِرًّا  
وَسَيَكُونُ مَضْمُونُ هَذِهِ الرِّسَائِلِ شَرْحَ الْمَهْمَةِ الَّتِي أَرْسَلْتُ فِي خَاتَمِهَا .  
وَبِمَا أَنَّ التَّجْرِبَةَ مُتَشَرِّعٌ فِي السَّفَرِ إِلَى كَرْدُوفَانٍ فِي الشَّهْرِ الْآتِي  
فَأَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَجْهَدَ جِهَدَكَ فِي مَنَعَ الْمَهْدَى مِنْ أَرْسَالِ تَجْرِبَتِهِ  
إِلَى دَارْفُورٍ أَوْ تَحْرِضَ النَّاسَ عَلَى الثَّوْرَةِ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَإِنَّ  
الْمَافِئَةَ تَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ . وَإِذَا نَجَحْتَ التَّجْرِبَةَ فَأَنَا أَتَحْمِلُ كُلَّ  
التَّجَبُّعَاتِ الَّتِي تَقَعُ عَلَيْكَ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا تَتَخَشَّاهُ . وَلَكِنْ إِذَا نَجَحَ  
الْمَهْدَى . . . لَاقْرَأْ اللَّهَ . . . فَهَذَاكَ يَقْطَعُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْحُكُومَةِ فَلَا يُمْكِنُ  
تَخْلِيصُنَا وَالْمَرْجَحُ وَكَقَوْلِكَ أَنَّنَا نَخْضَعُ لِلْمَهْدَى ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَتَسَلَّمُ  
الْبِلَادَ وَهِيَ فِي حَالَةٍ حَسَنَةٍ . وَلَكِنْ أَضْمِنُ وَلَاكُ وَتِيَامُكَ بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ  
خَيْرَ قِيَامٍ صَاحِلًا بِزَوْجَاتِكَ وَأَوْلَادِكَ هُنَا فِي الْقَلَمَةِ . وَصِيحْبِهِ  
الْمَهْدَى حَسَابًا لِهَذَا الْعَمَلِ وَلَا يَعْزِضُ أَحَدُكَ لِلْخَطَرِ .

فَقَالَ زَوْجَالُ : « سَأَتَّخِذُ تَعْلِيمَاتِكَ وَأَتَّبِعُ لَكَ اخْتِلَافِي . وَهَلْ  
تَرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ خُطَابًا لِلْمَهْدَى ؟ » .

فَقُلْتُ : « كَلَّا لَا أَجْرِدُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ آيَةٌ مِمَّا لَمْ . وَأَنَا  
عَارِفٌ تَمَامًا بِأَنَّكَ مُسْتَعِظٌ عَلَيْهِ حَدِيثُنَا هَذَا . وَابْنُ عَمِّكَ رَجُلٌ مَا كَرِ  
وَسَيَسْتَعِظُ ذَهَابَكَ إِلَيْهِ بِقَدْرِ امْتِنَانِهِ وَلَكِنْ حَادِثَتْ قَلْبِي بِوَعْدِكَ لِي فَأَنَا  
أَعْنِي كُلَّ الْعَنَاءِ بِأَمْرِكَ . وَنَحْنُ أَنَا قَدْ اسْتَعْتَبَيْنَا عَنْكَ أَسْمِيَا فَأَنَا  
سَنَسْتَعْمِرُ عَلَى دَفْعِ مَرْتَبِكَ بِالْكَامِلِ . أَمَّا إِذَا لَمْ تَفِ بِوَعْدِكَ فَسَأَنْ  
ضَمَانَنَا لَا يَسْتَمِرُّ وَأَوَدُ مِنْكَ أَنْ تَشْرَعَ فِي السَّفَرِ بِأَمْرٍ مَا يُمْكِنُكَ  
وَبِكُفَيْكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَسْتَعِدُّ فِيهَا . »

لقال زوجال : « انى اؤثر البقاء مع اهلنى ولكنى بما اناك تريد  
منى تادية هذه المهمة كى تمتحن اخلاصى فاننا اقوم بها وعلم قلبى  
الحزن » .

ثم ارسلت فى طلب فرج الفتى وواد عاصى والتقاضى واخبرتهم  
بمضور زوجال بالمهمة التى كلفته بها . فبدا عليهم شئ كثير من  
الانفعال والذهمة وطلبوا من زوجال ان يقسم يميننا بالخلاء فانقسم  
بالقرآن وبالطلاق بان يلزم الاتحاق الذى بيننا .

فكتبت الخطابات الى الحكومة ووصلت الحالة فى دارفور وبعد  
ثلاثة ايام خرج زوجال فى رحلته ومعه ثلاثة من الخدم فاصدا  
الابيض عن طريق طوبشه . وكان معروفنا فى كل مكان انه من  
قراية المهدي . فلم يكن لذلك يخشى احدا وعلمت بعد ذلك انه لويل  
فى كل مكان بطاوة واكرام .

واخلت على عاتقى الآن ان اركز مدافع جديدة فى زوايا  
الثلمة وجصت كل ما امكنتى جمعه من القمح . ولكن هذه المرة  
القصيرة من السكينة لم تنم طويلا لقد حرض الشيخ الطاهر  
الدبوى زوج ابنته بشارى بك واد بكير على القارة على داره .  
وكان بشارى بك رئيس قبيلة بنى حلبة فارسلت له خطابا احمده  
فيه . ولكنه افار على عرب المصرية وقتل منهم عددا واسر نساء  
واطفالا . فمبات ٢٥ من الجنود النظاميين و ١٠٠ من البلازجى  
وسلمت قيادتهم الى مطر احمد قراية زوجال . ولم استطع ان اجمع من  
الخيول سوى ٢٥ فرسا لان عربنا غريبا انتشر بينها وبهذه القوة  
خرجت قاصدا داره .



وبعد سير ثلاثة أيام بلغنا أمكة حيث أغار علينا بنو حلبة  
بقيادة بشير بك وكان معهم صديقي القديم جبر الله . ولكن لم يكن  
معهم من آلات النارية إلا عدد قليل ولذلك فرقناهم بسهولة . وفي  
اليوم التالي عاودوا الغارة في كلباسي وهي على مسيرة يوم ونصف  
من أمكة وهنا أيضا اضطرواهم الى الفرار بسهولة .

وقد مرّا رجالنا قلة خبائثنا الى صلاتي يوم الجمعة معهم  
لا الى قلة البنادق عند العدو ، ثم سرنا الى خشبة وخرجنا ضيقها  
وعرضنا عليه صلحا ولكنه رفض . ثم سرنا الى جورو على مسيرة  
تصنف يوم . وبينما نحن في الطريق كانت تتقدمنا طليعة مؤلفة  
من ٢٠ فارسا . فأغار عليهم بشاري بك وحده واسترق منهم وجرح  
أحدهم جرحا بسيطا ثم تلى جواده هو بين الطليعة وبيننا على حدود  
الغاية وعلى بعد ٨٠٠ ياردة تقريبا منا .

لم تقمتم نحوه ثلاثمائة خطوة فعرفته ولكني لم أرمه وأرسلت  
اليه خادما أعزل لكي يقول له : « ان الحاكم يقدم لك تحيته ويخبرك  
بأنك اذا كنت ترغب في أن تظهر بسالتك لزوجتك فليست هذه هي  
الطريقة لأظهار ذلك . وانك اذا عدت الى مثل ما فعلت فانك لابد  
مقتول » .

وكانت الطريق بيننا وبينه خالية الا من بعض الأشجار هنا  
وهناك ورأيت الخادم ينهب اليه ويقف أمامه يضح ثوان ثم عاد  
اليينا حسرا وقال : « ان بشاري بك يقدم لك تحيته وهو يقول  
انه لا يرغب في الحياة بل يشتهي الموت » .

يا لفلة الرجل . لقد وجد ما اشتهاه .

ولما بلغنا جورو صنعنا زريبة وكنت متكداً بأن يشارى بك  
سجنور ويغير علينا ولذلك أمرت الجنود بأن يخرجوا من الزريبة  
نحو ثلاثمائة خطوة ووضعت الخيالة على الجانبين وأرسلت عشرين  
قارساً إلى الخلبة لكي يشر العرب بهم ويخرجوا إليهم وما كان  
هؤلاء المشركون يخرجون في مهبهم هذه حتى رأينا عرييين راكبين  
قد ركضا فرسيهما إليهم وفي يد كل منهما حربة قد أشرعها . وكان  
هذان الرجلان يشارى بك وخادمه . وقبل أن يبلغ رجلنا عثر  
فرسه ووقع وبينما كان خادمه يساعده على النهوض والركوب  
انقلع عليه رجلنا فدموه بمطرده في وجهه فلذا في عينه فكه . أما  
خادمه فلما أصيب بحربة نفذت في ظهره وقطنه . وركضت فرسي  
أنا إليه فوجدته في التزع مان رجلنا طعنوه بعد وقوعه مرتين  
بالحراب . وهجم علينا ابنه لكي يخلصه فجرح ولكنه نجا بنفسه  
وقد كان معه شيخان وهما شرطيه حبيب الله والنوم قتلا كلاهما .  
فقبضنا على خيولهم جميعاً ثم هتفت بالجنود محضروا إلينا ماركيت  
وراء كل خيال واحداً من المشاة وطلبت منهم أن يطاردوا العدو  
لامتنادي لهم أن يذهبوا للقتال بعد موت قادتهم .

وركضنا خيولنا نحو جبلين فوجدنا العرب وهم في قرارهم  
نابرت الجنود بالقرول عن الخيول وأطلق النار عليهم ثم حولت  
الخيالة إلى بني حطبة . ولم تشق على أحد في هذا القتال لأن  
رجلنا كانوا عشرين على الاتهام للشيخ عيسى الذي قتل قريشاً  
من هذا المكان .

وبعد ساعات قليلة تم تشتيت العدو فمددنا إلى الزريبة .  
ونحن في طريقنا وجدنا جثة يشارى بك فطلب مني الضباط أن

يقطعوا رأسه لكي يرسلوه إلى داره ولكني احتراماً لابن أخيه الذي  
طلب الصلح بالأمس كتبتهم عن هذا العمل وأعطيتهم الجثة في كفن  
من القماش وحضرت أنا بنفسى حفلة دفن هذا الصديق القديم الذي  
صار مدونا على الرغم منه واشتهى الموت موجدته .

وفي هذا القتال قتل منا رجلان وجرح عدد آخر وكان بين هؤلاء  
سلامة الذي حمل خطبتي وأنا في لم ورقة إلى داره وكان على  
الدوام في مقدمة المخبرين .

ثم عدنا إلى جودو . وكنت قد أصبت بدودة غهنيا في كلنا  
ساقى فلم لكن لمستطيع البقاء على المرحج لقعدة ما كلن بس من  
الأم . ولم تكن ثم لقعدة من البقاء بعد أن سحقتنا بنى حطبة فعندنا  
إلى داره .



## الفصل الثامن

### حملة هكس باشا

بعد أن سقطت الأبيض في يدى المهدي أخذ يلتفت الى زيادة  
قوته . وكان اتساره على ضفتى النيل يوافونه بكل ما يجد من  
الاخير فكان يعرف ان عبد القادر قد طلب امداداً من القاهرة .  
وكان يعرف ان هذه الامداد قد وصلت وان الحكومة عاتية على  
استرجاع المديريات التى خرجت من يدها . وكان هذا هو سبب  
الحمله في الدموه الى الجهاد وكان يذكر اتباعه بان الحرب توفىك  
ان تشب وانهم منصورون فيها .

وكان جيجلر باشا قد نجح في دويم في نوفمبر سنة ١٨٨٢  
كما نجح ايضا عبد القادر باشا في معقوق في يناير سنة ١٨٨٢  
واحرز كلاهما النصر . ولكن المهدي لم يكن يبالى بهذه الهزائم  
وانما كان همه منصرفاً الى تلك التجريدة التى كانت تهيئها الحكومة  
فى الخرطوم بقيادة غباط اوردوبيين لكي ترسل الى كردوفان .  
ولذلك سارع الى نشر المنشورات يدعو فيها القبائل الى ترك بلادهم  
والانضمام اليه . وعندما كانت تجتمع هذه الجبوع المعديدة متده  
كان يعظهم بحماسة ويحثهم على الزهد في هذه الدنيا والاهتمام  
بالآخرة وكان يقول : « انا اخرب الدنيا وامر الآخرة » .

وكان بعد الانصار المطيعين له بلدات النعيم التي لا يمكن عقلا  
ان يصلها وينتشر المخالفين بمقلب الجحيم . وكلفت تذايع المنشورات  
في هذا المعنى في كل مكان وكان يبعث للابراء يطلب منهم الا يفتسوا  
لحداً في خدمتهم سوى اولئك الذين يحتاجون اليهم في الزراعة .  
ولما من كثرت في فنى عنهم فطليهم ان يرسلوهم اليه لينضووا الى  
لوائه .

وكان الاولاد والنساء والرجال يهرعون الى الابيض لكي يروا  
هذا الولي ويسمعوا ولو كلمة واحدة من وعظه . وكان الجهلة  
يرون في وجهه ما يدل على الوحي ولقاه الرسول الحق من عند الله .

وكان يلبس الجبة والسروالين ويتحزم عليهما بحزام من تش  
ويضع على رأسه طائفة يتعمم عليها ثم يقف خائفاً امام انصاره  
ويحتمهم على حب الله والوحد في هذه الدنيا . فلما دخل بيته لغير  
كل هذا اذ كان يعيش في قرب وتعميم بحيث تسترقه شهوة الطعام  
والنساء فينغمس فيها انغماس سائر السودانيين . وكانت النساء  
او الفتيات اللواتي يؤسرن يحضرن امامه فيختار اجملهن ويضمهن الى  
حريمه . اما اللواتي كن يجدن الطهي فكن يرسلن الى مطبخه .

وبعد سقوط الابيض اخذ يفكر في تعيين الخليفة الرابع وقدر  
رايه على ان يمين محمد السنوسي وهو اكبر شيخ ديني في شمالي  
افريقيا لهذا المنصب . فترسل ماهر واد اسحق برسالة الى  
السنوسي لهذا الغرض . ولكن السنوسي نظر بلذراء الى الرسول  
ولم يكلل نفسه بشعة الاجابة .

وقد فرغ المهدي في تنظيم حكومته . وكلفت ادارته غاية في  
البساطة . تأسس أولاً بيت المال ووضع في رئاسته صديقه الامين

أحمد وأد سليمان وكان يجيى الى بيت المال هذا جميع العشور  
والفطرة والزكاة المأخوذة على جميع الخنثى أو الأملاك التى  
استصغيت من أصحابها والخراجات التى تفرض فى الممتلكات وشرب  
الخمر والتخخين . ولم يكن هناك نظام لإيرادات الحكومة  
ومحروقاتها . ولذلك كان أحمد وأد سليمان حراً فى الإعطاء والمنع  
من يشاء .

وكان القضاء فى يد القاضى الذى أطلق عليه المهدي اسم  
« قاضى الإسلام » وكان له مساعون . وكان أول من حصل على هذا  
المركز أحمد وأد على الذى كان شخصياً تحت إدارتي فى شقة وكان  
بعد الثورة فى مقدمة المخبرين على الأبيض . وكان المهدي وخلفاءه  
يحافظون لأنفسهم حق محاسبة أى مجرم وخاصة ذلك الذى يشك فى  
مهدوية المهدي . وكان الموت غالب المجرم فى هذه الحالة . ولما كانت  
هذه العقوبات تخالف الشريعة فإن المهدي منع درس الفقه ولمس  
بتحريق جميع هذه الكتب ، ولم يكن يسمح بقراءة شيء غير القرآن .  
ولكنه مع ذلك لم يكن ياذن لأحد بقرحة علناً .

وكانت المواصلات بين المهدي وسكان الجزيرة الذين كانوا  
يعتبرون أنفسهم اتصاره المخلصين لا تنقطع . وعرف منهم لخبيراً  
عن سفر عبد القادر الى كاره وسنار ومعه قوة كبيرة وكانت هذه  
المدينة قد حاصرها أحمد الكاشف ولكن عبد القادر بكاه حله فى  
مشرق الوادى ورفع الحصار . وطارد صالح بك النخري حتى جبل  
سرخى وأجلاهم الى صحراء بين هذا الجبل وبين كاره ولم يكن بها  
ماء شملت كثير منهم بالمطش . وهذا المكان لا يزال يدمى منذ  
السودانيين « تبكى وتسقط » للذكرى الذين ماتوا عطشاً فيه .

ولكن هذه الهزائم لم تضعف حب الجمهور للمهدي . وليس  
شك فى أنها كانت تخفف حبه الموظفين وقتياً ولكنها لم تكن تمنع

مجيء اليوم المتوقع من الجميع . ولو كانت نصائح عبد القادر باشا قد سمعت لغير حال السودان . لقد كان لا يوافق على إرسال تجريدة كبرى لتطهير كردفان ولكنه كان ينصح بتوزيع الإمدادات التي تأتي من القاهرة على مراكز على النيل بحيث تكون هناك حلييات تم يترك الثوار وشأنهم مؤقتا . وكان عنده ما يكفي لقمع الثورة في الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق وأيضا لمنع تقدم المهديين من الغرب .

ولو ائتمت هذه النصائح لكان الأرجح أن سوء إدارة المهدي تؤدي إلى الخلل والتساق فيمكن للحكومة استرجاع ما فقدته بعد مدة قليلة . ولم يكن في مقدوري الاحتفاظ بدارفور أكثر مما احتفظت به وحتى لو فرضنا أنه وقع في يد المهدي لكان هذا ليس الشرين . ولكن ولاية الأمور في القاهرة لم يكتفوا من رأى عبد القادر باشا وكانوا يرون أنه يجب أن تعاد للحكومة كرامتها وسلطانها بها كلفها ذلك ، ودبروا لذلك تجريدة يقودها عكس باشا الانجليزى ومعه ضباط أوروبيون لاستدعى عبد القادر باشا إلى القاهرة وقلم يخله علاء الدين باشا الحكم العلم للسودان الشرقى سابقا . وعرف المهدي كل ذلك واستغل منه .

وفي هذه الأثناء وصل زوجال إلى الأبيض حيث احتفل باستقباله فطلق مائة مدفع تكريماً له وأصبح في كل مكان أن دارفور قد سلمت نفسها للمهدي الظهير . واعتبر أيضاً رجوع زوجال إلى دارفور ضعفاً قوياً على دخول دارفور في طاعة المهدي وانها لذلك ليست في حاجة إلى إرسال قوة من الجيش ووجه المهدي الآن كل عنيفته إلى مرس الحلة في النيل .

وبعد وصول عكس باشا قلم في الحال إلى كلوه وهزم الفاترين في مرابية في ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٢ وقتل أحمد المكاشف .



وكان عثمان حجة أحد النخاسين في سواكن قد بعث المهدي لكي ينشر الدعوة إلى الجهاد في بلاد مختلفة وقد أثبت المهدي بعد نظره في اختيار هذا الرجل الذي ذاع اسمه بعد ذلك وكان يقدر أنه إذا ثار السودان الشرقي لمن الحكومة ترمك وتؤخر تجريدة كروفلان أو لا ترسلها مطلقاً .

ولست انخل في تفاصيل الوقائع التي دارت بين هذا الأمر الجسور وبين الحكومة عنها معروفة مشهورة ولا تحتاج إلا للإشارة إليها هنا فقط . ويكفي أن أقول أن المهديين نجحوا في شرق السودان ولكن نجحهم لم يؤثر في الحكومة كما رغب المهدي بل بقيت على منها من تهينة التجريدة لكروفلان . وفي أواخر سبتمبر سنة ١٨٨٢ غادر هكس باشا الخرطوم إلى النويم على النيل الأبيض حيث انضم إليه حلاء الدين باشا الذي طلب إليه أن يصحب التجريدة .

وإنى لا أشك في أن ولاية الأمور في القاهرة كانوا يجهلون الحالة في كروفلان إذ كانوا يتصورون أن إرسال مثل هذه التجريدة لكروفلان يقضى على المهدي الذي صار الآن الحاكم المطلق في المديرية الغربية وليس فيها أحد سوى أنصاره ، فهل نسوا أن المهدي أبداً القوى التي كان يتوحد رائد وشلالى ولطقى وأن باره والأبيض وغيرهما من البلاد قد خضعت له وأنه أصبح يملك من البنادق أكثر مما يملكه هكس في تجريدته ؟

وهل غلب عنهم أن هذه البنادق قد صارت إلى أيدي رجال ماهرين يعرفون كيفية استعمالها . وأن من هؤلاء الرجال من كان يستخدم البازنجر ويصيد الفيلة والنمل وأنه قد تلقت تحت أيديهم لمرق عربية ماهرة ؟ ثم ألم ينضو إلى راية المهدي آلاف من الجنود الظالمين وغير الظالمين الذين كانوا في خدمة الحكومة قبلاً ؟ وهل

خطر لهم ان هؤلاء الرجال كانوا ينوون ترك الانضمام الى هكس  
باشا عند رؤية جيشه !

لقد جهلت الحكومة في القاهرة كل ذلك وخاطرت بحياة  
الآلاف لجهلها هذا . ولظن انه كلن بين امراء الحكومة من كلن  
يعرف المودان ويعرف المثل القائل : « الى ييلضد لى هو  
أبويا » والمهمى قد استولى على البلاد ويمكن أن نقول سجازا انه  
تزوجها . لذلك نظر اليه السكان كما ينظرون الى مولاهم وحاكمهم  
ولم يكونوا يباليون ولتخذ بما نلوه من رعية في الحكم السابق .  
ولا أنكر ان هناك شواذ ولكن ملاحظتى هنا تنطبق على الكثرة .

وكنت تجريدة هكس مؤلفة من عشرة آلاف رجل تسير في  
هيئة مربع في وسطه ستة آلاف رجل وكان سيرها في أحشاب ونبات  
يزيد طولها على ثمانية الألسان فلم يكن في مقدور الجنود أن يروا  
الى أبعد من مائتى ياردة الى ثلاثمائة وذلك في الجهات المزروعة  
المكتوفة حيث يقطن بعض الناس ويكتشفون بعض الأرض للزراعة  
وكان عليهم أن يكونوا مستعدين على الدوام لملاقاة عدو أكثر منهم  
عدداً وعدة وتجربة بالحروب وقد اشتهر رجاله بالقول والشجاعة  
والانضاح ولم يكن في طريقهم سوى آبار قليلة وان كان بها  
مستنقعات عديدة .

ولو أنهم كانوا أخذوا الطريق الشمالى ، طريق جبروه وباره  
لوجدوا الأرض مكتوفة أمامهم والماء وبعيراً في عدة أماكن . وهذا  
الماء اذا لم يكن يكفى الجيش فانه يستعمل الوسائل الحثيفة في  
الاستقاء واستنباط الماء كلن يكفيه . وفي هذه الحالة كان يمكن  
الاستمانة بقبائل الكبابيقى في مقاتلة الهندى . وكان يمكن عندئذ  
الاستغناء عن عدد كبير من الرجال والحيوانات التى استعملت في  
النقل .

وكانت الجمال في وسط الجيش تؤلف غابة كثيفة من الأعناق والرؤوس . وكان من المستحيل أن يطاق العدو عيارا واحدا دون أن يصيب أحد هذه الجمال فاته إذا أخطأ أحدا من الأمام لم يخطئه الإصابة في الوسط أو المؤخرة .

وكان يمكن ترك هذه الجمال مع الحرس في دويم أو في الشط ثم إرسال فصائل من الجيش لاحداد الطريق في الشمال أو الغرب أو الجنوب وإنشاء مراكز حربية في البلاد التي تخضع ، ويدعى أن هذا العمل كان يحتاج الى علم ولم يكن في ذلك من بأس إذ لم يكن ثم داع للمجبة . ثم يجب أن ننكر أن الخلاف بين هكس والضباط الأوربيين كان عظيماً كما كان هناك أيضاً خلاف بين علام الدين باشا وبين الضباط المصريين .

ثم كان هذا الجيش مؤلفاً في الأغلب من جيش حراس النخل الذي انتهزم أمام الاتجليز ولا شك في أن الجنرال هكس كان يعرف هذه الأشياء وقد سأل مرة في الدويم عن الموقف فقال : « لنا مثل المسيح بين اليهود » ومع ذلك سار في طريقه وربما كان يعتقد أنه إذا رفض السير فإن شره يجرح .

واخذت هذه الكتلة المؤلفة من البشر والحيوان تسير مسيراً بطيئاً وكان المكان الذين يقطنون في طريق الجيش قد فروا . وكان العرب يظهرون فجأة ثم يختفون من وقت لآخر . وكان هكس ينتظر خلال نظارته في إحدى المرات فرأى ترسلاً مخبئين بين الأشجار فأمر بالوقوف وأتلف تسمياً من الخيالة لكي يتقدم . وبعد دقائق عاد الخيالة وهم في ارتباك شديد بعد أن غتدوا متدأ من رجالهم وجرح عدد آخر ودعوا أنهم رأوا قوة كبيرة . فالتفت هكس الجنرال فركار ومعه نصف اورطة لكي يذهب الى مكان المناوشة ويحلب الحالة

هناك . فناد وقال انه رأى ستة مقتولين وقد جردوا من كل شيء .  
ولكنه لم ير احداً من العدو وكان هناك أكثر عشرة من حوامر الخيل  
فكان قسم الخيالة قد انهزم أمام هؤلاء العشرة .

وفي اليوم التالي ظهر ثلاثة من الفرسان فهجم عليهم فاركار  
وليس معه سوى خافيه فقتل اثنين وعاد الثالث أسيراً . وقد  
أخبرني من هاتين الحادثتين بعض من بقى من التجربة وكانوا  
يصلون سير الجيش وهو في هيئة المربع كأنه سلحففت ترحب .  
ولم يكن من الممكن وهو في هيئته هذه أن تسرح الجمال للرعى فلم  
تاكل هذه الجمال سوى ما وجدته وهي محصورة في هذا المربع  
وكان ما وجدته قليلا فكان يتفق منها كل يوم ثلاث . وكانت تاكل  
بطانة الرجال المحشوة بالتبن . ولا خلت الرجال من التبن لصق  
الخشب بلحمها فأذاها اذى كبيرا ومع ذلك كفت هذه الجمال  
تجر سيقاتها وتسير حاملة لتغاليها وأتقل من وقع من أخواتها .

ولا شك في أن فاركار والبارون شكيندورف والماجور هيرلت  
وشيرهم من الضباط الأوربيين وبعض كبار ضباط المصريين كانوا  
يجهدون جهدهم لكي يساعدوا هكس باشا في هذه الظروف  
الحرجة ، ولكن معظم الجيش كان يجهل تماما الاخطار الموشكة  
أن تقع به . وكان لوطي المسكين يرسم صورة وكان دونوفان  
يكتب مذكراته . ولكن أين ذلك الذي يمكنه إرسالها الى بلادهم ؟

وما هو أن عرف المهدي أن الجيش قد شرع في السمر حتى  
إذاع المنشورات بين القبائل يدموهم فيها الى الجهاد ، ويمد فيها  
المطبخ بالمكثاة والمانس بالعقب وفادر هو الأبيض وضرب خيئته  
تحت شجرة كبيرة ينتظر قدوم الجيش المصري والتقى به خلفاؤه  
وأمرأؤه فتكون من ذلك معسكر ضخم . وكانت جيوش المهدي

تعرض كل يوم وتفرغ الطبول وتطلق المدافع وتدريب الجنود والخيول  
وكظم يستعد للمركة الكبرى . كان المهدي قد أرسل الأمر الحاج  
محمد أبو جوجه وعمر واد الياس باشا وعبد العظيم مسعد الى  
النويم لكي يراقبوا تقدم الجيش ويقطعوا مواصلاته ولكنهم أمروا  
بالا يهاجموا الجيش بلقذات . وقد علموا قبل سمرهم مقدار القوة  
المصرية ورجعوا المهدي في أن يسمح لهم بمهاجمتها ولكنه رفض .

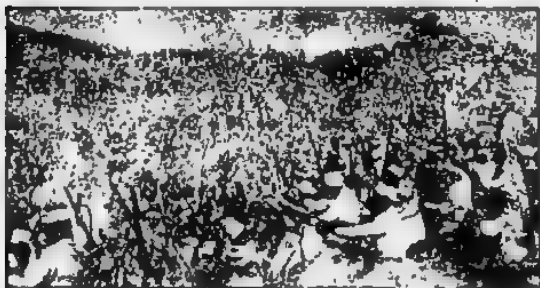
وقبل أن تصل القوة الى رحلد رأى جوستاك كلوتز ( وهو  
صف ضابط المني وكان قبلا خدام البارون سكندروف ثم صار  
خادما عند مستر أوففلمان ) أن المهدي سيقتض عليه إذا التقى  
بها فمر من الجيش بنية أن يذهب الى المهدي لكي ينضم اليه .  
وكان يجهل البلاد فاختار يجرول وفي صباح اليوم التالي عثر عليه  
المهديون وكتفوا يوشكون أن يقتلوه ولكنه صار يجاهد بالقليل الذي  
يعرفه من العربية لكي يفهم أنه يرغب في مقابلة المهدي فترسل  
مع الحرس الى الأبيض . وكان لابسا ملابس الخدم ومع ذلك تواجد  
عليه الناس زرافات لكي يروا هذا الانجليزى الذى جاء للمهدي يرجوه  
في طلب الصلح . ولما أحضر الى المهدي صار هذا يسأله عن  
التجريدة أمام الاوربيين العنصرين . ولم يتردد جوستاك في  
وصف الجيش أسوا وصف وأن سقوطه ظل من الشجاعة والوفاء .  
وارتاح المهدي الى هذه الاخبار ، ولكن جوستاك أخبره أيضا أن  
الجيش لن يسلم وأنه لا بد من معركة بينه وبينها عن آخره ، ودعا  
المهدي جوستاك الى الاسلام فاجاب واسلم ثم وكل المهدي به  
عثمان واد الحاج خالد .

وولى المهدي من الظفر الى حدائقه وضع المنشورات العديدة  
في طريق الجيش يدعو هكس باشا الى التسليم . ويدهى أن هكس  
باشا وضباطه لم يجيئوه ولكن كان لهذه المنشورات بعض التأثير

في اولئك الذين كانوا يخافون على حياتهم . واستعمل بعضهم هذه  
 المتصورات لأغراض وبطريقة افلحوا منها المهدى اشد العيظ وكان  
 بعد ذلك يعاقب الذين نجوا من القتل بأشد العقوبات اذا علم انهم  
 تنسوا هذه المتصورات المهمة بلية طريقة 11

وقبل ان يبرح عكس باشا اليوم كانت الحكومة قد ابلغته  
 انه سينضم اليه ستة آلاف رجل من جبل تاج الله ويضع مثلث من  
 عرب الحبابية . وكان كل يوم يتشوف لرؤية هذه القوة لكي ينتص  
 بها جنوده الذين خارت قواهم وضعفت آمالهم . ولكن هذه القوة  
 لم تصل اليه بل لم يصل اليه اى خبر عنها .

وعندما غادر عكس رحل تصد الى حلوية في دار غدايات املا  
 في ان يجد هناك ماء يستقى منه الجيش . وفي ٢ نوفمبر وصل  
 الى كنجيل التي تقع على بعد ٢٠ ميلا في جنوبي الابيض .



وكان المهدي في هذه الاثناء قد حمى جنوده واخبرهم ان النبي قد اوحى اليه ان عشرين الفا من الملائكة سيقطعون الكفار مع جنوده يوم المعركة . وفي اول نوفمبر برح الابيض القسدا الى بركة تلتصقت قواته الى جيش الامراء الذي كان قد ارسله قبلا واخذ الجميع في منلوثة المصريين والنضيق عليهم وكان العطش والامهاء قد عملا قوهم فطعما . وفي ٢ نوفمبر كان ابو انجة والجهادية السود مخفيين في غلجة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش الى الوقوف واقامة زريبة حوله وكانت النواب والرجال هدفا ظاهرا لا يخطئه أي رمل . فكان في كل لحظة يقع جبل او بئر او انسان بد اعياء السير . واستمر هذا التقبيل ساعات وكل فرد من الجيش يعاني الآلام من العطش ولا يستطيع السير الى اي جهة . ولم يخادر العدو مكانه حتى الاصيل وبقي بعد ذلك يراصد الجيش كما تراقب القطرة الفار . وكانت خسائر العدو قليلة فلم يقتل منهم سوى امر او اثنين وكان لخدمها ابن اليس باثنا ولا غرابة في قتله فقد تحصن وتهور حتى صار على قيد ذراع من الزريبة . وما اشد ما كان يعانيه هكس في هذا الوقت . اذ بدلا من ان يجد رجاله الماء كان العدو يطرهم رصاصة ومع ذلك كان الماء قريبا منهم لا يبعد ميلا واحدا . ولكن لم يكن معهم احد يعرف هذه الجهات وهم لو كفتوا يعمونها لما انتفعوا بهذه المعركة الا لنوات الفرصة .

. وفي الليل زحف ابو انجة ورجاله ثقتيا وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلفة من الناس والدواب وخرت قوى المصريين فكثفوا يتدبون حطهم فائتين « مصرعين يا مست ذلوت وقتك » اما السود فكثفوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذي كان يذهب في الهواء فوقهم وكثفوا يردون على المصريين بقولهم : « دي المهدي المنتظر » .

وفي صباح اليوم التالي تقدم حكي وقد خلف وراءه اكراما من القتل وبعض المدايح التي قتل رجالها . ولكنه قبل أن يقطع بيلا جمع عليه نحو مائة ألف من المتحمسين المتوجهين الذين خربوا الجيش ودخلوا الى القلعة وحدثت عندهم مظلة حائلة . ولم يحاول القبات للعدو سوى بعض الضباط الاوروبيين والخيالة الاكرام ولكنهم هوجبوا من كل جانب معطوا تقريباً من آخرهم . ثم قطع راس البارون سكندروف ورأس الجنرال حكي وحملوا الى المهدي لطلب في الحال كلوتز الذي صار اسمه الآن مصطفى وطلب اليه ان يعرفه مسلحي هذين القرايين ولكن المهدي لم يكن في حاجة الى التصرف فان كل أحد قد عرف انهما قتلا وبعد هذا النصر المبين عاد المهدي وطلبه الى بركة وقد أسكرهم هذا الفوز .

وكان في ميدان القتال عدد كبير من الأمراء والقبائل قد تخللوا لجمع الغنائم وأرسلوا الى بيت المال . وقد جردت الآلاف من القتل من جميع ملابسهم وأرسلت الى بعد ذلك بمدة مذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودلمان فقرأت كل ما كتباه وما أعظم مقدار ما قضيت من الحزن من هذه القراءة . فقد كتب كلاهما شيئا كثيرا عن الخلاف والشقاق في الجيش وعن الشجار بين الجنرال حكي وبين علاء الدين باشا . وقد حمل فاركار على رئيسه حملة قسرية لأغلاطه الحربية فقد أحس كلاهما بالنكبة قبل وقوعها ، ولذلك كان فاركار يلوم رئيسه لأنه مع معرفته بالحالة المعنوية السيئة للجيش خرج به للقتال . ولم يحصل الضباط الاوروبيون على أية معرفة ولكن يظهر ان لعد الضباط المصريين المدعو عباس بك معاونهم بعض المعاونة . وأذكر أنني قرأت العبارة التالية بقلم فاركار « سألت أودلمان اليهم عن المكان الذي ستكون به بعد ثمانية أيام فأجابني بقوله : هي العالم الآخر » .

وكلفت مذكرات أودلمان مكتوبة بهذه اللهجة أيضا . وكان قلنا بشأن فرار كلوتز ، وذكر هذا الفرار كمثال من شعور سالي



الجنود وأذكر قوله : « كيف تكون حالة الجيش إذا كان خادم أوروبي  
يهجره وينضم إلى العدو » ويقول في مكان آخر : « حالدا أكتب  
مذكراتي وتظهرى ولكن من هو ذلك الذي سيحملها إلى وطني » .

وبعد خمسة عشر يوماً عاد المهدي إلى الأبيض ومعهم الغنائم  
التي أودعها بيت المال . وكثرت هذه الغنائم تحتوي مبلقاً كبيراً من  
النقود غير المدافع والبنادق ومع ذلك قد نهب العرب شيئاً كبيراً  
من هذه الغنائم على الرغم من العقوبات الوحشية التي كان يطالبهم  
بها أحمد وأد سليمان . وقد كان من المألوف أن تقطع يد السارق  
اليمني وساقه اليسرى . أما الزوج المكرة فقد سرقوا كمية ومرة  
من الذخائر خبأوها في الغابات وفي معسكرهم وأفلتت منهم بعد ذلك  
غوائد عظيمة .



وكان دخول المهدي الى الأبيض دخول الطائر النقي يستقبل بضروب الخطوة الوحشية . فقد كان الناس يترامون أمامه ويكادون يعبدونه . وليس شك في أن انتصاره في شيكان قد جعل السودان بأجمعه طوع أمره . فكان الأهالي من النيل الى البحر الأحمر ومن وادى الى كردفان ينظرون الى هذا الولي ويعتقون سر كاته . وكان أولئك الذين آمنوا قبلا بهدأته يستمتعون بإيمانهم ويتشرون نفوسه أكثر من ذي قبل . لما أولئك الذين استرايوا أولا في دعوته فقد لبوا الى اليقين بعد هذه الانتصارات العظيمة المتوالية . وأولئك الذين كانوا يعرفون في قلوبهم أن هذه البدعة غش ومكر راوا أنه يجب عليهم أن ينضموا الى المهدي مادامت الحكومة غير قادرة على تثبيت سلطتها حتى في مديريات النيل .

وقد عرف في هذا الوقت عدد كبير من الأوروبيين وبعض المصريين المقيمين في المنى خطورة الموقف ولم يتوانوا في الخروج من القطر السوداني أو على الأقل في إرسال ما يخشون عليه من أمتهم ومنقولاتهم الى الشمال وقد أيقنوا أنه لا بقاء لهم بعد الآن في السودان النقي بسط عليه المهدي نفوذه .

## الفصل التاسع

### سقوط دارفور

في ذلك الوقت كنت قد شفيت من مرضي ( الدودة السودانية ) وشعرت بأنني أقوى على الخروج في تجربة أخرى . ولكن بعد اتباعي المخلصين كان قد نقص نقصا شديدا وأيضا قلت ذخيرتنا . وكان سيد بك جيمه يرسل إلى بأنه غير قادر على أن يسلمني بما أطلبه من الذخائر واحتج في ذلك بأن عرب الزهدية والمهرية قد بدأ منهم شيء من العصيان حتى أنهم استولوا على مواشي بعض الناس القيمين في جوار القاشر وعندما طلب منهم ردوا رفقوا .

وكانت كل آمالي معلقة الآن بنجاح جيش هكس باشا . وكان من حسن حظي أنني كنت أجهل الطريق الذي اتخذته كما كنت أجهل أيضا الحالة المنيوية السيئة التي كان فيها الجيش . وكان قد مضى على الآن نحو عام لم أتسلم فيه أية رسالة من الخرطوم وكنت قد لجأت إلى الحيلة لكي احتفظ بعصامة رجالنا فادعيت بأنه جاءني أخبار عن انتصارات الحكومة . وقد أذعت هذه الأخبار في شكل رسائل معلقة قرئت علنا على الجيش وتويزت بأطلاق المدافع وحتاف الجنود . والحقيقة أنني أنا الذي لقيت هذه الأخبار . ومن الحق أن أقول أنني تسلمت في هذه الوقت رسالة صغيرة من علاه الدين باشا يقول فيها أن الخديو قد عينني قائدا عاما لجيوش دارفور وأن

الحكومة قد عازمت على ارسال قوة لمراقبة الثالين وأرسلت  
لسمكا عديدة من هذه الرسالة الى القاهر وكبيكيه وأمرت بإذاعتها  
بين الجمهور واطلاق النار عند قراءتها . واحتفلت يستقم حاصل  
هذه الرسالة احتفالا كبيرا وألقيته بالهدايا . وأعلن أمامنا أنه عندما  
غادر الخرطوم كانت الحكومة تهيب التجربة التي قال عنها انها  
لا بد منصورة وكان الراقصون على الحالة مترعدين في تصديق هذه  
الاقوال ولكنهم سرورا مع ذلك لهذه الأخبار .

وبعد أيام قليلة عاد الى خالد واد امام الذي كنت أرسلته الى  
كردوفان لياتني بصحيح الأخبار وأفضى برسالة شفوية من زوجال  
يقول فيها ان الحكومة تهيب تجربة لمقاتلة المهدي . ولكن بعد أيام  
قبض على رجل قريبا من شقة وعنه خطاب من خالد للمادبو يطلب  
منه أن يستعد للقائه قريبا لكي يساعده في اتمام مشروع . فلم يبق  
عندي شك في أن خالدا قد انضم الى زوجال وصار خادمه  
المخلص .

وللحال أمرت بالتبض على خالد واحضاره الى فاعترف بأن  
زوجال قد أمره بأن يأخذ زوجاته الى مكان مأمون خارج عن منطقتي  
وأن يحضر زوجتين منهن اليه في كردوفان وهذا هو سبب كتابته  
تلك الرسالة للمادبو .

فأمرت بالتبض على أسرة زوجال وتقييد خالد ثم استصفييت  
ألاكهما وضممتها الى بيت المال وأكملت حراسا على أملاك المقبوض  
عليهم الآخرين .

وصارت الصعوبات تتكاثر على يوما بعد يوم بل ساعة بعد  
ساعة . ولم أكن لأبالي كثيرا بخيانة زوجال فقد كنت دائم التوجس

عنه للهلا ولكنى ظلمت قلعا شديدا للأخبار السيئة التي جاءتني عن  
تجريدة هكس .

وكان وقتي عاصما بين دعابى وأيامى من القتال في قمع الفتن  
التي أخذت في الانتشار بسرعة مفعلة . ففي أحد الأيام أخرج  
لنزالة المادبو وبعد يوم أخرج لقمع فتنة بها رئيس آخر ثم جاءتني  
في أحد الأيام أخبار هزيمة داره أمام الميا . فافترحت على  
القضايط اخلاء داره وحجر قواها للمخاض عن الفاجر ولكنهم  
رفضوا .

أضف الى كل هذا ذلك الخلاف الذي فعما بين أولئك الذين  
كنت أحسبهم من أخلص المخلصين لي . فان حسن واد سعد النور  
الذي حصلت له من العفو في الخرطوم كما يذكر القاري والذي  
ضمنت ولاءه للحكومة وأذنت له بالإقامة في داره والذي أعطيته  
منزلا بجانب القلعة وحين مات جواده أعطيته جوادا آخر والذي  
استخلصته لجلب الأخبار واتقا من ولائه وطاعته قد خانني وتناهى  
كل هذه المروءات والافضال التي تكرمت بها عليه وركب الجواد الذي  
أعطيته له وذهب الى المهدي فصار من أخلص أتباعه .

وكانت المواصلات بيني وبين الخرطوم قد انقطعت منذ مدة  
بعيدة فان المهديين كانوا يقطنون وكانوا يقبضون على أي انسان  
أرساه بخطاب الى الخرطوم وتيكنت في إحدى المرات وأنا أقاتل  
بنى حلبة من ارسال خطاب للقاهرة بواسطة قافلة كانت مسارة الى  
اسبوط في طريق الأربعين .

ولكن طرق تخبئة الرسائل التي اتبعتها الى الآن كانت قد  
عرفت فلم يعد في الامكان استئصالها . ومن هذه الطرق وضع

الرسالة بين تعالى الحذاء أو بين ادبى الزادة أو فى قصص  
الرمح .

وكنيت فى أحد الأيام أنظر فى صندوق القلمة لرأيت الجنود  
يسالجون حمادا به عرج فى ساقه الأمامية . فالتقوا على الأرض ثم  
فتحوا فى جلد على الكتف فتحة أدخلوا فيها خشبة صغيرة ثم  
حزروه تحزيزات وخذوا النظرون على الجروح وأخرجوا الخشبة .  
فخطر فى بالى أن أرسل رسالة تحت جلد حماد بهذه الطريقة إلى  
الخرطوم وانتخبتم حمادا طبيب الجرم ثم أدخلته منزلى حيث لا يراها  
أحد وكررت هذه العملية ووضعت فى الفتحة التى لفتحها مذكرة  
صغيرة لفتها فى مثانة جنى ولم يكن حجم هذه الرسالة يزيد على  
طبابع برنيد ثم خلت الجرح بمخيط من الحرير ونهض الحمار بعد  
ذلك كأن لم يكن به شئ . وأخبرنى الرجل الذى نديته لأرسال  
هذه الرسالة بأنه سلمها لعلاء الدين باشا فى القبط قبل أن تقوم  
التجربة بيوم أو يومين إلى الأبيض . وأنه أخبر الرسول بأن الرد  
غير ضرورى وأنه سيصعبه إلى الأبيض حيث يرسله من هناك إلى  
بخطاب .

وكانت حالتنا من حوث المسخر من الدخائر ميتة جدا لأن  
مجموع ما كان لدينا من الحراطيش لم يكن يزيد على ١٢ عليه لكل  
بنسبة لماذا غامرنا بطلال فإن نصف هذه الكمية ينهب فى أوله  
مركة . ولم يكن هناك أمل بالأسعاف فأخضت أفكر فى أحسن طريقة  
للثبات بدون أن نلقد ذخيرتنا القليلة . واضطرت لذلك إلى أن أجا  
إلى الحيلة كسبا للوقت .

فوسطت بعض العرب الموالين لنا لكم يفادوسوا الثاثرين  
ويقولوا لهم أننا مستمرون للتسليم ولكن لا يمكننا أن نسلم لهم

اذ لا ثقة لبعاليهم بعد قتالنا المتواصل مدة طويلة.. ولذلك اذا ارسل  
المهدي ورسوله فاتنا، نسلم له.. البلعة وحكومة المديرية .

وكنيت في هذه الانتظار انسلط الاخبار عن مصلحة مكس واحسب  
المدة التي يجب أن تصل في نهايتها الى الأبيض حيث يقاتل الفريقان  
وتقع الواقعة الحاصلة . وكنيت اختلف الى السوق واتحدث مع  
الأهالي عن الأحوال وكان كل أحد يعرف أن جيشا عظيما قد انفذ الى  
الأبيض ولكن لم يكن أحد على يقين من النتيجة .

وأخيرا حوالي آخر نوفمبر شاعت الاشاعات عن هزيمة الجيش  
وكان على هذه الاشاعات مسحة الصديق ولكننا مع ذلك تعلقنا بالشك  
ولكن بعد يوم أو يومين جاءنا الخبر الاكيد بأن الجيش المصري  
قد اصطلم . فانسدل علينا القم جسيما لهذا الخبر . وهكذا قضى  
علينا بعد هذه الشكائد والخطوب أن تقع في يد العدو وقد سعت  
دوننا أبواب النجاة . ولكن هل بقي بصيص من أمل بأن الاخبار  
قد يولج في وواياتها ؟

لقد كان عندنا هذا البصيص ولكنه انطفأ فجأة إذ علمنا أن  
زوجات قد وصل الى أم شنتجة وأن المهدي قد عينه « مدير عموم  
الغرب » .

وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ جاءني الرسول الذي كنت  
أرسلته الى المهدي وكان لابسا جبة مرقوش في خبر الهزيمة المنكرة  
التي نالت الجيش وتناولني خطابا من زوجات يطلب مني فيه التسليم  
ويخبرني عن هزيمة المصريين ولكني ثبت في هذه الهزيمة أرسلت  
الى بعضي تقارير الضباط ومذكرات قاركار وأيضا مذكرات  
أودلمان .

وفي المساء جئاني فرج الفتى وعلى الفتى الطويحي فسأبط  
 المدفعية وأخبروني بأن الضباط قد قرروا التخليص للمهدي لا لزورجال  
 بك . وقد أوضحوا الأسباب التي الجائهم الى هذا القرار فان كل  
 واحد منهم قد اقتنع تمام الاقتناع بأنه لا سبيل الآن للحكومة أن  
 تنقلهم وأن الجيش في داره لا يزيد على خمسمائة وعشرة رجال  
 ومنهم عدد كبير لا يصلح للقتال . وأن الحالة المحتوية للجيش  
 متعبة . ولا أمل في الحصول على أي انتصار وأن النصارى لا تكفي  
 معركة واحدة سواء كنا مدافعين أو مهاجمين . وقالوا لي أيضا أنه  
 لا يمكنني أن أسوم الجيش على القتال لأن الجميع قد عزموا على  
 التسليم . فأخبرتكم بأني سأفكر في هذا الموضوع وأخبركم في  
 صباح اليوم التالي عن رأيي الأخير .

وفي تلك الليلة لم تضي عيناى . فحصلت أتعسر وأتعب هذا  
 الحظ الذي يقضى علينا بعد معاناة المشائد والأحوال بأن تسلم  
 ونخضع . ثم بعد الموضوع ماذا خباء القدر لنا ؟

وعرضت الحالة من البداية الى النهاية وأنا في هذا السهاد .  
 لقد مضى على أربع سنوات وأنا أجاهد لتثبيت الحكومة ومقاومة الفتن  
 الداخلية التي سمعتها ثم مقاومة حركة المهدي التي دخلت الى أصول  
 الادارة ولقمت فيها كالسوس وأخذت تتأكلها وتسرى فيها من  
 النصارى الى الأوراق حتى ذبلت وجفت .

والخلاصة أن هذه الدعوة المهدية قد تقلقت الى قلوب الضباط  
 والجنود فكد كانوا قليلا ينصبون لها العند ويكافحونها لأنني كنت  
 ألوح أمامهم بقوة الحكومة وعودة سلطتها بنجاح حملة مكس  
 وبالقوات التي تعود عليهم إذا لجئوا على الولاء الى حين يهزم الجيش  
 المهدي . وكنت أجهد جهدي لكي أثبت للجنود والضباط ضرورة



لوز الحكومة في النهاية ولكن جاءت هذه الهزيمة المفكرة فاقطع كل أمل . وقد كالمحت الفسائس من الداخل والخارج . والقراري يعرف مبلغ الدجاج الذي نجده في ذلك . وكان يسكنني بواسطة الكمية القليلة من النخائر التي لدى أن الأكل بضع ساعات ولكن هل كان من التيسر أن يتخضع في الضباط والجنود في مثل هذا القتال ؟ فقد ذهبت وحببتهم في القتال ولم يعد لي حق في أن أجبرهم على أن يضجروا بأنفسهم في قضية لم يعودوا يبالون بكسبها .

وبعد أن عرضت الموقف من جميع جوانبه تبين لي أن التسليم ليس فقط أسلم السبل بل هو السبيل الذي لا مفر منه . وبعد أن قررت في ذهني هذا القرار عدت إلى الوجه الشخصي للمسألة . فاني باعتباري ضابطا كنت أملت هذا التسليم . ولم أكن أنقضي شيئا أو أخاف على حياتي . وكنت وألقا باني إذا سئلت عن مسلكي في المستقبل يسكنني أن أبرر كل ما فعلته .

ولكن لفظة التسليم نفسها كانت كريهة وكان يكرهها أكثر في نظري أنني أوروبي مسيحي وإلى ساكون بين آلاف من السودانيين كل منهم ينظر إلى كائي دولة في الهام . صحيح أنني أسلمت وتركت ديني ، ولكنني لم أفعل ذلك إلا لكي أعتني ثائرة الضباط والجنود على وقد نجحت في غايتي أكثر مما توقعت ولكن هذا العمل لم يكن وفق مزاجي . ولم أكن أدعي فهم الآراء الدينية بصفة متولني الحكم على صلاح عمل أو فساده ولكنني كنت في قرارة قلبي مسيحيا مثل جميع المسيحيين الذين أعرفهم . وعلى ذلك لم أكن استشرى الظهور بظهور ادعاء الإسلام . دع عنك أنني كنت أعرف أن تسليمي سيضعني في يد هذا المصلح الديني السخيف ( المهدي ) وأني سأضطر لذلك ألا أظهر فقط بظهور المسلم العائى بل بظهور المؤمن بالمهدي المتحمس لبعثته .

فهل يمكن لأحد أن يستلذ إلى كذا النظر للمستقبل بعين السرور ؟ ومع ذلك يجب أن أعترف بأن هذه الاعتبارات الدينية لم يكن لها في نظري وزن يعادل تلك الاعتبارات الأخرى عن تأدية واجبي . وعلى وجه العموم أقول أنني شعرت بأنه قد يحتم على الآن أن أسلم وأن أحزن اللعناء التي لن تجنى أرباحها شيئا . ولم يكن هناك سبب يدعوني إلى الخضوع للذل والهوان وما يشبه الرق بعد التسليم . فقد خطر لي أن أنتحر ولكن نفسي ثارت على هذا الخاطر . لقد كنت في شبابه وقد مضى على أربع سنوات كلها تبعات ومجازفات ولم أكن أستهي أن تطعم حياتي وأنا في هذا العمر حتى مع انتظار تلك الأيام السود القاحلة وقد من الله على برحته وإيثاره في تلك الحروب المتوالية وهو لا يد يدليني حتى أعود فأخضع تلك الحكومة التي حاولت أن أخضعها في الماضي بولاء وأمانة .

هذه هي الخواطر التي كانت تساورني عندما بدأ شعاع الفجر يفتح الظلام في تلك اللحظات التي لن أسلمها في حياتي . وانتهيت بعد التفكير الطويل إلى أنه لم يبق لي سوى التسليم وأن أرضي بأن أكون معكوما . لأولئك الذين كنت أحكمهم وأن أخضع لأولئك الذين كانوا يخضعون . ويجب فوق كل هذا وذاك أن أكون صبوراً . وإذا مارست هذه الخلاق في نفسي ورعيتها عليها وحقت دمي بها وفلت بعد ذلك حريتي خلال هذه التجارب مستفيد بلا شك الحكومة التي أخضعها . ونهضت من فراشي وأنا على هذا العزم ولبست ملابس الرسمية لأمر مرة إذ استبدلت بها بعد ذلك جبة المهلبين التي مثلت فيها خورا جديدا في حياتي . ومع ذلك فقد كان يخفق تحت الجبة قلب كله ولاء للحكومة وكله عزم على الاستفادة من هذه التجارب إذا أذن الله بالمودة . ورأيت أن للسالة مستلخص بيني وبين هؤلاء الأسياد الجدد في أينا يتقلب ذكوره على الآخر . ولم أجبن عن هذا الكفاح المنتظر مع أنني لم أكن في حاجة إلى الاحتذار

والتبرير لو أنني جئنت إذا اعتبرت السنين الطوال التي قضيتها في  
الأسر . وفي الحياة المزدوجة التي اضطرت إلى الظهور بها .

وفي صباح اليوم الثاني حضر إلى الضابطان فعرضت عليهما  
خطاب زوجال الذي يطلب فيه مني التسليم وإن أقابله في  
٢٣ ديسمبر في حلة التسميرية حيث يسلمني بيده خطاب المهدي  
إلى . ومما كتبه إلى زوجال أيضا أنه ضمن حياتي وحياة جميع  
من معي من الرجال والنساء والأولاد .

ثم طلبت الكاتب وأملت عليه خطابا لزوجال أعلنت فيه  
خضوعي وخضوع الطمية واتفقت على مقابلته في ٢٣ ديسمبر عند  
حلة التسميرية وصلت هذا الخطاب لرسول يقوم به لإيصاله إلى  
زوجال الذي صار اسمه الآن سيد محمد ابن خالد .

وفي أصبيل القند جمعت الضباط وأخبرتهم بأنه لما كانت  
المقاومة غير مجدية لقد قبلت اقتراحهم عن التسليم . ولكنني  
سأغادر داري في هذا المساء لكي أقابل زوجال في حلة التسميرية  
والى سأخذ القنص معي ، أما الضباط فسأتركهم مع الطمية .  
ثم شكرتهم بكلمات قليلة كانت تسجي في حلقى لولا أنهم واستمعدادهم  
للتضحية بأنفسهم في سبيل خدمة الحكومة وطاعتهم لي ، ثم ودعت  
كلا منهم باليد واحدا بعد آخر وودعت الموظفين المدنيين جملة  
وشرعت في السفر .

وكنا في منتصف الليل حين خرجت مع القواصين من داري .  
وقد لاقيت المشاق في سفراتي الماضية وأنا بدافور ولكن هذا  
السفر كان أشق ما أحسنته فقد كنا جميعا غارقين في تأملاتنا  
المعززة حتى لم ينطق أحدا بكلمة . وعند الغروب استرحنا قليلا

ووضع الخدم الطعام أمامنا ولكننا لم نلمسه إذ لم تكن لنا شهوة للطعام ثم استأنفنا السير ولما اقتربنا من حلة التسميرية بعثت يادى لكى يتفاحنا ويرى هل حضر زوجال أم لا • وعاد الينا فى الحال وأخبرنا بأنه هناك ينتظرونا منذ الأمس وبعد عدة قليلة بلغنا المكان فوجدناه واقفا وترجلت وقصمت إليه لكى أحبيه لضممنى إلى صدره وأكد لى صداقته ورجائى أن أكتب ثم سلمنى خطاب المهنى • ولم يكن فى هذا الخطاب سوى كلمين زوجال لى سيد محمد بن خالد حاكما على الغرب وأن المهنى قد عفا عنى وأوصى بمعاملتى بالاحرام الذى يليق بمنصبى وأن يعامل سائر موظفى الحكومة السابقة باللطف والكرم • وبعد أن انتهيت من قراءة الخطاب قال لى زوجال ان المهنى اما عفا عنى بلشهادة الطيبة التى شهنها لى حتى عنه ، وأنه سيقدم لى كل معونة • فشكرت له عطفه • ثم قدم الى الأمراء والطبيب حسن نجرمى وقد كنت قابلتهم مسابحا • ثم تناولنا الطعام وأخبرنى زوجال أنه ينوى السفر الى داره •

وبينما كنا نتحدث وصل الينا أحد ضباطى محمد أغا سليمان فلما رآنى لم يكتف لى أقل اكرمت بل ذهب الى زوجال وحياه تعية الخطوة المبالح فيها • فتذكرت أنه كان قد اتهم مع اللين آخرين بأنه جاسوس زوجال •

وأخلى محمد ( زوجال ) وتحنى لى قليلا وخاطبنى لى شأن اقاربه وامرته • فأخبرته بأن الجميع فى صحة جيدة وأن اقاربه لا يزالون معتقلين • ووافتنى على الاجراءات التى اتخذتها وقال انها أفادتنا نحن الاثنين • ثم قمنا وسرنا الى داره وقضينا الليلة فى الضياف قريبا منها ووافانا هناك عند كبير من الاممات والموظفين وكلهم قد لبسوا ملابس الدراويش وسبوا الوالى الجديد •

ولم تقضى عيتاي في تلك الليلة وكانت ليلة عيد الميلاد  
فتذكرت أهل وأعياد الكنائس البهيجة التي يحتفل بها في وطني  
في ذلك الوقت في حين أجدني هنا وحيدا مهزوما مضطرا إلى تسليم  
رجائي ونفخائري إلى العدو . وفي تلك الساعات الهادئة التي كانت  
أحلم ساعات حياتي حزنا ونحما أخذت اعرض أمام ذهني كل  
ما جرى لي فعقلت منهلك أن أولئك الذين قتلوا في ميدان القرف  
كانوا أحسن حظا مني .

وفي الله استقبل الرجال جميع الذين جاؤا إليه لكي يقدموا  
إليه طاعتهم وولاءهم ثم احتل الراوي القلعة فتم له بذلك  
احتلال المديرية وتوافد عليه الإعمال لكي يحسبوا له بين الولاء  
للهندي وفي النهاية عرض الجيش وأدى هذه المهمة نفسها .

ولقيت هنا المادبر الذي كان قد لحق بصيد الصيد في برنجل  
فقميتمني إلى المنزل وطلبت منه أن يقدم فقال :

« يبدو عليك أنك متناهد مني وكأنك تعتقد أنني خنتك ولكن  
أصبح إلى : لقد فصلني ميليساني من وطيفتي باعتباري رئيس  
المصايخ » فلحيت إلى بحر العرب حيث طلبني المهدي ولا كنت  
مؤمنا مسلما أتبعته فسمعت عطائه وتحقت من قناعة رسالته  
وحضرت حزيمة يوسف للال وانتصار رجال المهدي عليه الانتصارا  
مفعضا فأمنت بدعوته وعازلت كلتيك لأن . وقد وثقت أنت بالطبع  
بقوتك وأبيت أن تسلم بلا قتال . وعلى ذلك تعاربتا ولكني لم أكن  
أنا تلك أنت شخصيا وإنما كنت أقاتل الحكومة والله يعلم ما تسببت  
قط أنك كنت تنظر إلى نظرة الصداقة فمدت من القنصب وكن أخا  
لي » .

فقلت : « لم أغضب لما فعلت فانك واحد من آلاف ولو كان  
فى قلبى غيظ فان كلماتك قد أزالته » .

فقال المادبو : « أشكر وأدبر الله أن يعزبك وأن يردك لى  
المستقبل كما دعاك فى الماضى » .

فقلت له : « انى أصبح لكى نور الله » ولكنى أجد من المشقات  
أن التحمل ما ألا فيه . وإن كان لا بد من تحمله » .

فقال : « كلا . كلا . أنا عريس ولكنى أصبح ما أقوله لك .  
كن مطيعا صبوراً . عليك بالصبر فقد قيل أن الله مع الصابرين » .

والآن أخبرك انى جعلت اليك لكرى أطلب منك شيئا وهو أن  
تقبل منى جوادى عربوا للصداقة بينى وبينك . وأنت تعرفه  
وهو « صقر الدجاج » .

وقبل أن أجد الوقت للإجابة غادرتى وبعد دقائق عاد ومنه  
جواده وكان من أجل وأكرم خيرول القبيلة ثم سلمتى رسمه . فقلت  
له : « لست أقصد أمانتك برفض حديثك ولكنى أخبرك أنه لم تمد  
لى به حاجة وانى لن أركب كثيرا فى المستقبل » .

فقال : « ومن يدري » الى عمره طويلا يشوف كثير . فانت  
مازلت شابا وستركب كثيرا لن لم يكن هذا الجواد فجواد آخر » .  
فقلت : « قد يكون ما تقول هو الصواب ولكن هل تقبل منى  
انت أيضا هذه الهدية ؟ » .

قلت ذلك واشريت الى طبول الحرب التى كنا نغنمها منه .  
واخذها خادمى وسلمها له ووضعت على الطبول شيئا آخر لعمته

أيضا حديّة منى وفلت : « لا تزال هذه الأنبياء ملكى اليوم ولذلك  
يسكننى أن أعديها اليك » أما فى الغد فلا أعرف من يملكها » .

فقال : « انى أشكرك وأنا أتقبلها بكل سرور » لقد غنمها  
رجالك منا ولكن العرب تقول : « الرجال مستراة وراة » وهنا  
حق . فكم من مرة قاتلت وفرت ولكنى كنت أعود فأكر وأنجح » .

وامر المادبو رجاله بحمل الطبول وخرج وهو مسرود ورقد  
أتر حديثه فى وتذكرت كلامه عن الصبر وان « الى عمره طويل  
يبشوف كتهم » .

وفى صباح الغد أمر الحاكم الجديد الأمالى بالخروج من  
منازلهم ثم فتق حله المنازل وأرسل ما بها الى بيت المال . وكل  
من اشتبه فى حيازته مالا كان يجلبه بلا رحمة أو تقيد قدماء ويربط  
الى ساجد وداسه مثل حتى يضى عليه . وكنت أنالقى وأحاج ولكن  
خاله لم يكن لوثنيه كلامى .

ثم أخذ خدم المواطنين من رجال ونساء وقدموا للمهدى ولكن  
الفتيات الوسيحات احتفظ بهن للمهدى .

وبعد صبيحة أيام من تسليمنا أخبرنى خاله أن سيده يك جميعه  
له أرسل كبار المواطنين مع عمر واد دارهو لى يعرضوا تسليم  
المدينة ولذلك قر رايه على أن يسافر بنفسه الى الفاهر ولكنه عندما  
اقترب من المدينة كان الأمالى قد سمعوا بسوء معاملته لأهالى داره  
فقرروا عدم التسليم واضطر الدراويش لذلك الى حصار المدينة  
وفتح المحصورون فتوقا عديدة فى القوة المحاصرة ولكن الأهالى بعد  
١٥ يوما من الحصار سلموا المدينة فدخلها خالد ومثل هناك الفصول

المروعة التي مثلها قبلا في داره بشكل أفسى ، وعلب علدا كبيرا من  
الناس تملينا وحشيا .

وكان بين الملعين ضابط يدعى حصاده أفندي وقد طوَّاب  
بما عنده من المال فأصر على أنه لا يملك شيئا وكانت إحدى أماته  
قد أخبرت عن وجود مقدار من الفضة والذهب عنده ولكنها لا تعرف  
مكانها فأحضر أمام خاله الذي قال له أنه كلب كافر . فلم يقدر  
حصاده أفندي على ضبط نفسه ورد على خاله قائلة أنه دنفلاوى  
سافل . وهاج خاله لهذه الإهانة وأمر جنوده ببطد حصاده أفندي  
حتى يسترف بمكان المال . وضمت ثلاثة أيام وهو يضرب كل يوم  
ألف سوط ولكن بلا أدنى فائسة ولو كان حجرا لما تحصل هذا  
الضرب كما تحصله . وكان كلما سأله البغلاتون عن ماله يجيبهم  
قائلا : « أجل عندي أموال ولكنها ستدفن معي » .

وأمر خاله بوقف الضرب ثم سلب حله المسكون لعرب الميما  
لكي يحرسوه . وقد دعى عرب الميما أنفسهم لجلد حله الرجل  
الذي لم يلب عوده أمام هذا التعذيب .

وحتى إبراهيم نجلاوى الجلد فسمح أحد الأمراء يدعونه  
بالعبد لقتل في الحال زوجته ثم أخاه ثم انتصر . وانتصر أيضا  
أخاؤنا مؤثرا الموت على التعذيب . فلما رأى خاله ذلك أمر بوقف  
الجلد واكتفى بنفى المصريين في أماكن متفرقة قريبة من المدينة .

وبعد سقوط القادر طليبي خاله لكي الحقه فبلغتها في أوائل  
خبرائير فأعطاني منزل سيد بك جسه لكي أقيم فيه وأذن لي في  
طلب خبري وخلصني من داره . أما أمتعة البيت فيجب تسليتها  
لبيت المال على صهيل الزهد في الدنيا .



فتلفت كل هذه الأوامر وسلمت جميع آثات المنزل لبيت المال  
ليد جابر راد العليب ولم احتفظ إلا بالاشياء الضرورية للحاجات  
اليومية .

وكننت قد صحت عند وصولي عن شجاعة حماده وجلده  
فيبحث عنه ووجدته في حالة مروعة . فقد كانت جروحه من كتفيه  
الى رقبته واسعة متهرئة وكان الموكلون يتمذيه يندون عليها الملح  
والفلل لكي يستخرجوا منه وهو في هذه الآلام اعترافا بمكان  
أمواله .

ولكن كل هذا التصديب لم يكن ليحمله الى الاعتراف .  
قلعيت وأنا يانس الى خالد وأخبرته بحالة هذا المسكين ورجوته  
أن يسمح لي بنقله الى منزلي لكي أعالجه . فقال خالد لي « انه رجل  
ماكر أخفى أمواله وأهانني علنا ولهذا يستحق أن يموت موت  
شبيمة » .

فللت له : « أرجوك بحق الصداقة القديمة أن تطو  
وتسلمه لي » .

فقال : « حسنا . أفعل ذلك اذا ركعت أمامي » . والركوع  
على السودان علامة الهوان العظيم فتمرت بالدم يصيب وجي  
ولو أنني دعيت الى هذا العمل لكي أجي حياتي لما قبلت ولكني  
وخيت بهذه القضية لكي أجي هذا الرجل التمس من آلامه  
المروعة . وتحدث لحظة ثم ضبطت نفسي وركعت ووضعت يدي  
على قدميه الماريتين فرفعهما وكأنه خجل مما طلب مني وأنهضني  
وقال : « سأفكر عن حماده لأجلك ولكن عني بأنه اذا أخبرك عن  
أمواله أن تبلغني » .

فوعده أنه بذلك وأرسل معي وجدا إلى حمده فهدت بالطعم  
وحملناه على عنجرب ونحن نرفق به كل الرفق إلى منزل ثم غسلنا  
جروحه ونصنعناها بالزبد لكي تخفف آلامه ولم يكن من الممكن  
أن يعيش كثيرا وقدعت له حساء فطلق يلعن أعداءه بصوت خافت .  
وبقي في منزل أربعة أيام ثم طلب مني أن أقعد بجانب فراشه  
وأشار إلى الختم بالخروج . ثم همس إلى كلمات لا أكاد أسمعها  
وقال : « لقد حان حيتي » والله يجازيك الجزاء الحسن على  
ما أسديته إلى من رافة وشفقة . ولست أستطيع مكافأتك ولكني  
أريد أن أظهر لك اعترافي بحبيبتك لقد خيأت أموالك » .

فصمت به : « قف هنا » هل تريد أن تخبرني عن مكان  
أموالك ؟ »

فقال نعم : لملك تستفيد منها » .

فقلت : كلا . لن أستفيد منها . فقد جئت بك هنا على  
شرط أن أخبر خاله بالمكان الذي أخفيت فيه أموالك إذا علمت  
ذلك . وأنت قد تأملت وقاسمت كثيرا وتوشك أن تفقد حياتك  
لاصراك على إخفاء أموالك ومنعها عن أن تلج في يد أعدائك .  
لقدعها إذن في الأرض حيث هي فستبقى صامدة » .

وكنيت وأنا أتكلم أنه أخذ حساه يمشي في يده فقال :

« شكرا لك . الله يفتيك عن أموالك . الله كريم » ثم مد يديه  
رفذاعيه ورفع سياجته قليلا وقال :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله » وانخفض حينئذ وأمسك  
روحه .

وتأملت في هذه البجعة الممزقة لامتلات حزناى بالعموم  
وتساءلت : كم يقى لى من المستيق أنحصل فيها الألام حتى أرتاح  
هذه الراحة الأخيرة • ثم ناديت النعم وامرتهم بأحضار رجلين  
صالحين لغسل البجعة ولقها فى قماش وذهبت أنا الى خاله فكى  
أخبره بموته • فقال لى :

« ألم يخبرك عن مكان أمواله » •

قلت : « كان » • فان الرجل قد تصلب فلم يقض سره • فقال :  
« لمة الله عليه • ولكن بما أنه مات لى بيتك فادفنه وان لم يكن  
يستحق الدفن وكان أجدر بنا أن نلقيه كالكلب على التل » •

فتركته وذهبت الى منزلى حيث دفنا حيايه أمام المنزل معه  
الصلاة المعتادة •

وكان خاله غاية فى الخبث والعماء يفسو على موظفى الحكومة  
السابقين ويساعل الأعمال بلا داع ، وكان يضع قرابته فى الوظائف  
وكان مع اجتهاده فى أخذ أموال الأعمال يتجنب كل ما من شأنه  
أن يحد استياء عاما • وكان يحفظ لنفسه بمظم الايرادات  
ويرمى من وقت لآخر هدايا للمهدين والخلفاء وكانت هداياه عدة  
فتيات وصيحات أو بعض خيول عتيقة أو بعض الجمال وذلك لكى  
يقضى محمود الذكر عند مولاه ولى نعمته •

وكان منزله سافلا بالضيوف والولائم • ولله زوج كريم عسى  
باسى أخت سلطان دارفور مع أن عمرها كان فوق الخمسين • وكان  
لهذه السيدة حاشية مؤلفة من المئات من العبيد والاماء على الطريقة  
السودانية ولم يخطر ببال خاله أنه يجب عليه أن يمارس فضيلة  
انكار النفس بعض الشيء كما يأمر المهدي • وكان يأمر كل مساء

أن تصف مئات الأطباء والفلج المحلة بمختلف الأنظمة لاتباعه  
الذين كانوا يفعلون تحت النخيل فوجدوا مبادئ المهدي  
ولا يسمون ذكر للأمير خاله من وقت لآخر .

وحالي هذا الوقت جاءني خطاب مطوله من القاهرة بواسطة  
مدير دقلة حله الينا عربي موقوف به . وفي الخطاب لمرني بحصر  
قوات في القاهرة وأن اسلم المديرية لعبد الشكور بن عبد الرحمن  
خطوط وهو من سلالة سلاطين دارفور ثم على بعد ذلك أن أخرج  
بالجيوش والناظر الى دقلة . ولكن هذا الأمير الذي ذكر لي في  
الخطاب كان لا يزال في دقلة غير قادر على المجيء الى القاهرة ، وأنا  
أشك فيما إذا كان وصوله يثير أو يبدل في الحالة ولم يكن من  
الممكن حصر قوات القاهرة بالنسبة لروح التمرد الذي فقسا بينه  
الجنود ، ولو كان في قدرتي أن أجبع الجنود وأذهب بها الى القاهرة  
لا كان حينئذ ثم حاجة الى هذا الأمير . فان الحكومة كانت تجد  
في الأمانة والكفاية أكثر مما تجد فيه . وأطلعت خاله على هذا  
الخطاب وأذن لي أن أكتب خطابا بالأحد الأهالي يحصله هذا العربي  
الذي جاء من دقلة فكتبته ولكني لا أظن أنه وصل الى من أرسلته  
إليه .

وجاءتنا أخبار في هذا الوقت تنبهه بسقوط بحر الغزال الذي  
كان يتولاه لبتون بك وأطلق المهدي اليه الأمير كرم الله لكى يتولى  
حكومته . وكان لبتون بك قد اضطر الى التسليم لأن جميع أخوانه  
تركوه فسلم المديرية بلا قتال في ٢٨ أبريل سنة ١٨٨٤ ولو لم  
يهمه أخوانه لممكن لبتون بك بواسطة قبائل الزنوج من الاحتفاظ  
بالمديرية ورد غارات المهدي عنها جملة سنوات .

ورغب خالد في أن يرافقتي سيدي بك جميعه الذي كان لا يزال  
حقيقا في الثقة وقد قبلت مرافقته على الرغم من حساسية المسألة .  
وأضأ طلب أحد التجار اليونانيين مرافقتي فلم يعارض خالد وكان  
اسم هذا اليوناني ديمتري زيجاده .

وحوائى منتصف شهر يوليو غادرنا القاهر أنا وزيجاده وكان  
معنا حرس مؤلف من عشرة رجال وبلغنا الأبيض بعد سفر شاق  
فتلقانا السيد محمود حاكم المهدي بلا حفاة ، وأمرنا بأن نسافر في  
اليوم التالي الى دهاد حيث يقيم المهدي .



## الفصل العاشر

### حصار الخرطوم وسقوطها

لما هزم المهدي مكس باشا وأباد تجريده تحقق أن السودان كله قد صار عند قبضه . ولم تكن مسألة الاستيلاء على الخرطوم سوى مسألة وقت . وكان أول أعماله عندئذ أن أرسل قريشه خالد إلى دار فور حيث كان يعرف أنه لن يجد أية مقاومة . وبواسطة كرم الله استولى على بحر الغزال وكل ما حلت أن حول الموطنون ولاهم للتخدير إليه . وكان مك آدم قد خضع وجاء هو وأسرته وسكن الأبيض . ووسخت المهدي في شرق السودان ووجعت وطنها معداً لها بين العرب الشجعان النازلين هناك . وأبيات الجيوش المصرية في سنكلت وطمانيب وكانت تكبه الجنرال بيكر قد زادت ثقة العرب بأنفسهم وكان مصطفى حوال يحاصر كسيلة .

أما في الجزيرة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق فإن حصار المهدي واد البصير هزم الحكومة عدة مرات . وقد كانت هذه حالة البلاد عندما وصل غوردون إلى بربر في ١١ فبراير سنة ١٨٨٤ .

وكانت الحكومة المصرية باتصالاتها مع الحكومة الانجليزية قد قر رأيها على إرسال غوردون للسودان اعتقاداً بأن معرفته البلاد تسكن الفتنة . ولكن الحقيقة أن حاكمي الحكومتين وغوردون

نفسه كانوا يجهلون خطورة الحالة في السودان ، فهل كانت الحكومتان تظنان أن غوردون لشجاعته الشخصية واشتهاره بالرق بالفقراء في دار فور يستطيع أن يوقف تيار التمصب ؟ وهل كان نفوذ غوردون يمكنه من تهدئة عرب الجبال النازلين بين بربر والخرطوم وفي الجزيرة ؟

لقد كان يحكى ذلك هو المنتظر فإن الحاكم الذى أمر بطرد الجلاب من الجنوب في حرب الزبير كان خليقا بأن يكرمه عرب الجبال لا أن يجهده . فإن أمر غوردون بطرد الجلاب قد أقد عدا كبيرا من الجبال من آبائهم أو اخوتهم أو أقاربهم ولم يكونوا ينسبون أن غوردون هو المصوب في كل ذلك .

وفي ١٨ فبراير وصل غوردون الى الخرطوم فتلقاء الناس والموظفون بالبشر والحاسة وكان المتصلون به والمتنفذون منه يعرفون أن الحكومة لن تترك مثل هذا الرجل وحيدا بلا معونة . وكان أولا ما عمله أنه أذاع متعمدا بتعميق المهدي حاكما على كردوفان والأذن بالانطاسة والرق واقترح التوصل في مفاوضات مع المهدي وطلب منه الانسحاب عن الأجرى وأرسل اليه حاديا من الملابس الثمينة . ولو أن غوردون أذاع هذا المنشور معه قوة في الخرطوم يستطيع أن يسير بها الى كردوفان لثم له ما أراد ولكن الأخبار بلغت المهدي بأنه جاء الخرطوم وليس معه سوى عدد قليل من الحرس . ولا تسلك في أن المهدي تصحب من غوردون كيف ينحه بالكلام ما حصل عليه خو بالسيف وما لا يمكن غوردون أن يسترده منه . وقد رد عليه المهدي بشطاب طلب فيه أنه يسلم المدينة ويصطحب بلك دمه .

وكان الخليفة عبد الله يد المهدي اليمنى . وكانت لرابية المهدي فكرهونه لهذا السبب ويكيلونه له . ولكنه كان يعرف تماما



أن المهدي لا يستطيع أن يدبر الأمور بمفرده • فبشكا إلى المهدي  
دسائس هؤلاء الناس وطلب منه أن يعترف في وعظه بما قام به  
من الخيانات للمهدية • فأذاع المهدي منشورا لا يزال يشار إليه  
لأن كما احتاج الخليفة عبد الله إلى تغيير في الحكومة أو سن  
قانون من جديد • وهذا المنشور يلقى على جميع أتباع المهدي  
بالطاعة للخليفة وأن ينظروا إليه كأنه نائب المهدي الذي يقوم  
بتتفيذ مشيئته •

ولما قل الماء عزم المهدي كما سبق أن ذكرنا على الرحيل  
بمسكره إلى رهاد وهي على مسيرة يوم من الأبيض • وحوالي  
منتصف أبريل تم انتقال هذه الكتلة الضخمة المؤلفة من رجال  
ونساء وصبيان •

وكان المسكر في رهاد عبارة عن بحر طام من المصفر  
المصنوعة من القش يمتد إلى أبعد ما يصل إليه النظر وكان المهدي  
يقضي نهاره في الصلاة والوعظ وسائر واجباته الدينية • وكان  
قد عين محمد أبو حرجه واليا على الجزيرة وأنفذ إليها مع عدد  
كبير من الاتباع وأمره بأن يراسي الثورة على الحكومة ويحاصر  
الخرطوم •

وهذا هو وصف الحالة كما وجدناها عند وصولنا أنا  
واليوناني زيجاده وسيد بك جمعه إلى رهاد • ولما اقتربنا أرسلت  
أحد خصمي إلى الخليفة لكي يعلمه بقدمونا • ولكنه تأخر فمررنا  
على الركوب إليه بأنفسنا •

واتخذنا الطريق المؤدي إلى السوق وسمعنا صوت الاومبية  
( الطبل ) التي تؤذن بمقدم الخليفة • واتفق أني وجيت أحد أهالي  
دارفور فسألته عن معنى دق الطبل فقال لي : « الأرجح أن الخليفة

عبد الله قد أمر بقتل أحد الناس وهذا أمر للناس لكي يسهلوا  
القتل .

ولو كنت من الذين يؤمنون بالتفاضل والتساؤل لتساجعت من  
هذه المأبلة حيث يقتل انسان عنه أول دخولي المعسكر . ولكن  
سرنا حتى بلغنا مكانا رحبا مكشوقا ورأيت خادمي ووراء رجل  
آخر وكلاهما يسرع إلينا . وصار بنا هذا الرجل وقال : « لفوا  
حيث أنتم فان الخليفة وحرمه ، قد خرجوا للقائكم وكان يظن  
أنكم خارج المعسكر »

« وبلغنا وعاد الرجل يخبر الخليفة بوصولنا . وبعد دقائق

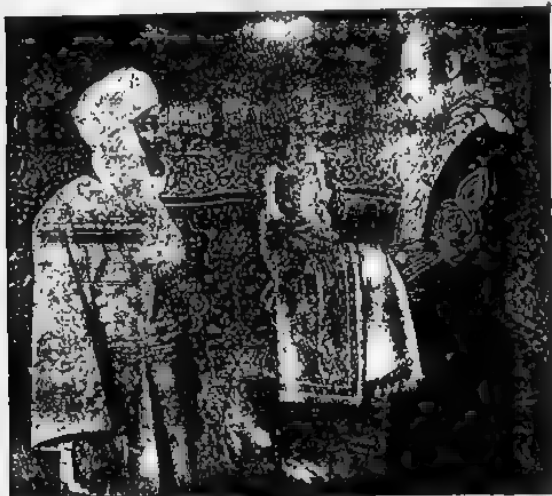
رأينا جمعا من الفرسان وحولهم جمع آخر من المشاة المسلمين  
وهم يسعون على أقدام الطبل . ووراء هذا الجمع رأينا الخليفة  
تخصبه وكان قد وقف وإلى يمينه ويساره صفان من الفرسان  
ينتظرون أمره . وأمرهم الخليفة بأن يشرعوا في رياضة خيولهم .  
وكانت هذه الرياضة عبارة عن أربعة من الفرسان يخرجون بخيولهم  
سفا واحدا ويجرون شوطا ثم يعودون أقدامهم ويكررون هذا الجري  
عدة مرات حتى يضطربهم التعب إلى الراحة وكانوا يركضون خيولهم  
إلى مكاننا ورماحهم مشرعة حتى إذا بلغونا حزوا الرماح لربما من  
وجوعنا وقالوا : « في شأن الله ورسوله » ثم ركضوا خيولهم ثانية  
إلى مكان الخليفة .

وبعد أن تكرر هذا الركض نحو نصف ساعة جاءني أحد خدم  
الخليفة وأخبرني بأن الخليفة يرغب في أن أركض على هذا النحو  
إليه . ففعلت ذلك وهزئت في وجهه الرمح وقلت : « في شأن الله  
ورسوله » وعلت إلى مكائي .

فأرسل إلى يطلب مني أن أكتبه وبعد قليل بلغنا منزله .  
وساعده على النزول عن جواده خادم . أما سائر الفرسان فوقفوا

على مسافة منه ثم اختفى وراء السياج وبعد دقائق أرسل اليها  
 يطلبنا فقادنا الخادم الى مكان ضيق داخله منزل من القش حيطاً،  
 وسقفاً . وكان فيه عدد كبير من المنجريات عليها حصر من ورق  
 النخيل . وأمرنا بالقعود على منجريت ثم قسم لنا مزيجاً من الماء  
 والمسل في قرعة وبعض البلح فأصبنا منهما وانتظرنا مجيء الخليفة  
 ودخل علينا بعد مدة وجيزة فواللهنا فأخذ يدي وضعاها الى صدره  
 وقال : « الجيد لله الذي جعلنا » كيف حالك في هذا السفر  
 البقاع ؟ »

قلت : « شكر لله الذي أبقاني حتى أتى هذا اليوم » بعد  
 ذهب عني تعبى عندما رأيت طاعتك » .



وكننت أعرف أن سبيل الحصول على مكانة ما لديه هو تملكه .  
 ثم أعطى يده لسيد بك ولديمتري فقبلها كل منهما وسألهما عن  
 حالهما . وصرت أتفرس فيه فرايت أن لون وجهه هو المسيرة  
 الخفيفة ووجهه عرجي عليه مسحة من الرقة . وكانت لآزال آثار  
 الجعدي يادية فيه وكان أنفه منقاريا وفيه حين عليه شاربان  
 صغيران وعلى خفه شعر خفيف يتكاثف حول اللقن . وكان ربة  
 بين القصير والطويل وسطا بين السن والنداحة وكان لايسا جبة  
 مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف في اللون عن الأخرى  
 وعلى راحته طاقية قد تميم عليها بصامة من القطن وكان اذا تكلم  
 تبسم فتيبدو أسنانه البيضاء .

ولما حيانا رغب الينا في الجلوس فجلستنا على الحصير فوق  
 الأرض وجلس هو على عنجريب . ثم أعاد السؤال عن صحتنا  
 وأبدى ارتياحه لبلوغنا مقام المهدي . وأشار لأحد الخدم فأحضر  
 لنا طبقا من العصيدة وآخر من اللحم ووضعهما أمامنا ثم لزل الينا  
 وطلب منا أن نأكل وكان يأكل بشهوة قوية كأنه يستمرى طعامه  
 كل الاستمرار . وكان يسألنا بعض أسئلة ونحن نأكل . وقال :  
 « لم انتظرتم خارج المعسكر ولم تدخلوا بلا إذن وهل يحتاج الناس  
 للإذن لكي يدخلوا بيوت أصدقائهم ؟ »

فقلت : « نحن نرجو علوك . غاب عنا خادمنا منذ طويلة ولم  
 يتحضر ببال أحدهم أنك تخرج للثاينا . ولما اقتربنا من المعسكر  
 سمعنا فق الطبل فسالنا عن صوته فقبل لنا : أن أحد المجرمين يقتل  
 وكنا نتوى أن نسير وراء الطبل ولكن رسوئك جاءنا عندئذ »

فقال : « وهل بلغ من ظلمي أنه عندما تفرح طبوبى يظن الناس  
 أن مجرما سيقتل ؟ »

فقلت : « كلا يا مولاي . أنت مشهور بالصرامة مع العدل » .

فاجاب : « اجل انى صارم • وهذا ما يجب على وسنصرف  
السبب فى ذلك عندما تطول مدة الامتدح معنا »

وكان بعض من يعرفونى قبلا قد استاذنوا الخليفة لىهم  
يقتلوا ويسلبوا على فاذن لهم الخليفة ودخلوا ولكنهم لم تتج لهم  
الفرصة للتكلام مع سوى عبد الرحمن بن نبيا الذى كان فى تجريدة  
هكس فقد قال لى بلهجة مزمنة خافتة :

« خذ حظك والزم الصمت ولا تثق بأحد • فإثر كلامه فى  
ونقشته فى قلبى »

ثم هاجرتنا الخليفة ، وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر أرسل  
الينا لى تتوجهنا ونذهب الى المسجد وبعد دقائق جاءنا هو وأخبرنا  
بأن نسور وراءه • وكان يسير على قدميه لأن المسجد الذى كان قريبا  
من عشة المهدي لم يكن بعيد عن منزل الخليفة سوى نحو ٢٠٠  
ياردة ، ولما دخلنا وجدناه مزدحما بالمصلين الذين اصطفوا صفيا بعد  
صف ولما دخل الخليفة كتبوا له باحترام • ولما رشح على الأرض لنا  
جللة شاة وأشار هو علينا بأن نقتد بخطه • وكان مقام المهدي  
مؤكدا من عشة عشق كيرة محاطة بسياج من الشوك فى الجنوب  
الغربي للمسجد • وكان فى المسجد شجرة تظلل عشا كبيرا • ولكن  
سائر المصلين كانوا يصطلون الشمس المحرقة • وكان فى المسجد  
فى أقصى طرفه الأمامى الى اليمين عشة صغيرة كان يقعد فيها المهدي  
بعد الصلاة لمحادثة من يرغب لى رؤيتهم على حده • وبعد الصلاة  
دخل الخليفة الى هذه العشة وطنا أنه يريد أن يخبر المهدي  
بمجيئنا • وعاد الينا وقعد معنا ولما الحال خرج المهدي وريم نحونا  
وقوف الخليفة ووقفنا جميعا وراءه • أما الباقيون فقد لزموا مكانهم  
ولم يتحركوا • وتقدمت أنا قليلا لحياتى المهدي بقوله : « السلام  
عليكم • فرددنا عليه بقولنا : « عليكم السلام » ثم مد يده فقبلتها  
عشة مرات وفعل كل من سيده بك جمعه وديمتري مثل • ثم أشار  
علينا بالجلوس ثم وجه الخطاب الى قائلا : « هل أمت مسرور ؟ »

قلت : « أجل يا ولأى . لقد سررت وثلت السعادة بقربى

منك » .

نقال : « بارك الله فيك أنت وأخوتك ( يريد ديمتري وسيد  
جمعة ) لقد كانت تبغضني أخبار المعارك بينك وبين أبنائى فكنت  
أدعو الله لهدايتك . وقد سمع الله وبيبه لهائى ، وكما خدمت  
مولائى السابق لأجل المال الزائل يجب أن تخدمنى الآن لأن من  
يخدمنى يختم الله والاسلام وينال السعادة فى هذا العالم والآخر  
فى العالم الثانى » .

فأبغض كل منا ولأى وكنت قد أوصيت قبلًا بأن أطلب مبايعته  
فانتهزت هذه الفرصة وطلبت ذلك . فلعنا إلى أن نركع على طرف  
جلد الشاة تم وضع كل منا يديه فى يديه وأقسمنا هذه اليمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بايعنا الله ورسوله . وبايعناك  
على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئاً . لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى  
البهتان ولا نصيبك فى المعروف . بايعناك فى ترك الدنيا والآخرة  
( كلها ) ولا نكفر فى الجهاد » .

ولما انتهينا من البيعة قبلنا يديه وصرنا معبودين من أنصاره  
المخلصين ، ولكننا كنا أيضاً عرضة لأن يقع بنا عقاب هؤلاء الأنصار .  
وسرع المؤذن فى الإعلان وكان المهدي يؤمنا . فيصلى ونحن نكرر  
ما يقول . ولما انتهت الصلاة رفع الجميع أيديهم يلهون بالنصر  
للمؤمنين . ثم ابتدأ المهدي فى وعظه .

وكان حوله جموع عظيمة من الناس يظلمهم عن فرور العالم  
وزواله ويحضهم على الزهد وألا يفكروا إلا فى الدين والجهاد ، وكان  
يصف لهم ملذات النعيم التى سيلاقيها المؤمنون بمذهبه ، الداعون  
إلى دعوته . وكان بعض المتحمسين يقاطعونهم بصيحات التواجد  
والطريد ، والحق أنى مقتنع بأن جميع الحاضرين سواء كانوا

مؤمنين ايماناً حقا بدعوتهم . وكان الخليفة قد خرج من المسجد في مهمة ما ولكنه فيه الملازمين لي أن يطلبوا منا البقاء مع المهدي الى الغروب .

وسنحت لي عندئذ فرصة بأن أنظر الى المهدي وأنعرفه .  
أو صاله . كان طويلاً عن بعض الاكتاف خفيف السمرة متين البنية . وكان رأسه كبيراً وعينه برالتين وكانت له لحية سوداء وعمل كل من خديه ثلاثة حوزز . وكان أفقه وفهم حسبي الوضوح وكانت عادته الانجسار على النوام وإذا ابتسم بدت أسنانه الناصعة وكان الفج بين ثنيبيه فرجة يتقاط بها السودانيون ويسمون بها فججة . وكان هذا سبباً في حب النساء له إذ كانوا يسمونه « أمير فججة » . وكان يلبس جبة قصيرة قد أجيد غسلها وقد عطر بالمسك والبنطل والورد واشتهرت عنه حلة الرائحة حتى سارت تسمى « برحة المهدي » . وكانوا يقولون انها تماثل رائحة الفردوس أن لم تلبسها .

وقد قضينا الوقت كله ونحن مكاننا فنود فوق سيقاننا لطوية تحبنا حتى وجبت صلاة المغرب .

وفي حلة الاكنة كان يروح ويغدو من المسجد الى البيت عدة مرات . ولما انتهت الصلاة استأذنت في الخروج لأن الخليفة كان قد وعدني بذلك في ذلك الوقت . فأذن لي ونصح لي بأن أزم الخليفة وأرصد نفسي لخدمته . فوعده بالطاعة ويلزم امره بالحرف ثم قبلنا يدنا وأنا وديستري وسيد بك وخرجنا .

وكانت سائقي قدخرتا من العملة الطويلة حتى ما كفت أقوى على التمسك عليهما ولم يبد على سيد بك ألم لأنه مستاد حله القصة . أما ديستري فسار وراءنا وهو يتلفظ ألفاظاً خائفة باللغة الاغريقية يلحن فيها للمهدي . ورافقنا ملازم الى منزل الخليفة حيث قمعدنا الى وقت الحشاء .

وأخبرنا الخليفة بأنه بعد أن رأنا في الصباح وفد إليه  
 حسين خليفة مدير بربر فثبت لدينا من ذلك سقوط بربر وكانت  
 الإنشاعات قد بلغتنا ونحن على حدود دارفور ولكننا لم نلاق أحدا  
 نتحقق منه هذا الخبر . ويبدو أن المدينة سقطت على يد الجبالين  
 وبذلك انقطعت المواصلات بيننا وبين مصر . وكان هذا الخبر سيئا  
 للغاية وكنت أنتظر لقاء حسين خليفة لكي أتعرف منه صدق هذا  
 الخبر .

وخادنا الخليفة لكي يتام قدم كل منا ساقيه على عجزيه  
 واستسلم للأقدار .

وفي الصباح بعد فطور الصيلة واللبن سمعنا قرع الطبول  
 مؤذن بخروج الخليفة وأسرجت الخيول في الجبال . وأشرت على  
 العظم بأن يمدوا لنا أنا والسيد بك جنه جوادين امتطيناهما  
 وأتركنا بهما الخليفة الذي كان له سبقنا . وكان راكبا جواده  
 يقصد التزعة فاطم وكان معه عشرون من المشاة وكان عن يمينه  
 رجل أسود ضخم من قبائل الدنكار وعلى يساره جري طويل  
 جلا يضي أبا نصيكة كان يعاونه في الركوب والنزول . ولا بلغ  
 الرجة التي كان بها بالأسر أمر الفرسان بأن يكرروا الرياضة التي  
 قاموا بها أمس . وبعد مدة سرنا إلى نهاية المعسكر حيث أراي  
 الخليفة آثار ذريعة وخنادق وأخبرني أنها من عمل هكس قبل أن  
 تباد قوته . وكان قد مكث هناك ينتظر المدد من تاج الله . وكانت  
 هذه الخنادق مصنوعة لمضاع كروب . وقد أثار هذا المنظر في  
 نفسي ذكرى القومة من تلك الآلاف التي أبيت عن آخرها تقريبا  
 وإن حله النكبة هي سبب وجودي في مكالي هذا الآن .

وعند رجوعنا عرج بنا الخليفة إلى منزل أخيه يعقوب الذي  
 كانت عشته قريبة من حمة الخليفة إذ لم يكن بين سباج كل منهما



سوى ممر ضيق . وتلقاه يعقوب بالبمشاة . وبدأ عليه من  
دلائل السرور مثل ما بدأ على أخيه ونصح لي بأن أختم الخليفة  
بإمارة .

ويستحب انصر عن الخليفة عريض الاكتاف مستدير الوجه  
وبه آثار الجدى وله أنف يرتفع من طرفه وشاربان ولحية خفيفة .  
وحظ من النعمة أكثر من حظ من الجبال ولكن طريقته في  
الحديث عجيبة من حيث الظاهر عظمه على محضاته . وكان يخاطبنا  
وهو يتنسم كما يفعل الخليفة والمهدي . ولا غرابة في ذلك ما دامت  
أحوالهم في هذا الرواج . يعقوب يقرأ ويكتب وقد حفظ القرآن  
عن ظهر قلبه ، أما الخليفة فبالقابلة إلى أخيه يعتبر جاهلا . وهو  
أصغر منا من الخليفة ولكنه مستشاره الأمين وصاحب الرأي  
الذي لا يعلى عليه . وريل لن يرتأى رأيا يخالف يعقوب أو يستبه  
في أنه يفسر له إذ لا ريب في حياته .

وأصبنا شيئا من البلح الذي قلعه لنا ثم استأذنا في الخروج  
وعدنا إلى رقويه حيث قصدنا إلى المسجد وقعدنا إلى الغروب كما  
فعلنا البارحة ووجه المهدي فوجه الناس في الزهد في الدنيا والجهاد  
حتى ينالوا نعيم الفردوس . وتعمس المصلون وقد أسكرهم  
التواجد قصاحوا يمدحون المهدي . أما نحن النساء فكاننا نتألم من  
مقطعتنا ونلمن في قلوبنا المهدي والخليفة . وجبج من حولهما من  
السفلة المتنافقين .

وفي اليوم التالي طلبنا الخليفة ومباينا : هل ترغب في السفر  
إلى دارفور . وكنت أعرف أن هذا السؤال لم يوجه إلينا إلا على  
سبيل الامتحان فأجبنا بصوت واحد أننا نأسف أشد الأسف  
لفراق المهدي ، ورأيت أنه كان ينتظر هذا الجواب فابتسم وامتدحنا  
لحسن اختيارنا .

واقترح علينا الخليفة أن نترك عشتنا وأرسل ديمتري مع ملازم إلى أميره وكان يونانيا أيضا وأمر بمنحه عشرين ريالاً • فلما غادرنا التفت إلى سيد بك وقال : « وأنت يا سيد جميعه مصرى وكل انسان يحب بنى وطنه وعندنا كثير من المصريين وكلهم ابن مجرب • تم أنت شجاع يمكن الاعتماد عليك ولذلك يجب أن ترافق أمير المصريين حسن حسنى وسيططيك منزلاً ويقضى لك حوائجك وصاعيل أما أيضا كل ما فيه راحتك » •

وسر سيد بك جميعه لهذا الترتيب ثم التفت الخليفة إلى وقال : « أما أنت يا عبده القادر فريض وليس لك أحد سوى • وأنت تعرف العرب فى جنوبى دارفور معرفة جيدة فبناء على أمر المهدي يجب أن تبقى معى ملازماً لى » •

لأجبت مسرعا : « حله هى أمنية قلبى • وأنه لحظ حسن لى أن أتمكن من خدمتك ولك يا مولاي أن تلق بطامتى وأمانتى » •  
 فقال : « الى أصرف ذلك • حوالا الله وقوى إيمانك • ولا شك فى أنك ستكون ذا منفعة كبرى للمهدى لى » •

ثم اختليت بالخليفة فأعاد على مسمى التعبير عن مروره بخسمنى وموافقتى له • ثم حذرني من الاختلاط بالقبائل الذين يصيدونه وربما أحدث اختلاطهم بينى وبينه • وأمر ببناء بضع عشق لى من القش فى الزريبة المجاورة له والتي يملكها أبو أنجه ( وكان غالبا فى جبال النوبة ) وفى أثناء ذلك أبقى بعشقى وأحضر الظهر والمساء وأسمع وعظ للمهدى • فشكرته شكرا جزيلاً ووعدته بالأمانة والولاء •

وفى اليوم التالى حضر حسين باشا خليفة فى سؤاله وكان أول ما سأل عنه حالة والى بربر السابق • فاجابه حسين باشا

بالجواب المتبادر . فأخذ في سؤاله عن الحالة في وادي النيل  
فوصف له حسين باشا البلاد التي بين بربر وفشودة وقال انها  
صارت الآن قايمة للمهدى وأن المواصلات بينها وبين مصر قد انقطعت  
أما الخرطوم فإن غوردون ينافس عنها ولكن عرب الجزيرة قد  
حاصروها . وكان بالطبع يصف الأحوال بالصعبة التي تروى  
الخليفة . وكان الخليفة مسرورا بهذه الأخبار . ومسروء يبنو عليه  
في إشاراته واستفهاماته . وبعد الخليفة حسين باشا بأن يقمه  
في صلاة الظهر للمهدى وأكد له علوه عنه . وقبل ذلك لليجاد  
يمكنه أن يستريح معي .

ودافعت الخليفة بعد ذلك إلى المسجد ومنها حسين باشا  
الذي قسم إلى المهدي وعاد معي إلى منزلي لفضله الليلة . وكفينا  
عند الخليفة كالمادة ثم قمنا إلى عشتي . فلما خلا كل منا إلى أخيه  
أهدانا التسليمات والتحيات . وصرنا ننسب الحالة التي وقعت فيها  
البلاد والتي أنزلتنا إلى هذا البرك . ثم قلت : يا حسين باشا إلى  
أهلك بالصمت فأخبرني الحالة في الخرطوم وما يلحق للسكان  
حاليا . . .

فقال : « وا أسفاه » هي كما وصفت للخليفة . فان أذاعة  
المنصور بإخلاء السودان قد قلبت الحالة . وكانت سببا غير مباشر  
في سقوط بربر . ولست أشك في أنها كانت ستسبب حل أية  
حال . ولكن هذا المنصور أسرع في سقوطها . ولا كان غوردون في  
بربر منعه من اتخاذ هذه الخطوة ولا أدى ما الذي جعله يسلكها  
ثانيا .

وتحدثنا كثيرا عن الأحوال والحوادث التي وقعت لحسين  
باشا وكان رجلا مستأ وقد تعب قدام . ولكن حديثه أطار النوم  
من عيني . وبعثت أفكر في غوردون وقلت في نفسي حل هذا هو

غاية مجهودات غوردون لخدمة البلاد ؟ وهل تلهيها ضحايا الرجال  
والمال بلا فائدة ؟ لقد عولت الحكومة المصرية على ترك البلاد وهي  
وإن لم تنتفع منها في الماضي فسيكون مستقبلها عظيما . وأقل  
ما فيها تلك الآلاف من الجنود السود الذين يمكن أن يجندوا في  
الجيش . وستترك الحكومة هذه البلاد لأهلها وتبقى علاقتها بها  
ودية وتسحب حامياتها وذخائرها منها وترضى بقيام حكومة محلية .

وكان هذا هو الغرض من إرسال غوردون أملا في أن تقديره  
بين الأهل واحترامهم له ( وكان هو يكبرها أكثر من حقيقتها )  
يسكنانه من نادية هذه المهمة . ومن المقائق أن غوردون كان محبوبا  
في المناطق الغربية والمناطق الاستوائية حيث كسب حب الناس  
بطيبة قلبه وسخائه . وكان وقت إقامته في تلك المناطق يكثر من  
لتجوال والسياحة . وكان جسورا علوا وقبائل تلك الجهات تقدر  
بالذين الصفتين . فلا شك إذن في أن تلك القبائل كانت تحبه  
ولكنها صارت الآن تحب المهدي ولذلك نسبت غوردون .

وليس السودانيون أوروبيين . إذ هم عرب وزنوج ولا يقدرون  
العطف والرفقة قهرها . وقد أذيع المنشور بإخلاء السودان بين  
العرب وأخصهم الجبالين وكانوا يكرهون غوردون لأنهم لم ينسوا  
بعد ما فعله مع الجبالية .

ولا جاء غوردون إلى الخرطوم وليس معه قوة يستند إليها  
عرف هؤلاء العرب أنه يعتمد على نفسه الشخصي في تحقيق  
المهم . ولكن الواقفين على الحالة كانوا يعرفون أن النفوذ  
الشخصي هو نقطة من بحر في حل المشكلة السودانية .

: لنا الذي اقراء بأذاعة هذا المنشور والاعلان فيه عن اخلاء  
الحكومة المصرية السودان . وقد أصبح له حسين باشا الاقراء

فى بربر ولكن عندما وصل الى متبه قراه لعام جميع الناس . لهن  
لم تصلح غوردون منشورات المهدي التي ارسلها عقب سقوط  
الايض ؟ ألم يعرف انه كان يدعو الناس فى هذه المنشورات الى  
اعلان الجهاد على الحكومة وأن من يعصيه فى هذا الأمر يعتبر  
خائناً للدين فتصفي املاكه وتؤسر نساؤه وأولاده ويصيرون عبيداً  
للمهدي ؟

لقد كان غوردون يرمى الى الحصول على معاونه هذه القبائل  
حتى يتمكن من سحب الحاميات وكان يمكنه أن يتفق معها على ذلك .  
ولكنه الآن أصبح هذه الفرصة اذ كيف يمكن أن تساعد هذه  
القبائل اذا كان هو قد أعلن اخلاء السودان ومعنى ذلك أن تترك  
هذه القبائل لرغبة المهدي ؟ وماذا كان يفعل المهدي بهم لو انه  
علم انهم عاينوا غوردون على أن يسحب الحاميات ؟ ثم هل كان  
يمكنهم أن يقاوموا المهدي ومعهم أربعون ألف جندي كل منهم يحمل  
بنشقة وذلك غير الآلاف المتحصنين الذين يستأقون الى الدمار  
والفساد ؟

كلا . لقد كانت هذه القبائل أقل وأصنف ما حسبها  
غوردون . كانت تعرف أنه اذا انسحب غوردون من البلاد وتلقن  
المهدي أنهم معاونوه فانه يستحصل شأفتهم ويسبى نساءهم  
وأولادهم . ولم يكونوا هم فى حاجة الى هذه التضحية .

وإذا لم يكن فى مقهور الحكومة لأسباب سياسية وغير  
سياسية أن تحتفظ بالسودان فان من العيب أن يرسل غوردون  
ويضحي به بلا فائدة . ولم تكن ثم حاجة الى رجل ذى مهارة شاذة  
لكي يسحب جنود الحاميات والنشائر على البواخر الى بربر بحجة  
رفع الحصار عن المدينة وعندئذ تسحب جميع الحاميات أو معظمها .  
ولكن كان ينبغي السرعة فى هذا العمل ثم هو لم يكن ممكناً بعد  
سقوط بربر . ويجب أن نذكر أن بربر لم تسقط الا فى ١٩ مايو

أي بعد ثلاثة أشهر من وصول غوردون إلى الخرطوم • وعلى كل حال نقول أن اذاعة منشور غوردون قد جعل سير الأحوال إلى حد مزعج • فإن الاعمال عرلوا لية الحكومة في اخلاء السودان وصار كل منهم ينظر الى مصالحه الخاصة التي صارت على خلاف مع مصالح الحكومة التي قلبها مواطنهم المهدي •

ولم يكن في مقدور غوردون مع صفات الشجاعة والنشاط التي يتصف بها بحق أن يوقف سير الأحوال بعد أن ارتكب هذه الغلطة السياسية الكبرى •

ولقد كنت أتقلب في العنجرية وأنا في هذه الأفكار بينما كان حسين باشا يخط في تومه • ورايت أن الايمان بالقضاء والقدر يفيد في مثل هذه الساعة • ولكنني كنت مازلت أوروبيا لم تبلغ نفسي هذه المرحلة وإن كنت قد تعلمت بعد ذلك أن انظر إلى الأشياء نظر التسليم والهدوء • وعلمتني تجاربي في السودان أن أمارس تلك الفلسفة الكبرى • لفلسفة الصور •

وانتشرت بعد أيام قلائل اذاعة بأن غوردون أثار على أبي حريه وجرحه وأن قواته التي كانت قد طوقت الخرطوم قد وقعت وهزمت • فامتلا قلبي سرورا بهذه الاخبار وإن كنت قد تظاهرت بعلم المبالاة •

ووصل إلى معسكرنا صالح واد الملك وكان قد سلم نفسه في فيداس ثم أرسله أبو حريه بعد ذلك اليينا • وعلمنا عنه الخليفة والمهدي فأتيت هذه الاخبار وأمدتني ببعض معلومات عن غوردون •

وفي هذا المساء استمعنا إلى الخليفة للعشاء معه وما كنا نسرع في تمزيق كتلة اللحم الكبيرة التي أمامنا حتى صألني قائلا • هل سمعت الاخبار اليوم عن الحاج محمد أبي حريه ؟ •

فقلت وأنا أقصر بالبناني : « كلا » لم أترك بابك طول اليوم  
ولم ألق بأحد » .

فقال الخليفة : « لقد فاجأ غوردون الحاج محمد من البر  
والبحر وكان البحر الأزرق في الفيضان » وقد أساط الواسخ :  
يمنع ومصاص البنادق من الوصول الى بيئته . هذا الكافر رجل  
ماكر ولكنه سيئ حال عقاب الله . وقد تفهقر رجال الحاج محمد  
وغوردون الآن في طوب النصر ولكنه مخلص فان الله لا ينصر  
الا الذين يؤمنون به ويميتنهم الله منه لمريبا . وليس الحاج محمد  
ذا كفاية ولذلك سيرسل المهدي واد النجوم لكي يطرئ الخرطوم » .

فقلت وأنا أقصد عكس ما قول : « أرجو الا يكون الحاج  
محمد قد خسر خسائر فادحة » .

فقال الخليفة بحق : « لا حرب بلا خسارة ولكني لم أقد على  
التفاصيل بعد » .

وكان انتصار غوردون قد عكر مزاجه فذهبت عنه دوائه  
وكان يبدو عليه أنه يخشى النتائج لهذا الانتصار . ولما ذهبت الى  
عشتي بعثت خادمي لكي يدعوا صالحي واد الملك سرا لزيارتي .  
فاخبرته بأنه الخليفة يؤيد رواية انتصار غوردون فقال لي انه سمع  
ايضا هذا الخبر من أفراد قرايته . وامتلا قلبي بهجة وطربا لهذا  
النصر . ووجدت نفسي أتحدث وأنا كلى رجاء بالمستقبل ولكن صالحي  
كان يعد هذا النصر وقتيا . وكان يبني اعتقاده هذا على أسباب  
مقولة .

واخذ بوضوح لي الحالة بقوله انه عندما وصل الى الخرطوم  
بدأ تأثير المنشور عن أخلاء السودان يظهر وزادت لذلك صموياته .

وصارت قبائل الجبال، تجتمع وقد اختارت لها الحاج على واد سبيل رئيسا وقد اجتمعت لديه قوة كبيرة ولكنه للأسباب شخصية كان يميل الى الحكومة فحصل يسوف في القتال .

ورأى القناصل في الخرطوم أن الحالة تتفاقم فطلبوا من غوردون أن يرسلهم الى بربر . ولذلك نصح لهم غوردون بالبقاء في الخرطوم فبقوا . أما أمالي الخرطوم فقد أخذوا يتوجسون من غوردون لأنهم تحفظوا من المنصور أن غوردون إنما جاء لكي يسحب الحماية وأن كانوا قد عرفوا بعد ذلك أن غوردون إنما جاء لكي ينال من غوردون .

وجع الشيخ عبيد وهو من أكبر مشايخ الطرق في السودان اتباعه في الحلفاء لكي يحاصر بهم الخرطوم . وأرسل غوردون بعض الجيش بقيادة حسن باشا حسن الذي كان حاكما على شقة لكي يجلبوا المحاصرين عن أماكنهم ووقف غوردون على سطح قصره يراقب جنوده منه بتلسكوبه فرأى بعض ضباطه يطاؤسون الثائرين في التسليم فأحضرهم في الحال وعقد لهم محكمة عسكرية ثم ضربوا بالرصاص . ولكنه على الرغم من هذه النكبة تمكن من تخليص الشايحية وكانوا موالين للحكومة لأنه نال لهم الاستحقاق عبد الحميد واد معه فانتقم وأحضرهم الى الخرطوم .

وكان صالح واد لذلك في فيداس قد طووه الثائرون . فرجا غوردون أن يترك الحصار عنه ولكن غوردون لم يتمكن من ذلك فاضطر الى التسليم معه ألف وأربعمائة من الجنود غير النظامية وذخائرهم . وبعد هذا النصر جمع الحاج محمد أبو حرجه جميع سكان الجزيرة لمحاصرة الخرطوم .



وبينما كانت هذه الاسواق تجري حول الخرطوم كان محمد  
 النخير معلم المهدي السابق وكان قبلا يدعى محمد المذكر قد أتى  
 الى النهر لعين المهدي تلميذه السابق ليمرا على بربر ووضع جميع  
 القبائل في تلك المديرية تحت تصرفه . فجمع محمد النخير جميع  
 أنصاره من الجمالين قبيلته وأهلهم بعدد كبير من البرابرة والبشارية  
 وسائر العرب ثم طوق بهم مدينة بربر فلم يضر عليها بضعة أيام  
 حتى سقطت .

وكانت مديرية دنقلة لا تزال ثابتة على ولائها للحكومة وذلك  
 يرجع الى مكر مديرها مصطفى بك ياور . فانه عرض تسليم المدينة  
 الى المهدي مرتين ولكن المهدي توجس شرا منه لانه تركى وأرسل  
 أحد قرايبه سيد محمود على لكى يشترك هو وأسر الفساحية  
 الشيخ حذاي في تسليم المدينة . فلما علم مصطفى بك ياور ذلك  
 وكان عنده في ذلك الوقت ضابط انجليزى ( هو اللورد كاتشر )  
 يشجبه على القتال جهز جميعا وأوقع بحذاي ثم سحق المهديين في  
 كورشي . وقتل الأميران محمود وحذاي .

اما في سنار فلم تكن الحال على ما يرام . فقد حوصرت وكان  
 المنصر بها من القمح كثيرا ولكن مواصلاتها كانت مقطوعة وحاول  
 الحاكم نور بك أن يرد المحاصرين فنجح وأرجعهم الى مسافة بعيدة .  
 وجاءت المخابرات تنرى الى المهدي رجاء أن يقدم الى النهر  
 ولكنه لم يكن في حاجة الى العجلة اذ كان متأكدا ان السودان كله  
 قد صار في يديه وأنه لا يمكن أن يؤخذ منه الا بجيش عصى  
 أو اجنبى كبير . وكان يعرض الجيش كل يوم جمعة ويعطى  
 العرش بنفسه وكان جميعه مؤلفا من ثلاثة أقسام يقود كل قسم  
 منه خليفة . ولكن الخليفة عبد الله كان يسمى ( رئيس الجيش ) .  
 وكان قسمه يسمى الراية الزرقاء وكان أخوه يعقوب يتوب عنه وكان

الخليفة على واد حلو يقود قسمة الراية الخضراء . أما الراية الحمراء  
أو راية الاشراف فكان يقود قسمة الراية البيضاء معصية شريف وكان  
للأفراء الاساطير رايات خاصة .

وكان أمراء الراية الزرقاء يصنفون جنودهم يوم العرض  
بحيث تواجه الشرق .

وكان جنود الراية الخضراء يصنفون أمامهم بحيث يواجهون  
الغرب . ويصل بين هذين الصنفين جنود الاشراف وأمراءهم بحيث  
يواجهون الشمال .

وكانت جنود المهدي قد كثر عددها فكان العرض يحتاج الى  
ميدان كبير جدا مفتوح من ناحية واحدة يدخل منها المهدي ومعه  
صحابته . ويقول آخر أنه سمع أصواتا من السبحة تبارك في  
انتصار المهدي ونسبهم بالنسر . بل بعضهم يقول ويؤكد أنه رأى  
للملائكة تبسط أجنحتها وتؤلف سحابة تقي الجيش وهج الشمس .

وبعد ثلاثة أيام من وصوله خبر هزيمة الحاج أبو حرجه وصل  
إلى رجل إيطالي يدعى يوسف كوزي أنيا من الخرطوم .  
وكان قبلا في بربر فلما سقطت حركة المسيو ماركة وكيل شركة  
ديبورج لكي يتم بعض الحسابات في بربر . وأرسله محمد الخير  
بعد سقوط بربر إلى أبو حرجه وحلها معه إلى غوردون بخطاب ولكن  
غوردون رفض أن يتلقاه ووجهه إلى خطوط العدو على الشاطئ  
الشرقي للنيل الأزرق فلما وصل إلى المهدي أرسله ثانية إلى غوردون  
بصحبة رجل يوناني يدعى جورجي كالامانتينو ومعه خطاب إلى  
غوردون يطلب فيه منه التسليم . وأرسلت أنا على يد هذا اليوناني  
بضخ كلمات لكي يحصلها إلى غوردون سرا . وأذن لليوناني بأن

يدخل الى الخرطوم . أما كوزى فلم يؤذن له لان الضباط اتهموه بأنه عندما دخل في المرة الأولى دعاهم الى التسليم .

ولما انتهى شهر رمضان استدعى أبو البجة ومن معه من القوات في جبل الدامر وأعلن المهدي عندئذ أن النبي قد أوصى اليه أن يقوم الى الخرطوم ويحاصرها بنفسه وأمر جميع الأمراء بجمع رجالهم والتهيؤ للسفر وكل من يتخلف عن هذا الجهاد تصفى أملاكه .

ولكن الناس الذين لم يكن لحساسهم حد لم يكونوا في حاجة الى التحذير من التخلف فانهم كانوا يهرعون الى القتال وكل منهم طامع في الغنية التي تنتظر انتصار المؤمنين . وكانت نتيجة اعلان المهدي الجهاد أن هاجر الناس جملة وكانت هجرتهم لا مثيل لها في تاريخ السودان .

وغادونا رحاد في ٢٢ أغسطس وكانت قوات المهدي تسير في ثلاث طرق مختلفة . فاتخذت القبائل التي تحصل على الجبال الطريق الشمالي . وكان طريقها على فرس وصلبة وطرة الحضرة . أما الطريق الوسطى التي تسير على طيارة وشرقله والشيل ودويم فقد اتخذها المهدي والخلفاء والأمراء . أما البقارة وسائر القبائل التي لها مواشي فقد اتخذت الطريق الجنوبية . وكنت أنا بالطبع ملتزما للخطية أرافقه ولكني كنت عندما تسط رحالنا أرسل في طلب صالح واد الملك الذي كان في رفقة المهدي . وكان الخليفة لسبب لا أعرفه يكرهه وأمرني بأن الزمه أنا ونحني وكلف ابن عمه عثمان واد ادم بأن يسنو بأمرى . ومع ذلك كنت أدقق من وقت لآخر لرؤية صالح واد الملك وكان واقفا على الدوام على الحالة في مديريات النيل .

ولما كنا نبلغ شرقه شاعت اشاعات عن رجل مسيحي  
مصري وصل الى الأبيض وأنه في طريقه الى المهدي . وكان البعض  
يقولون انه امبراطور فرنسا وآخرون يكذبونهم ويقولون بل هو  
أقرب ملكة إنجلترا . فلم يكن ثم شك في أن الرجل أوروبي  
فسمرت بأشد الشوق لرؤيته .

وأخبرني الخليفة في المساء بأن رجلا فرنسيا وصل الى  
الأبيض ، وأنه بص في طلبه وإحضاره الى المهدي . ثم قال « هل  
أنت فرنسي وهل عندكم في بلادكم قبائل مختلفة كما هو الحال  
في السودان ؟ »

وكان الخليفة يجهل أوروبا كل الجول فجلت أثير ذهنه  
عن الموضوع بقدر أمكاني . ثم قال الخليفة : « ولكن ما يريد منا  
رجل فرنسي يأتي إلينا وقطع هذه الطريق الطويلة ؟ عسى أن  
يكون الله قد هداه الى الصراط المستقيم » .

قلت : « لعله يتق في صحبتك وصحبة المهدي » .  
خبرني الخليفة وكان لا يصاق قولا وقال : « سنري » .

ثم بلغنا شرقه وما كنا نخط رحالنا حتى أرسل الى مولاي  
وقال : « يا عبد القادر لقد وصل الفرنسي إلينا وأمرت بإحضاره  
هنا . فانتظر واسمع ما يقوله إذ ربما نحتاج اليك » .

ثم جهنا حسين باشا وبدا لي أن الخليفة استعاده . وبعد  
مدة جاءنا ملازم وأعلن أن الرجل الغريب واقف أمام الباب فأذن  
له بالدخول . ودأبته رجلا طويلا حول الثلاثين من عمره وكانت  
الشمس قد لوحت وجهه . وكان شاربه ولحيته خفيفة اللون وقد

لبس الجبة والصاعدة • وحيا الخليفة بقوله : • السلام عليكم • •  
فلم يتحرك الخليفة من المنبر بل أشار عليه بالعود وبدأ  
بقوله : • لم جئت هنا وماذا ترغب منا ؟ • •

فأجاب بلهجة غريبة غير مفهومة بأنه فرنسي جاء من فرنسا •  
فقال الخليفة : • تكلم بلغتك مع عبد القادر وهو يوضح لنا  
ما قصد • •

فتحول الغريب الى ونظر الى متوجسا وقال بالانجليزية  
• نهارك سعيد يا سيدي • •

فقلت : • هل تتكلم الفرنسية • انا اسمي سلطان • الزم  
الجد ولا تتطوح • وبعد ذلك يكتك أن تخبرني على حصة  
ما تريد • •

فتنعر الخليفة قائلا : • ماذا تقولان ؟ اني أعرف ماذا  
يطلب ؟ • •

فقلت له : • أخبرته يا مولاي عن اسمي وطلبت منه أن يتكلم  
بصراحة لأنك أنت والمهدي قد وهبكما الله معرفة ما يدور في أفكار  
الناس • •

واسمعتني حسين باشا وكان قاعدا خلفي فقال : • هنا حق •  
الله يطيل عمر الخليفة ثم انقضت الى وقال : • لقد أحسنت في  
تنبيه الغريب • •

فسر الخليفة لهذا التلميح وقال : • يا حبه عن فرسه • •

فقال الغريب بالفرنسية : « اسمي أوليفيه بان • وأنا رجل فرنسي • ومنذ صباى وأنا متعلق بالسودان • أحب أهله • وجموع أهل بلادي يسمعون شموري • ونحن في أوروبا يبتدأ ويبدأ بعض الأمم احتداد • والامة الانجليزية هي احدى هذه الأمم وقد رسخت قدمها في مصر واحد قوادها غوردون موجود الآن في الخرطوم فانا جئت لكي أقدم للمهدي مساعدتي أنا وأمتي » •

فقال الخليفة بعد ان ترجمت له هذه الأقوال : « أية مساعدة ؟ » فقال أوليفيه بان : « مساعدتي الآن هي النصيحة • ولكن أمتي ترغب في صداقتكم وهي مستعدة لمعاونتكم بالمال والسلاح بعد شروط » •

فقال الخليفة وكأله لم يسمح ما قاله : « هل أنت مسلم ؟ » •

فاجابه : « لجل • أنا مسلم منذ زمن طويل وقد أعلنت إسلامي في الأبيض » •

فقال لي الخليفة : « أقعد أنت وحسين باشا هنا مع هذا الفرنسي وسأذهب أنا الى المهدي لكي أخبره عنه وأعود » •

فلما غادروا الخليفة حبيت هذا الغريب وعرفته بعيني ياتى ولكن شعرت بغى من الكراهية له لعلني أنه قدم لمساعدة أعدائنا • ولكن مع ذلك لبهته الى أن يحذر في كل ما يقوله وأن يلقى ان الساعث له على المجيء هو الايمان لا الأغراض السياسية • واحتفظ حسين باشا من هذا الفرنسي حتى قال لي بالعربية : « هل تقديم المال والسلاح لهؤلاء الناس بعد سياسة ؟ هؤلاء الناس ليس لهم غرض الا القتل ونهب الناس واستعباد النساء والبنت • لقد كنتم تنسبوننا الى القسوة والشر وتعاقبونا حين كنا نشتري المبيد

السود مع أن العبد الأسود لا يستأجر على الحيوان إلا في أنه يذبح  
على حرث الأرض . »

فقلت : « معلني إلى عمره طويل يمشي كثير » .

وأخذنا كلنا الفكر ونأمل كل في حالة ننتظر مجيء الحليقة .  
وبعد مدة عاد إلينا وأمرنا بالوضوء استعدادا للصلاة مع المهدي .  
فتوضأنا وذهبنا إلى مكان الصلاة ووجدنا عددا عظيما من الناس  
كلهم يبائنون ويهللون في شأن هذا الشريفة الرئيس .

ولما أجد كل منا مكانه جلس أوليفيه بأن في النصف الثاني  
وجاء المهدي تحت ذلك وكانت جيبته نقية معطرة وعامته قد رتب  
طبائنها ترتيبا يفرق المعتاد وعيناه مكملتين لها بريق شديد وكان  
يبدو عليه أنه عني عناية كبيرة لكي يؤثر بهيته في الناس . ولا شك  
في أنه شمر بالسود والزهو لرفيته رجلا يأتيه من بلاد بعيدة  
يعرض عليه المعاملة .

وقد على مسجدة وطلب أوليفيه بأن وجاء باقصة وكما  
لم يصافحه ثم أذن له بالعود وسأله عن سبب مجيئه وكنت أنا  
المرجع بينهما .

وأعاد أوليفيه بأن حكايته فطلب مني المهدي أن أترجم أقواله  
بصوت عال يسمعه جميع الحاضرين . ولما انتهيت قال هو أيضا  
بصوت عال : « لقد سمعت أقوالك وفهمت مقاصدك ولكني لا أتمد  
على معونة الناس وإنما أتمد على الله ورسوله . فإن أمتك غير  
مؤمنة ولا يمكنني أن أقعد مخالفة بيني وبين أمة غير مؤمنة ويعونه  
الله سنهزم أعداءنا ونظفر بهم بواسطة الانتصار والملائكة الذين  
يعيهم أيضا النبي » .

وعلا الهتاف من آلاف المجتعيين عند سماعهم هذا الكلام ،  
ولما عاد النظام والسكون قال المهدي : « تقول أنك تحب الاسلام  
وتعترف أنه حق فهل تؤمن به وهل أنت مسلم ؟ »

فقال الفرنسي : « أجل . انى مسلم . لا اله الا الله محمد  
رسول الله » .

فمد المهدي يده فقبلها ولكنه لم يطالبه بيمين الولاية . ثم  
جاء ميّعاد الصلاة فنظمت الصفوف وقضينا الصلاة . ثم وعظنا  
المهدي وشرح لنا الزهد فى الدنيا وكيفية النجاة وخرجنا مع الخليفة .  
الذى أشار على بأن أخذ أوليفيه بأن مى الى عشتى وانتظر أوامره .

وخلا كل منا الى الآخر فتحدثنا مليا لا نخاف شيئا . وكنت  
أكره المهمة التى جاء من أجلها ولكن أيضا كنت أحرص عليه لجهله  
فأعنت التحية ورحبت به وقلت له : « والآن يا عزيزى أوليفيه ،  
نحن هنا ونريدنا أن يزججنا أحد فلنتكلم بصراحة . ولو انى  
لا أوانق على مهنتك ولكن أؤكد لك بانى سأعمل كل ما فى  
إستطاعتى للمحافظة عليك . لقد عشت أيا هنا جملة سنوات يبدا  
عن المدينة فأخبرنى عما يحدث الآن فى العالم ؟ » .

فقال لى : « اننى أرى بك كل الدقة ، وأعرف اصحك ، وأحمد  
المقادير التى جعلتني بك ، وهناك عدة أشياء تهلك معرفتها ، ولكن  
أقصر كلامى الآن على مصر » .

فقلت له : « أخبرنى أذن عن ثورة عرابى باتما والمقتلة التى  
حدثت بسببه وتدخل الدول واحتلال الانجليز مصر » .



فقال : « أنا محرو في جريدة الإندبندنس التي يرأس تحريرها روشفور الذي أظن أنك سمعت عنه . وأنت تعرف أن فرنسا وإنجلترا تقيضان في الصيامة وأتينا نضع في وجه إنجلترا كل ما يمكننا من العراقيل . ولم أحضر أنا ولي صفة النيابة على أمضى بل جئت بصفتي الشخصية فقط ولكن الأمة تعلم بهيئتي وتوافق عليه . وقد عرف ولاية الأمور الإنجليزية مقاصدي وقبضوا على في وادي حلقا لأرجاعي ولكن لما بلغت أسنا اتفقت مع العرب على أن يحملوني سرا إلى الأبيض عن طريق الكعب . وقد استقبلني المهدي مرحبا بي كما ترى ولذلك فاني أرجو البقاء على يدك » .

فقلت : « وهل تعلم أنه يكبل أقراسك ؟ » .

فقال : « إذا رفض أقراسي فاني أظن أنه يعمل لأيجاد علاقات حسنة بينه وبين أممي وهذا يكفيني . وأظن أنه بما إلى جئت مختارا فهو لا يعارض في سفرى ثانية إلى بلادى » .

فقلت : « هذا مما أشك فيه . قل لي هل لك عائلة ؟ » .

فقال : « نعم . لي زوجة وولدان في باريس وهم لا يقيمون عن بالي وأرجو أن أراهم قريبا . ولكن أخبرني لم يعارض المهدي في سفرى ؟ » .

فاجبته قائلا : « اني أعرف هؤلاء الناس وإلى الآن لا أظن أن هناك ما يدعو إلى الخوف على حياتك ولكني لا أقدر أن أقول متى وكيف يمكنك أن تسافر إلى بلادك ، وأرجو أن المهدي يرفض اقتراحاتك التي أظن أنها ربما تليده ولكني أرجو أيضا أن تعود سالما لما كنتك التي تنتظره بنافذ الصبر » .

وكنيت قد أمرت الخادم بإحضار شيء يأكله وطلبت إحضار  
 جوزف كوتز ( خادم ودنان الذي كان قد فر من جيش هكس  
 وانضم إلى المهدي ) لكي يأكل معنا . وما كدنا نشرق في تناول  
 الطعام حتى دخل انان من ملازم الخليفة وطلب من أوليقيه بأن  
 أن يتبعهما . فذهبت لوله الدعوة اللجائية وبدأ عليه الخوف  
 وحس إلى بأن أسأل عنه . وذهبت أنا أيضا لأن لغة العربية لم  
 تكن مألوفة فلماذا يطلبه الخليفة وحده ؟ وكنت أقول ذلك لمصطفى  
 « كوتز » وإذا بملازم يطلبنى أنا أيضا . ولما دخلت على الخليفة  
 وجدته قائما وحده وأشار على بالقعود فقمعت إلى جانبه .

ثم قال لي بلهجة التي يسر إلى شيئا : « يا عبيد القادر أنت  
 واحد منا . قل لي ماذا تظن في هذا الفرنسي » .

فقلت : « أظن أنه مخلص وأن قصده حسن . ولكنه  
 لا يعرف ولا يعرف المهدي ويجهل أيضا الكما تجملمان على دعوة  
 الله وحده ولا تحتاجان إلى دعوة انسانية وأن هذا هو سببه  
 انتصاركم المتتالية لأن الله يكون على الدوام مع المؤمنين به » .

فقال الخليفة : « لقد سمعت كلام المهدي عندما قال انه  
 لا يرغب في أية علاقة بينه وبين غير المؤمنين وأنه يمكنه أن يهزم  
 أعداءه بدون أن يستعين بهم » .

فقلت : « هذا أكيد . ولا فائدة من وجود هذا الرجل هنا  
 ويمكنه أن يعود إلى وطنه ويخبر الناس هناك بالانتصارات التي  
 يحرزها المهدي وخليفته » .

فقال الخليفة : « لعله يفعل ذلك بعد . أما الآن فقد أمرته  
 أن يبقى مع ذكي طومال الذي سيخضع به ويقدم له حاجاته » .

قللت له بلهجة التوصل : « ولكنه يجد منسقة عظيمة في التمييز عن فكره بالعربية اذ هو لا يزال يبجلها » .

فقال الخليفة : « لقد تمكن من الوصول اليها بدون مترجم ولكن مع ذلك أسمع لك بزيارته » .

ثم أخذ يتكلم عن أشياء أخرى وأخذه لرؤية الخيول التي أهداها إليه زوجال من تارفور وكنت أعرف بعضها جيدا . وبعد أن تركته ذهبت الى أوليفيه بأن فوجده قد أسند رأسه على يديه وهو في تفكير صيق . ولما رأيته هب واقفا وقال : « لا أعرف ماذا أقول عن كل هذا » . لقد أمروني أن أمكث هنا وأحضرنا الى أمصعي ووكلوا بي رجلا يدعى زكي . فلم يتحركوني أمكث معك ؟ » .

قللت بلهجة العطف : « منه هي طبيعة المهدي والخليفة شر منه في ترتيب الأشياء على ضد ما يرضى الإنسان . وانت الآن تستحق في الصبر والطاعة والإيمان ولكن لا تخش شيئا فإن الخليفة يتوجس منا شرا نحن الاثنين ويجب أن تبقى منفصلين حتى لا ننفذ أعماله » .

قلت لزكي طومال : « يا صديقي هذا رجل غريب فانا أوصيك به خيرا فكن معه يحق صداقتنا القديمة » .

فقال : « لن يحتاج الى شيء أستطيع تقديمه اليه » .

ثم قال بثلاثة : « ولكن الخليفة أمرني أن أمتع الناس من مناصبته فأرجوك ألا تقايله كثيرا » .

قللت : « هذه الأوامر لا تنطبق على . فاني كنت منذ برهة عند مولاي الخليفة فأمروني أن أزور هذا الغريب . فأكرر عليك أن تعامله معاملة حسنة » .

ثم عدت الى اوليفيه بان وحاولت أن أدخل السرور في قلبه  
واخبرته بأن الخليفة قد منع الناس من مخالطته وأن هذا الأمر في  
مصلحته لأن اختلاطهم به قد يؤدي الى أن يلعبوا له عنده ويوقعوا  
به . أما أنا فاني أؤدبه كلما منحت الفرصة .

وفي اليوم التالي قرع طبل الخليفة اعلانا باستئناف السير .  
وكانت عادتنا أن نسير من الصباح الى الظهر ولذلك كان سيرنا  
بطيئا . وكنا عندما نذهب الى القرني فأجده قاعدا في خيمته  
كالعادة . وكانت صحته جيدة ولكنه كان يشكو من سوء الطعام .  
وقال زكي بعد أن سمع هذه الشكوى أنه أحضر اليه العصيدة فلم  
ينلقها . فأوضحت له أنه غريب لم يالف بعد الطبخ السوداني  
والفرحت عليه أن أجعل خادمي يحيى له طبقا من الحساء وآخر  
من الرز . وسألني الخليفة في تلك الليلة هل رأيت اوليفيه بان ؟  
فاخبرته بأنني قابلته والى وجدته صائما لا يستطيع أن يأكل  
العصيدة فجعلت خادمي يحيى له طعاما ثلثا يعرض وللملك أرجوه  
أن يسمح لي بملك . فوافق الخليفة ولكنه قال : « ولكنك أنت  
تأكل من طعامنا فيحسن به أن يمتد هذا الطعام في أقرب وقت .  
ثم أين مصطفى ؟ كلوتز ؟ فاني لم أراه منذ بارحنا رهاة » .

قلت : « انه عندي يساعد الختم على العناية بالخيول  
والبحال » .

فقال الخليفة : « اطلبه الآن » فطلعت وجاء بعد برهة صغيرة  
ووقف امامنا فقال له الخليفة : « أين كنت ؟ اني لم أراك منذ  
اسبوع . هل سميت الى هؤلاء ؟ » .

فقال كلوتز في لهجة النائف : « لقد ذهبت الى عبد القادر  
بإذنتك وأنت لا تعني بي وقد تركتني وحدي » .

فقال الخليفة وهو غاضب : « ساعني بك في المستقبل » ثم  
هتف بأحد الملازمين وطلب منه أن يخبر كاتبه أين نجا بأن يضع  
مصطفى في الأخلال وخرج مصطفى وهو لا ينيس بكلمة .

ثم قال الخليفة : « ان عند مصطفى وعندك ما يكفيكما من  
الخدم فيمكنك أن تستغني عنه » وقد كنت اختصصت به ولكنه  
تركى بدون سبب " فأمرته بأن يلزم أخى يعقوب ولكنه تركه  
أيضا والآن عندما ذهب اليك قام في ذهنه أنه يمكنه أن يستغني عنا  
جميعا » .

فقلت : « أعف عنه فإن الرحيم يعفو » الذين له بالبقاء مع  
أخيك قلل هذا يصلحه ؟ » .

فقال : « يجب أن يبقى مصفدا عدة أيام حتى يعرف إلى مولاه  
وهو ليس مثلك » فأتت تأتي إلى كل يوم »

وشعرت كأنه يقول هذا لكي يطعنني لأنه رأى قد تأملت ، ثم  
أمر بالمعشاء فأحضر وأكلت أنا بشهوة أكثر من المعتاد حتى أوعه  
بأنى راضى . وكان قليل الكلام قلت للطعام يبدو عليه كأنه  
مضوم . وبعد العشاء حاول أن يقول شيئا يزيل به أثر الكتابة  
ولكن لهجته كاذبه . ثم اتصلنا وعنت إلى خيمتى وأنا أأكل في  
الحالة . فقد كنت مجازما على أن أبقي على وفاقه مع الخليفة حتى  
تتاح لى ساعة الخلاص ، ولكن صلفه وغلطسته وسوء أدبه قد جعلت  
هذا الواجب قليلا على .

ويعد أن سرنا خمسة أيام بلغنا الشط حيث وجدنا الآبار  
مسدودة فشرعنا في فتحها وأقمنا بعض العيش هناك ، لأن القوي  
قرر الإقامة هنا بضعة أيام . وكنت وقت مسيرنا أؤور أوليغيه بأن

فأجد أماله التي جاء بها تنصب بالتدريج ، وكانت معرفته بالمريية قليلة جدا ولم يكن يؤمن له بالكلام الا مع الصبيته الذين كانوا في خدمته . ولم تكن عليه أيام حتى نسي مهمته الأصلية وصار لا يذكر شيئا سوى زوجته وأولاده . وكنت أحس على التنازل بالمستقبل وأن ينزع عن نفسه هذه الكآبة التي لا تنفعه في شيء . وكان الخليفة قد نسيه تقريبا فلم يكن يذكره أبدا .

وبعد وصولنا بيوم الى القبط وأخانا محمد الشريف شيخ المهدي السابق الذي كان قد طرده من طريقته وكان أصدقاؤه قد حذروه على أن ينصب إليه ويستغفروه .

ولكن المهدي أحسن استقباله وصار معه يتنفسه الى خيمته وأخذني الى فتاتين حبشيتين جميلتين وخيولا وغير ذلك . وبوقته الحاملة المسحة جلب فلهم الى أنصار الشيخ محمد الشريف وضمن ولائهم .

ولما غادرتا شرقا جاهدنا الإخبار بأن جيوش غوردون هزمت هزيمة منكرة . ولما بلغنا القبط جاهدنا تفاصيل هذه الهزيمة التي انتصر فيها الشيخ عبيد علي محمد ياشا في أم درمان . وكانت نتيجة هذا النصر أن النافرين زادوا ضغطهم في حصار الخرطوم ولما أحسهم وأد النجومي بجيشه وجد غوردون أنه لم يعد في قوته أي فتق في القوة التي تحاصره .

وخرجنا من القبط الى التويم حيث عرض المهدي الجيش عرضا عظيما وأشار الى النيل وقال : « إن الله قد خلق هذا النهر ووهبكم مياهه لتشربوها وقسم لكم أن تملكوا جميع ما على ضفتيه من أرض » فتهنأ له الجميع هتاف الفرح والسرور وكل منهم يعتقد أن تلك البلاد العجيبة قد وقعت فريسة للمهديين .

وفاقدونا الموم الى طرة الحضرة حيث قضينا ايام للميه .  
 وكان اولهم يان الفرنسى قد اصيب بحصى ولا زرقه قال لى :  
 « لقد جازفت جملة مجازفات فى حياتى دون أن افكر فى نتائجها  
 ولكن مجيئى هنا غلطة فادحة . وقد كان اصلح لى لو أنى وقعت  
 فى يد الانجليز ومنعونى من تنفيذ ارادتى » . وكنت أجهدهى  
 لكى أعزیه وأسرى عنه ولكنه كان يقابل كلامى بهز رأسه .

ولى العيد صلى المهدي بصوت عال غير عادى . ولما وصل الى  
 الخطبة بكى واتحبب انتحايها مرا . وكنا نحن الذين لا يؤمنون  
 بدعوته نعرف أن هذا البكاء نفاق لن يعطيه خير لأحد ولكن كانت  
 له النتائج المرجوة فان قبائل النيل الأبيض سارعت الى الانضمام  
 تحت رايته وتحسس الناس أحد تحسس لسماعهم خطبته .

وبعد أن استرحنا يومين استأنفنا السفر . وكنا نرحب زحفا  
 كالسلحفاة لكثرة جموعنا وازدهاد عددهم يوما بعد يوم . وكانت  
 حالة أوليفيه بأن تنوء كل يوم وتبين أن ما به هو العفوس .  
 ورجائى أن اطلب من المهدي بخسة تلود لأن الذين يحنون به  
 يضاقونه بما يطلبونه منه . ففعلت وأمر المهدي أمته بيت المال  
 بأن يعطيه خسة جنيهات ودعا له بالشفاء . وأخبرت الخليفة  
 بحال يان ويان المهدي وخبه خسة جنيهات فلامنى لاني فعلت ذلك  
 بدون إذنه . وقال لى : « اذا مات هنا فإنه يكون سعيدا فان الله  
 يقدره قد نقله من الكفر الى الإيمان » .

وفى صباح اليوم التالي أرسل الى يان ففعلت ووجدته  
 ضعيفا لا يقوى على النهوض . وكان قد مضى عليه يومان لم يثنى  
 فيهما شيئا من الطعام الذى كنت أرملة له . ولما قسنت الى جانيه  
 وضع يده فى يدي وقال : « لقد جاءت ساعتى . وأنا اشكر لك

حنوك على ودعائكم لى • وآخر ما أطلبه منك من المعروف اذا نجوت  
من هؤلاء الخوطينى واتيت لك الفرصة بزيارة باريس أن تعجب  
الى زوجتى المسكينة وأولادى وتخبرهم أنى وأنا أموت كنت  
لا أذكر إلاهم •

وكان وهو يقول هذا الكلام تنصدر العبرات على خديه  
الفائرين • وصلت الى نعتته وقبورته ولكنى سمعت قرع الطبول  
فالمضطرت الى تركه • وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها • وأمرت  
أحد خصى للمضطرون أن يبقوا معه • ثم ذهبت الى الخليفة  
فأخبرته بمعانته السيئة ورجوته أن يأمر بإبقائه فى إحدى القرى  
حتى يشفى • فوافق الخليفة على مقترحي وطلب منى أن أذكره بهذه  
المسألة عند الغروب •

ثم جاء الغروب ولكن المريض لم يشفى بل جاء نظرون وحده  
فقلت له وكان يتفرز من خاطره يسأوه : « أين يوسف ؟ » ويوسف  
هنا هو اسم أوليفيه بأن الذى تسمى به حتى صار مسلما •

فقال : « مات سيدي • وهذا صبيح كاشيرنا • وقد دفناه • »

فلمحت وقلت : « كيف مات ؟ أخبرنى عما حدث • »

فقال : « اشتد به علته حتى لم يستطع الركوب ولكننا كنا  
مضطرين الى السير • وكان من وقت لآخر يضيف من وعيه ثم يفيق  
ويتكلم بكلمات لا نفهمها فوضنا على مروج القوس عنجربيا وربطنا  
به • وجعلنا نردد عليه ولكنه كان من الضعف بحيث لم يتماسك  
فوقع فجأة ولم يلق بعد ذلك ثم مات فكلناه فى حال من  
الطهر ودفناه واتخذ زكى جميع أمتته • »



لتبين لي أن مرضه كان قد بلغ به وأن السقطة قد جعلت الموت وكانت السبب المباشر له . يا له من مسكين . جاء اليها وآماله لا تبسه ثم تكون هذه خاتمة ؟

وخبرت في الحال إلى الخليفة فأنبرته بوفاته فقال : « انه لسميد » ثم أرسل إلى زكي أحد الملائمين لكي يأمره بالاحتفاظ بأوصيته ثم أرسلني أنا إلى المهدي لكي أخبره بوفاته . وتأثر الخليفة وقال بضع كلمات قلل على طئه وحناؤه ثم تلا صلاة الموتى .

وبعد ثلاثة أيام اقترعنا من الخرطوم وحسنا على مسيرة يوم منها . وكنا ونحن في الطريق قد رأينا بواخر غوردون في النهر وهذا لنا أنها أنت اليها للاستطلاع ثم هانت بدوران تطلق عيارا .

ولما جاء المساء وخرينا خيامنا جادني ملازم من المهدي وطلب مني أن أذهب إليه فخرجت ووجدته قاضيا مع عبد القادر وأمام مريم وكان قاضيا سابقا وله نفوذ عظيم بين قبائل النيل الأبيض . وكان حسين خليفة هناك فصررت أنا رابهم .

فقال المهدي : « بعثت في طلبك لكي تكتب إلى غوردون أن يحلم المدينة فلا يتعرض للهزيمة . وأنبره بأنني المهدي الصديق فعليه تسليم العاصمة لمسلم . وأنبره أيضا أنه إذا رفض التسليم فإننا سنقاتله جميعا . وقل له أنك سنقاتله أنت بنفسك وإن النصر مضمون لنا ولك أنا أقول له ذلك حقا للمساء » .

فالتزمت الصمت حتى دعاني حسين خليفة للاجابة فقلت : « مولاي للمهدي - أرجو أن تنصت إلى ما أريد أن أكون أميناً مختلفاً فلا تنصّب إذا وجهت في قلبي ما يخالف رأيك - فاني إذا كتبت إلى غوردون أقول له أنك المهدي المنتصر فإنه لا يصدقني

وإذا حدثته بأى أقالمة يندى فهو لا يخاف من ذلك شيئا . ولما كانت رغبةك الوحيدة هى حلق اللعاب فإنى أطلب منه التسليم فقط . وسأقول له أنه ليس عنده من القوة ما يمكنه من قتال المهدي وأنه لا أمل له فى الحصول على معونة أحد ثم أقول أنه سيقبل الصلح بينك وبينه .

قال المهدي : « أنا موافق على ما تقول » اذهب الآن واكتب الخطابات ولى القصد تحصل الى غوردون .

فذهبت الى خيمتى وكانت خيمتى قد تلوذت ولبيت قاعدتها الى بعض من حولى ونصبت بدلا منها بعض الملابس على عصي كنت اجلس تحتها وأتأمل بها فى النهار . أما فى الليل فكنت أقام على الظلام . ويضحت عن مصباح وأخذت فى كتابة الخطابات وأنا قاعد على عنبريب . وكنت أولا بضعة مطور لغوردون باللمسة الفرنسية قلت انى قد فكتك المحجم الفرنسى لأن المهديين قد أحرقوه ولذلك فأنا أكتب بالالمانية حتى يمكننى التعبير بأصهاب من أغراضى . - وقلت انى أقبل أن ألقيه قريبا وأنى ادعو الله لنصره . وقلت أيضا ان بعض الشايجية الذين انضموا قريبا الى راية المهدي لم يفعلوا ذلك الا خوفا على أنفسهم وأولادهم وأن صلورهم لا تحصل الحقد أو البغضاء لغوردون .

ثم كتبت خطابا مسهيا بالالمانية قلت فيه انى سمعت من جورج كالامنتينو أنه ( أى غوردون ) قد غضب من تسليمى للمهدي وأنى لذلك أوضح الحقائق راجيا منه أن ينظر فيها ويستريحها ثم شرعت فى شرح التجريدات التى جردتها لمقاتلة السلطان هرون . ثم قلت أنه عند بدء الثورة المهدية كأن الضباط الذين فى جيشى يسمعون أخبارا عن عربى وأنه طرد الأوربيين من مصر وأن هؤلاء نهزى الى أنى غير مسلم . فاضطرت لذلك الى القضاء على هذه

الصبائس بالادعاء بأنى مسلم ونجست هذه الطريقة الى أن اضطلم  
 جيشي حركس واقطع كل أمل فى المسونة . واخبرته عن تداخل  
 جيشي بالحروب المتوالية حتى صار محده لا يبلغ بضغ مئات من  
 الجنود وأن الذخيرة نفقت أو كادت . وأن الضسباط والجنود  
 طالبوني بالتسليم فلم يكن به يده ذلك بصفى أوريا وحيما من  
 الخضوع . واخبرته بأن هذا التسليم كان من أشق الإصالح على .  
 ولكنى شعرت باعتياري ضابطا نسويا انى حصلت عملا لا أنجبل  
 حته . ثم قلت انى بها سلكته من المسلك الحسن مع العقيلة والمهدى  
 قد حصلت على لقتهما حتى اذا لى بالكتابة اليه بسجة انى اطلب  
 منه التسليم . ولكنى عرض عليه نفسى لكر اقاتل معه حتى الموت  
 أو النصر . فافذا وافق على لراوى لكر انضم فانا أرجو أن يكتب  
 الى بضعة أسطر بالفرنسية بهذا المضمون . ولكن لكر تجاوز العيلة  
 يجب أن يكتب الى بضعة أسطور بالعربية أيضا . يطلب منى فيها  
 أن أستأذن المهدى لكر انصحب الى أم درمان للمفاوضة فى الصلح  
 والتسليم ثم اشرفت الى ولاد صالغ بك وبطى المصايغ الآخرين له  
 ولكنهم لا يمكنهم أن يفرقوا اليه لانهم فى هذه الحالة يفسحون  
 لولادهم ولذجالهم .

ثم كتبت خطابا آخر باللاتينية الى القنصل هانسل نرجوه ان  
 يسل كل ما لى جهه لكر أعود الى الخرطوم وانى اذا رجعت الى  
 الخرطوم أكون ذا غائلة كبيرة لانى أعرف مقاصد المهدى ومبلغ  
 قوته وما الى ذلك . ولكنى اخبرته بأنه فى حالة اعتقاد النية على  
 تسليم الخرطوم لا داعى لى للهرب فقد ذاعت اشباعه بين رجال  
 المهدى مقصداها أنه اذا لم تات دعوة لفوردون فإنه سيسلم .  
 وبعضى أنه اذا سلم فوردون ووجدنى المهدى قد فررت اليه فإنه  
 يصرف غضبه كله الى لانى عاونت عليه .

وقد بدا لي أنه من الإنصاف والحقل أن أتأكد من هذه المسألة . وكانت الاشاعات القائلة بأن حامية الخرطوم قد شتمت القتال يروج بيننا وأنها تنوى التسليم فشدت ذلك من عزم هانسيل وقوته على الثبات وأن قوات المهدي ليست بالكثيرة التي يشاع عنها . وأنه يكفي الجيوش المصرية أن تثبت وتشتد حتى يحق لها النصر . وحضنته على الثبات ستة أسابيع . على الأقل حتى تستكن البعثات من انجادهم ( ولما عبت الى القاهرة في سنة ١٨٩٥ علمت انه خطبايى حده قد بلغت الى ولاية الامور الانجليز وطبعت مع يوميات غوردون ) .

وأخبرته أن عندما اذاعة تقول ان البانخرة الصغيرة التي ارسلت الى دنقلة قد تمطيت في وادي غمر ولكني لا أعرف مبلغ هذه الاشاعة من الصحة او الكذب .

وفي صباح اليوم التالي في ١٥ أكتوبر انضمت هذه الخطبات وذهبت الى المهدي وأخبرته بأن يرسلها خير احمد . فمضى الى ام درمان . ثم ذهبت وبحثت عن الصبي مرجان فورا وكان عمره يومئذ ١٥ سنة فسلمته الخطاب امام المهدي . وأمر المهدي واد سليمان بأن يخطبه حصارا ومقدرا من النقود . وقبل أن ينادونا مرجان امرته واكفت عليه بالا يخطبه أحبا سيوى غوردون . والاتصل هانسيل وأني يقول لهما بأنني أرتعب في اللعاب اليهما :

وفي الظهر جادنا فرسان من بربر واكدوا لنا رواية بتطعيم البانخرة وقتل الضابط متبوارت ومن معه . واحضروا معهم جوهج الاصدان والوثائق التي كانت في البانخرة وأمرني الخليفة بأن أقرأ ما هو مكتوب عنها باللغات اللوزية . ووجدت بين هذه الأوراق جملة خطابات مرسله عن الخرطوم ولوائقي رسميه اخرى .

وكان أهم ما في الأوراق التقرير الحربي الذي يصف الحوادث اليومية في الخرطوم . ولم يكن سهوا بتوقيع ولكنني لم أشك في أن كاتبه هو غوردون ولم أطلع إلا على جزء من المكاتبات التي لم أتت من قراءتها قبل أن دعاني المهدي وسألني عن محتويات هذه الأوراق فأجبت بأن معظمها رسائل شخصية وإن بها تقريراً حربياً لم ألهه . وكان بين هذه المكاتبات لسوء الحظ بعض الخطابات والتقارير المكتوبة بالعربية تمكن المهدي والخليفة أن يلقا منها على الحالة في الخرطوم . وكان بينها خطاب نصه بالإنعام ونصفه بالخرق مرسل من غوردون إلى الخديو وقد تمكن عبد الحليم أفندي الكاتب السابق في كردوفان أن يلهه . ووجدت بين تقارير القنصليات خبر وفاة صديقي أرنست مارتو الذي مات في الخرطوم من الحمى .

ولقد سئني المهدي في الأوراق التي ترسلها إلى غوردون لكي يقدح بأن الباخرة قد تحطمت وأن الضابط مستبورات قد قتل وكان يعتقد أن هذا يجعل غوردون مضطراً إلى التسليم . فالتفت على المهدي بأن أحسن ما يقدح هو تقريره الحربي وأنه يجب لذلك رده إليه . ومثل الجلال في هذا الموضوع وأخيراً استقر الرأي على ما يقرئ .

وفي مساء اليوم الثاني عاد إلى مرجان الذي كنت أرسلكه بخطاب إلى غوردون وغيره ولكنه لم يحضر منه جواباً . فلما سألت عن سبب ذلك قال أنه عندما وصل إلى قلعة ثم درمان وسلم للخطابات خرج إليه بعد عدة ضابط القلعة وأخبره بأن يعود وأنه لن يجاب على الخطابات .

ولقد كنت في الحال إلى المهدي فأعاد هذا الجواب ثم ذهب إلى الخليفة وأخبرته بما جرى . وفي المساء نفسه دعاني

المهدي وأمرني بأن أكتب خطابا آخر وقال انه متأكد أن مخردون  
سيجواب عندما يسمح بتعطيم الباخرة - وأبدت استمئانا في  
الحال لطاعة أمره وأشار على بأن يعمل مرجان هذا الخطاب أيضا  
فلمهيت إلى مكاني على العتريه وقعدت إلى ضوء مصباح ضئيل  
وكتبت بضع كلمات عن فقدان الباخرة ووفاة استيواوت وذكرت  
جملة أشياء كنت قد شرحتها في خطاباتي السابقة وقلت له انه  
إذا كان يعتقد أنني أتيت أمرا يخالف واجبات الضابط وأن هذا هو  
الذي منعه من الإجابة على خطاباتي فأنا أرجوه أن يتيح لي الفرصة  
لكي أداخ عن نفسي حتى يحكم على حكماء مدينا .

وفي الصباح ذهبت مع مرجان إلى المهدي - وأمر المهدي أحد  
وادي سليمان أن يعطي مرجان حملا وسلمه خطابي ثم سافر مرجان  
وجاءنا بعد يوم ومعها جواب من هانسيل مكتوب بالألمانية ومعها ترجمة  
بالعربية وهذا نصه :

عزيزي سلاطين بك .

لقد وصلت خطاباك وأنا أعرض عليك أن تقضي إلى طابرة  
واغب بك ( في قلعة أم درمان ) وأنا لأرجب في أن أخاطبك بشأن  
الاجراءات الخاصة بتخليصنا . ويمكنك أن ترجع بعد ذلك إلى  
مدينتك .  
المخلص لك

هانسيل

ولم أنهم المقصود من هذا الخطاب . هل غاية الحقيقية خدع  
المهدي ؟ إذ لو كانت هذه هي الغاية لكانت الصيغة العربية كافية  
ثم خطر ببالي انه كان يمكنه أن يوضح غرضه باللغة الألمانية ولكن  
لهذا توفي ذلك خشية وجود أحد في معسكرنا يفهم هذه اللغة

ليطرب به . واعتبرت الفاظ الخطاب فوجدته يقصد أو يلمح الى انفساهم اليها . وقد كانت راجت بيننا اشاعات عن خوله من سقوط المدينة ورغبته هو وسائر الضباط النصارى في التسليم للمهدي . ولكن لم يكن من الممكن أن يبت الانسان في هذه التية . ثم قوله : « ويمكنك بعد ذلك أن ترجع الى صديقك » هل يقصد به رجوعه الى المهدي أو رجوعه الى غوردون والحق أنني قد فطنت على المعنى ولكنه كشف لي بعد مدة قليلة .

واخذت الخطاب في الحال الى المهدي وأخبرته بأن النص العربي يوافق النص الألماني . ولما أتم قراءته سألتني هل أترقب في اللهاب إليه فاجبت بأنى مستعد لتلبية أمره وأنى على الدوام طوع وإشارته .

فقال لي : « أنى أخشى أنك اذا ذهبت الى أم درمان ولقيت القنصل يقبض عليك غوردون ويقتلك لأنى لا أعرف السبب في عدم كتابته اليك لو كان يحسن بك الظن » .

فقلت : « لست أعرف سبب سكوته عن الرد وربما كان عنده من الأوامر ما يمنعه من مخاطبة العدو . ولكنى أظن أنه يمكن تسوية الحالة عنهما التقي بـ « هانسل » وأنت تقول ان غوردون ربما يقبض على ولكنى لا أخشى ذلك ولو حدث هذا لأمكنك أن تخلصنى . أما أنه يقتلنى فهذا ما لن يحدث » .

فقال المهدي : « اذن يمكنك أن تستعد للسفر وتنتظر أوامرى » .

وكنيت عند ذهابى الى عملة المهدي قد سمعت بمجرى لبتون بك من بحر النزال . وعند رجوعى الآن ذهبت إليه ووجدته واقفا بجانب

الخليفة ينتظر الإبل بدخوله ، ولم يكن من القواعد المرجعية أن يخاطب الإنسان أحدا لم يحصل بعد على عفو المهدي فقال لي أنه يؤمل للأمل كله إن أذهب إلى الخرطوم . وقال أيضا أنه ترك خضمه وأتباعه على مسيرة ساعات من المعسكر وطلب مني أن استأذن الخليفة في مجيئهم . وبعد دقائق دعاه الخليفة فمعا عنه وأذن له بإحضار أتباعه وأخبره أنه سيقابل المهدي .

ولعبت أنا إلى مكانتي وقضيت على التعجيب وأنا في أشد الفلق أنتظر الأوامر لكي أذهب إلى أم درمان . وكان يخطر ببالي وأنا قلعت أن المهدي ربما قد غيّر فكره ورجع عن عزمه بشأن سفرى . وأخيراً جاني خادم يخبرني أن الخليفة أرسل ملازميه في طلبهم . فلما نهضت لخبرتي الملازم أن أسير معه إلى عشة يعقوب حيث كان أخوه الخليفة . فساروا إلى عمامتي فتعصمت واحتزمت وصرت وراء . ولكن لما بلغنا يعقوب قيل لنا أن الخليفة قد غادرها إلى عشة أبو العجوة . ودخلني هلك في هذا التطواف في الليل إذا لم تكن هذه عادتنا وكنت أعرف مقدار ما عند هؤلاء الناس من المكر والخديعة فاستعصمت لأى حادث . ولما بلغنا زريبة أبو العجوة أذن لنا بالدخول . وكانت هذه الزريبة واسعة وكان بها مظلات من قماش كل منها لآلة على عهود من خشب وكل واحدة متصلة عن الأخرى بحائط من اللثة . وذهبنا في ضوء مصباح إلى إحدى هذه المظلات فوجدت يعقوب وأبو العجوة وفضل المولى وزكى طومال والحاج زبير قاعدين في حلقة يتكلمون بعد نشاط . وكان وراهم بضعة رجال قد وقفوا وهم مسلحون ولكني لم أجد أثرا للخليفة الذي قيل لي أنه يستعصمي وتأكدت عندئذ أن هناك مؤامرة على . وتكلم الملازم وخاطب يعقوب ثم أمرت بالتقدم وقضيت بين الحاج زبير وفضل المولى مواجهاً لأبو العجوة .



فشاطبتني أبو انجه قائلا : « لقد وعدت المهدي يا عبد القادر  
أن تخلصي له » . « وواجب عليك أن تفي بوعدك » . ثم عليك أن تطيع  
الأوامر وأن تكون فيها ما يؤثرك . « أليس كذلك ؟ » .

فقلت : « هذا حق » . وأنت يا أبو انجه إذا سلمت لم أمها  
من المهدي أو من الخليفة تجدني مطيعا » .

.. فقال : « أهي أمزت بالتبض عليك ولكن لا أعرف السبب »  
وعندما قال هذا استغل الحاج زبير سيفي وكنت قد وضعت يدي على ركبتي  
كما هي العادة ثم سلمه لركبي طومال وقبض بكنتا يديه على ذراعي  
اليمنى .

فقلت للحاج زبير : « لم آت هنا لكي أقاتل فعلم تقبض على  
ذراعي ولكن افعل ما أمرت به يا أبو انجه » .

وهكذا قضى على بما كنت أقضي به على غيره ، ثم وقف أبو انجه  
والحاج زبير وعن ذراعي . ثم أشعل أبو انجه إلى مظلة في الظلام  
وقال : « انظروا إلى هذه المظلة » .

فرافقني السجلان ومعهم ثمانية آخرون إلى المظلة ثم طلب مني  
أن أقعد على الأرض وأنصت إلى السلاسل . وفعلت فوضع لي كل  
من سناقي حلقة طرقت حتى تضام طرفاها . ثم وضع حول عنقي  
حلقة أخرى وبها سلسلة كانت تنوق حركة عنقي . وفعلت كل  
ذلك وأنا صامت . ثم غادر الحاج زبير وقال لي الحارسان اللذان  
تركا معي أن أقعد على الحصير الذي بجانبني .

والآن بدأت أفكر وكنت اليوم نفسي على أنني لم أجازف وثقرت  
إلى الخرطوم عن جبرائي . ولكن هل كان غويون يقبلني ولقد ضرت

يعيدا عن الخطر كما قال المهدي ؟ ولكن ما هو خطي الآن ؟ هل هو  
حظ محمد يا هذا سعيد وعلى بك شريف ؟ ولم تكن عادتى التفكير  
فى هموم الشخصية ولذا كنت قول المادبو : « كن مطيعا وصبوراً »  
التي عمره طويل يصفوف كثير . « وقد مارست الطاعة والآن يجب  
أن أمارس الصبر . أما الصبر الطويل ففى يد الله وحده »

وبعد ساعة لم أنها بالضرورة رأيت عددا من الملازمين يقتربون  
منى ومعهم المصاييح وعندما اقتربوا رأيت بينهم الخليفة عبد الله  
فوقفت وانتظرت .

ورأى واقفا أمامه فقال : يا عبد القادر هل سلمت أمرك  
للقدر ؟

فقلت بنهجة الاملئنان : مذ كنت طفلا . لقد أعدت الطاعة  
والآن يجب أن أطيع أردت أو لم أرد .

فقال : « ان صداقتك لصالح واد الملك وخطابائك لغوردون  
قد جعلتا نشته فى أمرك . وهذا هو ما أجباني الى أن أجبرك  
على أن تسير فى الطريق القويم »

فقلت : « اننى لم اخف صداقتى مع صالح واد الملك . ان  
صديقى والذين أله مخلص لك . أما خطاباتي لغوردون فقد أمرنى  
المهدي أن أكتبها » .

فقال الخليفة : هل أمرك بأن تكتب ما كتبت ؟

فقلت : « لقد كتبت ما أمرنى به المهدي ولا يمكن لأحد أن  
يعرف محتويات هذه الخطابات سوى أنا ومن كتبت اليه . وكل  
ما أوجوه يا مولاي هو المدل والا تصغى لأقوال الساسين » .

لم هادوني فحاولت أن أنام ولكن العصا كانت هائلة .  
 فكانت الخواطر المختلفة تسير براسي . وكان الحديد حول عنقي  
 وسألتني يؤلمني أشد الألم فلم يكن النوم مستطاعا . وما كنت أغني  
 تلك الليلة برهة قصيرة . وفي شروق الشمس جاءني أبو أنجه  
 ومعه ختم يحملون طعاما . وقعد على الحصير إلى جانبي ووضع  
 بيننا الطعام . وكان الطعام غائرا يحتوي على فراويج وذر ولبن  
 وعسل ولحم مشوي وعصيدة . ولكنني قلت له أنه ليست هندي  
 شهوة للطعام فقال لي : « أظنك خائفا يا عبد القادر ولهذا لا يمكنك  
 أن تأكل » فقلت : « كلا » . لست أخاف شيئا . وإنما لا أشتهي  
 الطعام الآن . ومع ذلك سأكل شيئا حتى لا تستاء » . ثم بلعته  
 لتسكن وكان أبو أنجه يتودد إلى ويظهر لي أنني ضيفه المكرم .

ثم قال لي : « لقد استاء الخليفة لأنك لم تظهر له خضوعا  
 ولأنك أنك عبيد » وأن هذا في رأيه هو السبب في عدم خوفك » .

فقلت : « هل كان يجب على أن ألقى نفسي على قدميه وأطلب  
 منه العفو عن جرائم لم أرتكبها » . أنا في يديه فليفعل بي ما يشاء » .

فقال : « غدا ستتحمل ونسر نحو الخرطوم ونضيق الحصار  
 على المدينة ثم نهجم هجمة واحدة وسأطلب من الخليفة أن تبقى  
 معي وسيكون هذا أهون عليك من ذهابك إلى السجن » .

فشكرته وغادرتني .

ونقضت اليوم كله وأنا وحدي . وكنت أؤدي الصلاة بمناية  
 أمام الحرم وغيرهم وكان في يدي مسبحة أسبح بها كما هو الشأن  
 بين المسلمين الطيبين . ولكن الحقيقة أنني كنت أكرر عليها صلاة  
 النصراني . ( أبانا الذي في السموات ) .

وكنيت أرى على مسافة حتى خيول وخملي ومنازل أمتصهم .  
وجاء أحد خدسي إلى وأخبرني بأنه أمر بأن يلتحق بأبي أجه

وفي بكرة اليوم التالي قرعت الطبول للتقدم فقضت الخيام  
وحملت البغال وتحرك المسكر بأجمعه . وكان الحديد في ساقى  
يبتدئ من المشي . فاحضروا لي حملا وكانت السلسلة المربوطة  
بها الحلقة التي حول عنقي طويلة تحوى عى ٨٢ حلقة كنت أسلم  
نفسى بعدها وأطويها طيات حول جسمى وحملت إلى ظهر الخمار  
يستندني من كل جانب رجل حتى لا ألق وكنت وأنا سائر يمر بي  
أصدقائي فيتحسرون ولا يجسرون على مخاطبتي ووقفنا بعد الظهر  
على روية أمكنتنا من رؤية نخيل الخرطوم فشمعت بالشوق الشديد  
بضالبنى للاضطلاع إلى الحامية .

ثم حططنا وقمرنا بضرب خيلنا مؤقتا تحت امرأة الخليفة  
عبد الله . أما الأمراء الآخرون فقد ذهب كل منهم بجند وأختار  
مكانا لمسكره . وكنت في هذا الوقت قد شعرت بالجوع الشديد  
واضغقت إلى شيء من الطعام الذي قد قدمه لي أبو أجه في الأخص .  
ولكن أبا أجه كان قد التحق بالخليفة وكان قد نسينى

وحدث أن زوجة أحد الحراس اهتمت إليه واضطرت له خبزا  
من الدرة فأكلت معه وفي الصباح استأنفنا مسيرنا وبقينا نسير  
نحو ساعة ثم حططنا ثانيا في المكان الذي اختير نهائيا للمسكر .

وكان أبو أجه قد رتب كل شيء لكن أبقي معه ولا أرسل إلى  
السجن فتصبنت لي خيمة مزرقة قديمة وضع حولها زريبة من الشوك  
فقمعت تحت هذه الخيمة ووضع على بابها ديسة من القشوك يليها  
الحرس .

وأمر المهدي الآن بتضييق الحصار . وفي المساء أرسل عددا من الأمراء الى الضفة الشرقية لمعونة واد النجومي وأمر حربه وطلب من جميع أهالي هذه الناحية أن ينضموا الى المحاصرين . وأمر أبو انبج وفضل المولى بأن ينحبا الى قلعة أم درمان لحصارها وكانت تقع على بعد ٤٠٠ متر من النهر عن الضفة الغربية وكان يدافع عنها فرج الله باشا وهو ضابط سوداني ترقى من رتبة كايين في عام واحد الى أن صار قائما للقلعة . وكان الذي دقاه بهذه السرعة غوردون . ويمكن أبو انبج من أن يحضر الخنادق بين القلعة والنهر ويضع فيها جنوده على الرغم من إطلاق النار عليه من البواخر والقلعة . بل تمكن أبو انبج من أن يفرق إحدى هذه البواخر وهي الباخرة « حسينية » بواسطة مدفع مد مرماه اليها . ولكن البحارة فروا الى الخرطوم .

وأصل أمرى مدة الحصار وكان حرمي يغير كل يوم وكانت معاملتهم تختلف . وكانت الرقابة تشدد على اذ كان الحرس مؤلفا من عبيد أسرى ولكن اذا كانوا جنودا يعرفونى فالتى كنت ألقى منهم بعض الحرية وكانوا يؤذون لى التفتحات الصغيرة ولكنهم كانوا يمنونى من مخاطبة أى انسان . وكان طعامى سيئا وكان أبو انبج مشتغلا بالحصار فبعثت ألى مدة غيابه تحت رحمة زوجاته وكان قد أمر من باطام .

وحدث فى إحدى المرات أن جارسى كان أحد جنودى القلعة فبعثته برسالة الى رئيسة زوجات أبى انبج أشكر اليها عزم اطعامى مدة يومين : فأرسلت الى جوابها تقول : « هل يظن عيد القادر أننا نسمنه هنا بينما معه غوردون باشا لا عمل له الا فى اللقاء القاتل على زوجتنا الذى ربما يقتل بسببه » .

وقد كانت هذه المرأة مصيبة في قولها إذا اعتبرت وجهة  
نظرها .

وكان يسمح أحيانا لبعض اليونان بلجيء الى ومخاطبتي وكانوا  
يخبرونني بما يجد من الأخبار .

وكانا معهما حططنا رحالنا هنا قد قبض على ليتون بك وقيد  
بالسلاسل بتهمة محاولة الانضمام الى غوردون . ولما فتشت أمتهته  
وجئت فيها وثيقة وقع عليها الضابط مؤداهما أنه اضطر الى تسليم  
المديونية وانحلت زوجته وابنته البالغة من العمر خمس سنوات الى  
بيت المال . وكانت زوجته زنجية في خدمة « روسيت » التي اتصل  
الألماني من الخرطوم ولما عين مديرا في دارفور ذهبت معه . فلما  
مات في الفاشر التحقت بليتون بك وسافرت معه الى بحر الغزال .  
وأمر الخليفة بتصفية جميع ما يمتلكه ليتون ولكنه أذن لزوجته  
ليتون وابنته بأن يكون معهما خادم .

وفي أحد الأيام جاءني جورجى كالامتينو وأخبرني بأن الجيش  
الانجليزى بقيادة ولسون يتقدم نحو دنقلة . ولكنه لا يزال في  
سعيه مصر وأن كانت الطلائع قد بلغت دنقلة .

وكان غوردون يهد أن اداع منشور الخلاه السودان له المهم  
لعمال الخرطوم أنه سيجيء اليهم جيش لا يجادلهم . ولكن من حيث  
روح الشجاعة والرجاء في جنود الحامية ، ولكن بقى الشك في ميحاد  
مجيء الجيش وهل يأتى قبل قوات القرصة ؟

وفي أحد الأيام جاءني ملازم من قبل الخليفة وطوق عنقي  
وسألى بملفات أخرى غير ما كان على وأضاف إليها طيبيا من حديث  
وطلبت أن الفرض من ذلك ادلال . وكنت لا أقوى قبلا على النهوض

لثقل ما أحمله من القيود قام تزد إضافة هذه القيود الجديدة شيئا  
لاكى كنت راقدا طول الوقت .

ومضى اليوم التالى دون أن يحدث فيه شيء . وكنت أسمع من  
وقت لآخر فرقة المياداة بين المحصورين والمحاصرين ولكن اليونان  
الذين كانوا يزودوننى قبلا من الأخبار منعوا الآن من مخاطبتي  
فبقيت لذلك فى جهل من كل ما يجرى حولى .

وفى إحدى الليالى بعد غروب الشمس بنحو أربع ساعات  
عندما كان النوم يتسلل إلى أعضائى ورنسينى ما أنا فيه أمرنى  
الحارس بأن أتعرض فى الحال فوقفت ورأيت ملائكة الخليفة اللذين  
أخبرونى بأن الخليفة فى الرحم قادم الى . ثم رأيت جماعة تحمل  
مصاييح فأخذت أسائل نفسى : لم يأتى الى الخليفة الآن ؟ .

ولما اقترب الخليفة منى قال لى بلهجة الملاطفة : « يا عبد القادر  
العه » .

ثم بسط له حكمه فروقه فقمعد الى جانبيه وقال : « هنا ورقة  
أرغب فى أن تخبرتنى عما فيها لكى تثبت لى أمانتك » فأخذت الورقة  
وقلت : « سأفعل يا مولائى » .

وكانت الورقة لا تزيد فى الحجم على نصف ورقة سيجارة . وقد  
كتبت من الجانبين وكان مكتوبا عليها باللغة الفرنسية ما يلى :

« عندى عشرة آلاف رجل تقريبا » ويمكننى الدفاع عن  
الخرطوم الى آخر شهر يناير . والياسى بلشا كتب الى « ولده أجبر

عل ذلك • انه رجل حسن وغير كاف • انا انظر له • جريب محمد  
أبو حرجه أو غن لنا أغنية أخرى •

« غوردون »

ولم يكن هناك ما يشير إلى الشخص المرسل إليه هذه الرسالة •  
وكنيت متاكدا بأنه ليس في مصفركنا من يعرف الفرنسية وهذا هو  
سبب سجي الخليفة إلى •

قلت : « الرسالة من غوردون وهي مكتوبة بخطه بلغة جفزية  
لا يمكنني أن أفهمها » •

فقال الخليفة وقد بدا عليه الغضب : « ماذا تقول ؟ أوضح  
ما تقول » •

قلت : « هنا كلمات لا أدرك معناها • فانه لكل كلمة معنى  
خاصا ولا يمكن أن يفهمها الا من اعتاد تفسير الجفر • ولو سألت  
أحدا من الموظفين السابقين لأكده لك صحة قولي » •

فهاج الخليفة وصاح بي غاضبا : « اليس في الرسالة اسم  
الياس باشا واسم محمد أبو حرجه » •

قلت بلهجة التهكم : « لقد خلق من كثرتك بهذا لاني يمكنني  
أن اقرأ اسميهما ولكن لا أفهم شيئا عما يقصده من ذكرهما • ولعل  
الذي أخبرك بهذين الاسمين يمكنه أن يفسر سائر ما في الرسالة •  
ثم اني أجد فيها أيضا رقم ١٠٠٠ • ولكن لا أعرف حمل المقصود منه  
عنه المتعود أو غير ذلك » •



فلنخذ الورقة من يدي ونهض وهو يقول : « اني مها عجزت  
عما في هذه الورقة لان غوردون سينهزم وستسقط الخرطوم »  
ثم تركني مع الحرى .

والآن عرفت ان غوردون يقول انه يمكنه الثبات الى آخر يناير  
وكنا في اواخر ديسمبر فهل يمكن انقاذ البلدة قبل فوات الفرصة ؟  
ولكن ماذا يعني من كل ذلك ؟ هانذا عقيده بالسلاسل ولست أقدر  
على عمل شيء يفيد مجرى المصادات .

وبلغنا اول يناير الذي يقول غوردون انه يمكنه ان يثبت فيه  
الى آخره واخذت أشعر أن الساعة الحاسمة تقترب .

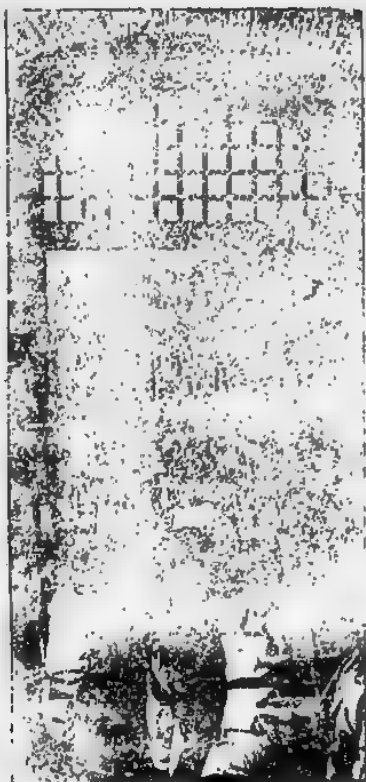
واشبهت القتال بين قلعة أم درمان وبين الدراويش وكان  
فرج الله باننا يجهد جهده وحاول على الرغم من قلة عدد الحامية  
أن يفتق فتقا في القوة المحاصرة ويخرج ولكنه رد الى القلعة تاليا .  
وفعلت مؤونة القلعة وخرج جندنا في مفاوضات التسليم . وكان  
فرج الله قد خاطب غوردون بالرايات عن التعليمات الواجب اتباعها  
فأذن له غوردون في التسليم اذا لم يكن قادرا على الثبات . وعفا  
المهدي عن جميع رجال الحامية ولا خرجت الحامية دخل رجال  
المهدي ولكنهم خرجوا في الحال لان مدفعية الخرطوم انطرتهم وايلا  
من الكنايل وكان في القلعة مدافعان ولكن مداهنا أقصر من المسافة  
التي بينهما وبين البلدة وحدث التسليم في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ .

ووقع أن أم درمان سقطت فان المهدي لم يرسل أي امداد  
للمحاصرين الى شرق الخرطوم وجنوبها لانه كان يعرف أن القوة  
المحاصرة تكفي للمهمة المنتدبة لها وكان كما كانت حامية الخرطوم  
كلها ينظر بعين القلق للشديد الى الشمال حيث تكون الكلبة  
الفاصلة .

وكان غوردون باشا قد أرسل الى متيه خمس بواخر بقيادة  
خشم الموس وعبد الحميد واد محيد لكي تنتظر مجيء الانكليز وتجيء  
بهم الى الخرطوم بأسرع ما يمكنها وكان غوردون ينتظر مجيئهم  
بشاية القلق وكان قد خاطر بكل شيء على مجيء القوة الانجليزية  
ولكن كل انسان كان يجهل ما تم في امرها .

واذن غوردون في اوائل الشهر لرحلة عائلات بمبارحة الخرطوم  
ولم يكن الى هذا الوقت يجوز لنفسه طرحهم ولذلك اضطر الى توزيع  
المؤونة عليهم فكان يوزع مئات الاوقيات من البسكويت والذرة على  
الفراء كل يوم . وهو على هذا العمل يستحق مكافأة الله ولكنه  
في الوقت نفسه قضى على نفسه وعلى رجاله . فقد نفذ الزاد وصار  
كل انسان يبكي ويطلب الخبز . وعاد الآن الى اغراء الاهالي  
بالخروج من المدينة وهو لو كان قد فعل ذلك منذ شهرين أو ثلاثة  
لكان عنده من المؤونة ما يكفي رجاله مدة طويلة . ولكنه كان يستند  
على مجيء الجيش وكان لذلك لا معنى بادخار المؤونة فهل كان يعتقد  
انه لا يمكن لجيش انجليزى ان يتأخر عن ميعاده .

وبعد ستة أيام من سقوط أم درمان أصبحت عويلا على المسكر  
لم أصبح مثله منذ خروجي من دارفور . وكان المهدي يمنع الناس  
من اظهار الحزن على الموتى والقتل لانهم في مذهبه يدخلون النعيم .  
ففهمت انه لا بد ان قد حدث شيء غريب عادي حتى يخالف الناس مذهب  
المهدي . وكان الحراس المتكلمون بحراستهم يهتلمون لمعرفة سبب  
هذا العويل وقد تركوني لهذه الفاية . وعادوا بعد قليل يقولون  
ان طلائع الجيش الانجليزى انقضت بالقوات المجموعة من البرابر  
والجبالين والديغم وكنانة الذين يقومهم موسى واد حلو وهزمتهم  
في أبو نلا ( أبو كلبه ) وقد هلك كثيرون ولم ينتج الا عدد قليل  
عادوا واكرهم به جراحات وقد فنى الديغم وكنانة كثيرا وقتل  
موسى واد حلو وعدد من الامراء ايضا .



فيا للبشرى لقد كان قلبي يغب ولوبا لهذه الأخبار • وفلت  
لنفسى لقد جاء الرجاء بعد هذه السنوات الطويلة • وأمر المهدي  
والخليفة بأن يكف الناس عن العويل ولكنه استمر مع ذلك عدة  
ساعات وأرسلت الأوامر لنور أنجره بأن يقوم إلى محله •

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار هزيمة أخرى في أبي كر  
وهزيمة أخرى أيضا في قبة جوبك • وتيار قلعة على النيل قريبة  
من متة •

وعقد المهدي وأمرأؤه مجلسا للتشاور • فقد رأوا أن كل  
ما جنوه من الانتصارات السابقة قد يات في خطر حتى أن المحاصرين  
للخرطوم خافوا وارتدوا من المصار • وصار القضاة على المهدي  
مسألة يمكن أنهاؤها في بضعة أيام • فيجب عليهم أن يخطروا بكل  
شيء • فأرسلت الأوامر للمحاصرين بأن يستعدوا الاستعداد التام  
للهجمة الأخيرة •

ثم لم تات البواخر التي تحمل الجنود الانجليزية ؟ فهل  
كان لواد هذا الجيش يجهلون أن حياة جميع من في الخرطوم قد  
باتت في خطر • ولقد انتظرنا طويلا لكي نسمع صفيح البواخر  
يؤذن بمقدم الانجليز ودوى مدافعهم فوق خنادق المراكيش ولكن  
انتظرنا كان عبثا • أجل كان عبثا • ولم تكن نفهم علة هذا التأخير  
أو مصاه وكنا نتساءل هل طرا عائق جديد ؟

وكان يوم الأحد ١٥ يناير • وهو يوم لن أنساء في حياتي •  
ففي مساء ذلك اليوم عبر المهدي وخلفاؤه في زورق إلى الشط  
الشرقي حيث كان رجالهم مجتمعين للقتال • وكان قد عرف أن  
النية قد عقلت على مهاجمة الخرطوم في صباح اليوم التالي وذهب

المهدي لكي يحسن وجاهه ويذكرهم بالجهاد والقتال الى الموت .  
وكانت ادعوا انه أن يكون غوردون قد عرف هذه النية واستعد لها .

وفي هذا الوقت أمر المهدي والخطباء اتباعهم بالا يهتفوا  
ولا يصيحوا حتى لا تدخل المشبه في القلوب رجال الحامية الذين  
أنهكهم الجوع والكلال . وخطبهم المهدي وهم مسكون ثم عادوا الى  
السطح الغربي بعد أن خلف الخليفة شريف الذي رجاء أن يبقى  
مع المجاهدين .

وكانت تلك الليلة أحل ليالي في قلق النفس ولووتها . فقد  
كلمت أقول لنفسي لو أن الحامية تثبت هذه الليلة وتصد الحزين .  
الآن لن أخشى شيئا على الخرطوم . أما اذا انهزمت فאלنا تفقد كل  
شئ في السودان . وفسدت باعياء في الفجر وبدأ النوم يتسل الى  
والذا بي أسمع ضجيج المدافع والبنادق من آونة لأخرى . ثم شمل  
السكون مرة أخرى . ولم يكن النور قد تشع الظلام بعد حتى لم  
أكن أتبين الأضياء . فما معنى كل هذا ؟ ضجيج المدافع والبنادق  
ثم سكوت تام ؟

ثم ظهر قرص الشمس أحمر في الأفق . ففسدت ماذا يأتينا  
به هذا النهار ؟ والعدت أنتظر وأنا في أشد القلق وهياج النفس .  
ثم سمعت أصوات الابتهاج والنصر من بعيد وتركنا الحرس وجروا  
لكي يعرفوا سبب هذه الأصوات . وبعد دقائق عادوا اليها وأخبرونا  
بأن الخرطوم أخذت عنوة وسكنت الآن في أيدي الدراويش وبقي  
لي شك أشمل به هل تكون هذه الانتصار كاذبة ؟

ثم زحلت ونهضت وأخذت أنظر في المعسكر فوجدت جمعا  
غفيرا من الناس قد تألبوا حول مكان المهدي والخليفة ثم رأيت هؤلاء

الناس يسرون نحوى • وكان امامهم ثلاثة من الزوج يعطى أحدهم ،  
« شطة » وكان سابقا أحد الحرس العبيد عند ضيف الله • وكان  
فى يده قماش مشرب بالدم قد لف على شئ • وكان وراءه جهود من  
الاس • بيبكين • واقترب العبيد الثلاثة منى ثم وقفوا وهم يقفرون  
اجازات الاحانة والسباب • ثم حل « شطة » القماش واخرج لى  
رأى غوردون •

فدار رأسى وسمرت كان قلبى قد تولف • ولكنى جمعت كل  
قوى وضبطت نفسى ونظرت الى هذا المنظر المفزع وأنا صامت •  
وكانت هينا غوردون الزرقاوان قد قتحيا الى النصف • أما القم  
فكان فى هبته العادية • وكان شعر رأسه وعارضيه قد علاهما  
النسب •

وقال « شطة » وهو ممسك بالرأس أمامى : « اليس هذا رأس  
عمك الكافر ؟ »

فقلت بهدوء : « وما فى ذلك • جنسى شجاع وقع وهو يقاتل •  
انه لسعيد اذ قد أنهت الآمه » •

فقال شطة : « ها • ها • لا تزال تمدح الكافر • ولكنك  
سترى النتيجة • »

ثم تركونى وذهبوا الى المهلى ومعهم اشارة النصر المفزعة هله  
ورواحهم جهود ييبكى •

ثم عدت الى خيمتى وقد ماتت نفسى فى جسمى • أجل لقد  
سقطت الخرطوم ومات غوردون • وهذا اذن هو نهاية حياة هله

البطل الذي وقع وسيفه في يده . هذا الرجل الذي لم يكن يعرف الخوف والذي كان له من الخصال ما أذاع شهرته في العالم أجمع .

لما هي فائدة الجيش الانجليزي الآن ؟ لقد تأخر في متعة وكان في تأخيره هلاك الخرطوم . لقد وصلت طلائع الانجليز الى جيوات على النيل في ٢٠ يناير ووصلت بواخر غوردون الاربع في ٢٦ منه . فلماذا لم يرسلوا على هذه البواخر جنودا الى الخرطوم مهما كان عددهم قليلا . فلو أن الحامية رأت عددا من هؤلاء الجنود لامتألت قلوبهم حساسة وقوة ورجاء ولاستطاعوا أن يصمدوا للعدو . وكان السكان الذين فقدوا كل ما عندهم من ثقة في وعود غوردون تساودهم ثقة جديدة ومجاوبون الى صف الحامية لتأكلهم بأن القوة الانجليزية توشك أن تنجدهم .

وقد جهه غوردون جهته لكي يثبت وقد أعلن أن جيشا انجليزيا قائم اليه وطبع نفورا من الورق وكان يوزع الأوسمة والرتب كل يوم بلا حساب لكي يشجع الجنود ولما أخذت الأحوال تسوء واليأس يحل كان هو يجاهد في تحسيس الجنود وترجيئهم ولكن اليأس قلب الرجاء . فلم يعودوا يروا فائدة في هذه الأوسمة والرتب . أما نفود الورق فربما كان هناك من يشتري ورق الجنيه بقرشين أملا أملا ضعيفا في الربح اذا جاءت المصادفات بالتصالح للحكومة .

ولم يكن أحد يصمدق وعود غوردون الآن . ولو أن باخرة واحدة حملت بعض الجنود وجاءت بهم الى الخرطوم وأخبرتهم بأن الانجليز انتصروا لامتألت قلوب السكان والجنود حساسة وصنفوا وعود غوردون وكان عندئذ يمكن لضابط انجليزي أن يرى الجزء الذي دمره فيضان النيل من حصون المدينة وكان في الحال يأمر

بإصلاحه . ولكن ماذا كان يمكن أن يستعمل غوردون وهو وحيد  
وليس معه مساعد أوروبي ؟

ولم يكن في استطاعته أن ينظر في كل شيء كما أنه لم تكن  
بين يديه الوسائل التي تمكنه من التحقق من مرسوميه هل ينفذون  
أوامره أم لا ؟ وكيف كان يمكن لقائد أن ينتظر من جنوده القيام  
بتنفيذ أوامره إذا كان غير قادر على أن يضمن لهم قوتهم ؟

وفي الليلة المصنومة ليلة ٢٥ يناير علم غوردون بأن المهديين  
سيهجمون على المدينة فلرسل أوامره يخبر القواد هذا الخبر . ولعله  
كان يشك في صدق نيتهم في الهجوم في يكون اليوم التالي . وفي  
الوقت الذي عبر فيه المهدي إلى الضفة الشرقية كان غوردون قد أمر  
بإطلاق بعض الأسهم النارية في الفضاء وكانت ألوانها كثيرة مختلفة  
وكانت الموسيقى تعزف في الوقت نفسه والغرض من كل ذلك  
تحسيس الجنود الذين اختارهم الجوع حتى يتوب إليهم نظامهم  
وانتهت الأسهم النارية وسكنت الموسيقى ثم قامت الخرطوم وشرع  
العدو يزحف في حفر وحسمت . وكان رجال العدو يرمون لما كان  
الضخف في الحصون وكانوا يعرفون أن الجنود النظاميين قد وضعوا  
في الأماكن القوية في حين أن الخندق المتهدم القريب من النيل  
الأبيض وأيضا منطقة الخندق لم يكن يحيطها سوى الأهالي  
الضعفاء .

وكان هذا الجزء من الحصون في حالة سيئة لأن بناءه لم يتم  
وكان كل يوم يزداد الجزء المعرض منه على النيل . واجتمع معظم  
البراديين عند هذه النقطة وكانت سائر قواتهم تواجه مسامر  
الحصون . وشرع في الهجوم عند إشارة متفق عليها . وفر في  
الحال جميع من كانوا عند النيل الأبيض بعد أن أطلقوا بطح



طلقات . وبينما كان الجنود يشتمفون في صدد هجوم القوات  
الآخرى المهاجمة كان الآن الدراويش يدخلون من جهة النيل الأبيض  
ويخرجون في الماء والوحل إلى ركبهم . ثم ينصبون في السدود .  
ودهش الجنود إذ رأوا الدراويش يهاجمونهم من خلف .

ولم يقاوم الجنود عندئذ إلا مقاومة ضعيفة ووضع كل منهم  
سلاحه في الحال . ثم قتل المصريون أما السود فلم يقتل منهم  
إلا عدد قليل . ولم تبلغ خسارة العدو ثمانين أو مائة رجل . ثم فتح  
الدراويش أبواب المدينة فخرج من تبقى من الجنود إلى معسكر  
المهدي .

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الأبيض تصايحوا وهم  
يعدون في المدينة « للسراية » للكنيسة ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم  
سيجلبون هناك الأموال المنقورة كما يجلبون غوردون الذي دافعهم  
طويلا عن المدينة وعكس عليهم أغراضهم ، وكان القاعة في هذا الهجوم  
رجال مكين واد التور الذي قتل بعد ذلك في معركة توسكي وهو  
ينتمي إلى قبيلة العرافين . وكان قائمهم السابق شفيق مكين الذي  
كان يحمي عبد الله واد التور وقد قتل في حصار الخرطوم وكان  
رجالها الآن يرغبون في الثأر له . وكان عدد كبير أيضا من رجال  
أبو حرجة يستبقون نحو السراي وكانوا يرغبون في الانتقام  
لهزيمةهم في بوري حيث هزمهم غوردون .

ولما دخلوا السراي وجدوا الختم في قبو السراي فقتلوه في  
الحال وكان غوردون واقفا على السلم المؤدى إلى غرفة الجلوس فقال  
لهم عندما رأهم : « أين مولاكم المهدي ؟ » .

ولكنهم لم يكثرثوا لهذا السؤال وتقدم أولهم وطعن غوردون  
بحرته فوق علي وجهه دون أن ينطق بكلمة . فأخذ القنلة يجره

على السلال إلى باب السراي وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه إلى المهدي في أم درمان . أما الجسم فقد ترك لرحمة المتصبيين . وكانت آلاف من هذه الخلائق الوحشية تمر على الجسم ويفس كل منهم حريته في دمه . فلم يمس (من حتى صار الجسم قطعة مضبوطة من اللحم وقد بقيت بقع الدم مدة طويلة في المكان الذي قتل فيه غوردون شاهدة على ارتكاب هذه الفظيعة بل كانت ترى أيضا على درجات السلم مدة عدة أسابيع ولم تفصل الا حين قرر الخليفة أن يتخذ هذه السراي مأوى لزوجاته السابقات واللاحقات .

ولما أحضر رأس غوردون للمهدي قال انه كان يوه أن يحضر اليه غوردون حيا لأنه كان يتوى أن يدخله في الاسلام ثم يقاضى به الحكومة الانجليزية على عرابي باشا لأنه كان يأمل أن يساعده عرابي في فتح مصر . واعتقادي أن المهدي كان يتفق في تأسفه هذا على قتل غوردون لأنه لو كان يرغب حقيقة في الإبقاء على حياته لما خالف أمره أحد .

وقد فعل غوردون كل ما في استطاعته لكي يقي حياة الأوروبيين الذين كانوا في الخرطوم فقد أذن للضابط استيورت مع بعض القناصل وعقد كبير من الأوروبيين في السفن إلى دنقلة ولكن بحارة الباخرة « عباس » كانوا غير كفاة وكانوا أيضا مستائين فصدحوا بالباخرة في السلالات فوق الضابط استيورت ومن معه فريسة للشعر الذي قضى عليهم .

وكان غوردون يرغب في حرب اليونان فسلمهم باخرة وتعمل في الظاهر بأنهم يعرفون البحر وأمرهم بالتفتيش في النيل الأبيض وذلك كي يتيح لهم الفرصة بأن يسافروا جنوبا إلى أمين باشا ولكنهم أبوا ذلك . وكان غوردون مهتما بسلامتهم فاقترح اقتراحا آخر

فانه أسر الناس بعلم السير في الطرق المؤدية الى النيل الأزرق بعد الساعة العاشرة ثم كلف اليونانيين بحراسة هذه الطرق وذلك لكي تتاح لهم الفرصة بالفرار على باخرة قد أوسيت قريبا . ولكن اليونان اختلفوا فيما بينهم فضاخ هذا التدبير

وانا لا أشك في أن هؤلاء اليونانيين لم يكونوا يرغبون في الفرار الى الخرطوم فان معظمهم كانوا يصبون في بلادهم أو في مصر في حالة شديدة وهم لم ينالوا الثروة الا في السودان ولذلك لم تطاوعهم نفوسهم على تركه .

وكان غوردون يريد أن يقى نفوس جميع الناس الا نفسه . ويمكنني الآن أن أنتقد غوردون من حيث أنه لم يطرأ خناق ولم يفر تحصينات تحمي السراى ، ولكن الأرجح أن الذى منع غوردون من عمل ذلك أنه خشى أن يجهم بالاهتمام بحياته . وربما كان هذا أيضا هو السبب في عدم وضعه حراسا حول السراى .

وكان يمكنه أن يستعمل عددا من الجنود لهذا الغرض . وهل يمكن لأحد أن يفكر في الثالثة التي تعود على الجميع من حماية نفسه . وكان يمكنه بمثل هذا الحرس أن يصل الى الباخرة « اسماعيلية » القريبة من السراى . وكان فرغل ريان هذه الباخرة قد رأى العدو وهو يهجم على السراى فوقف بالباخرة ينتظر مجئ غوردون ولم يبرح الشط حتى تأكد أنه قتل فافتلح المرساة وسار الى وسط النهر ثم أخذ يروح ويخلو أمام المدينة حتى اقترب اليه الفراويهي بفرو الهدى .

وكان لفرغل زوجة وعائلة في الخرطوم فسلم بعد أن حصل على الأمان . ولكن ما كان أكثر انخداعه فانه ذهب الى بيته فوجد

ابنه ( وكان في العاشرة من عمره ) مقتولا ووجه زوجته قد ألفت  
بنفسها على ابنها وجسمها ممزق بالحرايب .

وليس من الممكن أن يصف الإنسان مبلغ الفظاعة والقسوة  
في المذبحة التي تلت قتل غوردون فإنه لم ينج أحد سوى الرجال  
والنساء من العبيد وكل امرأة عليها شيء من الملاحة من الأحرار .  
أما غير هؤلاء الذين نجوا من القتل فلم تكن نجاتهم إلا مصادفة .  
وانتحر كثير من الناس وكان من بينهم محمد يلما حسن ناظر  
المالية فإنه زحف إلى جنب ابنته وزوجها وكان كلاهما قد قتل وقد  
رآه أصداؤه في حلم الحال فحطوه على الفرير ولكنه أبى فحاولوا  
أن يخلطوه عنوة ولكنه صار يصيح ويدعو على المهدي ودواويشه فر  
به بعض الدراويش فأجهزوا عليه .

وقتل عدد من الناس من أيدي عبيدهم السابقين وكانوا قد  
انضموا إلى العدو وكانوا أدلاء فاشتركوا الآن في القتل والنهب  
والاعتصاب .

ويمكن أن يملأ الإنسان مجلدا من هذه الفظائع التي ارتكبت  
في ذلك اليوم المشؤوم . ولكنني أشك في مصير الذين أبقي على  
حياتهم هل كان أفضل من مصير القتل ؟

وعندما احتل الدراويش المنازل شرعوا في البحث عن الكنوز  
ولم يكن يقبل عذر أو إنكار . وكان معظم السكان قد خبأوا أموالهم  
فكان كل من يشتبه فيه يصفى حتى يفشى السر أو حتى يقتنع معذبه  
بأنه لا يملك شيئا . وكان السوط يستعمل بأسراف فكان الناس  
يجلدون حتى يشنأثر لحمهم . ومن ضروب التعذيب التي كانت  
تستعمل أن يعلق الرجل من ابهاميه إلى عمود من الخشب فيتوجع

هو ثبته في الهواء حتى يضى عليه . وكانوا يأتون بسلخين من القصب الهندي ويضعون كلا منهما على وجه الرجل ثم يربطون طرفيهما ثم يضرب هذان السلخان بعضا فيصاح من اهتزازهما الأم حضنية . وكانوا يذبون النساء بهذه الكيفية أيضا . ويعذبوهن في أماكن أجسامهن الحساسة بطريقة لا يمكنني أن أصفها هنا . وحسب القاري أن يعرف أن أفطح الطرق في التعذيب كانت تستعمل للحصول على الأموال .

ولم ينتج من هذا التعذيب سوى النساء الصغيرات في السن والفتيات وذلك خوفا من أن يتعرض هذا التعذيب الناية التي ستستخدم لها هذه النساء والفتيات .

وجميع هؤلاء النساء والفتيات أرسلن إلى المهدي يوم فتح الخرطوم فاصطفى منهن من أراد ورد سائرهن إلى الخلفاء والأمراء واستمر جمع النساء والانتخاب بينهن عدة أسابيع حتى امتلأت بهن بيوت هؤلاء الأوغاد الشهوانيين بل قاضت بشباب الخرطوم الذي قضى عليهم النص أن يقضى في أيدي الدراويش .

وفي اليوم التالي منح غزوهم لجميع الأهالي ما عدا القبايلية الذين أحمر دمهم . ولكن على الرغم من هذا الطغوا استمر القتل وارتكبت القضاكم عدة أيام بعد سقوط الخرطوم .

وحملت القنائل إلى بيت المال ولكن بعد اختلاس أشياء كثيرة منها . ووُذعت المنازل المهمة على الأمراء . ويسم المهدي والخليفة في الباطنة « أسماعية » إلى الخرطوم ورأيا نتيجة انتصارهما النحوي . ولم يبد أحدهما أية علامة على التحسر أو الأسف بل ذهب كل منهما إلى المنزل المخصص له . وكان كل منهما يقول لأتباعه إن الله أنزل بالمعاقب يسكان المدينة لمسئهم وعدم اتباعهم إيمان المهدي .

وتنصبت الأيام الأولى في اللهو واتباع الشهوات - ولا شبح المهدي وأتباعه من النساء ابتدأوا يلتفتون إلى الخطر الذي يهددهم من الخارج . فامر الأمير عبد الرحمن واد نجومي المشهور بأن يجمع قوة كبيرة ويلحظ بها إلى حتمه لقائمة الانجليز ويطرد هؤلاء الكفار الذين قيل أنهم بلغوا النيل قريبا من هذه البلدة .

وفي صباح يوم الأربعاء بعد سقوط الخرطوم يومين حوالي الساعة السادسة عشرة سمعنا إطلاق القنابل وعبوات البنادق من ناحية جزيرة تونى . ثم ظهرت باخرتان وهما « الإسلاموية » و « بردين » وكان عليهما السير تشارلس ولسون وعند من الضباط والجنود الانجليز جاؤا لانقاذ غوردون . وكان السنجلى خشم الموصى وعبد الحيد محمد اللذان كان غوردون أرسلهما لقيادة القبايلية . على هاتين الباخرتين أيضا . وسمعوا جميعا بما حدث لغوردون ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من الخبر وجاؤا إلى نصف الطريق بين جزيرة تونى والنيل الأبيض .

وأطلق النواويس ليرائهم على الباخرتين من الغنادق الواقعة في الشمال الغربي لقلعة أم درمان . ولكن الباخرتين عادتا إلى الحال عندما رأى رجالهما سقوط الخرطوم .

وسمعت بعد ذلك من بعض بحارة هاتين الباخرتين أنهم هم والانجليز تألوا لسقوط الخرطوم . وصرخوا أن السودان قد بات تحت سيطرة المهديين . وكان المفهوم من الحديث الذي كان يتحدث به الجنود على البواخر أن الغرض هو انقاذ غوردون فلما تأكد الخبر عن موته عادت البواخر إلى دنقله .

ثم اتفق دليل الباخرة « الفلامنية » على أن يجنح بالباخرة إلى الشاطئ حتى يكسرها ثم يضر في النيل هو والربان عبد الحميد ونجحت هذه الخطة وبلغ من شدة اصطدام الباخرة أنها عطيت حتى احتاجوا إلى نقل ما فيها بسرعة إلى الباخرة « بردين » وفر كلاهما وقت الاصطدام وحسلا بواسطة أصدقائهما على ظهر المهدى وعادا إلى الخرطوم . واستقبلهما المهدى استقبالا حسنا وامتدح صنيعهما في كسر الباخرة . ومع أن عبد الحميد كان من العنابية المكروهين وأحد أقارب صالح وأد المالك فإن المهدى خلغ عليه مرقمة اكراما له وكان عدد كثير من النساء لمرايته قد صيبن عند سقوط الخرطوم ووزعن على الأمرء فلما عفى عنه أعلن إليه .

لما الباخرة « بردين » فلما في هودتها جنحت وارتطمت بالوحل . ولما كانت حملتها ثقيلا فاته لم يمكن انقاذها . وكان ذلك قريبا من مكة . وكان عليها السير تشارلس ولسون فقص عندئذ بحرج مركزه وكان الجنود الذين معه قليلين فلم يكن في وسعه أن يعبر إلى الشاطئ الغربي ليلتحق بسائر قوته في جوبات لأن العدو كان قد خندق بنيه وبينها في واد حبيى وكانت قوة الدراويش في واد حبيى بعضا أصابها من الخور والشلل العزيم بعد هزيمة أبو كايه قد عادت إليها شجاعته بعد سقوط الخرطوم وانتقام خبر مجيء النجومى وكان في جوبات باخرة ثالثة تسمى « صفية » فأرسل السير تشارلس إليها ضابطا في زورق يطالب المحنة .

وقامت « صفية » في الحال وعلم العدو بذلك فخندق على الشاطئ وتبعا لجيبتها فلما اقتربت صوب عليها ناراً حامية من البنادق والمدافع . ولكن الجنود فيها قاوموا ببسالة عازمين عزما صادقا على انجاد الباخرة « بردين » مهما كلفهم ذلك واستمر صبر الباخرة حتى أصيب الرجل .

ولكن الربان امر في الحال باصلاح الخلل فاختل الصالح  
يصلحونه والثار تنصب عليهم من العدو وقضى الليل كله في هذا  
الاصلاح حتى اذا كان الصبح تمكنت « صفية » من استئناف السير  
ومقاتلة الدراويش . بل تمكنت من اسكات مدافعهم وقتل امرئهم  
حمد واد فايد وعدد آخر من صفار الأمراء .

وبلغت « صفية » « بردين » وانقلت السير تشارلس ورجاله  
وكان لهذا العمل العظيم اثر آخر في انجاد الجنود الانجليز في  
عتمه .

وكان جيش النجومي يسير ببطء لصعوبة جرح الرجال وقد  
اخره أيضا خبر قتل الأمير حمد واد فايد وحزيمة الدراويش في  
واد حبشي أمام باخرة واحدة . وقد قيل لي بعد ذلك عند عودتي  
الى مصر أن ريان الباخرة « صفية » عند إمرأها ذلك النصر كان  
اللورد تشارلس بريسفورد . ويقال أن النجومي عندما سمع بهذا  
النصر قال لرجاله أنه اذا عزم الانجليز على المغول الى السودان  
فانهم بالطبع سيقاتلونهم . أما اذا اتجهوا نحو الشمال فانه لا قتال  
بينهم وبين رجاله بل يحتلون البلاد التي جلوا عنها ، وتأخر في  
سيره حتى بلغ عتمه بعد جلاء الانجليز عنها وعن جويات . ومع أنه  
طارحهم الى أهر كلبه فانه لم يستعبك منهم في قتال .

وعندما جلت طلّاح الانجليز تحقق المهدي أن السودان بأجمعه  
قد أصبح ملكه فطلق عند ذلك سرورا . وأعلن هذا الخبر في المسجد  
وأخذ يصف للدراويش قرار الانجليز وكيف أن النبي قد أوحى أن  
الله قد خرق قريتهم فأتوا جميعهم عطشا .



وفي اليوم الخامس لسقوط الخرطوم رأيت ثلة من الجنود أمام خيمتي الممثلة فوضعتهم على حمار وأنا في قيودي وساروا بي إلى السجن العمومي . وهناك طوقوا حول صودا وحلقة من الحديد يبلغ وزنها ثمانية عشر رطلا وكان هذا القيد الجديد يسمى « الحاجة فاطمة » وكان لا يقيد به إلا من كانت جناياتهم خطيرة أو من يوصلون بالعناد من المسجونين .

وكنيت أجهل السبب في سقوط مكائلي في عين الخليفة إلى هذا الحد . ولكن علمت بعد ذلك أن غوردون عندما عرف من خطائي أن القوة التي أرسلها المهدي إلى الخرطوم غير قوية أذاع هذا الخبر بين الجنود في خطوط الدفاع . وهذا المنشور الذي نشره غوردون وقعت منه نسخة في يد حمد واد سليمان وكيل بيت المال فسلمها للمهدي والخليفة . فتأكدت لديهما عندئذ التسببات في خيائلي وتديري السابق لكي التحق بغوردون .

ووضعتهم في زاوية من الزريبة الكبيرة ( أي السجن العمومي ) ووضعتهم في محاذلة أي السنان بحيث إذا خالفت هذا الأمر فإن العقاب هو الجلد . وكنا في الليل أربط أنا وجميع المسجونين في سلسلة طويلة إلى شجرة وفي الصباح يفك الربط . وكان يربط معي بعض العميد الذين قتلوا أسيادهم وكنيت أرى لبتون بك في زاوية أخرى من الزريبة وكان قد عضت عليه مئة في هذا المكان حتى الفه . وكان قد أذن له في مخاطبة جميع من يربط باستثنائي أنا وحدي .

وفي اليوم الذي دخلت فيه السجن الفرج عن صالح واد الملك وكان أخوه وابنه وجميع قرابته قريبا قد قتلوا وأذن له أن يخرج ويبحث عنه يجد أحدا منهم .

وكان طعامي سيئا للغاية فشمعت كائى غد وقعت من الرطباه  
على النار . فله كنت قبلأ أشكو من الجوع الذى كان يصيبنى من  
وبت . فآخر ولكن الآن صرت لا أجد طعاما سوى الذرة الجافة آكلها  
كم ياكلها العبيد وكان مع ذلك مقدار ما يعطى لى قليلا جدا ورأيتى  
وإيا فى هذه الحال زوجة أحد السجنائين فأخذتها الشفقة وصارت  
تأخذ منى الذرة وتسلقه ثم تميله الى طريا فأكله ولكن لم يأذن لها  
زوجها بأن تقسم لى طعاما آخر لثلا يعرف رئيس السجنائين ذلك  
فيبلغ المظهر للحليفة . وكنت إقام على الأرض وأضح تحت رأسى  
سجوا كوسادة وكان هذا يحدث لى صداعا مستمرا ولكن حدث فى  
أحد الأيام ونحن نساق الى النهر لكى نغسل الى وجئت فى الطريق  
بدانة برودة يظهر ان صاحبها القاهما لعلم فائدتها فحملتها وخياقتها  
تحت ذراعى وامت عليها تلك الليلة . كما ينال الملك على ومادة  
من رطب .

ولكن أحوالى أخلت فى التحصن . فان رئيس السجنائين  
الذى لم يكن يكرهنى صار يأذن لى بالتحدث مع سائر المساجين .  
وخفف قيودى . أما « الحاجة فاطمة » وأختها فكانتا لا تزالان فى  
مكائهما ولا سكنى أن أقول أنهما كانتا تزيدان فى رفاهيتى فى تلك  
الاشهر الخفية التى قضيتها فى السجن .

وبعد أيام حدثت حركة بين السجنائين وأخبرانى رئيسهم أن  
الخليلة سيانى قريبا لزيارة السجن . فسألته عما يجب أن أفعله  
أمامه حتى أسترضيه فتصح لى بأن أجيب فوراً على الأسئلة التى  
توضح لى وألا أشكو أى شكاية وأن أبقى منكسرا ذليلا فى الزاوية  
التي خصصت لى . وحوالى الظهر حضر الخليفة ومعه اخوته  
وملازموه وصار يطوف على الزوايا ويرى بعينيه ضحايا عدالته .  
وبدا لى من مسلك المساجين أن رئيس السجن يصح لهم بمثل

عما نصبح لي فقد كانوا هادئين في مكانهم وقد حلت سلاسل البعض  
وأخرج عنهم ثم اقترب الخليفة حتى وهز رأسه إلى يسطف وقال :  
« عبد القادر ، أنت طيب » .

فقلت : « أنا طيب يا سيدي » .

ثم توكلني وصار . واقترب حتى يونس واد وكيم حاكم ولاية  
وأحد قرابة الخليفة فهز يدي وقال لي : « تشجع . لا تخش شيئا .  
كل شيء سيصلح قريباً » .

واجتذلت أحوالي تتحسن عند هذا اليوم ولكن كنت أشعر  
بطول الوقت .

وانفجرت واقعة الجدرى في أم درمان وكانت تحصد أكتاف  
كل يوم حتى بادت أسرات عن آخرها . واعتقادي أن الضسارة من  
هذا المرض كانت أكبر من أي خسارة خسرها النوايش في الممالك  
الماضية ، والغريب أن العرب أصيبوا به أكثر من غيرهم ومات منه  
معظم السجائين . أما نحن فليسجون فلم تصب بشيء وأن كنا قد  
فزعنا فزعاً شديداً . ولعل الله في رحمته رأى أن فيما نقاسيه أكثر  
مما نتحمل .

واتيحت لي الفرص الآن للتحدث مع ليتون الذي كان يزاد  
ساعة كل يوم . وقد كان يبلغ به الحق والغيث أن يمشوا أحياناً  
من الشكوى ويصوت حال حتى كنت أخشى فواقه لعله هذا . ولكن  
الحقيقة التي كنا نعيشها في السجن كانت قد آثرت فيه حتى خفت  
على صحته . وتمكنت بعد ضحائل طويلة معه من تهدئته . وكان  
مع عمره الذي لم يعد الثلاثين قد شاب وأمه ولحيته في مثل صحته  
هذه .

وأصبح لهم أحد الأيام أن الخليفة مزعج المجيء الى السجن  
فهبط خطبة وصليت بانفسائها وفعل لبتون مثل ذلك . وكان المرجح  
أنه سينتاطبني أولا .

ثم جاءت الساعة الخطرة ودخل الخليفة الى صحن السجن  
وبدأ من أن يطلب المسجونين واحدا بعد آخر وضع له عنجريبه  
وقعد عليه وأحضر له المساجين وقعدوا في نصف دائرة . فأخرج  
عن البعض ووعد الآخرين ببعض قضائهم ولكنه لم يلتفت الى ولا الى  
ليجون .

لنظر الى لبتون وهز رأسه فوطعت اصبعي على قسي أحفوه  
من عمل أي شيء طائش والتفت الخليفة الى رئيس السجن وقال :  
« هل بقي على شيء » .

فقال السجنان : « أنا في خدمتك يا مولاي » .

ثم قعد الخليفة بعد أن كان قد هم بالقيام والتفت الى وقال :  
« عبد القادر أنت طيب » .

فقلت : « يا مولاي . اسمح لي بالكلام أخبرك عن حالي » .

فأذن لي بالكلام فقلت : « أنا يا مولاي من قبيلة غربية . وقد  
جئت لطلب حمايتك فحييتني . ومن طبع الانسان أن يطلب . ويذهب  
الى الله وإلى الناس . وأنا قد أذيت ولكني الآن أتوب . أتوب الى  
الله وإلى الرسول . هاإننا يا مولاي في القيود والسلاسل أمامك .  
هاإننا عريان جوعان اقترض الأرض وأرقد هنا صابرا ننتظر قهوماك  
لكي تملو على . مولاي انه أنذل لك وأرجو أن تفرج عني ولكن  
إذا رأيت يقالي في هذه الحال العسلة فأدعوا الله أن يقويني على  
تحملها » .

وكنيت قد خلطت هذه الخلطة جيدا والقيتها بفصاحة فادرة  
ورأيت أني بلغت بها الأثر الذي أردته في نفس الخليقة ثم التفت  
إلى لبتون وقال : « وأنت يا عبد الله » .

فقال لبتون : « لا أزيد شيئا على ما قاله عبد القادر . أمه  
عني والفرح عني » .

فالتفت إلى الخليقة وقال : « منذ مجيئك من دارفور حملت  
كل ما يجب أن يعمل لأجلك . ولكن قلبك بقي بعيدا عنا وأردت  
أن تلحق بفردوس الكافر وتطربنا في صفه ولقد وفرت عليك  
حياتك لأنك أجنبي . ولكن إذا كنت قد تبعت حقيقة فأنا أعفو عنك  
أنت وعبد الله . يا سجان انزع عنهما القيود والسلاسل .

فحملنا السجانون وبمه استحصال الحيل تمكنوا من نزع القيود  
ثم أعادونا إلى الخليقة الذي كان قاعدا على المنحرب ينتظرونا .  
ثم أمر بأحطار القرآن فوضعه على قروة وطالب منا أن نقسم بمن  
الولاء له . فوضع كل منا يده على القرآن واقسم بأن ينضمه بأمانة  
وولاء في المستقبل . ثم نهض ولعرنا بأن تقسم وراءه ونهضنا ونحن  
لكاد نجن من الفرح بالافراج عنا بهذه هذا السجن الطويل وسرنا  
في إثره » .

ولما بلغنا منزله أمرنا بأن نبقى في مكان بعيد عنه وتركنا .  
وبعد دقائق عاد إلينا وقعد إلى جانبنا وحذرنا من خصيان أوامره .  
ثم قال أنه تسلم خطابات من قائد الجيش في مصر يقول فيها أنه  
قد أسر أقارب المهدي الذين كانوا في دقته وأنه يعرض أن يقاضي  
بهم على من عند المهدي من الأسرى الذين كانوا مسيحيين » .

وقال : « لقد قررنا أن نجيب بأنكم جميعا مسلمون وأنكم معتمدون معنا ولا ترهبون في أن نقايس عليكم برجال ولو من قراية المهدي . فلفصلوا ما شأما بأمرهم » .

ثم أضاف الى ذلك قوله : « ولكن لحكم تجبون العودة الى النصراني ؟ » .

فاجابنا له أنا وليتون بأننا لا نرهب في تركه وأن مسرات الدنيا كلها لا تغرينا بمفارقة وان بقاءنا معه يلبدنا لأنه يرشدنا الى طريق الخلاص . فجازت عليه أكاذيبنا ووعدنا بأن يقسمنا الى المهدي الذي كان قد وعد الخليفة بزيارته في عصر ذلك اليوم في منزله . ثم خرج وتركنا .

وجاءنا كثير من الأصقاء يهتفوننا بالأفراج عنا وكان بينهم ديستري زيجاده ولكن لم يكن معه القطار المعتاد من التبغ . وكان بينهم أيضا صديقي القديم الشيخ عيسى فلما أخبرته بأننا سنقابل المهدي أصبح في بعض نصائح مفيدة في هذه المقابلة .

ولما غربت الشمس جاءنا الخليفة وأمرنا بأن نتبعه فسرنا وراءه حتى دخلنا على المهدي وهو قاعد على عتريب . وكان قد سمن سمنا فاحشا حتى ما كنت أعرفه . فركعنا أمامه وقبلنا يده عدة مرات وأكد لنا أنه يرغب في الخير لنا وأن القيود والسلاسل تنفع الناس ، يعني بذلك أن العقاب يمنع الناس من ارتكاب الجرائم فينفعهم لهذا السبب . ثم والى الحديث الى قرايته الذين كانوا في أسس الانجليز وأنه رفض المقايضة بنا قائلا : « اني أعجبكم أكثر مما أعجب قرايتي ولهذا رفضت المقايضة » .

فاجبته مؤكدا له الأمانة والحب وقلت له : « ان كل انسان  
يجب ان يحبك أكثر مما يحب نفسه لأن من لا يفعل ذلك لا يمكنه  
ان يحب أحدا من قلبه » .

وكان الشيخ علي بن قد أوصاني بأن أقول له ذلك . فلما  
سمع المهدي كلامي التفت الى الخليفة وقال : « اسمح ما يقول .  
قل ثانيا » .

تكررت العبارة على مسامعه فآخذ يفتي بين يديه وقال : « لقد  
قلت حقا . أحبني أكثر مما تحب نفسك » .

ثم طلب لبتون بك وأخذ يده وأمرنا كليتا بأن نقسم بين  
الولاء لأننا قد حلفنا بيميننا الماضية . فالتفتنا من جديد وأمرنا  
الخليفة بالقيام لقبلا يد المهدي ونكرنا له برة بنا وعدنا الى  
مكائنا .

ومضى زمن قليل أن يأتينا الخليفة . ولما عاد إلنا للبتون بأن  
يرجع الى عائلته وكانت لاتزال في بيت المال ويبحث معه بملازم يريه  
الطريق وأكد له عفايته به ثم قال لي : « وأما أنت فأين تريد أن  
تذهب ؟ هل تعرف أحدا تذهب اليه ؟ » .

فقلت : « ليس لي سوى الله وأنت » . ليس لي أحد يا جولاي  
يعني بي فافعل بي ما تراه خيرا لي » .

فلما قال الخليفة : « لقد كنت أرجو وانتظر هذا الجواب منك .  
ويمكنك أن تعد من هذه الساعة واحدا من أسرتي » . وسأعني بك  
ولن تحتاج الى شيء . وستنتفع بملازمتي ولكن أشتراط عليك شيئا  
واحدا وهو ان تطيع كل ما أرسله اليك من الأوامر . وواجبك

ينحصر في أن تلعب مع الملايين طول النهار على باب المنزل .  
لما في الليل بعد ذهابي لممكنك أن تلعب الى منزلك الذي  
ساخضه لك . وعندما أخرج يجب أن تراقبني وإذا ركبت قطيعة  
أن تسير بجذالي حتى يأتي الوقت المناسب للالتصق بالركوب الى  
جانبى . فهل أنت راض بهذه الشروط ؟ وهل تمد بالقيام بها ؟ .

فاجبت : « أنا راض يا مولاي كل الرضا بهذه الشروط .  
وستجد في خاضا مطيحا وأرجو أن أجده القوة لكى أقوم بواجباتي  
خير قيام » .

فقال : « الله يتولى ويبت لك الخير » ثم نهض وقال : « تم  
هنا حلم الليلة في حاية الله وسأراك غدا » .

وبقيت وحيدى وشعرت أنى خرجت من سجنى فدخلت لى آخر  
وأدركت لى الحال ما دى اليه الخليفة فانه لم يكن فى حاجة الى  
خدمتى لأنه لم يكن يفتق بى أقل ثقة ولم يكن يريد أن يتفتح بى لى  
مقاومة الحكومة المصرية أو مقاومة العالم المتدين .

ولكنه أراد أن أكون أمام عينيه يشرف على العوام .  
ولعله أيضا أراد أن يمتز ويژهو بوجودى أمامه مطيحا كالعبد  
فيفتخر بذلك أمام قبيلته التى هى الآن أساس سلطته . والتم  
كانت يوما ما تحت امرتى وكذلك يفتخر بعبوديتى أمام سبالر  
القبائل التى كنت أحكمها . ومع ذلك قلت لنفسى يجب أن أعنى كل  
المنافاة بالآ الحشبة ولا أتيح له الفرصة للأذى . وكنت أعرف  
الخليفة تمام المعرفة وأدرك أن ابتساماته لا تصارى شيئا وقد قال لى  
هو ذلك لى أحدى المرات فقد كنا نحدث فقال : « عبد القادر :  
إن من يتطلع الى السيادة والسلطة يجب عليه ألا يظهر الناس على  
أفراضه . والا فلان خصومه وأعداءه يفسدونها عليه » .



وفي صباح اليوم التالي جاءني وطلب أخاه يعقوب وأخاه علي  
بأن يخرج بي ذروني مكانا أبني فيه عشتي بحيث لا أكون بعيدا  
عنه . وكانت قرابة الخليفة قد أخذوا الأمكنة القريبة ولذلك لم نجد  
أقرب من مكان يبعد عنه نحو ٦٠٠ ياردة فآخذته لبناء عشتي .

ثم طلب الخليفة كاتب سره فاراني وثيقة موجهة للعائد الجيش  
الانجليزى خلاصتها أن جميع الأمري الاوربيين قد دخلوا في الاسلام  
باختيارهم وأنهم لا يبتغون الرجوع الى بلادهم وطلب مني أن أوقع  
هذه الوثيقة .

ثم سألتني فجأة : « أأنت مسلمان ؟ أين تركت زوجاتك  
أذن ؟ » .

وكان هذا السؤال مريكا فقلت : « لي زوجة واحدة تركتها  
في داره وقد بلغت أنها أسرت مع سائر الخدم وأنهم الآن في  
بيت المال » .

فقال : « وهل لك أولاد ؟ » فاجبته بالنفي فقال : « الرجل  
بلا ولد كالشجر بلا ثمرة وبسا أنك قد صرت في خدمتي فساعدتك  
بجمع زوجات حتى تعيش عيشة هنية » .

ففكرت له عنايته بي ورجوته أن يؤجل عديته الى أن أنهي  
من بناء عشتي وقلت له في ذلك أن الحريم يجب ألا يعرض لنظر  
الانحراب . وكان أبو انجه قد أخذ جميع أمتعتي فأمر الخليفة بأن  
يسودني منها باعطالي مخلفات المرحوم أوليفيه بأن فأرسلت الى  
جميعها وكانت تحتوي على جبة قديمة وعباءة عربية بالية وقرآن  
مكتوب باللغة الفرنسية . وأرسل الى فضل المولى يقول ان سائر

أمتعة أوليفينه بأن قد فقدت منذ وفاته . وأمر الخليفة بأن ترد إلى النقود التي كانت قد أخلصت مني وأودعت بيت المال . وكانت تبلغ أربعين جنيها وبعض الأكراد التي جمعها لطرائفها وهذه كلها سلمها إلى حمد وأرسلها له .

وشرعت في بناء منزلي وكنت في مدة البناء أقيم في منزل الخليفة ووكنت أقدم قصي صندوقه النبوي في بناء منزلي وكلفتني بأن يجعله مؤلفا من ثلاث عتشي مستقلة داخل حظيرة . ولم أكن أبرح باب الخليفة منذ الصباح الباكر حتى المساء . وكان كلما خرج راكباً أو عاشياً أسير معه عاري القسم . وكان الخليفة عندما رأى قصي قد تلفتاً من السير بلا حياء قد أذن لي بأن ألبس ثيابي وكانتنا نحران في قصي ونؤلمانني .

وكان الخليفة يرسل إلى فاكل معه في بعض الأوقات وكان أيضاً يرسل ما يتبقى من طعامه لنا فاكل مع لئلازمين الذين صرت واحداً منهم . وإذا كان الليل وذهب إلى فراشه توجهت أنا إلى منزلي فأتسلط على المنجرب وأنا في غاية الإعياء وأنام إلى الفجر حيث أستيقظ وأذهب إلى باب الخليفة فأنتظره للصلاة .

ولما علم الخليفة بأن منزلي قد تم بناؤه أرسل إلى جارية وقال لي سعد الله أنها جاءت متلفعة . وأنها قادمة تنظرني . فأمرت سعد الله بأن يعمل معبها ويرشدني إليها . ففعلت ووجدت المسكينة راكدة على حصير . وصالتني عن ماضي حياتها فأخبرتني بصوت مشغوم أنها من النوبارية وكانت تنتمي إلى قبيلة في جنوبي كردفان وأنها سبيت وأرسلت إلى بيت المال فبقيت هناك إلى أن أرسلها إلى حمد واد سليمان . وكانت وهي تتكلم قد رفعت ما على رأسها من

الالتمسة المظرة التي كانت مختلفة بها لبدا في وجهها وكشفها وصارها .

وأشرت الى سعادته بأن يقرب المصباح منها ثم رأت عندئذ أني في حاجة الى أن أعبره جميع قوئي لكيلا أرعبه وألق من العجريبه لقد كان لها وجه دميم تطل منه عينان صغيرتان وكان أنفها عظيما مفرطعا تحته فم له شفتان غليظتان تكادان تيلغان أذنيها عندها تشحك . وكان راحمها يرتكز على عنق غليظ أحبه شيء يعنى الكلاب التي من سلالة « البول دوج » وكان اسم هذه المخلوقة مريم . فأمرت سعادته بأن يأخذها بعيدا عني ويعطيها عجبريبها .

فهذه اذن هي أولى هدايا الخليفة لي . وهو لم يهد الى حمارا أو فرسا أو بضعة تقود أستبين بها ولكنه أرسل لي جارية دمية لا أرتاح إلى وجودها وهي لو كانت جميلة لما قدمت على القيام بتكاليفها .

ولما ذهبت في اليوم التالي سألتني هل أرسل لي حرد واد سليمان جارية ؟ فقلت : « أجل . لقد أتقد أوامرك على الفور » ثم وصلت له الجارية وصفا دقيقا .

فالتفت الخليفة أشبه الفجاء ويحث في طلب حرد واد سليمان ووجهه على عدم طاعة أوامره بل مخالفته أيضا أوامر المهدي . وأرسلت الى لي المساء جارية أخرى أقل دعامة من سابقتها وكان الخليفة هو الذي اختارها . ولما هدأت بمنزلي سلمتها لراحم سمعته الخادم .

وأطمان المهدي والخليفة والأمراء من ناحية الغارات الخارجية  
فشرع كل منهم في بناء منزل يوافق مكانته وحاجاته . وأخذت  
النساء سبايا إلى الخرطوم إلى هذه المنازل الجديدة وأخذ أسبادهن  
في التمتع بهن لا تزججهن نظرة الغريب أو حسد الصديق .

ولم يكن الخليفة والمهدي وقرابتهما يحبون أن يعرف الناس  
أنهم أدخلوا معظم الغنية لأنفسهم ، لأن هذا العمل يناقض تعاليم  
المهدي الذي يقول بالزهد في ملذات الدنيا وكانت منازلهم واسعة  
تسع أكثر من ليها وذلك انتظارا للضائمان التي ستأتيهم من البلاد  
التي لم تفتح الآن .

وفي يوم ما مرض المهدي ولم يذهب إلى المسجد للصلاة .  
ولم يأبه أحد لمرضه أولا لأنه كان قد أعاد على أسماع الناس عدة  
مرار أنه سيفتح مكة والمدينة والقدس لم يموت بعد عمر طويل  
في الكوفة . وأن النبي قد أظهره على هذه الرؤيا . ولكن مرض  
المهدي لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمى التيفوس وبعد  
سبعة أيام من مرضه بدأ اللذين حوله يفتنون من شغاله .

وكان سيدي الخليفة يهم اهتماما كبيرا بمرض المهدي  
ولا يبرح دأبه ليل نهار . وكنت أنا ألق على الأبواب بلا غاية  
معينة .

وفي مساء اليوم السادس اجتمع جمهور كبير حول بيت المهدي  
وأمر المصلون في المسجد بأن يصلوا ويصعدوا لشفائه لأنه بات في  
خطر الموت . وكانت هذه أول مرة أعلنت فيها الصفة الخطرة  
للمرض المصاب به المهدي أمام الناس . وفي صباح اليوم السابع .  
أذيع أن حالته تسوء ولم يبق شك في أنه يموت .

وكان المرض الآن قد بلغ غايته ، وكان المهدي واقفا على  
 صجيرته وحوله الخلفاء وقرايته وحده واد سليمان ومحمد واد  
 بشير ( أحد كبار موظفي بيت المال ووكيل بيت المهدي ) وثمان  
 واد أحمد والسيد المكي ( وهو شيخ من شيوخ الدين في  
 كردفان ) وبعض من كبار أنصاره الذين سمح لهم بالدخول في  
 غرفة مرضه .

وكان المهدي يثيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بأن آخرته  
 قد قربت قال للذين حوله : « ان الخليفة عباد الله هو الخليفة  
 الصادق ، وقد عينه النبي للخلافة بعني . فهو مني وأنا منه . وكما  
 أطعموني وأنقذتم أرواحي كذلك افعلوا معي » الله يرحمنا ، .

ثم جمع ما فيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة : « لا اله الا الله  
 محمد رسول الله » ووضع يديه متبوعتين على صدره وبه ساقيه  
 وأسلم روحه .

وقبل أن يبرد دمه أقسم أنصار المهدي بمنى الولاء للخليفة  
 عبد الله . وكان أول من بايعه سيد المكي ثم عقب ذلك الخليفتان  
 الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحفظ بوفاء  
 المهدي سرا لا يذاع بين الجمهور ولكن أمر الجميع بالا يبكوا أو  
 ينوحوا وطلب من الجميع مبايعة الخليفة . وكانت سقنا عائنة  
 أم المؤمنين الكبرى زوجات المهدي في غرفة وفاته قاعدة مختلفة في  
 إحدى الزوايا فلما مات خرجت من الغرفة لكي تغبر مائر النساء  
 بوفاء مولاها وزوجها ، وكان عليها أن تمزيق وتمنعهن من النوح  
 والندب . وكان مطمئن قد فرحن في قلوبهن بوفاء المهدي الذي  
 جلب الخراب على البلاد والذي دعا الله إلى حكمته العليا قبل أن  
 يتمتع بثمار انقصاره .

ولكن على الرغم من الأوامر المفاضسية تمتع النوح والنسب  
ارتفعت الأصوات في كل بيت وقيل أن المهدي مات باختياره لأنه  
كان في شوق شديد لرؤية الله .

وخرج بعض الموجودين في غرفة المهدي بفعل الجثة وفيها  
في لباس من الكتان وأخذ البعض في حفر حفرة عميقة في الغرفة  
التي مات فيها وبعد ساعتين وضعوا الجثة في الحفرة وبدوا فوقها  
بالطوب ثم طمروا الحفرة بالتراب وصبوا عليه ماء . ولما انتهوا من  
ذلك وقعوا أيديهم وتلوا عليه صلاة الموتى وخرجوا من الغرفة وهذا  
روح الجماهير المتعاطفة حول المنزل .

وكنا نحن الملازمين أوله من دعي إلى الخليفة الذي صار يسمى  
بعد ذلك خليفة المهدي لما قسمنا له يمين الولاء وأمرنا بأن ننقل منبر  
المهدي إلى مدخل المسجد وأن نخبر الجمهور بأنه سيخطبهم الآن  
فلما أخبرناه بذلك قد نقضنا أوامره خرج من غرفة المهدي وذهب إلى  
المسجد واعتلى المنبر لأول مرة باعتباره حاكما للبلاد .

وكان يتفرق من الهياج وهيراته تنحدر على يديه ثم قال  
بصوت عال :

« يا أصدقاء المهدي . إنه لا مرد لقضاء الله . لقد غادرتنا  
المهدي إلى الجنة حيث يجد ملائكة النعيم . وعلينا لمن أن نتبع  
تعاليمه وأن نتعاون وأن نتسائله كما يتسائل أبناء البيت . وهذا  
العالم فإن . فلا تعرفوا عن طريق فلهمي وافتحطوا بالقسطر  
الحسن الذي معكم من أنصاره وأتباعه . وأنتم أنصاره وأنا خليفته .  
فانقسموا الآن إلى يمين الولاء » .

ولما انتهى من هذه الخطبة القصيرة شرع الحاضرون في المباشرة  
وكانت بسيفتها « يا معنا الله ورسوله ومهدينا وبائسناك على توحيد  
الله الخ . . . » .

وكانت كل طائفة تبليغ تخرج وتأتي أخرى وكان المجمعون  
كثيرين حتى كانوا في خطر الموت من الزحام . واستمرت المباشرة  
إلى المساء . وكان الخليفة قد سكت عن البكاء واختار المرات  
الفرح ترسم على وجهه عندما رأى هذه الجماهير المديدة تزدحم  
لمباشرة .

وكان قد جهده التعب فنزل عن المنبر واحتجى جرعة ماء بعد  
أن جفده ريقه من تعب طول النهار . ولكن خاطر السلطة الجديدة  
والله الحاكم للقطر السوداني كان يؤسسه ويفسد من عزمه ولم يترك  
المنبر إلا بعد أن ألح عليه كبار أتباعه بذلك .

وكيل أن يترك المنبر طلب أمراء وجعلهم يقسمون بمن الولاء  
على حدة وأمرهم بلزوم طاعته وطاعة أخيه يعقوب ونصح لهم بأن  
يمشوا على وفاق بعضهم مع البعض لأنهم أغراب وذلك لكي  
يكتفوا دعائس أهل البلاد التي نزلوا فيها ثم حضنهم على لزوم  
تعاليم المهدي .

وكنا قد تأخرنا إلى ما بعد منتصف الليل فلم نذهب إلى اللعاب  
إلى منزلي وانطرحت على الأرض حيث أنا أسمع روايات الناس عن  
موت المهدي واستعدادهم لطاعة الخليفة .

والآن يمكننا أن نسلط : : باذا قلنا المهدي لأحياء الدين .  
وما هي تعاليمه ؟

لقد دعا الى الزهد وكان يجهد الملذات الدنيوية وفرور هذا العالم . وحسن النظام الانضامى ونظام الموظفين وموى بين الانبياء والفقراء واختار الجبة المرقعة لباسا عاما لجميع الناس . وضم المذاهب الاربعة المالكى والشافعى والحنفى والحنبلنى الى مذهب واحد ولم يكن اختلافها كبيرا فانه مقصور على كيفية الوضوء والصلاة وكيفية عقد الزواج وما الى ذلك . واختار يضع آيات من القرآن سماها الراتب وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صلاة الصبح وصلاة العصر .

وقد سهل على الناس عملية الوضوء ومنعهم من الشراب وكان السوداويون لا يقدرون زواجا بدون أن يشربوا . وأنزل قبة المهر الى عشرة دالات وثوبين للبكر وخمسة دالات وثوبين للشيب . ومن أعطى أكثر من ذلك كان يصادر في أملاكه . وقصرت وليمة العرس على طبق من اللبن وآخر من البلح . وكان يقصد تيسير الزواج وكان يحرم على الآباء والأوصياء زواج بناتهم . وعن بعد صفيات .

ومنع الرقص واللبس وكل من خالف ذلك يعاقب بالجلد وتصفى أملاكه . وكان السباب يعاقب عليه بحسب ثمانين جلدة لكل كلمة بدنية والحبس سبعة أيام . ومنع استعمال الخمر والمريسة وتفنيد التبغ ومن خالف هذه الأوامر يعاقب بالجلد والحبس ثمانية أيام ومصادرة أملاكه . وكان السارق يعاقب بقطع يده اليمنى فإذا عاد الى السرقة قطعت اليسرى .

ولما كانت عادة الرجال في عرب السودان ارمال شعورهم أمر المهدى بحلقها وكذلك أمر بمنع النوح على الموتى أو تدفيم ومنع الولائم التي تقام في المآتم ومن خالف ذلك تصفى أملاكه .



ولما كان المهدي يخشى فرار جنوده لعلهم بما يقاسونونه من المعيشة التي رتبها لهم ولعلمه بأن مذهبه قد لا يجد صديقا في نظر المسلمين الآخرين منع السودانيين من الحج إلى مكة ومنع المواصلات بين السودان والقطار المحيطة به .

وكان يعاقب كل من يصرح بالفساد في صحة مذهبه ويشهد عليه التان بقطع يده اليمنى وساقه اليسرى . وكان يستغنى أحيانا عن شهادة الشهود بما يدعيه من إهداء النبي له وأتباعه جنازة المتهم فور إراءته .

وكان أيضا يعرف أن معظم أوامره تخالف الدين فأمر لذلك بمنع الناس من دروس الفقه وعروج القرآن وقضى بأن تحرق هذه الكتب أو تلقى في ماء النيل .

هذه هي تعاليم المهدي ولم يترك حجرا إلا قلبه لكي ينفذ أوامره . وكان في الظاهر يبدو للناس أنه يحافظ كل المحافظة على لزوم تعاليمه ولكنه كان هو وخلفاؤه وقرايته إذا دخلوا منازلهم استسلموا للنهم في الطعام والشراب واللهو وخروب اللذات الشهوانية المنتشرة في السودان .



## الفصل العاشر عشر

### حكم الخليفة عبيد الله

لم يحدث شيء ذو أهمية في دارفور منذ ان غادرتها . فان خاله دوزريك كان قد رشح حكم المهدي في المديرية باجمعها وبمست الأبراء والجيوش لكي يتولى حكم المهدي في الأبراء . وقد تطاهر ضابطي القديم عمر وأد دارهو بالولاء للنظام الجديد ولكنه عند وفاة المهدي قام في ذهنه أن يستغل فساد له خاله حتى أوقع به وحمل إلى دارفور حيث قطع رأسه .

وكان أبو أنجه في كردوفان وكانت هذه المديرية قد خضعت كلها للمهدي ماعدا الجزء الجنوبي فيها وأرضه جبالية فاعتبر أهل هذا الجزء عبيدا لم ينفقوا الجزية وطلب منهم الهجرة إلى أم درمان .

ولما لم يجيبوا هذا الطالب دعى أبو أنجه إلى اخضاعهم وإلى احتلال بلادهم بجيشه واجباؤهم على تمويله وإرساله عند منهم عبيدا إلى المهدي . وتوكل أبو أنجه بعد أن فقد مقدارا كبيرا من الفخيرة وعددا عظيما من رجاله من القيام بجميع ما أمر به تقريبا . وكان السودان الغربي باستثناء هذا الجزء الصغير منه خاضعا لسلطة المهدي من حدود وادي النيل إلى الأبيض .

أما في السودان الشرقي فقد ثبتت منار وكسله ودافعت كل منهما المهديين ولما علمت الحكومة المصرية بالحالة الخطرة التي بات فيها الجنود في الحاميات الشرقية أرسلت لتي يوحنا ملك الحبشة تستنجد به لكي ينقل حاميات أقاليماته وجبره وسنهيته وكسله وينقلهم إلى مصوع . ولكن حاكم كسله صرح بأن الحامية مؤلفة من أولاد البلدة فهو لذلك لا يمكنه أن يجعلهم يركبون بليلتهم إلى مصوع .

وأرسل المهدي كلا من أندريس واد عبد الرحيم وحسين واد صحرا بالامداد لكي يجيلا بإسقاط المدينة . وفي هذه الأثناء كان الملك يوحنا قد أرسل حاميات سنهيت وجبره والقلابات وأرسلهم إلى مصوع وصار العرب القبيحون في الثالث بين سواكن وبربر وكسله من أتباع المهدي الخاضعين له . وكان عثمان دجته قد انتخب واليا على هذا القسم وأرسل محمد الخير إلى دنقله لكي يحتلها بعد خروج الانجليز منها .

هذه أذن هي حالة السودان عند تولي الخليفة . ومن هنا نفهم السبب الذي دعاه إلى أن يمت القبائل العربية الغربية على الاتحاد لأنهم أغراب في البلاد التي يحتلوها . فإنه كان يعرف أن « أولاد البلدة » من برايرة وجالين وسكان الجزيرة لا يستمرئون تقوم هؤلاء العرب الغربيين الذين يختلفون عنهم في الأفكار والأخلاق إلى يلاهم .

وكان أول ما عمله الخليفة أنه فصل حمد واد سليمان من منصب مدير بيت المال وعين بدلا منه إبراهيم واد عدلان وكان من عرب الكواحلة على النيل الأزرق ولكنه أمضى عدة سنوات يشتغل بالتجارة في كردوفان وكانت له حظوة عند الخليفة .

وطلب من عدلان أن يجعل حسابا للوارد والمتصرف وأن يكون لهذا الحساب دفاتر تمكن مراجعتها في أي وقت وتعرف منها الحالة المالية . وأمره أيضا بأن يضع قائمة عن جميع أولئك الذين يتسلمون أي مبلغ من المال والذين يقبضون مرتبا .

وعند وفاة المهدي جاءت الأخبار بأن الفارة على مدار قدم فتمتعت وأن عبد الكريم قد صعد منها فأرسل الخليفة عبد الرحمن التجومى لى يتولى القيادة وذلك في سنة ١٨٨٥ فسلبت الحاجة لهذا القائد القوى . وحدثت الفطائح المتحدة بعد سقوط المدينة فان عددا من أهالي سنار أرسلوا الى الخليفة وكان بينهم بنات الموظفين الجميلات فاحتفظ الخليفة بأجملهن ووزع الباقي على الأمراء .

وشرع الخليفة في تأييد سيادته . وكان يعرف أن عبد الكريم مزاحم قوى فاستدعاه الى الحضور الى لم درمان بجميع جيوشه لم دبر له هو والخليفة على واد حاو مكيدة بحيث سلم عبد الكريم جميع ذخيرته وجنوده وكذلك سلم الخليفة شريف جميع جنوده السود لأخيه يعقوب وأصبح كل منهما مقام الظفر لا خطر منه .

وبينما كانت هذه الأخبار تسير في العاصمة وصلت الأخبار بأن كسله سقطت وأن عثمان دجنه يقاتل الأحباش الذين يقودهم الرأس الوله . وقد انتصر الأحباش على عثمان دجنه واضطروه الى الاتجاه الى كسله ولكنهم اكتفوا بذلك ورجعوا الى بلادهم .

واتهم عثمان دجنه حاكم كسله السابق أحمد بك غت بأنه فاض الأحباش وحرضهم على مقاتلته . ولم يكن هناك أقل ما يشبه هذه التهمة ومع هذا فقد قبض على ستة موظفين في كسله وشنت أيديهم خلف ظهورهم وضربوا بالرمصاص كأنهم مجرمون .

وكان الخليفة عبد الله يعرف أن جوهره على سائر الخلفاء  
سينير غضب قرابة المهدي الذين كانت علاقته بهم سيئة ولكنه لم  
ييال بذلك . فقد عقد عزمه على أن ينفذ أغراضه ولو احتاج في  
ذلك إلى استحصال المنق وقد كان مع ذلك يخشى الرأي العام ويعرف  
أن الأهل كانوا يحبون المهدي وأنهم يطفون على قرابته فلم يكن  
يظهر بمظهر العداء لهم . بل سار في طريق مرضاة الجمهور إلى  
أن أهدى إلى الخليفة شريف طائفة من الصيد وبعض الخيول العتيقة  
والثغال الفارحة ووصى أتباعه أيضا عددا من الصيد . وقد أجهده  
في أن يجعل هذه الهبات والانعيمات علنية حتى يعرفها جميع الناس  
وقد نال وطره فان الناس حموا له فيله وامتنحوا سخاء في  
قصائد كانوا يثمنون بها .

وكان واضحا أمام الخليفة أن ترك البلاد البعيدة في أيدي  
قرابة المهدي مما يعود بالخطر على حكمه ، ولذلك لم يتوان في إرسال  
قرابته هو إلى دارفور وكردوفان لكي يأوا الحكومة .

وقد طلبني الأمير يونس الكبير لكي أرافقه إلى سنار ولكني  
قبل أن أعادو أم درمان قال لي الخليفة : « اني أحثك على أن تغضني  
خسمة صادقة . فاني أنظر إليك نظرة الأب إلى ابنه وقلبي يطف  
عليك . والله يمد المؤمنين بالمكافأة كما أن غضبه ينزل على الخونة .  
ويونس يحبك ويرجو لك الخير وسيسمح لتصالحك وإذا شرع في  
عمل يعود عليه بالأذى فيجب أن تحذره منه وقد أخبرتني بأنني اعتبرك  
أحد أولادي وسيستشيرني في كل ما يعمل » .

فقلت : « سأعمل بما تأمرني . ولكن يونس رئيسي فهو لذلك  
سيستبد برأيه . فأرجو ألا تنسب إلى عملا لا يكون وفق هواك  
وتجملني مسئولا عنه » .

فقال : « ان لك ان تفسر ولكن ليس لك ان تعمل . فلذا كان عمله وفق مشورتك والا فهو المستوف » .

ثم تحول الحديث الى مسائل دارفور وجهات أخرى من السودان .

واستمر الحديث مدة ولكنني حين أوشكت ان أقم بالقيام هتف الخليفة بأحد الخصيان وحس في أذنه كلمة . وكنت أعرف مولاي معرفة جيدة وأعرف ان اشاراته نذير شؤم .

وقال لي : « لقد اشرت عليك بان تترك أهلك لأنهم قد جاؤا بعد سفر شاق فهم في حاجة الى الراحة . وسيمطيك يونس خادما وهناك أعطيك زوجة حتى اذا مرضت وجئت من يعنى بك » ثم تبسم وقال : « وهي جميلة وليست مثل تلك التي قلها لك بعد واد صليمان » .

ثم أشار الى المرأة التي دخلت فرغت ثيابها ونظرت اليها فإذا بها جميلة على الرغم من مسرتها .

ثم قال الخليفة : « هذه زوجتي وهي طيبة صبور . وعندي كثير من النساء ، ولذلك أنا أعتقها فيمكنك ان تأخذها » .

فارتبكت وكنت طول الوقت أفكر في طريقة أرفض بها مثل هذه الهدية . بدون ان أخضب الخليفة . فقلت : « اسمح لي يا مولاي بالكلام » .

فقال : « لا تخش شيئا . قل ما تريد » .

قلت : « هذه المرأة كانت يا مولاي زوجتك وأنت مبيدتي وأنا  
خادمك فكيف يجوز لي أن آخذ زوجتك ؟ ثم أنك تقول يا مولاي  
أنك تنظر إلى كائناتك » . ثم انقضت الطرف وقلت وأنا أنظر إلى  
الأرض : « لا يمكنني أن أقبل هذه الهدية » .

فقال وهو يشير إلى المرأة بأن تعقب : « لقد قلت حقا وأنا  
أوافقك » .

ثم هتف بالخصي قائلا : « يا الماسي . احضر جيتي البيضاء »  
ودعها وأحضرها فسلمها لي وهو يقول : « خذ هذه الجبة التي  
لبستها أنا مرارا والتي باركها المهدى . وسيخبطك ألوف الناس  
عليها فاحرص عليها لأنها تأتيك بالبركات » .

فابتهجت بهذه الهدية وقبلت يديه وأنا مرتاح إلى تغلبي من  
تلك المرأة التي ما كانت سوى حجر عثرة ونقطة لا أحملها ووجئت  
في الجبة بدلا طيبا منها . ثم استأذنت في الخروج وأخذت حديتي  
القائية بي .

وعين يونس يوم السفر ولكن قبل السفر طلبتني الخليفة وحسني  
على الصديق في الخدمة والأمانة أمام يونس .

وفي المساء برحنا أم درمان في الباخرة « بردين » وفي اليوم  
الثالث بلغنا شاطئ النيل الأزرق وترامت لنا سماء على بعد .

وقد اخترنا مكانا لخيامنا قطعة مستطيلة من الرمل شمال  
وادي العباس لأن الأرض التي حولها منخفضة لا توافق الإقامة مدة  
فصل الأمطار . ولم يكن رأيي يشكر الآن بشيء سوى الفرار . ولكن



لما كان جميع الاهالي واضحين عن الخليفة فاني كنت في حاجة الى ان احذر لشدة الحذر في اتخاذ واحد اثنى به . ولم يمض على طويل زمن في وادي العباس حتى جاءني خطاب من الخليفة يقول فيه انه جاءته اخبار بان زوجتي قد وصلت الى كروميسكو وانها تراب الترتيبات اللازمة لفراوى ثم ضمنى على ان اترك هذه الافكار والزم الايمان . وتسلم يونس ايضا خطايا جاء فيه هذا المعنى ثم تطل بانه يريد ان يوقف الخليفة على الاحوال في مستار وامرتني بالسفر الى ام درمان . وعلى ذلك ذهبت تدبيراتي للفراو ضياعا ورايت نفسي بعد ايام في حضرة مولاي الخليفة .

وبدا الخليفة الكلام عن الخطاب الذي جاء من بربر فاكنت له بانه اذا كان هذا الخطاب قد وصل بالفعل فانه لم يكتب الا بقية الاذى في والا فقله يكون هناك خطأ وبرهاني على ذلك اني لم اتزوج قط . فليس لي زوجة تصبو الي لقاتي . اما اذا جاء احد الى ام درمان واراد اغرائي بالهرب فاني لن اتأخر عن ابلاغ امره للخليفة .

فاكد لي الخليفة بانه لم يصدق هذه الاشاعة ثم مداني هل احب البقاء معه او مع يونس وكنت اعرف قصده من هذا السؤال فقلت اني لا اعدل بالبقاء معه شيئا . وابتهج من تملي لي ولكنه قال بصوت جدي انه يذكرني بالولاء والامانة والا احللت احدا خلاف اهل داره . ثم لعربي بلزوم مكاني كما كنت سابقا على باب الدار .

وعند خروجي لم أشك في ان شبهات قد تاصلت في قلبي وانها ابتدأت في النمو .

وكانت قوة الأبيض تحوى في هذا الوقت على مائتين من الجنود السود وقد زاد عددهم بما انضم اليهم من جنود داره السود

ايضا . وكان كثيرون منهم يقطعون جبل دبرو وهم على عداوة دائمة مع المهدي . وكان الدراويش قد أسروا بعضا منهم واستمروهم في بناء أكواخهم واستميدوهم .

واغتاط هؤلاء الجنود من هذه المعاملة وعزموا على أن ينالوا حريتهم . وكان الأمير سيد محمود غانبا لحسن حظهم في أم درمان وتمكن المتمردون من الاستيلاء على الترساة . فاختدوا منها السلاح ثم اقتتلوا مع سائر الجنود وخرجوا إلى جبل النوبة .

وباعت هذه الأخبار السيد محمود في أم درمان فسأل في الحال إلى الأبيض وتولى قيادة الجند وسار إلى جبل النوبة وحاول أن يهزمهم ولكنه فشل في ذلك وقتل هو وعدد كبير من الجند .

ولم يكن الخليفة يجهل تزايد قوة خاله ( زوجال ) واستقلاله في دارفور . وكان يعرف أنه لقرابته من المهدي يعطف على الخليفة شريف فتعلم بأنه يرغب في أن يتوسط خاله بينه وبين الخليفة شريف في إيجاد الصلح والوفاق ودعاء لذلك إلى الحضور إلى أم درمان مع جميع جنوده .

ولكن عندما وصل خاله إلى بابه وجد نفسه فجأة محروبا بانباع أبو اتجه وكان الخليفة قد أمرهم بأن يأخذوا جنود خاله ويضموهم إلى جيشهم ويلهبوا جميعا إلى جبل النوبة كاتلة المتمردين . ولم يكن بد من أن ينضج خاله بعد أن وقع في هذا الشرك فقيه بالسلاسل وأرسل إلى أم درمان ثم صودر في أملاكه وبقي سجيناً عدة أشهر ولكن على عنه بعد ذلك وعين بدلا منه عثمان واد آدم ابن عم الخليفة .

ونجح أبو البجة في هزيمة المتمردين وقتل جميع الزعماء وجعل  
معظم الجنود المتمردين عبيدا .

وعلمت من تاجر قسم الينا . من كردوغان في ذلك الوقت ان  
صديقي يوسف أوهر ولدر قد غادر الأبيض وأنه سيصل قريبا الى  
أم درمان ، ومع علمي بأنى ساجد أكبر مضافة في لقائه فقد فرحت  
بأن أحد بني وطني سيكون قريبا عنى . وكنت طول الوقت على  
باب مولاي الخليفة أفند أوامره . وكان يخاطبني أسيانا بلهجة  
الرافة ويدعوني الى الطعام فاكل معه . وفي أحبان أخرى كان  
ينسأني نسبانا تاما أو ينظر الى نظرة الحقد والظضب بلا مناسبة  
استطيع فهمها . ولكنى صرت أنسب هذه الأحوال الى مزاجه  
الشخصى وصرت أسوم نفسى على الرضا .

وكنت لا أبدي أقل اكتراث لما يحدث في البلاد من الحوادث  
وذلك حتى لا يجنوا سببا في زيادة شبهات الخليفة الذى كان على  
الدوام يتوجس عنى شرا ويسأل عن مسئكى ولكن الطبقة التى كنت  
أرقب الحوادث بعين الاهتمام بمقدار ما يسمح لى مركزى وكنت  
أحاول أن أنقشها في ذهنى حتى لا أنساها لأنه لم يكن يسمح لى  
بكتابة شيء . وكان الخليفة يقتر على فى مؤونة بيتى ولما كان  
يأذن بأعطائى بعض الارادب من الملة أو منحنى بقرة أو شاة .

وكنت أعرف إبراهيم عدلان مدة الحكومة السابقة فكان يرسل  
لى كل شهر مبلغا يتراوح بين العشرة والعشرين ريالاً وكان يعطى  
الموظفين والتجار يساعدهونى أيضا بالمال من وقت لآخر . وعلى  
ذلك يمكننى أن أقول ان حالى وان لم تكن فى يصر الا أنى لم أشعر  
بالحاجة الى ضروريات المعيشة أو كنت أشعر بها قليلا من وقت لآخر  
فقط . وعلى كل كانت حالتى تفضل حال صديقى لبتون الذى

وعنه الخليفة بمساعدته ولكنه لم يف بوعده . وكان لبتون يتمتع بشيء من الحرية يجوز أينما شاء في أم درمان ويحادث الناس ولم يكن مضطرا إلى حضور الصلوات الخمس في المسجد . ولكن حياته كانت مع ذلك ملوثة بالمتاعب والأحزان . وقد رجوت عدلان أن يساعدني ويصطيه شيئا من المال ولكن هذا لم يكله . وكان لبتون يجهل التجارة ولكن الحاجة اضطرته إلى أن يربح شيئا بإصلاح البنادق الفاسدة . ولا كنت أعرف أنه كان مستغلما في السفن الانجليزية قديما خطر في بالي أنه ربما يعرف شيئا عن الآلات .

والتقيت به في أحد الأيام في المسجد فشكا إلى سوء حاله شكاية حرة فاقترحت عليه أن أبحث له عن وظيفة في البواخر يستعين بها على الصيغ فطرب لقتري ووعده بأنني سأعمل جهدي لكي أحقق له ذلك .

وبعد أيام بينما كان الخليفة في مزاج حوافق ينظر إلى بعين الرضا لأن أبا البجة أرسل إليه جوادا عتيقا وبعض المال وعندما من هيب خالده فعدت لتناول الطعام معه وذكرت له حال البواخر وأنها يخشى عليها من التلف لأنه ليس فيها من يفهم آلاتها وكيفية إصلاحها ما يفسد منها فقال لي أنه لا يعرف شيئا عنها مطلقا وأنه في حيرة ماذا يفعل لصيانتها لأنها ضرورية . فاقترحت عليه في الحال بأنه يمكن أن نستخيم لبتون فيها لصيانتها وإصلاحها وقلت له إن لبتون كان مهندسا في إحدى البواخر الانجليزية . فوافقتي الخليفة على اقتراحي وأمرني بالبحث عنه .

وفي اليوم التالي بحثت عن لبتون ودعوته للظهور . فحضر وأخبرته بما قاله الخليفة ولكنني نصحت له ألا يصل شيئا مفيدا للبواخر التي يملكها أعداؤنا . فاكذ لي لبتون بأن معرفته بالآلات

مطبعة جدا وانها مستسوة بأذنيه وان الحظ السليم هو الذي  
سيجبره على قبول هذه الوظيفة . وخطيب الخليفة عدلان في هذا  
الزمان . وفي المساء أرسل الى ليتون يقول انه قد تم في هذه  
الوظيفة براتب قدره أربعون ريالاً في الشهر وفي هذا المبلغ كفاف  
الحيشة .

واصبح في ذلك الوقت في أم درمان أن الأحياء سيغيرون  
على القلايات . وقيل أيضاً أن من يدعى الحاج علي واد سالم من  
الكواحلة كان يقيم في القلايات . وقد تم أميراً على قبيلته وكان  
يسمح في تخوم الحبشة فأغار على جبلة وحسم كنيستها .

وكان من يدعى صالح شنجة وهو رجل تكروزي كان يقيم قبلاً  
في القلايات فاما أخلاها الجنود المصريون ذهب وأقام في الحبشة  
ولكن ابن عمه أحمد واد أرباب عتي أميراً في ذلك القسم .

وكان حاكم ( أمهرة ) في الحبشة الرأس عدل طالب قلمن  
« أرباب » أن يسلم له الحاج علي الذي أغار على جبلة . فرفض  
طلبه فجمع جيشاً وأغار به على القلايات .

وكان « أرباب » قد علم بنية الرأس عدل على الهجوم فجمع  
جيشاً يبلغ ستة آلاف ووقف ينتظره خارج المدينة . ولكن هجوم  
الأحياء الذين كان يزيد عددهم على عدد السودانيين بمشقة الصعاب  
كان عتيماً فاحتلوا بالدرأويش وذبحوهم وقتل « أرباب » ولم ينج  
إلا عدد قليل جداً . وقطع الأحياء أجسام القتلى ومثلوا بهم ما عدا  
جسم « أرباب » فانهم استثنوه احتراماً لصالح شنجه .

وكان الدراويش قد خزنوا بارودهم في منزل واكلوا حراسته  
لمصرى . فلما طالب الأحياء هذا المصري بتسليم البارود أبى وأهمل

البارود فأنفجر وقتله هو ومن حوله من الأحباش . أما القلايات  
فلقبها أحرقها الأحباش وسووها بالأرض بحيث صارت خرابا  
لا يعيش فيها سوى الضباع .

ولا بلغ الخليفة خبر اصطلام جيش واد أرياب أرسل خطابه  
إلى الملك يوحنا يعرض عليه اقتداء الأسرى ببلخ يبرئه هو بنفسه .  
ولكنه في الوقت نفسه أمر يونس بأن يقوم بجيشه إلى القلايات  
ويستقر أوامر هناك .

وعندما غادر يونس الخرطوم بجيشه عبر الخليفة النهر إلى  
الخرطوم وشيخه ثم عاد إلى أم درمان .

حدث أن « كلونز » اختفى فجأة من أم درمان وكان هذا على  
أثر فاشله في الحصول على ما يعيش به ، وظننت أنه قد فر ووجد  
ولكنه علمت من بعض التجار الواردين من الضارفة أنه وصل إلى  
هذه البلدة وقد باع به الأعيال حتى مات قبل هجوم الأحباش .

## الفصل الثاني عشر

### بعض الحوادث الأخرى

كان الأمير كرم الله فيه تولى الحكم على بحر الفزال بعد لبثون  
ونصّب إلى شقة وأقام فيها . ولكن صديقى القديم المادبو كان يحكم  
على الجهة فاصطدم الاثنان وتنازعا السلطة .

وانتهى النزاع بالهتجار وفر المادبو بعد مقاومة غير مقيمة  
لقبض عليه وأرسل إلى أبى أنجه وكان يحقد عليه لعلة سابقة .  
وذلك أن المادبو أمره أحد الأيام غنلما كان يقاتل فى صف سليمان  
زبير . وكلفه حمل صندوق كبير من النخيرة فلما شكّا إليه أبو أنجه  
جلده . ولما أحضر المادبو حاول أن يدافع عن نفسه بقوله أنه  
لم يقاتل المهدي وإنما كان يقاتل كرم الله . ولكن ما غائلة الدفاع  
فى هذه الأوقات ؟

وعرف المادبو أن الدفاع لا غائلة فيه فاستسلم للضداء الله  
وقال : « ان الله هو الذى يقتلنى . وأنا لا أسأل الرحمة وإنما  
أطلب العذل » ولكن كبير على عبد مثلك أن يكون شريفا . وما هى  
ذى آكار سوطى على ظهرك لم تزل واضحة . ومهما جأنى الموت  
فانه سيحببنى رجلا هادئا مطمئنا لقبوله . فأتانا المادبو والقبائل  
تعرّفنى »

وأمر أبو العجوة برده إلى السجن ولكنه لم يجعله على اليوم  
 التالي قتله أمام جيشه وبر المادبو بوجهه فانه وقف في الساحة  
 المسيحية الممتدة لقتله والسلاسل حول عنقه وكان يضطج في وجه  
 الجنود الذين كانوا يركضون الخيول ويلوحون بالرماح في وجهه .  
 ولما أمر بالركوع لكي يقتل صاح في الناس أن يشهدوا عليه كيف  
 مات وتحمل الموت بشجاعة . وبعد لحظة انتهى كل شيء . وهكذا  
 ختمت حياة المادبو وكان من أقدار شيوخ العرب في السودان .

ولما أحضر رأسه إلى أم درمان حزن عليه جنود الرزيقات الذين  
 كانوا قد هاجروا إلى أم درمان . حتى الخليفة نفسه أسف على  
 قتله . ولكن لما كان كل شيء قد انتهى لم يكن ثم مجال لأن يلوم  
 أكبر امراته على شيء غلت . ولكنه أخبرني أنه لو عاش لكان فيه  
 منفعة كبيرة .

وكان يونس قد غادر أبا حرز إلى الضمارف والقلابات حيث  
 أقام وكانت سلطته واسعة . وحدث أنه طلب من الخليفة أن يأذن  
 له في الإغارة على الحبشة ولم يكن الخليفة قد تسلم الجواب من  
 الملك يوحنا على خطابه فاذن له . فأنفذ جيوش يونس في الإغارة  
 على القرى المتاخمة . وكان يقودها هرايبي ضيف الله فكان يقتل  
 الرجال ويسبي النساء والأولاد وكانت هذه الجيوش سريعة  
 الحركة كثيرة الإغارة حتى لقد سارت مرة عشرين ميلا في داخل  
 البلاد تنهب وتقتل وتفتك . ولكن يونس كان في القلابات وعلاقته  
 بالاحباش على ما يرام يتاجر معهم قياتونه بالبئ والعسل والقصع  
 والطماطم وريش النعام والخيول والبغال والبييد وحدث مرة أن  
 جاءت قافلة كبيرة من الجبارة ( وهم من مسلمي الاحباش ) وعن  
 المكاهه ومعهم متاجر عظيمة فلم يفر يونس على كبح أطماعه فادعى  
 أنهم جواسيس أرسلهم الرأس عدل والبش عليهم وأخذ منهم



واستحسن الخليفة عمله حتى سباه « غفريت المشركين » و « صمدار الدين » .

وكان يونس قد أرسل اليه جميع الفتيات الجميلات اللاتي صبين في الغارات كما أنه أرسل اليه عددا من الخيول والبغال . وطمع الخليفة في التوسع وكان أيضا مفتاها من الملك يوحنا لأنه لم يجيب على خطابه فعزم على أن يضم جيش يونس إلى جيش أبي أنجه ويفير بهما على الجعنة . وطلب من يونس أن يبقى بجيشه ويتخذ خطة الدفاع إلى أن تأتيه أوامره .

وإرسالت الأوامر إلى أبي أنجه لكي يرسل ١٥٠٠ من جنوده المسلمين بيتادق بمنجوتون إلى عثمان واد آدم الذي عين أميرا لكردوفان ودارفور . وطلب منه أن يطر هو بنفسه مع سائر جيشه إلى أم درمان .

وقبل هذه الحوادث بمدة قليلة كانت قبيلة الكبايغي التي تقيم بين كردوفان ودنقلة قد ظهر منها شيء من العصيان . فأرسلت اليهم تجريدة نجحت في اخضاعهم وغنمت عنهم مقادير كبيرة من الماشية والمبيد . ولجأ شيخ القبيلة الشيخ صالح إلى أم بدر وهي بقعة بعيدة ومعه عند قليل من أتباعه .

وأرسل الشيخ صالح إلى وادي حلفا يستعجد بالحكومة المصرية فسلمت لوكيله مائتي بنديقة وأربعين صندوقا من الذخيرة ومائتي جليه وبعض المستحبات الملبسة بالملحن .

وكان في أسوان في ذلك الوقت قاهر الماني يدعى شارو نيوفلد وكان يعرف ضيف الله أجبل شقيق إلياس باشا الذي فر

حديثاً من السودان . وعلم منه ان في كردوفان مقادير كبيرة من الصمغ لم يستطع التجار اصدارها بالنسبة للنوبة وانه يمكن بمعاونة الشيخ صالح ان تنقل الى وادي حلفا . فاغراء الطمع في المال ان ينهب بنفسه الى الشيخ صالح . ويظهر انه لم يجد صعوبة كبيرة في الحصول على اذن بالسفر الى السودان بعد ان وعد بكتابة تقرير عن الحالة في السودان . وفي اوائل ابريل ١٨٨٧ غادر وادي حلفا قاصداً الشيخ صالح .

وكان النجومي عارفاً بقيام القافلة فوضع اناساً على الطرق لكي يخبروه بالطريق التي تسلكها القافلة . ومما زاد الطين بلة ان الدليل ضل في الطريق فقامت القافلة عذاباً كبيراً من العطش . ولا وصاوا الى ابناء الكلاب وجعلوا بضعة دراويش في انتظارهم فنشب قتال اتوزم فيه رجال صالح لما كان بهم من الاعياء والمطش وأسر بعضهم . وكان بين الأسرى تيوفلد . وفي بدء القتال عزم تيوفلد على الا يبيع حياته رخيصة لانه اتخذ مكاناً وراء القافلة وكانت معه خادمة حبشية . ولكن القتال لم يبلغ اليه .

وعنه انتهاء القتال عرض عليه الدراويش ان يصفوا عنه اذا سلم نفسه فرضى وأخذ الى النجومي في دقله مع سائر الأسرى . وقتل النجومي جميع الأسرى ماعداً تيوفلد لانه حنّ دمه لكي يرسله الى أم دوخان .

وكنّت قد سمعت أن لسييرا أوريبيا سيرسل الى أم دوخان . وفي أحد الأيام في شهر مايو رأيت جمهوراً يسير نحو دار الخليفة وفي وسطه رجل أوريبى قد ركب جلاً . وكان المشاع على السنة الناس أنه الباشا حاكم وادي حلفا . وكان بين المسجد وبين دار الخليفة بناء يسمى رقوبة يجلس فيه الملازمون والى هذا البناء أدخل السنا تيوفلد .

فلما رأيته صمت لاني كنت اعرف اخلاق الخليفة وجواسيسه  
وتظاهرت بالمجانة. لا أكثرث لما يجري أمامي .

ولما سمع الخليفة بوصول ليوفلد بعث في طلب الخليفتين  
والفاضلين طاهر الجلوب والأمير بتيت ونور انجره الذي كان قد  
وصل حديثا من كردوفان حيث كان يحارب مع أبي انجره ، وأرسل  
أيضا في طلب يعقوب أخيه . وعندما دخلوا حسنت في أذن نور  
انجره قائلا : « افعل جهنك لكي ينجو الرجل » .

وطلبني الخليفة وأمرني بأن أجلس مع المجمعين معه . ثم  
أخبرنا بأن الرجل جاموس الجليزي وطلب من الشيخ طاهر الجلوب  
أن يستجوبه . وطلبت أنا في الحال أن يؤذن لي بأن أخاطبه  
بلغة أوردوية فاذن لي وذهبت أنا وطاهر الى الرقوبة حيث كان  
ليوفلد .

ولما ذكر اسمي قام ليوفلد وصافحني وهو فرح . فقبلته الى  
وجوب مخاطبته الشيخ طاهر الذي وكلت اليه محاكمته وأنه يجب  
عليه الخضوع كل الخضوع لما يقال له . وكان يجيد التكلم بالعربية  
وأحدث استمعاذه للكلام الرا سينا في نفوس سامعيه فطلبوا أن  
يرسل الى الخليفة وكان حكمهم أنه جاموس يجب أن يقتل .  
ولما صرنا جميعا في حضرة الخليفة قال لي : « وما رأيك أنت  
فيه ؟ » .

فقلت : « كل ما أعرفه أنه ألامني أي أنه ينتسب لأمة لا تعتم  
بمصر » .

وسلم الى الخليفة أوداكا وطلب مني قراءتها ورايت في عينيه  
أنه يحلق النظر في لكي يعرف هيمري .

فوجدتها تحوى على كشف ادوية مكتوب باللغة الألمانية .  
وخطاب بالانجليزية الى نيوفلد فيه اخبار عن الحالة بالسودان .  
كذلك خطاب طويل من الجنرال « استيفنسن » ينبئ فيه بأنه منحه  
الاذن بدخول السودان مع القافلة القادمة . وفي الوقت نفسه يطلب  
معرفة اخبار وافية عن الحالة عموما .

ترجمت هذا الخطاب للخليفة غير أنى تكتمت ما طلبه الجنرال  
من معرفة الاخبار فقلت له أن ما يطلبه هذا الرجل هو السماح له  
فى دخول البلاد وهو يشتغل فى التجارة كما أخبر الشيخ طاهر .  
وقد رأيت الخليفة فى تلك اللحظة يحقق النظر بى ا ثم أمرنا  
بالانصراف انتظارا لأوامره خارج البلاد .

وقد اجتمع فى ذلك الأوان عند البناء المسمى « الرقوبة » آلاف  
الناس بقصد رؤية الباشا الانجليزى . وما هى الا عتية حتى جاء  
بعض الضباط السود وأوقفوا يدى نيوفلد وأمروه بمشاهدة  
الرقوبة . فقلت أنا والقاضى « نور أنجره » على كومة من الأحجار  
ترقب ما سيحدث .

وفى تلك اللحظة التى ظنها نيوفلد آخر حياته حقق بنظره  
الى السماء ثم خر ساجدا دون أن يطلب اليه ذلك . فلمره بالتهوؤس  
ومن ثم تقدم رجل يحمل أرغونا وابتنا يعزف أنشاما مطربة فوق  
رأس نيوفلد . ولقد دهشت لما رأيت أن ذلك لم يريك قط واندهشت  
خادمته الحبشية بدائع الاخلاص لسيدها طالبة أن تقتل معه ولكنها  
أعيدت الى الرقوبة فى الحال . وقد تبقنت حينئذ أنا والقاضى  
بأن الخليفة يداعب نيوفلد كما يداعب القط الفار وإن الحكم  
بإعدامه لم يصدر بعد فحاولت أن أخبر اليه ولكنه يظهر أنه لم ينتبه  
الى اشارتى .

ثم عدنا بعد ذلك في حضرة الخليفة فبادر الشيخ طاهر بقوله  
 « حل ألقم تصرون على اعدام هذا الرجل ؟ » ثم التفت الى نور  
 أنجبره وقال له ما رأيك وأنت الذي طلبت المغفر عن نيولند وقلت  
 أنه شجاع ثم التفت الى وقال « ما رأيك أنت يا عبد القادر ؟ »  
 فقلت يا مولاي ان الرجل يستحق القتل ولو كان هناك أي حاكم  
 غيرك ما تأخر عن قتله . ولكن علو نفس مولاي الخليفة ورحمته  
 لا شك بأنهما سيضملايه خصوصا أنه اعتنق الدين الاسلامي وان  
 رسة الخليفة به لا محالة ستقوم عقيدته . وقد عفا عنه القاضي  
 أحد من قبل كما أن الخليفة لم يكن في عزمه فما أن يقتله كما  
 ظهر لي .

وحينئذ أمر الخليفة بإعادة نيولند الى الرقوبة بعد أن نكت  
 إغلاله الا أنه أصدر الأمر بأن يعرض على أنظار الجمهور ثم أن  
 يسجن بعد ذلك حتى صدور أوامر أخرى ثم التفت الخليفة الى  
 وأمرني بالألا أخلط مع نيولند بعد الآن . فانسحبنا جميعا ولكني  
 لم أعلم الفرصة لأبلغ نيولند بما قضاء الخليفة من أنه سيعرض  
 على أنظار الجمهور . وبعد ذلك نفذ الأمر وعرض على الأنظار .

وفي اليوم التالي استدعاني الخليفة وأبلغني أن التجسوس  
 يقول ان نيولند أغرى بواسطة الحكومة ليتصل بالشيخ صالح  
 الكباشي ويساعده على محاربة المهديين . فأوضحت للخليفة علم  
 صحة هذه الرواية إذ أن أوداق تيولند صحيحة مستوفاة وأن  
 الحكومة على أي الحالات لا يمكن أن تعهد اليه بعمل كهذا . وقد  
 تبادر الى ذهني في أول الأمر أنه صدق قولي في هذا الصدد .  
 ولكني تيقنت من الضد بما أظهره لي من الاحتقار وعدم الثقة منه  
 من الزمن .

وبعد أيام قليلة عقد الخليفة استعراضا كبيرا أخذ إليه يوفند  
مكبلا بالحديد وراكبا جملا . ولما التقى بالخليفة سأله عن آرائه  
فيما يختص بكتائبه فأجابته بأنها بالرغم من وفرة عددها لا تزال  
الجيش المصرية أحسن نظاما منها وتشرييا . وعند ذلك أمر الخليفة  
برحته إلى « الرقوبة » سجيناً .

ورغبة في الانتقام من الشيخ صالح الذي لم يقدم ولاءه للخليفة  
أرسلت إليه حملة قضت على حياته وقرقت رجاله وبهذا قضى على  
حياته آخر شيخ مخلص للحكومة المصرية .

وفي أواخر يوليو وصل « أبو النجدة » إلى أم درمان مصحوبا  
بعوة تتألف بعشرين ألف رجل . وبعد أسابيع قليلة أوصل جزءا من  
هذه القوة تحت قيادة « زكي طومال » لاختضاع « أبو روف » شيخ  
قبيلة جهينة الذي لم يلب نداء الخليفة ويذهب إلى أم درمان .  
فدعى زكي طومال معظم رجال تلك القبيلة وأرسل كثيرا من السبايا  
وأمرى الأطفال هدايا للخليفة وأحضر الباقى بعد ذلك إلى أم درمان  
حيث استغلوا في نقل الماء وعمل الحصر . وبيعت قطعانهم بأبخس  
الأكمان في الأسواق فيبيع الشور أو الجمل الذي قيمته ٤٠ أو ٦٠  
ونالا بريالين أو ثلاثة .

وعلى أبو النجدة الأوامر لكي يوالى السيد من أم درمان إلى  
الغلابات بعد تفتيت شمل قبيلة جهينة . وظل هناك قيادة  
الجيش . فعند وصوله جمع القوات المرابطة في المراكز الجنوبية  
عند أبي حرد وأخذ ينظمها ويعد العدة للأخذ بشار ( واد أرباب )  
من الأحباش واجتمعت تحت امرته أكبر قوة جمعت من عهد الخليفة  
عبد الله إذ كان مجروح ما تحت قيادته ٤٥ ألفا من حلفى الرماح  
و ٨٠٠ من النبال و ٥٠ ألف بندقية فغادر الغلابات بهذه القوة

مختاراً من ( منتك ) قاصداً ( رأس أوال ) ولست أعلم حتى هذه اللحظة لماذا لم يهاجم الأحياش أعدائهم أثناء اختراقهم هذه الممرات الضيقة والوديان السحيقة التي كان يتمتعون عليها فيها استئصال نيران بنادقهم فإذا لم يتمكنوا من صد أعدائهم فأنهم على الأقل يستطيعون أن يلحقوا بالدرلويش خسائر تذكر . وكل ما أمكنتي أدراكه هو أن الأحياش ربما تأكلوا من فروعهم النهائي وعملوا على جرحهم بعيداً داخل المملكة حتى يقطعوا عليهم خط رجعتهم وبذلك يبيدونهم عن آخرهم . فابتدأ القتال على سهل « دبراش » وكان تحت قيادة الرأس « عدل » الفان من المحاربين واتخذ له موقعا يهدد به جناح أبو أنجه الشمالي ولكن أبو أنجه كان لديه من الوقت ما يسمح له بالانسحاب من التلويش وأن ينظم صفوفه وهو يتقهقر . فحمل الأحياش المرة ثلث الأخرى على الدرلويش إلا أن هؤلاء تمكنوا من صددهم بعد أن حللهم خسائر فادحة وأخذ أبو أنجه بعد ذلك في الهجوم حتى اقتصر في معركة حاسمة .

وكان يتولى القيادة في كسلا « أبو حرجه » وقد أمر بالحقاق « عثمان دجنه » لمعاونته في القتال . وترك « أحمد واد علي » نيابة عنه في كسلا . وعرج في طريقه على أم درمان ليرفع إلى الخليفة تقريراً عن حالة القبائل العربية النازلة بفرقتي السودادر . وذهب أنه وصل إلى أم درمان في ساعة متأخرة من الليل إلا أن الخليفة قابله بمقابلة طويلة خصوصية . وقد أبلغني أثناء خروجه أن خطاباً ورد لي من أهلي .

وبعد بضعة دقائق طلبت عند الخليفة وأبلغت بأن حاكم سواكن يبعث بخطاب إلى « عثمان دجنه » يظن أنه من عند أهلي . وأمرني الخليفة بفتح في الحال وأخبره عما يحتويه . فتصفحته بسرعة وأحمد ما ألقى خبر وفاة والدتي . وقد أخبرني أخوتي بأنها

ما كانت تطلب في آخر حياتها وهي على فراش الموت إلا أن يجمع  
الباري بيني وبينهم .

ولما لاحظ الخليفة طول الوقت الذي استغرقته في مطالعة  
الخطاب سألني عن اسم من أرسله لي وما هي محتوياته فأجبته بأن  
اخوتي هم الذين بعثوا به إلي وأني سأترجمه إذ لم يكن هناك داع  
للقمان أي شيء فيه فهو عبارة عن بضعة أسطر سطرها اخوة بؤساء  
إلى أخ بعيد عنهم .

وقد أبلغتهم مقدار جزعهم على طول غيابي عنهم وكيف أنهم  
على استعداد لمسل أي تضحية في سبيل خلاصتي واسترداد  
لحريتي . ولما وصلت في الخطاب إلى الجزء الخاص بوالدتي قلت  
للخليفة أنه بسبب يمدى عنها كانت في كل أوقات مرضها تنصرف  
إلى الباري كي تراني قبل موتها . كانت تمنى ذلك ولكن أمنيتها  
لم تتحقق فلما كنت روحا قبل أن تراني وفي تلك اللحظة التي  
نصب فيها لهاي ولم أقو على الاستمرار في الكلام . يادوني  
الخليفة قائلا :

« ألا تعلم والملك باني أرحم عليك من أي مخلوق كان . وعلى  
كل حال اني لا أتصور أنها كانت على ما تذكر من الحال فليك  
أن تحزن لوفاتها ولكن يجب أن تعلم أنها ماتت مسيحية ولم تعتقد  
في الرسول والمهدي . وعلى ذلك هي لا تلاقى رحمة ربها » .

فهاجت أعصابي عند سماع قوله هذا ولكني لم ألوه بكلمة  
ثم استرجعت قواي وصرت أتلو عليه ما جاء في الخطاب عن زواج  
أخي هنري وأن « أودلف » و«خواتم البنات بغير » وطلبوا إلى في  
آخر خطابهم أن يكتب إليهم عن الطريقة التي يمكن عملها لاسترداد



حريص كما طلبوا الى الاسراع فى الاجابة عليهم . فقال لى الخليفة  
اكتب الى واحد من اخوتك كى يسرع فى الحضور الى هنا واخبره  
بانه سيكون موضع اجلال واحترام وسوف لا يحتاج الى شيء بالمرة  
ما عاдам متيقنا هنا . ومع ذلك سأتكلم معك فى هذا الشأن مرة  
أخرى . وبعد ذلك أشار على بالانصراف . فانصرفت وكان رفائى  
الذين علموا بوصول هذا الخطاب ينتظروننى بفارغ الصبر ليسمعوا  
مضى ما حواه وبمجرد أن تلاقوا معى وجهسوا لى عدة أسئلة كنت  
أجاوبهم عليها بكل اقتضاب .

ولما ذهب الخليفة الى راحته أتت على سريرى « عنجريس »  
فسألنى خفى عن الأخبار فكنت أطلب اليهم علم محادثتى .

ثم أخذت أحدث نفسى قاللا : « واسفاه عليك يا والدتى فاننى  
انا الذى كنت سببا فى لحظاتك السيئة الأخيرة » وقد أخبرنى  
أخوتى لى خطابهم بأخر كلماتها التى كانت تلقوه بها فعلمت أنها  
كانت تقول :

« انى على استعداد للآفة الخالق . انى على استعداد  
للموت . ولكنى أرجو أن أرى وأقبل ردولف قبل أن تفيض روحى »  
وكانت تقول أيضا « انى كلما ذكرت أنه فى قبضة أعدائه تزداد  
ألمى » .

آه . انى أذكر جيدا كلماتها التى فاضت بها لما عولت على  
القدوم الى السودان لقد كانت تقول لى : « يا بنى ان روحك  
المضطربة تدفك الى المفامرة بحياتك فى بلاد بعيدة لا تعلم عنها  
شيئا . وربما يأتى الوقت الذى تنتهى فيه من كل ذلك وتقبل  
على حياة هادئة » فما أصمق كلماتك يا والدتى وما أعظم الشقاء  
الذى سببته لك .

وبعد أن فكرت في هذا كله صرت أفزع ثم أفزع لا بالنسبة  
لما أبا عليه من حال سوء بل من أجل أمي العزيزة التي فاضت  
روحها - يسئرين .

وفي صباح اليوم التالي أرسل في الخليفة وطلبه مني مرة  
أخرى أن أتزينم له الخطاب وأمرني أن أورد في الحال على أخوتي  
لأخبرهم بأنني لم أرعده من العيش . فنفذت ما طلبه وكتبت خطايا  
كله ثناء على الخليفة وأعجاب بخصاله وكم أنا سعيد بجواره .  
ولكنني كنت أضع كل كلمات الملاح والاطراء وحسن الحال داخل  
أقواس وبجوارها علامات استفهام . وكتبت في ذيل الخطاب  
ما يفسر إلى أن تلك الكلمات الموضوعة بين الأقواس هي عكس  
الحقيقة .

وفي الوقت نفسه طلبت إلى أخوتي أن يكتبوا إلى الخليفة  
خطاب شكر على حسن معاملته في ١١١٠ وأن يرسلوا له كيس سفر  
كبير ويرسلوا في مبلغ ٢٠٠ جنيه و ١٢ ساعة اعتيادية تستحق أن  
تكون هدايا لأكرمها إلى أمراء الخليفة الذين يسرون بها كثيرا .  
وطلبت نسخة القرآن مترجمة إلى اللغة الألمانية - وليكلا يجزعوا  
قلت لهم أنني أرجو أن تسمح الظروف بملاقاة قريبنا .

طلبت إليهم أن يرسلوا تلك الطلبات إلى قنصل النمسا في  
القاهرة الذي يرسلها إلى حاكم سواكن وهذا يبعث بها إلى عثمان  
دجته ومنه تصل إلى . وقد سلمت هذا الخطاب إلى الخليفة فبعث  
به رسولا كان ذاهبا إلى عثمان دجته ليرسله إلى سواكن .

وقد سزمت قبل وصول الخطاب المحزن بنحو شهر قريبا  
لما أصاب صديقي « لبيتون » الذي كان يشتغل في جمر الخراطوم

وارغمته حالته الصعبة على أن يترك عمله . وعاد بعد ذلك الى أم درمان يشكو القاعه ولكن لحسن حظه كان قد عاد صديقه ( صالح واد الحاج على ) من القاهره ومعه بعض النقود أرسلها اليه بعض أفراد أسرته من القاهره مع صالح المذكور .

وكان واد الحاج على هذا طماعا في ابتزاز الأموال . حرامها وحلالها ، فقد أعطى « لبيتون » قبل ذلك مبلغ ١٠٠ ريال وأخذ منه تعويلا على أخيه بالقاهره بمبلغ ٢٠٠ ريال قبضها بمجرد وصوله ولما عاد الى أم درمان أعطى لبيتون ٢٠٠ دولار واغتصب لنفسه باقى ما أرسله أخو « لبيتون » وهو ما يقرب من ٨٠٠ دولار وقد ساعد هذا المبلغ الضئيل « لبيتون » نوعا على فك ضيقه . وهذا مع ما كان يؤمله من أن هناك مخاطبات دائره بشأن إطلاق حريته كان سببا في تخفيف شيء من آلامه . وكان هذا المسكين قد حضر معي ذات يوم من المسجد عقيب الصلاة الى المنزل وأخذ يستشيرني في انلقاء شخص يضع عنده مبلغ الـ ٢٠٠ دولار بحيث يأخذ منه ما يريد كلما شاء إذ أنه يخشى إذا بقيت معه أن يندفع في الظهور بالبدع والاسراف ومن ثم يقتضج أمره وتعرف صلاته بالقاهره فيلاقي حقه .

كنا نتحدث عن حالتنا وما نحن عليه وقد كان في تلك اللحظة منشراح الصدر أكثر من عادته رغم ما كان يعانيه من الآلام في ظهره والضعف العام في كل جسمه .

وقد تركته حوالي الظهور . وفي يوم الثلاثاء التالي أرسل ل خادمه يطلب أن أذهب اليه لأنه يشكو مرضا شديدا وأبلغني خادمه أن سيده مصاب بحمى شديده وأنه ملازم الفراش من ثلاثة أيام فوعظت الخادم بأنني قائم اليه سريعا وفي المساء طلبت الى

الخليفة أن يسمح لي في الصباح . وفي صبيحة اليوم التالي - وقد حصلت على الاذن بقطعة ساعة اليوم مع هذا المريض - ذهبت في الحال إلى منزله فوجدته في حالة يرثى لها . وجدته يشكو ألم حسي الشيفوس وحالته شديدة للدرجة أنه لم يتمكن من معرفتي لما دخلت عليه في أول الأمر وقد حدثني بعد ذلك بالفاظ متقطعة موصيا بأن أعتني بأخته . ثم تمت كلاما عن والده .

## الفصل الثالث عشر

### حملة الأحباش

وما كان ينور بخلد أحد أن انتصارات المهديين يسكت عليها من جانب الأحباش فقد أعد الملك « جان » عدته وجميع قواته بعد أن استتم له الأمر في الداخل ببيلاده . أعد الحملة لغزو القلايات وبالفعل أحرزت قوات الأحباش نصرا في يافى الأمر إلا أن نصرهم انقلب هزيمة علما أصيب الملك « جان » برصاصة قضت عليه لمساعدته فارتد الجيش العبسى بشير نظام وتلقبه « زكى طومال » الذى تمكن من الاستيلاء على تاج الملك ومساعه وأخسده بخته غنيمة .

وقامت على أثر ذلك فى بلاد الأحباش ثورة داخلية بسبب تطلع كثيرين إلى العرش .

وكان الإيطاليون يحتلون مصوع منذ سنة ١٨٨٥ وعلى ذلك مكنتهم تلك الثورات الداخلية من الاستيلاء على مناطق واسعة داخل حدود الحبشة بالقرب من مصوع . وقد قوى الاستيلاء عليها مركز الدراويش فى القلايات لأن الأحباش شغلوا باسترداد ما استولى عليه عليهم الجديد .

وبينما كانت القوة العسكرية في القلايات تحت رحمة الملك « جان » في بادئ الأمر كان « عثمان واد آدم » في حرب شديدة في غربي السودان وقد شنت شمل السلطان يوسف ودحر جيشه وجعل عساكره بدون مأوى في شرقي السودان وغربيه ، وقد حكم على أمراءه وأتباعه بأشد العقوبات وساق أتباعه من النساء والأطفال غنائم وأرسلهم مخطوفين إلى القاهر . وانتشر الهرج والمرج في جميع الأنحاء حتى حدود « دار تاما » .

وكان في ذلك الوقت بتلك الناحية سبب حرب من ثم ديمان ينتسب إلى قبيلة من القبائل النازلة على ضفاف النهر ويسكن في تلك الناحية . مستظلاً بشجرة جميز فلقبوه من أجلها بأبو جميز . فوصل إليه بعض من هؤلاء الرجال الذين شنت ضلعتهم « عثمان واد آدم » وانضموا تحت لوائه فجمع ضلعتهم وتولى قيادتهم للأخذ بثأرهم ، وبالفعل تم له النصر في أول الأمر على قوة صغيرة من قوى الكراويش كانت في ذلك الوقت قريبة منهم . وكان لذلك الانتصار صفة فائض إليه كثير من الكراويش وكونوا قوة عظيمة تحت امرته وسار بها إلى القاهر إلا أن الخيبة عاجلته في الطريق فغنى تحبه فالتقى « عثمان واد آدم » على جيشه وكان على بضعة أميال من القاهر ، وحزم هذا الجيش حزم حزيمة .

لما الخليفة فكان في هذه الأثناء يسر في نفسه غزو الديار المصرية وقد استشار من أجل ذلك كثيرا من زعمائه فحسموا له غزو مصر لما احتوت عليه من خدائق غناء وقصور فخمة وسيدات لوتن أبيض جيلات .

وبطبيعة الحال كان أكفا قواد الخليفة في ذلك الوقت والخبير يصح أن توكل إليه قيادة الجيوش الغازية هو « ابن النجوم »

لصجاعته النادرة ولأنه عرف مصر وخباياها لما كان تاجرا بسيطاً .  
وفضلاً عن ذلك أنه كان من أشد أنصار الدعوة المهدية يصل لنشرها  
بكل ما أوتي من حول وقوة .

وكانت الجيوش التي تحت أمره مكونة من أبناء القبائل  
النازلة على ضفاف النيل الذين عرفوا بغير خيف أنهم صلت بحراية  
وتسب مع القبائل القاطنة في مديريات الوجه القبلي الملاصقة .

لمن أجل هذا لما أسر الخليفة على غزو مصر لم يفكر في  
استناد قيادة الجيوش الفاتحة لغير ابن النجومي .

وكان الخليفة يحسب حساباً كبيراً لهذا الفتح ويقدر نتائجه  
وكان يخشى الهزيمة والخسارة ، ولذلك تدبر في الأمر وقرر أن  
يرسل مع ابن النجومي جيوشاً من القبائل النازلة بقرب السودان  
التابعة له لا من القبائل التي تنتمي إليه حقيقة خطأ لهم ووقاية  
من الوقوع في الهزيمة فجهز جيش ابن النجومي من قبائل  
« الجالان » و « الدناجلا » و « النيفاريون » . وقبيلة « الجالان »  
و « الدناجلا » من أتباع الخليفة الشريف . وقد كان الخليفة عبد الله  
ينظر إليهما دائماً كما ينظر إلى الأعداء .

وكان الخليفة يتمنى بكل جوارحه نجاح الحملة وما كان  
يتخالبه شك في قدرة قائده وأخلاصه وكان يمتن نفسه بفوز الديار  
المصرية ليضيف إلى ملكه بلاداً جديدة إلا أن المصريين انتصروا عليه  
والمحقوا به خسائر فادحة وردوا جيوشه منهوكة القوى إلى دقله .

وإن حوادث ذلك العهد التي انتهت بهزيمة جيش البراويش  
في واقعة توشكا في ٢ أغسطس سنة ١٨٨٩ وموت ابن النجومي

معروفة لا تحتاج إلى إعادة إيضاح هنا . ولكن بمناسبة تكوين  
الصلة السابقة الذكر من رجال القبائل التي قلنا أنها في الأصل  
كانت معادية للخليفة وهو يوجس منها خيفة دائما أبدا أروى حادثة  
حدثت لقبيلة من تلك القبائل فقد حدث أن ترددت قبيلة « البتاهية »  
في القنوم إلى أم درمان لتقديم طاعتها إلى الخليفة فجهز للهجوم  
عليها حملة هزمتها ثم هزيمة وأسرت منها ما يقرب من ٦٧ رجلا  
بأهلهم . وكانت هذه القبيلة مشهورة بقوة رجالها أيام أن كانت  
الحكومة المصرية مستولية على السودان .

وأمر الخليفة بمحاكمة هؤلاء الأسرى بتهمة « المصيان » فلما  
سأل قضائهم عن عقوبة المصيان أجابوه بلا تردد « الموت » وبعد  
ذلك أمر الخليفة بإعادتهم إلى السجن وأخذ يمد المعدات اللازمة  
لتنفيذ الحكم عليهم .

وبناء على إرادته أقاموا ثلاث مشائق في ساحة السوق .  
وبعد صلاة الظهر دقت الطبول أيذاناً يقرب عبياد التنفيذ وجاء  
الخليفة متبوعاً بحاشيته راكباً ولما اقترب من مكان التنفيذ نزل  
وجلس على سرير صغير وحاشيته من حوله ، منهم من هم ركوع  
ومنهم من هم وقوف ، ثم أحضروا أمامه أولئك الرجال مكتوفي  
الأيدي يحيط بهم رجال عبد الباقي بينما كانت النساء والأطفال  
تتبعهم نالحات نادبات .

وأمر الخليفة بأن يجلس النساء والأطفال في ناحية والرجال  
في ناحية أخرى . وبعد ذلك جاء « أحمد الدنيا » و « طاهر واد الغالي »  
و « حسن واد خبير » وهم الذين انتقام الخليفة لتنفيذ الحكم على  
هؤلاء النساء وأمر ثلاثهم بأن ينهب رؤساء الحراس بأن يخلطوهم  
إلى المكان الذي نصبت فيه المشائق .



وبعد ربع ساعة قام الخليفة وتبعه جميع من كان حوله إلى  
 صاحة السوق حيث رأينا منظرا تقصر منه الأبدان . وجدنا هؤلاء  
 البؤساء قسموا إلى ثلاث فرق قسم نفذ فيه حكم الشنق وقسم تحت  
 التعذيب والقسم الثالث قطعت أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى .  
 ووقف الخليفة يشاهد هذا المنظر بنفسه . وقف يشاهد كومة من  
 جثث الرجال . وقف يشاهد من قطعت أيديهم وأرجلهم . وقف  
 يشاهد هذه الأيدي وتلك الأرجل مبعثرة هنا وهناك . وقال  
 « لثمان واد احمد » أحد القضاة - وقد كان من أعز اصحابه  
 الخليفة « على » واحد أو كان تلك القبيلة - وهو يشير إلى تلك  
 الجثث : « يمكنك الآن أن تأخذ ما بقى من أفراد قبيلتك » . قال  
 ذلك بكل سخرية فارتعدت فرائص الرجل ولم يقدر على  
 الإجابة .

وعاد الخليفة بعد ذلك وأخذ « أسد الدنيا » يتم مهمته .  
 فترك ٢٢ جثة هامئة ملقاة على الأرض هنا وهناك . والباقى ينفذ  
 فيهم الحكم بأقطع حال .

وقد كان هؤلاء يلاقون الموت بشجاعتهم المبهدة فيهم ولم يجزع  
 واحد منهم بل كان معظمهم يردد كلمات تنبئ عن البسالة كان  
 يقول أحدهم « الموت حق » أو « لابد لكل واحد أن يموت » أو « من  
 لم ير في حياته شجاعة يلقى الموت فليقسم إلى هنا ليرى بعينه » وغير  
 ذلك مما ينبت عدم اكتراثهم لما كانوا يلاقونه .

وبعد ذلك تمت إرادة الخليفة بأن أعطوا جميعا . وبلا عاد إلى  
 داره أصدر أمره بأن يترك النساء والأطفال بدون مأوى حتى يباعوا  
 بأرخص الأثمان .

وبالرغم من تلك المناظر التي كانت تقشعر عنها الابدان كنت  
 أفسر بسرور في نفسي لما وصلني من الأخبار بأن هناك خطابات  
 متصلة الى قريبا من اخوتي وان في الطريق صندوقين لي من  
 النقود . وفي صباح يوم يئسا كنت جالسا أمام الباب وصل رجل  
 يحمل صندوقين وطلب الجمال مقابلة الخليفة شخصيا قائلا انه  
 جاء معه رسائل من عثمان دجنه وأمر الخليفة بعد أن تقابل مع  
 الجمال بأن يرسل الصندوقين الى بيت المال وكان قد دعس في  
 أول الأمر لما وأما . وأمر أيضا بأن تعطى الخطابات الى كاتب  
 سره . وضاق صبري لطول الانتظار لأنني كنت أحب أن أعلم  
 ما ورد لي . وكانت للخليفة لغة خاصة في عدم ابلاغ أي شيء قبل  
 غروب الشمس . فلما غربت تناولني الخطابات وكانت كما لاحظت من  
 اخوتي وهم يظهرون فيها سرورهم العظيم لما تسلموا مني خطابا  
 وعلموا بأنني ما زلت على قيد الحياة .

وكان أحد تلك الخطابات باللغة العربية موجها الى الخليفة  
 نفسه يشكركه فيه على عنايته بي . والذي كتبه هو الأستاذ  
 « وأمر مند » فقبله كله آيات مدح فلما أطلع الخليفة عليها صار  
 يتروم يذكر كاتبها وأمر بقرأة الخطاب في المسجد عقب الصلاة ثم  
 أمر بعد ذلك بأن يرد الصندوقان الى .

وترجمت اليه الخطابات التي وصلت الى وأبلغته ان اخوتي  
 أرسلوا اليه كيس سفر هدية وأنهم يلتزمون منه التنازل بقبول  
 هذه الهدية الصغيرة التي لا تتناسب مع مقامه العظيم فقبلها وأمرني  
 بإحضارها اليه في صباح الغد . وأرسل معي تابعيه ليحضروا فتح  
 الصندوقين فتوجهنا جميعا الى بيت المال حيث لفتاحهما فوجدت  
 فيهما المائتي الجنيه التي طلبتها وكذلك الساعات وأمواسا للحلاقة

ومرايا وجرائد وترجمة القرآن باللغة الألمانية وهدية الخاتمة وآد  
تصلحت نل هذه الاشياء ثم توجهت الى حجرتي واخذت اعيد قراءة  
خطاباتي واحتفظت بالصحف التي تحوى أخبار بلادى العزيزة ۱۱۱

وكانت تلك الصحف عبارة عن أعداد جريدة  
Nero Freie Presse وهى بطبيعة الحال فيها الكتابة لشد  
حق من لم يعرف شيئا عن أخبار بلاده منذ ست سنوات وبما  
الاب - اوسر والدر - خفية واخذنا مما ينسب لك الصفحات .

والى صباح الغد قمت مبكرا وحملت الهدية وذهبت الى الخليفة  
خامرى بفتحها ولما رأتى ما احتوت عليه من علب المهدى اللازمة  
والزجاجات والامواس والفرش اظهر لهجابه الكثير ثم ابتدأت  
بوضع له قائمة كل شئ على حدة . وحينئذ ارسل فى طلب  
القسمة الذين كانوا فى ذلك الوقت يباشرون عملهم فلما جاوه  
واطلعوا على ما احتوته الحقيبة دعسوا كثيرا ولو انى كنت على يقين  
من ان كثيرا منهم راوا مثل هذه الاشياء قبل الآن .

وبعد ذلك طلب الخليفة كاتب سره وأمره بأن يكتب فى الحال  
خطابا لاختى يبين فيه المركز السامى الذى اشغله عند الخليفة  
ولفته التى لا حد لها فى اخيهم وأن يدعوهم للمضوء الى أم درمان  
لزيادتي وأن لهم الحرية التامة فى الرجوع بعد تأدية الزيارة .

وأمرنى بأن اكتب لهم مثل ذلك . وبالرغم من ولى بأنهم  
لا يجيبون هذه الدعوة كتبت اليهم بالا يجيبوها وبالا يضرروا .

وايضا المراسلات مع نفس المسؤول الذى قسم من قبل  
عثمان دجنه . واعطى الخليفة لثمان التعليمات بأن يبحث تلك  
الرسائل بنفس الطريقة التى سبق له أن يبحث بها فيما مضى .

وكان الخليفة في هذا اليوم منتصرح الصبح مسرورا . وكان سروره بسبب قدوم جميع أفراد قبيلته التمايشة إلى أم درمان لأنه كان قد طلب إليهم ذلك وعهد لهم كل السبل التي تسهل عليهم القدوم . إلا أنهم ظنوا أنفسهم أسياذ الحرث والنسل وأستولوا على كل شيء مروا به من ماشية بجميع أنواعها ونهبوا متاع الرجال وحلى النساء في طريقهم . مع أن الخليفة كما قبضت كان قد أمر بتشبيد محتازن للمؤن في طول طريقهم لتسهل حاجتهم . وكانت المراكب والبواخر قد أعلنت لنقلهم إلى أم درمان .

ولما وصلوا إلى الضفة اليمنى لأم درمان أمرهم الخليفة بالانتظار بعد أن قسمهم إلى قسمين وبعد أن أمر بأن يلبس الرجال والنساء أزياء جديدة من بيت المال . ثم أخذ يستقبلهم جماعات جماعات في أم درمان واستقرت مدة نقلهم من الضفة اليمنى إلى أم درمان يومين أو ثلاثة أيام حتى ظفت الألتظار ويعلم الجميع أنه أسياذهم قسوا إلى المدينة . وأخلى لهم الجزء الواقع بين المسجد والحصن ليكون مقرا لهم وأعطى السكان الذين تركوا ديارهم أرضا بدلا منها كما أصدر أمره لبيت المال بأن يمد يد المساعدة لتشبيد مساكن جديدة لهم .

ولكى يسهل على أفراد قبيلته مبيع المبيعة - وكانت أصهار الفلال قد أخذت في الصدود - أصدر أمره بمصادرة جميع الفلال المخزونة وبيعها بأرخص الأثمان لرجال التمايشة وقسم الأموال التي جمعت بين أصحاب الفلال الذين عادوا فاشتروا غلالا بأضعاف أضعاف ما باعوا . ويمكنني أن أقول أن ثمن غصرة أرانب بيعت للتمايشة صارت بعد ذلك تساوى ثمن أردبين لما أراد أصحاب الفلال شراء بدل منها .

ولما نفذ ما كان مخزونا في أم درمان أرسل الخليفة رساله الى الجزيرة ليصادروا كل ما يجهونه هناك ، ولكن تلك الأعمال التي عملها في سبيل راحة افراد قبيلته وما ارتكبه هؤلاء من سلب ونهب سببت كراهية أتباعه فيه .

والآن قد انتشرت المجاعة في جميع أنحاء السودان حيث لم يسقط مطر .

ولما وقعت المجاعة وانتشرت في بربر قبل غيرها من نواحي السودان نقصت المحصولات للدرجة أنها أصبحت لا تسد حاجة السكان ، ورحل أغلب هؤلاء الى أم درمان التي كانت مزدحمة أشد ازدحام فاشتد الخطب وارتفعت أثمان المحاصيل حتى بلغ الإردية من الحنطة ٤ ريالا ثم ارتفع بعد ذلك الى ٦ ريالا . فبات الفقراء جوعا . وكانت الأشهر الأخيرة من عام ١٨٨٩ أشهر شقاء وبؤس وتماسة وفنكت المجاعة فيها بالناس فتكا ذريعا . وانحطت حالة القوم الصحية حتى أصبحت أجسامهم هياكل عظيمة تحوى العظام وعليها الجلود البشرية فقط .

وصار الناس يأكلون كل شيء فأكلوا جلود الحيوانات القديمة ولم يتركوا حتى الجلود المصنوعة منها سرهم فقد كانوا يقطعونها ويغلونها في الماء ثم يأكلونها ويشربون الماء . وانتشرت السرقات وصمت القوض فكان كل من في قدرته ارتكاب السرقات فعل .

واني أذكر حادثة وقعت أمامي فقد رأيت رجلا اختطف من غيره قطعة لحم والتمسها بكل شراعة فهجم عليه صاحبها محاولا اخراجها من فيه فأحاط عنقه بيديه وخنقه ولكن اللص لم يخرج فريسته من فيه وأخيرا وقع مقي علىه .

وقد كنت تسمع فى ساحة السوق حيث يجلس النساء لبيع  
سلعهن نداء الاستغاثة فى كل لحظة من هؤلاء الذين أحلوا على  
عاتقهم السلب والنهب .

وكانت الساحة الواقعة بين بيت الخليفة وبيت يعقوب تزدهم  
كل ليلة بالذين يصرخون مطالبين بالخير وكان بعضهم يتبعنى عند  
ذهابى الى منزل محاولين اقتحامه وفى ذلك الوقت ما كنت أملك  
من القوة الا ما أمد به رفقى وحاميتى وأصدقائى الذين  
مضى .

وفى ذات ليلة - وكان القمر بدرا - بينما كنت واجبا الى  
منزل حوالى الساعة الثانية عشرة ليلا شاحلت بالقرب من بيت  
الأمانة - مخزن السلاح - شيئا يتحرك على الأرض فتوجهت شطره  
لأرى ما هناك ووقفت أرقب منظرا يشعنا تقشعر منه الأبدان . رأيت  
ثلاث نساء عاريات مسدلات صدورهن الطويلة على أكتافهن يتهافتن  
على أكل جعش صغير يخيل لى أنهن خطفنه من أمه . وقد رأيتهن  
يقطن من لحمه بأسمانهن ويأكلن منه . وكان هذا الحيوان المسكين  
لا يزال على قيد الحياة فهجم عليهن الذين كانوا يتبعوننى واختطفوا  
الفريسة منهن وحينئذ تركت هذا المنظر فارا الى دارى .

وفى يوم آخر رأيت امرأة يظهر لى أنها كانت فى يوم من الأيام  
جميلة ، رأيتها ملقاة على الأرض وبجانبها طفلها الذى قد لا يتجاوز  
من العمر عاما وهو يحاول الرضاعة ولكنه كان يحاولها من أم أصبحت  
للأسف جثة هامدة !! وبقي يتأوه ويتألم على ذلك الحال حتى مرت  
عليه امرأة أخرى فاخذته .

وفى ذات يوم مرت بدارى سيدة ومعها بنتها الوحيدة وكانت  
هذه المرأة على ما يظهر لى من قبيلة « الجالان » تلك القبيلة التى

يمكننى أن أقول أنها أحسن القبائل حالا . جاءت هذه السيدة  
وبنتها معها على شفا حفرة من الموت تطلب على مساعدتهما فجلست  
عليها بكل ما أمكننى أن أجود به وبعد ذلك عرضت على أن تسلمنى  
بنتها وتتركها لى وريقة لأحبيها من الموت جرعا . وكانت تتلفظ بهذا  
القول ودموعها تنهمر من عيونها . فطلبت اليها مفادرتى ومعهما بنتها  
وأعطيتها كل ما كان فى وسعى أن أعطيه .

ووجعت امرأة أخرى تاكل طفلها فصاقتها الى مركز البوليس  
لتأخذ جزاء ما فعلت ولكنها ماتت بعد يومين .

وكان الناس يبيعون أولادهم ذكورا وإناثا لا لقرضى الحصول  
على أثمانهم بل لحط حياتهم عند من يقدر على تموينهم . وبعد أن  
انقضت تلك السنة استردوهم بأثمان غالية .

وكانت بحث لاوتى فى السوارح لا تحصى ولا يوجد من  
يحياها . وأصدر الخليفة أمره مكلفا كل شخص بأن يحمل الجثث  
التي توجد أمام داره ليواربها بالتراب ومن لم يفعل تصاد  
أمواله .

وكان لذلك بعض التأثير الا أن اصحاب المنازل كانوا يزجون  
ما أمام منازلهم الى قرب منازل جيرانهم تخلصا من العقاب فتسببه  
من ذلك وقوع المشاكل والمضاربات بين الناس وكنت ترى الجثث  
طافية فى النيل آتية من البلاد الواقعة على ضفتيه وعددها  
لا يحصى .

وكان جل الذين ماتوا فى لم دمان من الذين ولعوا عليها من  
الخارج لا من سكانها الأصليين . إذ ان هؤلاء كانوا له خزنوا

جا وقعت عليه أيديهم من غلال وكانت كل قبيلة تساعد جارتها إذا احتاجت .

وكان الحال على عكس ذلك في جهات السودان الأخرى . وكان ما أصاب قبيلة « الجالان » أشد مما أصاب أى قبيلة أخرى ولو أنها كانت أحسن قبائل السودان حالا .

وأما سكان دنقلة فكانوا أحسن حالا من غيرهم وكان أمورا السكان حالا سكان القضايف والقلابات . وكان ( زكى طومال ) قد أصدر أوامره في أول المجاعة بأن تجمع كل الحبوب التي في جهاته على أن يتوزع منها جيعه فنجم من ذلك موت الكثير جوعا .

وكانت حوادث السلب والنهب في تلك الجهات وأصبح الواحد من سكانها يخشى الخروج بدون سلاح يحصى به نفسه من يريد السطو عليه لا يسرقه بل ليفترسه ويأكله كما حدث ذات يوم لأحد أمراء قبيلة الحمر فقد وجدت رأسه في اليوم التالي ملقاة في طرف من أطراف المدينة . أما جسمه فلم يوجد لأنه أكل بطبيعة الحال .

وأحيات بسبب تلك المجاعة قبائل « النصاريا » و « الشكرية » و « العقالان » و « الحمرة » عن آخرها وبذلك خلت بقاع واسعة في السودان من السكان .

وكان الحال في دارفور أحسن منه في القضايف والقلابات كما كانت القبائل الغربية كقبيلة « حمر » و « دار تاما » و « عزاليط » أحسن حالا من الغامر نفسها إذ كانوا قد منعوا تصدير الحبوب إليها .



وقد يغيب إلى أن علم المجاعة حلت بهؤلاء الغوم لينتقم بها  
 الباري، جلت قدرته من هذا الخليفة الجبار وشيمته . وعلى اثر  
 انتشارها جهز تجار ام درمان مراكبهم بالحبوب وذهبوا إلى فاشوده  
 فبدلوا غلالهم بأشياء أخرى كالنحاس والبلع وغيرهما وعمل مثلهم  
 سكان جهات أخرى وصلوا بغلالهم حتى أعالي نهر السوياط .

وبعد ذلك ابتدأ فصل الأمطار ولدت المزدروعات ففرح الناس  
 لازالة الخطب الا أن جيوشا من الجراد حلت بالبلاد ففتكت  
 بالمزدروعات فتكا ذريعا .

ولما كان الخليفة لا هم له الا اغداق النعم على أفراد قبيلته  
 والسعي لتوفير راحتهم أصدر أوامره إلى السكان ألا يبيعوا النزر  
 القليل من محاصيلهم التي جمعوها بعد فتك الجراد الا لأفراد  
 قبيلته بأرضي الأثمان . ولما كان هذا القدر لا يكفي بطبيعة الحال  
 لسد رمقهم أصدر أوامره إلى ابراهيم عدلان لكي يتوجه إلى الجزيرة  
 ليجمع الأحالي هناك على تقديم ما لديهم من الذرة بدون مقابل .  
 الا أن عدلان لم يوافق على هذا الطلب وعارض فيه بكل إباء  
 وقسم .

ولقد بحث الخليفة عبد الله مع أخيه يعقوب في هذا الشأن  
 وشيئا ، وكان يعقوب هذا من أعداء عدلان الذي يروى عنه الناس  
 أنه طيب القلب عالي الهمة لا يبيل لاضطهاد الناس بتكليفهم  
 ما لا طاقة لهم به على التقيض من ذلك كان يأخذ على عاتقه في  
 كثير من الأوقات ما يقع على غيره من المسئوليات . ولقد جمع ثروة  
 طائلة ما كانت لتخفى على الخليفة .

وسمع الخليفة من يعقوب وأصدقائه أن نفوذ عدلان في البلاد  
 لا يقل عن نفوذه وقالوا أنه دائما يتكلم في المجالس بهذه هذه

حكومته . وكان من أقواله للناس أن المجاعة لم تكن إلا بسببه  
 أرهاق الخليفة لهم في سبيل راحة أبناء قبييلته وقد تسبب من هذه  
 الوشايات أن أحبل عدلان إلى المحاكمة فقصت عليه بأن يقبل الموت  
 أو الفقر ففضل الأول فساقوه مكتوف اليدين إلى صدره حتى ساحة  
 السوق . وهناك نفذوا فيه الحكم وكان رابط الجيش للرجة أنه هو  
 الذي وضع رأسه بنفسه في جبل للشنقة . ورفض أن يشرب الماء  
 الذي قدم إليه طالباً الإسراع لم تنفيذ الحكم . وقد سقطت جثته  
 وهو يشير بسبابته إشارة أنه يموت مسلماً موحداً الله سبحانه  
 وتعالى . وحزن جميع السكان على قتله إلا أن الخليفة سر سرورا  
 عظيماً لأنه قضى على شخص كان يوجس منه ومن نفوذه خيفة وكان  
 غير مطيع لأوامره . وأرسل الخليفة أخاه لسير في جنازة عدلان  
 إشارة إلى أنه لم يشتق إلا تنفيذاً للقانون لا حداً عليه كما ظن  
 الناس .

وولى الخليفة بدله خالداً ليبيت المال المدعو « نور واد ابراهيم »  
 الذي كان جده « تكرررى » وعلى ذلك هو ليس من القبائل النازلة  
 على ضفاف النيل ولكنه نال ثقة الخليفة ووضاه .

وأما بالنسبة لشخصي فقد تغيرت نظرات الخليفة إلى ، وداخله  
 الشك من جهتي .

ووصل رد خطابي الأخير الذي أرسلته إلى أهلي غير مشتمل  
 على شيء سوى الاحتياط لانتظام المراسلات بيني وبينهم . وكتبوا  
 في الوقت نفسه إلى الخليفة يشكرونه على عنايته وعلى الدعوة التي  
 وجهها إليهم بطلب الحضور إلى أم درمان .

واعتذر أخيراً الأكبر عن عدم إمكانه الحضور بأن حالته لا تساعد لأنه يشغل وظيفة كبير أمراء جلالة أمبراطور النمسا .  
واعتذر الآخر بأن وقته وهو ضابط في الطوبجية لا يسمح له بالقيام برحلة طويلة كهذه .

ولما طلبني الخليفة إلى حضرته أمرني بتوجيه تلك الخطابات ثم قال لي : « كانت رغبتي في أن تطلب إلى واحد من اخوتك أن يحضر وبما أنهما يستغران الآن بأعذار لا أقبلها فيجتمع عليك ألا تكتب إليهما بعد الآن ، فإذا أرسلت خطايا واحدا إليهما فإن ذلك يكفي للقضاء على هدوءك وسكينتك . أفهمت ؟ فأجبته : « نعم يا مولاي . أوامرك مطاعة . واني لا أجد داعياً للكتابة إليهما » فقال لي : « أين الانجيل الذي أرسل إليك ؟ » فأجبته : « إلى مسلم يا مولاي وليس لدى انجيل بالمنزل وإنما الذي أمتلكه هو ترجمة القرآن الذي رآه كاتم سرنا لما فتحنا الصناديق سوياً » فأمرني بأن أحضره إليه في صباح الغد وأشار إلى بالانصراف .

وتيقنت بعد هذه المقابلة أن كلمة الخليفة هي ذات وعلمه أيضاً أنه بعد هزيمة ابن النجمي أخذ يسر إلى قصاته أن لكته في كسرت .

وكانت في هذا الوقت قد صرفت المبلغ الذي وصل إلى من أهلي وجله منحه هبات إلى زملائي الذين أخذوا ينصون في الدسائس لأن لا علموا أنني أصبحت لا أملك شيئاً وهم الذين قالوا للخليفة ان الكتاب الذي عندي هو الانجيل .

وفي صباح اليوم التالي توجهت إليه ومعي الكتاب وسلمته إليه وهو من ترجمة العلامة « المان » ففحصه جيداً .

وقال لي : « أنت تقول أن هذا الكتاب ترجمة القرآن وهو مكتوب بلغة الذين ليس عندهم عقيدة دينية . انهم ربما يكونون قد اخطأوا في ترجمته » فأجبته بكل هدوء وسكينة : « أنه يا سيدي ترجمة حرفية والفرض منه هو أن أتمكن من فهم الكتاب المقدس الذي نزل من عند الله سبحانه وتعالى على يد الرسول باللغة العربية وإن شئت أن تتأكد من صحة ترجمته الحرفية » فأجابني قائلا : « أنا اعتقد فيك الصدق ولكن الناس هم الذين قالوا ذلك القول فيحسن بك والحالة هذه أن تحرقه » ولما ظهرت له الموافقة على طلبه قال لي : « ويجب أيضا أن ترد الهدية التي بعث بها اخوتك لي لأنه لا قائمة لها عندي وليرفروا أن الأشياء الدينية لا قيمة لها في نظري » .

ثم امر كاتب مره بأن يكتب خطابا باسمي الى أهلي يخبرهم فيه بأن لا داعي بعد الآن الى مكاتبتني . فوقعته بأعضائي وأرسلته مع الهدية الى بيت المال ليرسلا من هناك الى مساكن كالمعتاد .

ومن هذا اليوم أصبحت شديد الحرج . وبعد موت عدلان استدعاني الخليفة مرة أخرى يحضر ضباطه وأخذ يقول لي : « أنه يعلم أنني جاسوس ويجب مراقبتي بدقة ومراقبة الذين يحضرون لزيارتي وجلهم من أعدائه . ويجب علي أن أعلمه بسجل نومي في منزلي وأن أغبر خطتي التي أنا متبعها والا لحقت بعدلان » .

فأجبته قائلا بكل هدوء وسكينة : « يا مولاي لا يمكنني الدفاع عن نفسي . وأنا أجهل خصومي الذين وشوا بي ولكني أفوض أمري للباري . جلست لفترة . ولقد مضت ست سنوات بل أكثر وأنا الخادم الأمين في خدمة مولاي أوصل الليل بالنهار على بابي تحت الشمس الحارقة ونسألك المظفر العزيز . وتنفيذا لأوامرك يا مولاي قطعت

صلاتي مع كل أحد قالي . وفي كل هذه المدة التي أنا فيها في خدمة  
 صبي لم ارتكب جرما . فأخبرني يا مولاي عن الذنب الذي  
 ارتكبته . أن طاعتي لك طول هذه المدة لم تكن عن خوف وإنما كانت  
 عن محبة وإخلاص . وليس يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك . وأني  
 لرحمة ربي وهو مولاي منظر .

لقال للملازمين ما رأيكم في أقواله هذه ؟ فأجابوه بأنهم لم  
 يلاحظوا شيئا يشعشع سمعي .

وقد علمت بعد ذلك من هم هؤلاء الذين أوبدوني في ذلك  
 المركز الحرج . ثم قال لي أنت سمع هذه المرة وعليك أن تتأخر في  
 المستقبل . ثم عد لي يده لأقبلها وأمرني بالانصراف .

وفي اليوم الثاني طلبني وحدثني بكل لطف طالبا مني أن أحذر  
 أعدائي وأن أجتهد بقدر المستطاع حتى لا يكون لي أعداء وأعلمني بأن  
 للهدية تتبع قواعد الاسلام فإذا ما شهد ضلتي في أي دعوى شاهدان  
 وجبت أدانتني حتى ولو كان الشاهدان كاذبين وفي هذه الحالة  
 يصح العفو عني غير مستطاع فكيف يحلو لي العيش والحالة هذه  
 وحياتي: أصبحت بإرادة شخصين يريدان الإيقاع بي . ولكنني على  
 كل حال شكرته على نصيحته الغالية وقلت له يا مولاي اني أعمل  
 دائما بقدر استطاعتي لأرضاكم حتى أكون دائما محل تقديركم .

ولما عدت إلى منزلي وقد انتصف الليل كنت في أحد حالات  
 النصب راجيا في الراحة فقابلني خادمي سبط الله وأبلغني أن تابعا  
 من أتباع الخليفة جاء حالا معه سيفة مقنعة أرسلها لي وهي ينادي  
 الآن . فسررت عند سماعي ذلك لا لشيء سوى أنني تيقنت من رفض  
 الخليفة وتحققت أن قد زال كل شيء من نفسي . ثم ذهبت مع

صعدت إلى المنزل فوجدت تحت القناع سيدة مصرية ولدت بالخرطوم لا بأس بجمالها فبعد أن تبادلنا التحيات يادرتني يسرد تاريخ حياتها مدعية أنها ابنة شهاب مصرى وقد علمت بعد ذلك أنها ابنة جندي وقع قتيلا في حرب الشملك وأن زوجها الأول قتل في الحملة التي أرسلت للاستيلاء على الخرطوم وأن أمها حبشية لا تزال على قيد الحياة . ثم قالت أنها كانت إحدى نساء أبو النجعة العديديات وأن الخليفة اختارها الآن لتكون زوجة لي خلفا لذلك البطل العظيم . وقالت لي أنه سبق للاستيلاء أن أسروها وكان زكي طومال هو الذي أطلق سراحها . وقالت أخيرا أن لديها معلومات قيمة عن المارك التي تشبث في عهد أبو النجعة .

وحكاية هذه السيدة هي أن الخليفة كان قد أصدر أوامره بإحضار أرامل أبو النجعة إلى أم درمان فلما حضرن أخذ يوزعهن على أتباعه . وقالت لي أنها لم تقبض جثا لوقوعها مع شخص من أبناء جلدتها فأجبتها في الحال بأنني أودى وأن ما حصل من تغيير لوني إنما كان بسببه ما أنا عليه من الحال واضطرت إلى أن أقول لها أنها ستكون موضع عنايتي .

ولما كنت في أشد الحالات والتعب طلبت إليها أن تتبع الخادم صعدت الذي سيجهد لها كل سبل الراحة . قلت في نفسي أن الخليفة بدلا من أن يأمر خازن بيت المال بأن يمدني بالمساعدة للضياء حاجياتي الضرورية يمت لي بتلك الزوجة التي تزيد في شغالي وتمي .

وفي اليوم التالي سألتني الخليفة عما إذا كنت قد أعجبت بهديته وهل أنا راغب فيها . فأجبت بأنني سعيد لأنني شعرت برضاء مولاي عنى وأنتى أتمنى أن يعطيني الله سبحانه وتعالى مقمولا دائما برعايته .

ولما عدت الى منزل قبل صلاة الظهر وجدته مزدحما بالنساء  
اللاتي دخلنه بالمرء كما ابلغني سعد الله مدعيات انهن اقارب فاطمة  
البيضاء كما كانوا يسمون السيدة التي بحث بها الى الخليفة ووجدت  
ضمنهن امرأة مسنة قالت لي انها والدة فاطمة وانها مسرورة لان ابنتها  
اصبحت لي ورجعتي ان احسن رعايتها . فاخبرتها بان بنتها ستكون  
هائما موضع عنايتي وسيتولى في منتهى الهداء والسرور واعتكزت  
لهن بكثرة اشغال ثم انسحبت بعد ان طلبت الى سعد الله ان يحسن  
وفادتهن على حسب عافلت البلاد وان يخرجهن بعد ذلك ولو أدى  
الأمر الى استنساخ من يساعده .

وعظمت بضعة ايام ثم سأل الخليفة عن فاطمة مرة اخرى .  
وهنا اتى كنت أعلم جيدا انه يريد دائما ان أعيش عيشة الوحدة  
ولا أخاطب أحدا لخبرته فاني لا أرى مانعا من أن تعيش معي غير ان  
لها عدة اقارب يترددون عليها طول اليوم وعلى ذلك قد تضررتني  
الظروف الى مخالفتهم وهذا أمر يأباه مولاي وتآباه نفسي ولذلك فاني  
سأمرها بأن تنضع لأوامري وتمتنع عن الاتصال بأهلها وصارفيها  
بقدر الامكان ، فاذا لم تنضع فاني أفضل تسليمها لأقاربها . فارتاح  
الخليفة لهذا الاقتراح ارتياحا تاما الا انه منذ طرد سعد الله الزواجر  
في أول مرة لم يعد أحد يقفم الى دارنا . ومثالة ان يسمى الخليفة  
الظن في قصدي توأيت قليلا في تنفيذ ما قررت .

وبعد مدة أرسلت فاطمة البيضاء الى أمها وكلفتها بالانتظار هناك  
حتى أبحث اليها . وعرف سعد الله دار أمها فبعد مدة أرسلت لها  
ولامها ملابس وتقودا ورسالة اخبرتها فيها بانها أصبحت طليقة غير  
خاضعة لأوامري .

وأخبرت الخليفة بذلك قائلا له ان لستك هؤلاء القوم الغريباء  
عنه وعلى لا يجوز أن يكون لي صلة بهم وانى دائما أبدا على استعداد  
تام لاطاعة أولاده .

وبعد مضي سنة تقريبا جاءته الأم تستأذني في زواج بنتها  
من أحد أقاربها فوافقت على ذلك بسرور تام و قد تركت فاطمة البيضاء  
في أم درمان مقيمة بين أولادها .



## الفصل الرابع عشر

### تشتت وتفريق

قد عهد حاكما لدافلة عدوى خالده الذي كان مسجونا منذ  
بضعة أشهر ولد حل محل يوسف الآلهة لم يقض شهران على هذا  
التعمين حتى ذهب ضحية السماتس التي كان يمسها له اثنان من  
ابناء عم الخليفة كالما قد ذهبوا لراية حركاته وافعاله . وقد استسماه  
الخليفة ثانيا الى أم درمان ووضع مرة ثانية في الاغلال . فهذا الصل  
كان من شأنه أن زاد هياج اقارب المهدي وانصاره وعقب ذلك اتفاق  
الخليفة محمد حريف والثنين من اولاد المهدي لم يلبثا الطفرين من  
عصرهما مع كثيرين من الاقارب على أن يعملوا جميعا للتقبض على ناصية  
الحكم وكبح جماح الخليفة عبد الله . فعلا أخذوا في اعداد الخطة  
اللائمة سرا في أم درمان وبدلوا كذلك يستعملون الاصطفاء وابناء  
القبائل وارسلوا كتبه الى « الدافلة » القاطنين بالجزيرة يدعونهم  
المحضور الى أم درمان للاقتسام اليهم . ولكن حدث أن أحد الأمراء  
الجميلين الذي كان قد اتسم بالا يروح لأحد بنوه الا لأخيه وأعز  
صديق عنده خدع القوم وخانهم وذهب يطلع الخليفة على الأمر صغيرا  
ايام اقرب الأصحاب . فلما وثق بالخليفة عبد الله على امر هذه  
المؤامرة أخذ يعد المصائد لاحتياطيها ألا أن جواسيس الاشراف علموا  
عرفوا أن مؤامرتهم اكتشفت وعرفوا ما يدبره لهم الخليفة اجتمعوا

في جزء من المدينة والحق في شمال بيت الخليفة واستمروا  
للمركة .

وأما أنا نفسي فقد كنت مشتتاً لرؤية هذه الحركة فما انخسأ  
وحياتي كانت نل يوم في خطر . وإن دام ناطري خدمة عدلان الذي  
كان الصديق الحميم للخليفة فقد شفقته ومثل به وقد تأكلت أن  
عبد الله ما كان يهتم البتة بأرواح أعز أصدقائه وأحبهم إليه وإن هذه  
الحرب الداخلة لابد أنها ستضعف أعدائي ، والخليفة والصارم ،  
وإذا كان لي من وراء ذلك الاضطراب المنتظر حثوته أمل في أن  
أسترد حريتي ورسبي في مقدوري أن أستعمل نفوذي في جيش  
الحكومة الذي ظهرت فيه نزعة الاستياء بسبب المعاملة التي كان  
يلقاه .

ولقد كان من المستحيل على الإنسان في مثل تلك الظروف أن  
يرسم لنفسه خطة واضحة وكل ما كنت أرغبه هو أن تقوم الحركة  
وأن يكون لي من وراءها أكبر قسط من الفائدة الشخصية .

بعد ذلك ابتدأ الفريقان بتبادل الطلقات النارية إلا أن ذلك  
لم يكن إلا أيناذا بين الحركة الحربية بين الطرفين .

وقد كان الفريقان في حالة لا تسر ، فكانت الأسلحة من النوع  
الردى . ولم يضر غير وقت قصير حتى انتهت تلك الحركة وعادت  
الحساسة بخسة قلبي .

بعد ذلك عرض الخليفة طلب الصلح وأن يعين الاشراف شروطهم  
وقد دارت المفاوضات طول اليوم بين الفريقين ولحلا عادت سيرتها في  
اليوم التالي . ومن سوء حظي أن الفريقين وصلا إلى حلول مرضية

اتلقا عليها ووافق الخليفة وحلف وتمهد بتنفيذها بعد أن علنا عن كل التهمين .

وقد منح الخليفة محمد الشريف مركزا ساميا وأن يحضر جلسات مجلس الخليفة كأحد أقطابه وقد قرر منح كثيرين من أقارب المهدي إعانات من بيت المال .

وعلى ذلك سلمت الجنود أسلحتها إلى الخليفة وبذلك تم توقيع الصلح .

وفي يوم الجمعة التالي حضر أمام الخليفة قواد الجيش ونالوا منه المكافآت التي كان قد أعدّها وفي ظهر ذلك اليوم نفسه اجتمع الخليفة الشريف وأولاد المهدي وعبد الله نفسه .

وبذلك وطلت الآن أركان الصلح بين الفريقين وأصدرت الأوامر إلى رجال المغمية والمثناة بأن يعودوا إلى مراكزهم الأصلية غير أن الملازمين والجهادية كلفوا بالبقاء حتى يتم تسليم السلاح جميعه .

وفي يوم أحد بعد الظهر أرسلت خلدا إلى الأب « أوهرو الدو » لاستئصال عنه لوجود بابه مقللا وقد حاولت الاستفسار عنه من جيرانه الاغريق فلم يتمكن من الاستدلال على مكانه ولا مكان أفراد عشته .

وقد خيل إلى في الحال أنه في أثناء الاضطراب ربما يكون قد تمكن بحرفة مخلصين له من اللياذ بالفرار .

وقبل صلاة المغرب حضر رئيس الدين اعتنقوا الدين الاسلامي يهون وغيتهم والسوري « جورج استمبول » وطلبنا أن يؤذن لهما بمقابلة الخليفة حالا لأمر مهم ولكن الخليفة ، وكان في تلك اللحظة

مغشولاً أمرهما بالانتظار في المسجد حتى يأذن لهما ويهد تاديه الصلاة طائهما إليه وسألهما عن مرغوبهما فقالا له : ان يوسف التسيس ومن معه من النساء هربوا جميعاً ففى الحال طلب د نور الجرباوى « خازن بيت المال ومحمد وحميد حكمدار البوليس وطلب اليهما ان يمتلا ما لى وسعهما للقبض على الذين هربوا واحضارهم الى هنا احياء أو أمواتا » .

وكان من حسن حظ هؤلاء اليونانيين ان الخليفة كان مشغولاً بأشياء مهمة ولولاهما لكان وجه كل قواء للقبض عليهم والتمثيل بهم .

وعلى ذلك لم يتمكن الجرباوى وزمبته الا من الحصول على ثلاثة جمال للحاق به « نوهرويلدر » الذى كان يعلم جيداً ان هروبه متوقف على السرعة .

وقد تمليت من صميم قلبى ان يفوز هو ومن معه بالهرب فقد تمذبوا كثيراً ولو انى حزنت فى الوقت نفسه حزناً شديداً لأنه كان الشخص الوحيد الذى يعرف لغتى الأصلية التى كنت أحن الى التحدث بها أحياناً معه .

وفى اليوم العالى استمعنا فى الخليفة وقابلنى بوجه مكفهر قائلاً : « هو من أبناء جلدته وبطيمة الحال انك كنت تعرف جيداً عزمه على الهروب فلماذا لم تبغنى حتى كنت أعمل الاحتياطات اللازمة ؟ » فأجبته : « علوا يا مولاي كيف كان فى استطاعتى ان أعلم عن خزيه شيئاً وأنا منذ قيام الحركة الأخيرة لم أنتقل من مركزى بالليل ولا بالنهار كما تعلم يا سيدي » فأجابنى بكل حدة : « لا شك فى ان قنصلكم هو الذى دبر لهم طريقة الهرب » .

وكان من بين الخطابات التي وردت أخيرا واحد منها جاء للـ  
الخليفة باللغة العربية من انفصل العام لمؤلة النساء والمجر المسير  
« فون دوستي » يشكره فيه على حسن معاملته للبعثة الكاثوليكية  
ويطلب اليه أن يسمح لهم بمقادرة السودان والعودة الى أوطانهم حيث  
انهم من رعايا الحكومة النمساوية وأن لجلالة الامبراطور غاية خاصة  
بهم وعند هذا اليوم اعتقد أن أعضاء هذه البعثة من أبناء جلدتي وهو  
متين الآن بأن أمرهم دهر بمعرفة التفصل المتباد اليه .

وهنا قلت للخليفة : « ربما يكون للقبائل النازلة على الحدود  
يد في تدبير حربهم لفتية وعبروا ينهلوا يحضروا الى أم دوس  
وانتهزوا فرصة الثورة التي قامت ومهتوا السبيل » لاوهر والد «  
ومن منه للهرب - وقد التفت للخليفة بهذا الرأي - وبعد أن طلب  
الى أن أكون دائما مخلصا أمرني بالانصراف .

وبالرغم من الوعود التي قطعتها للخليفة على نفسه للاشراف  
بالا يسكن صفو الود والاتفاق الذي تم بين الفريقين بلاجبرو التي  
القبض على ثلاثة عشر من زعمائهم بينهم أعوام المهدي نفسه وأرسلهم  
بمركب الى فاشسوده حيث يوجد زكي طومال الأمير للحلف الأمين  
للخليفة والتي كان قد ذهب الى هناك لاختاد ثورة « الفلدا » .

ولا وصلوا الى فاشسوده وضعهم زكي في ذرية وتركهم بدون  
طعام الا القدر اليسير ثمانية أيام - ولا جاءت التحصينات السرية  
لامدادهم شرها بعض تقطع من أشجار الشوك فقد ذلك الأمر بحضور  
رجال جيشه بعد أن عراهم من ملابسهم .

بعد ذلك عاد زكي طومال الى أم درمان ومعه غنائم كثيرة  
اذ أحضر معه ألفا من الرقيق من النساء وقطعان من الماشية بأعيا

بمبالغ عظيمة حصل عليها بالفعل . وقد شكوا كثير من الناس زكى  
الى الخليفة من شدة ظلمه وطيئانه وكان بعض الناس يقولون  
للخليفة اذا اكتسبه قلوب عدد كبير من أتباعه يمكن أن يستقل ويشق  
عصا الطاعة .

غير أن ما قلعه زكى اليه ولأخيه من الهدايا الثمينة من رقيق  
ومال ومائنية حفظ له مركزه عندهما .

ولما كان زكى طومال يأم حرمات قام الخليفة بمهمة مناورات  
عسكرية تولى قيادتها بنفسه غير أن جهله بالحركات العسكرية وعدم  
النظام السائد بين الثلاثين ألف عسكري جعل هذه المناورات تفتعل  
فجلا تاما ، ولكن اللوم وقع على رأسى حيث كنت قائما بوظيفة أركان  
حرب ولما رأى ما وقع فيه من الارتباك قرر بأن هذا العمل كان مقصودا  
منى لآنى علمت لى تنفيذ أوامره . وأخيرا صرف الجنود وبعت بزكى  
طومال الى القلايات وطلب الى كعادته أن يملك أوامره كما هى وأحدى  
الى جاريتين صغيرتين علامة الرضاء .

والآن وقد سمع الخليفة شريف بما حدث من قتل أقاربه  
أعلن استيلاء الشدييد وسخطه على الخليفة جزاء ما ارتكب ، وبذلك  
تمكن الخليفة عبد الله من إيجاد مبييل الى محاكمته لفسرعان ما اتهمه  
بأنه خسارح على القالون غير مطيع للأوامر وكون المحكمة لتحاكمه  
بجثة عدم الطاعة .

وبالفعل قرر القضاء إدانة الخليفة شريف وأصدروا الأوامر  
بالتبش عليه .

وفى اليوم التالى ذهب الضباط لتنفيذ هذا الأمر فى منزله  
الواقع بين منزل عبد الله وقبة المهدي وهناك أبلغوه الأمر ونصحوا

اليه بأن يطيع أوامرهم ولا يظهر أى مقاومة • وفى الحال أصبح تحت تصرف الضباط الذين كان يرأسهم عرابى ضيف الله ولا طلب اليهم أن يسمحوا له بلبس حدائه ولخصوا ثم سألوه بكل عنف وشدة للرجة أنه وقع على الأرض مرتين • ثم وصلوا الى السجن وهناك وضعوا فيه الميود الحديدية ومنعوا أيا كان من الاتصال به وجعلوا الأرض المارية مقبدا لله والسماء غطاه •

وقد أرسلوا أبناء المهدي الى جنهم • أحمد شوقى • وأمره بأن يقيمهم عنده محبوبين لا يتصل بهم أحد - وقد كان جنهم يطيع الخليفة طاعة عمياء خوفا على ثروة طائلة اقتناها من أن يصادروها منه - فنفذ الأوامر الصادرة اليه كما صدرت •

وقد مرت بى بعد ذلك ساعات دقيقة للغاية فقد أرسل يونس رجلا من دقله الى الخليفة معه معلومات مهمة من الحكومة المصرية • وقد قابله الخليفة بنفسه بحضور جميع القضاة وقد دخلنى القلق فى أن ما يدور عليه بالحديث هو بخصوصى • وقد حاولت استطلاع حقيقة الأمر من أحد القضاة وكان صديقى الا أنه أجابنى بالا أجمل للأمر أهمية عظمى • وبعد الصلاة اجتمع القضاة والرسول بالخليفة مرة ثانية ولم تكفى غير برهة حتى رأينا الرسول قد كبلت يده بالحديد وأرسل الى السجن ولقد التفتنا عندما رأينا ذلك للنظر •

وفى اليوم التالى لما ذهبنا الى منزلى لبرهة قصيرة طلبنى الخليفة الى حضرة فتوجهت حيث كان مجتمعاً ببعض القضاة وبنائه على أمره أخذت مكاني بينهم ثم ابتداء يقول وقد وجه نظره الى قضائه : ولطالما نصحتك بأن يكون مخلصا لى والى دائما أعامله معاملة الأب لابنه وما كنت أصلى ما يصل الى من الوشايات بخصوصه ولطالما طوت عنه • • أخذ يقول كل ذلك عنى لقضائه ثم التفت الى قائلا :

أن الملك العربي يقول : « لا يوجد الدخان إذا لم توجد النار » وأنت  
يحوم حولك دخان كثير .

وقد قال الرسول امس أنك جاسوس الحكومة وأن مرتبك يدفع  
شهريا إلى مندوبك في القاهرة حيث يرسله إليك هنا . وهو يوقن  
بأنه رأى موقيعك في ديوان الحكومة هناك . وأنت الذي مهدت إلى  
يوسف القسيس الهرم وقد قال أيضا أنك تعمل لتسهيل الاستيلاء  
على أم درمان بواسطة الانجليز . وأنت ستشعل النار في مخزن البارود  
الوجود بغرب منزلك حينما يبدؤون بالزحف . فلماذا تقول دفاعا عن  
نفسك ؟ ؟ فاجبت :

« مولاي ! إن الله لا يظلم أحدا وأنت رجل الحق والعدل واني  
اقول باني لم أكن قط جاسوسا ولا صلة لي بالمرء مع الحكومة المصرية  
واني لم استلم قط نفودا هنا . وأن ضباطك لم يبق من أئمة في  
أشد حالات البؤس والشفاء وأن احترامى الشديد لشخصك هو الذى  
يمنعنى من أن أطلب إليك مساعدتى . وهما أنه روى لولاي بأنه  
أطلع على امضائى هناك فأتى ألهمة بالكذب وأنا موقن بأنه لا يعرف  
لغة اجنبية وإذا أردت ياميدى أن أكتب على قطعة ورق عدة امضات  
ثم تعرضها عليه ليستخلص منها امضائى التى يقول عليها بأنه رآها  
هناك بالقاهرة لفعلت . وهذا يتضح لك جليا إن كان حقيقة يعرف  
اللغات الأجنبية أو لا يعرفها وأنت تعرف يا مولاي أن يوسف  
القسيس هرم فى وقت ما كان فى استطاعته الاتصال به .  
ولو كان فى اتصال هؤلاء الذين يهتكون الهرم فلم لا أمهد لنفسى .  
ومن السهل جدا على الانجليز أن يعلموا أن منزلى يجوار مخزن  
البارود لأن الرجل الذى جاءنى بالخطابات التى بعث بها إلى اخوانى  
بأنى منزلى قريبا يكون هو الذى حدثهم بذلك .



ومن الجائز أن أقاربى الذين قطعت كل صلاتى بهم بناء على أمر مولاي يسألون عنى وعن مرتبى فى دواوين الحكومة المصرية طنا منهم أن السودان لا يزال جزءا من مصر أو يسألون التجار الذين يقعون منه إلى القطر المصرى وبطبيعة الحال يعلم هؤلاء التجار جيدا موضع منزلى بالنسبة لمخزن البارود • وانى لوأن بأن الحكومة المصرية لا تفكر مطلقا فى الكر عليك وأنت هذا الخليفة القوى البطرس • وإذا سلمنا جدلا بأن الحكومة تفكر فى هذا الفزو فمن أين جادنى التأكيد بأننى سأبقى فى مركزى وأتمكن من تنفيذ المهمة التى يقول عنها ؟ هذا فضلا عن أنى كما تعلم يا مولاي كنت الخادم ولا زلت الأمين المخلص وانى أتمنى بأن أكون دائما فى طليعة جيوشك الفازية لتصرتك على أعدائك •

• الى يا سيدي بعد كل هذا الإيضاح الذى أوضحته لا أعتمد الا على أنك لا تنظم أمرا •

ثم قلت : « وحل يحق لك أن تضحي بمخلص أمين لك من أجل وقاية » دنقلاوى « لبادرنى بقوله من أين علمت بأنه » دنقلاوى ؟ » فقلت له متبعدة رأيت هذا الرجل يبابك مع عبد الرحمن وأد النجومى الشامى ، وعظما السخافته والحاحه طردته بالقوة فهو يريد لنفسه الآن الانتقام فانت يا مولاي وقد متحك الله العدل والإنصاف مستحكم فى بطبيعة الحال بالبرامة •

فقال لى : « ما طلبتك هنا للمحاكمة ولا شككت لسطة فى اخلاصك ولو كان الأمر فيه فى يمينك ما كنت أمرت بسجنه وانى ليل يفهم من أن أعداءك كثيرون وهم يحاولون دائما الإيقاع بك لأنهم يفارون من وجودك بقرير • ولكن يجب عليك أن تحاذر واعتقد دائما أبدا فى المثل القائل : « لا يوجد الشئان إلا حيث توجد النار » •

وبعد ذلك أمرني بالانصراف ومن لم انصرف الجميع .

ولقد سألت أحد أصدقائي عما قاله الخليفة بعد خروجي فأخبرني بأن الخليفة اعتبر الرجل كذابا ولكن لا يخلو الحال من أن يكون في دعواه بعض أشياء حقيقية وقد قال لي أيضا لا بد أن يكون لك أعداء بالقاهرة وهذا الرأي سبق أن طرأ لي . ولكن ما الحيلة وما الصل وأنا أرى أن خصومي يوقعون في كل يوم ويجهلون مركزى من أخرج المراكز لصرت أفكر دائما في هذه المواقف وصرت أفكر أيضا في علاقتي مع الخليفة وكيف أنها مستتار بهذه الوسائل بطيئة الحال .

وان ضيقتي من أنه أصبح بعد كل هذا يتحين لي فرصة للانتقام لاني على ما اعتقد أصبحت في نظره العدو اللدود في ثوب الصديق الحميم ، ولكن على كل حال أحمد الله ومن يعش ير .

وقد قابلت في اليوم التالي وأنا عائد الى المنزل بعد تأدية الصلاة « الترابوى » وهو الذي خلف « عدلان » في بيت المال . فحدثني بكل لطف قائلا لي - بعد أن قلت له أنك تزورنا نادرا - لقد جئت لائقك بطلبي اليك بأن تخطي منزلك اليوم - وسأعطيك بدلا منه في جنوب شرقى المسجد حيث يستقبل زوار الخليفة وهو ولو أنه يقل عن مساحة منزلك الا أنه يقرب المسجد ويصلح لرجل عابد مثلك .

فقلت له انى أوافق على ذلك بكل سرور ولكن أرجوكم أن تقولوا لي بصفة خاصة من الذى أرسلك : الخليفة أم يعقوب ؟ فأجابنى وهو يضحك قائلا : « أه - هذا سر - ولكن من حديثك أمس مع الخليفة يمكنك أن تعلم حقيقة السبب وهو إن مولانا الخليفة يريد أن يجهلك

في مكان قريب منه حتى تكون تحت رقابته مباشرة حيث ستكون  
على بعد ٢٠٠ خطوة منه .

ثم قال لي اذني متى أحضر لاستلام منزلك فقلت له سأنتهي من  
التقل في مساء هذا اليوم ولربما كان نقل مؤونة حصاني وبغلي هي  
التي تستغرق متى وقتا أطول . وهل المنزل الذي سأذهب اليه غير  
مستكون فأجابني : « نعم بطبيعة الحال » وقد أصدرت الأوامر بأن  
ينظف وتصل الإصلاحات اللازمة له . ولكن يحسن بك أن تبقي  
في مفادرة هذا المنزل حالا وآمل أن تكون سعيدا في منزلك الجديد  
أكثر مما أنت عليه من السعادة هنا .

ولقد وضح لي الآن جليا أن لغة الخليفة هي قد تزعزعت  
وأصبح لا يثق بي لأن آكون بجوار مخزن البارود . وعلى ذلك حزمت  
أمتعتي وأمرت الخدم بنقله الى المنزل الجديد فتأخر الخدم وأخذوا  
يطلبون الى المولى أن يوقع كل اللغات على الخليفة حيث تترك منزلنا  
الذي أصلحناه وغرمنا فيه الأشجار وحرقنا فيه الآبار . ولكني على  
كل حال غادرت المنزل مؤملا فيما قاله القرباوي من أنني سأكون  
بمنزلي الجديد أسعد حالا مني في المنزل الذي أنا فيه .

وقد أصبحت حال بعد ذلك مضطربة وأصبح مركزي مزعزعا .

ولقد تقابلت اتفاقا مع تاجر من دارفور جاب الديار المصرية  
والبلاذ السورية وعرف كثيرا من أجناس البشر المختلفة وقد عرف  
أولاد وحلة أنني تمسوى الأصل وأخذ يحادثني - وعلم بأنني أسير  
من مدة طويلة ولا صلة لي بأي مخلوق - عن الأحوال في القطر  
المصري وأعطاني بعض الجرائد المصرية القديمة . وتحتوي إحدى  
تلك الصحف على أخبار من النمسا . ولما توجهت الى المنزل وابتدأت

القلب صفتها علمت أول ما علمت أن ولي عهدنا الأمير روثلف قد  
توفي - ولا يمكنك أيضا القارىء أن تتصور مقدار الحزن الذى حل بى -  
لقد خدمت معه فى الجيش وقد كان يودى أن أرجع إلى وطنى وأبلغه  
بمد طول الأسر أن أشرف ساعات قضيتها فى حياتى هى تلك الساعات  
التي كنت فيها تحت امرته وأعظم شرف لى إن أنتهى إلى الفجيرة  
الإمبراطورية - ولقد فكرت طويلا فيما عساه أن يكون قد أصاب  
إمبراطورنا العظيم بفقد ولده -

لقد حلت بى الأحزان فى هذا الوسط المزعج الذى أنا موجود  
بينه وقد كان زملاى وهم لا يدرون أسباب حزنى يطلبون الا أظهر  
أسلى لا بالنسبة لتركى منزلى الأول حيث أن الخليفة أصدر أمره  
إلى جواسيسه بأن يراقبوني جيدا فابتدأت أظهر علم اهتمامى بأى  
شئ مطلقا -

وقبل ذلك بسنة وجيزة كان المصريون قد استولوا على طررك  
لهم لا محالة راجعون ، ومن أجل ذلك استبدى الخليفة « أبو حرجة »  
ولى بدمه قيادة الجيوش واجتاز من آثاره اسمه « مسعود » وقد  
أرسل « أبو حرجة » بباخترين إلى الأقاليم الاستوائية ليحقق بصر  
صالح الذى كان قد ذهب إلى الرجاء ليقم هناك مركزا لجيوش  
البرابرة لصد حملة « ستالى » و « أمين باشا » -

وبعد مضي أيام قليلة لسفر هذه البواخر مرض الخليفة بالحمى  
التيفوسية ، وكان عموم سكان أم درمان يستطعمون أخبار هذا المرض  
أولا فأولا -

وأصبح جميع سكان أم درمان يراقبون أخبار مرض الخليفة  
بفارغ الصبر وكانوا يتوقعون أن موت الخليفة يغير نظام كل شئ -  
وطبيعة الحال إذا مات فسيخلفه الخليفة « على واد الحلو »

حسب ما تقتضيه اللوائح المهدية وكان هذا يترقب وفاته بكل سرور  
وقد أظهر ألباعه الرغبة الشديدة في الاستيلاء على الحكم . بعد ذلك  
أبتدأت حالته الصحية تتحسن وقد خيل الى أن الله سبحانه وتعالى  
لم يهين بعد لهؤلاء القوم النجاة فيقضى على حياة هذا الطاغية .

خرج الخليفة بعد ثلاثة أسابيع من مرضه لأول مرة فهايله  
رجال قبيلته بالثجلة والتنظيم والنبطة والسرور بينما أظهر له بقية  
السكان سرورا مصطنعا وعلى ذلك لم يعرف شعور الناس نحوه حق  
المصروفة .

وسيث كان يقطن بين النهرين في الجزيرة قبائل « الجالان »  
و « الدناجالا » وغيرهما من الاعراب الذين يعرف الخليفة عنهم أنهم  
ألد أعدائه فكان دائما يرأبهم عن كتب ويدعهم عزلا من السلاح  
مصادوا كل ممتلكاتهم وكان يتشعب من بينهم آثا بعد آخر عندما يرسله  
لتعزيز حامية دارفور والولايات والرجاف .

وكان يعتقد دائما أن الخليفة على وألباعه يخطون عليه ولو أنهم  
كانوا يظهرون له غير ما يخفون إلا أنه ما كان يتوقع قط أن يعلنوا  
للعهد كما أعلنه من قبل الاشراف .

والآن وقد أصبحت أظن على بعد خطوات منه أخذ يسأل عنى  
كثيرا زملائي ويطلب اليهم إبلاغه هل أنا سرور من مكاني الجديد  
أو لا . وكان يترقب بفارغ الصبر وقوع حقوة عنى ولكن من حسن  
الحظ كان الملازمون يخطفون على ديبنى وبينهم صداقة وكانوا  
يسرون لى بين آن وآخر أن الخليفة أصبح شديد الحقد على . ويجب  
أن أكون شديد الحذر .

وفي ذات يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٢ لا حصلت على  
إجازة قصيرة لاستريح فيها من عناء العمل طلبني أحد الملازمين إلى  
الخليلة وبهد أن ذهبت وجدته ينتظرني في سجرة الاستقبال محاطا  
بقضاياه . ولقد صلت ما قيل لي من أول وهلة حيث لم يرد تعييره  
وأمرني بأن أخذ مكاني بين قضاياه .

وقال لي بكل حدة هذا الشيء وانظر إلى ما يحتويه . فقصت  
واستلمت القيد المشار إليه ثم جلست فإذا به قطعة مستديرة من  
النحاس على شكل علبة صغيرة قطرها يقرب من أربعة سنتيمترات  
مغلقة بقطعة من المعدن متينة كقبضة المسدس ، لحاولت فتح هذه  
الشيء وبعد أن لمكنت وجدته يحتوي على قطعتين من الورق .

وبطبيعة الحال كنت في هذه اللحظة في أشد حالات الاستفراجه  
وقلت في نفسي لعله خطاب من أهل أو من الحكومة المصرية استنصره  
الرسول .

ولما مسكت قطعتي الورق حاولت قراءة ما تحتويانه فوجدت  
مكتوبا فيهما باللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والروسية  
ما يأتي :

« هذا الصغور نلما وتربى بضيمته في » اسكانيا « في مقاطعة  
« فوزيل » بجنوب روسيا كمن يمسكه أو يقتله فالمرجو منه أن  
يكتب لي ويخبرني عن مكانه » .

قرعت رأسي بعد ثلاثة هذا الخطاب فقال الخليفة ما هو  
المنون بهذه الأوداق فأجبتة قائلا : يا سيدي لابد وأن تكون هذه  
القطعة كانت عملة في رقبة صغور قتل وأن صاحبه الذي يسكن في  
أوروبا يطلب إلى من يقتله أو يمسكه أن يكتب إليه ويخبره عن المكان  
الذي مسك فيه أو قتل .

فقال لي لقد قُلت مسلماً فحقيقة قتل هذا المصفور بالعرب من  
جانبه ووجدت هذه القطعة برقبته ، والد الله من قتله إلى الأمير  
يونس الذي عجز كاتبه الخاص عن تفسير ما هو مدون به ، وبعد  
ذلك بعثوا به إلى فتبرني بترجمة ما هو مكتوب فيه .

فترجمت الجملة كلمة كلمة كما أراد الخليفة وبينت له موضع  
القطعة التي جاء منها هذا المصفور وكذلك المسافة التي قطعها - فقال  
الخليفة هذه خرافات يضيع بها الذين لا عقيدة لهم أوقاتهم ، فبعده  
على محلي أن يجهد نفسه في خرافات كهذه .

بعد ذلك أمرني بأن أسلم العلية إلى سكرتيره وأمرني بالانصراف  
غير أنني تصفحت الورقة مرة ثانية بكل سرعة وعلقت منها كلمات  
« استكانيا - نونا - فوريدا - بينوب الروسية » وأخذت أكرر تلك  
الكلمات حتى علقت بـ « كرتي » - وقد كان الملاذعون في انتظارى  
خارج الباب وهم في غاية التوق إلى سماع أخبارى ولما راونى خارجا  
وعلى وجهى علامات السرور فرحوا بكراحي .

وقد صرت أكرر وأنا في طريقي إلى منزلي تلك الكلمات وتكررت  
إذا ملحتني الله سبحانه وتعالى حررتي لأبد من أن أذهب إلى هذا الرجل  
وأبلغه ما طلب وماذا حدث للمصفور . والآن عاد محمود أحمد -  
وهو الذي حل محل عثمان وإد أحمد لما توفي - إلى أم درمان بجيوشه  
البالغة خمسة آلاف بدوي ولم يترك بها غير ما يكفي لحفظ النظام  
وعسكر بهذه الجيوش عند عين يونس في جنوبى المدينة .

وقد أمر الخليفة باستعراض جميع الجيوش النازلة في أم درمان  
وبطبيعة الحال ستكون نتيجة هذا الاستعراض كنتيجة سابقة وقد  
كنت أركان الحرب وكل حفوة تقع على مسؤوليتها .

بعد ذلك أمر محمود أحمد بالعودة إلى القاهر بصد أن يجد  
عساكره يعني الإخلاص للخليفة . وقد وجه الخليفة نظره الآن إلى

الجهات الاستوائية فبعث بباخرتين أخريين بهما ٣٠٠ رجل تحت  
 إمرة قريبة عرابي ضيف الله . أسلمها إلى الرجاف ولدى عرابي  
 الأوامر بالقبض على « أبو حرجة » وأن يكبله بالحديد . وقد ظهر  
 جليا أن هذا الأخير لم يرمثل إلى الرجاف إلا خدعة .

وجاء بعد ذلك دور زكي طومال فحمله عليه يعقوب فأمره أن  
 يعود حالا إلى أم درمان حيث رجوة في السجن وتوضعوا على جسسه  
 أكبر كمية ممكنة من الحديد تعديدا له . بعد ذلك وضعوه في مشاة  
 وكلموا صلواته بكل الناس ولم يسمحوا له حتى بالخبز الضروري  
 لفدائه فمات بعد ٢٠ يوما جوعا وعطشا .

وقد حل الآن بدله في قيادة الجيوش أحمد واد على قاصدر لله  
 الخليفة الأوامر بفزو القبائل النازلة بين كسلا والبحر الأحمر .  
 وكانت خاضعة للإيطاليين ولكنه تلقى أوامر بالانسحاب جيوشا محصنة  
 في حصون . ولما توجه على رأس جيشه في نوفمبر سنة ١٨٩٣ من  
 الضارف لمح بالقوة المعسكرة في كسلا وهناك توجه إلى « أجردات »  
 نواحي القرات الطليانية وكانت قليلة العدد إلا أنها متحصنة . وبالرقم  
 مما أمر به الخليفة هاجمها لقلتها في نظره فهزم شر هزيمة وقتل هو  
 نفسه وقتل قائدان من قواته .

وفي أثناء هذه الحملات الخفيفة وإذا بباخترتين -فقدان من  
 الرجاف تحملان كميات هائلة من الحاج والأفا من الأسرى وبعد ذلك  
 بقليل وصلت أخبار غير سارة من دارفور وقد روى محمود أحمد أن  
 المسيحيين دخلوا مناطق بحر الغزال وقد اتحدوا مع القبائل النازلة  
 في هذه الجهات وقد وسلوا بالفعل إلى حضرة النحاس . وقد  
 ولعت تلك الأخبار على الخليفة كاللصاعقة .



ولما كانت مصر تحكم السودان جند المصريون من أهالي أفليم  
بحر الغزال الكبير ، منهم من قبل برعيته ومنهم من أجبر على التسول  
في سبيلك العسكرية . ولما كانت مناطق بحر الغزال أعلي بكثير من  
غيرها من مناطق السودان وعزروعاتها كثيرة ، وماؤها عذبة . ولما  
كانت القبائل الساكنة في تلك الجهة متفرقة الكلبية . سهل كل  
ذلك على أي أجنيبي يريد الاستيلاء عليها ، وهذا هو ما قد حصل .  
وبأن في نظر الخليفة أن من يستولي على هذه المناطق فقد استولى على  
مفتاح السودان ياجمه . وما زاد الطين بلة أن العبيد يكرهون  
العرب كراهة لا مزيد عليها .

وقد أمر الخليفة في الحال محمود أحمد بأن يجند من جنوبي  
دارفور ويزحف بجيوشه إلى بحر الغزال ليكسح الأجانب الذين دخلوا  
هذا الأقليم .

ولقد استمعاني الخليفة ذات يوم وسلمني بعض أوراق مكتوبة  
بالفرنسية وطلب إلى ترجمتها وهي تحتوي على خطابين من اللغتين  
دي كليل إلى مساعديه يشلان أوامر أصدرها إليهم . وسلمني أيضا  
نص مساعدة موقع عليها من مندوب حكومة الكنغر الحرة والسلطان  
حامد واد موسى تاريخها ٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ والشاهدان فيها  
« سلطان ريمبو » و « سلطان تيجا » وهما موقمان بالافرنجية .  
فترجمت هذه الأوراق بكل سرعة شفويا للخليفة . ولقد أراد أن  
يظهر لي عدم ائتمانه فقال : « لم أطلب اليك ترجمة هذه الأوراق  
... لأن في الأمر شيئا خطيرا » - كلا فقد أصدرت أمري إلى محمود أحمد  
ليطرد هؤلاء النصارى الذين اخترقوا الحدود ولكن هناك أمر يعني  
أن أصرخ لك به وهو بما أننا نعتبرك كواحد من عائلتنا فلا بد  
أن أفسرك بتفيقة هذا الحال وعلى ذلك قررت أن أوجه واحدة من  
بنات أهامي . لماذا ترى ؟ »

وبطبيعته الحال لم تلهثنى هذه المنحة فقد عودنى الخليفة  
 أمثالها من قبل وتيقنت من حقيقة ما يقصده فهو يريد أن يبعث لى بمن  
 تكون رغبة على أحوالى مختلطة • هو يريد أن يعلم حقيقة أسرارى •  
 يريد أن يعرف إذا كانت هناك صلات بينى وبين أى مخلوق آخر •  
 فقلت له يا مولاي اننى ادعوك بالنصر على كل أعدائك • أن هذا  
 الذى تريد أن تولينى إياه باقتراعى بابنة عمك شرف عظيم • وانى  
 أقول لك يا مولاي ان ابنة عمك هذا لم تكن من بيت الملك فقلت هل  
 هى من سلالة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام • وعلى ذلك يجب  
 أن تكون موضع كل عناية ومشغولة بكل رعاية ولما كان من سوء  
 الحظ انى مصاب بداء الحماقة ، والحالة أعيت من يدورها وقد  
 لا يمكننى أن أحكم مواطنى عند حدوث أى حادث ولا تنضى نتيجة  
 هذا بين الزوج وزوجته وقد يؤدى هذا الى نفور قد يحصل لا سمح  
 الله بشئ • ولأى فارجو عذرتى اذا رجوت عيلى أن يترك  
 هذا المأوى •

فقال لى : الآن وقد عشت بين ظهرانينا عشرة أعوام خبرناك  
 فيها وعرفنا خصالك وعاداتك فلم أسمع منك الا كل طيب  
 وكل ما يتخيل لى من أمرك هذا أنك لا تود تغيير العادة التى ورثتها  
 من قبيلتك الأصلية بأنك لا تريد الا زوجة واحدة ( والخليفة يقصد  
 من كلامه هذا أنه باعتبارى مسيحياً فلا أتزوج الا واحدة ولذلك  
 أرفض أن أتزوج بابنة عم ) فقلت له : لا يا مولاي فالى لا أتبع عادة  
 بلادى مطلقاً وان كنت أتبعها فلماذا تزوجت بثلاث نساء قبل الآن •  
 فأجابنى فهمت على كل حال فأنت ترفض زواج ابنة عمى !! فقلت له :  
 كلا يا سيدى فانا لا أرفض ولكنى أريد قبل الاقدام على أى شئ أن  
 أوضح لك حقيقة أخلاقى • وبذلك أضمن المواقف • وبطبيعة الحال  
 أنه لما يفرقنى الاتساع الى قبيلتكم • الا الى أود قبل كل شئ  
 أن تكون مولاي على علم تام والآن وقد تيقن أن محاولتى هذه كلها  
 علامة الرفض أمرنى بالانصراف •

وقد وضعت نفسي بعدم القبول هذا في مركز حرج للفأية  
وهذا ما جعلنى أزيد فى جهدى لتغيير أمر الهرب .

وقبل هذه الحادثة ببضعة أشهر كنت قد كلفت تاجرا مودانيا  
بالذهاب الى القاهرة ومقابلة القنصل النمساوى ليطلب اليه أن يعمل  
شأية جهده على تمكينى من الهرب ولكن متى تتحقق هذه الآمال - ٩



## الفصل الخامس عشر

### ملاحظات متنوعة

سأحدث القراء الآن من شخص الخليفة وعاداته وأخلاقه  
فالقول هو السيد عبد الله ابن السيد محمد ينتمي إلى قبيلة الحارثية  
من أولاد أم سار من أسرة الجباريات . وقد اتصل بالمهدي وهو في  
الخامسة والثلاثين من عمره وكان في ذلك الوقت لدى البنية إلا أن  
الشمائل قد أنهكت قواه الآن فأصبحت تراه كهلا اشتغل رأسه  
شعبا ولو أنه لم يتجاوز ٤٦ عاما . أصبح سريع الانفعال . ولما تلتابه  
تلك الحال يصبح من غير المتيسر على أعز عزيز لديه الدلو عنه  
ومصادقته حتى ولا أحد آخره .

وكان يعتقد دائما أن الصدق والإمانة لا وجود لهما مطلقا  
عند أي مخلوق وكل ما يظهره الإنسان من خلق ومداينة إنما هو  
للقضاء الحاجات والمآرب دون سواها .

وكان بطبعه محبا للملق والمداينة لذلك كنت ترى القوم  
يكيلون له الملق جزافا حتى أن أحدهم لا يجمر أن يذكر اسمه دون  
أن يقرنه بصفات الحكم والقوة والعدل والشجاعة والكرم والصدق .  
وكان من جهته يقابل ذلك الرياء بسرور وارتياح تام ويا شقاء من  
كان بمس كرامته .

ولكى يكون لدى القسارى فكرة عامة عن طباع هذا الرجل  
اسرد الحكاية الآتية :

كان من بين قضاته قاض اسمه « اسماعيل عبد الغادر » تعلم  
جيدا فى القاهرة ولما حظوه كبرى عند المهدي لأنه كتب تاريخا  
قيما عنه يشمل جميع انتصاراته وتاريخ حياته . ولما مات المهدي  
أمر الخليفة ، اسماعيل هذا ، أن يتم عمله ويكتب عن الانتصارات  
ويكيل الفاظ الملق والمناجاة للخليفة . فقال اسماعيل عبد الغادر  
ضمن أقواله مقارنا الحالة فى السودان بها فى مصر فتشبه الخليفة  
بالخديو اسماعيل باشا وشبه نفسه باسماعيل باشا المفتى ولما  
وصل هذا القول الى سامع الخليفة أمر القضاة فى الحال ليحتملوا  
لحكمة اسماعيل على هذا القول الذى اعتبره الخليفة ذما فى شخصه  
ولما : « كيف والمهدي خليفة النبي وأنا خليفة يشبهنى هذا الرجل  
بالخديو الذى هو من أصل تركى . كيف أسميه بهذا الرجل وأنا  
خليفة المهدي والمهدي خليفة النبي الذى هو أعظم مخلوق ظهر على  
ظهر الأرض وطلب الى القضاة أن يحاكموه فتقضوا بإدائه وكبل  
بالأغلال وأرسل الى الرجاف . وقال الخليفة ما الذى دعاه الى التشبيه  
بين مصر والسودان فإذا كان يود أن يشبه نفسه بباشا مصرى فأنا  
خليفة النبي لا أقبل على نفسى مطلقا أن أشبه بتركى . »

ولم يلب به غروره عند هذا الحد بل أصدر أوامره فى الحال  
بأن تجميع كل النسخ مؤلف هذا القاضى وتحرق وبالفعل تم ذلك  
الا نسخة واحدة كما بلغنى احتفظ بها سكرتير الخليفة ولو وجدت  
هذه النسخة الآن وترجمت الى اللغات الأوربية لظهر الشيء الكثير  
مما كانت عليه الحركة المهدية منذ نشأتها .

وكان هذا الخليفة مفروا جدا بقوة جيوشه معتقدا أنه فى  
وسمه أن يصل كل شىء ويرزق أى بلاد وكانت أخلاقه خليطا من

الذين ولتسعة وما كان يسير الا اذا احسب الآما لأخريين كصنادقته  
أموالهم أو تعذيبهم . وكانت تلك خصاله حتى أيام حياة المهدي نفسه  
فعبه الله نفسه هو الذي سبب مذبحه الخرطوم التي قتل فيها النساء  
والأطفال بلا شفقة ولا رحمة .

ولما أرسل عثمان واد آدم الى أم درمان اختي سلطان دارفور  
البرنيسية مريم عيسى وبخيته منحها الخليفة حريتها ولكنه  
حجز غيرها من أقاربها النساء وأخذ لنفسه كثيرا منهن وأعطى  
تواضع أخريات . ولما علم بأن هناك من أهل دارفور من يقطن أم  
درمان ويريد مساعدة البرنيسيين قبض عليها وأعطاهما لاثني  
من أمراءها حبيب وخليل وكافا على أهبة السفر الى الرجاف . وقد  
حاولت أم بخيته وهي ضريرة أن تتبع بنتها فرفض طلبها وتمعت بأمر  
الخليفة بالقوة من متابعة بنتها حتى أنها ماتت بعد أيام قليلة وقلبا  
يتصرف على بنتها . ورمت بشيخه بنفسها في النهر والبشارة لم تفلح  
من مكانها ولما نجوها من مخالب الموت ماتت من التعب والبؤس  
بعد قليل .

وكان أحمد غراب مصري الجنس مولودا بالخرطوم ولكنه قبل  
حملة هكس باشا مسافر في تجارة تاركا وراءه زوجته وهي سودانية  
وبنته وقد عاد ليراهما الا أنه في يوم عودته وقبل أن يرى أسرته  
أحضر أمام الخليفة فأوضح الأسباب التي حملته على الرجوع مظهرا  
رغبته في النحول في خفصة الخليفة فقال له اتى أقبل ذلك بكل  
سرور فلتذهب في الحال الى الرجاف . وجاهد في سبيل الله .  
وعبثا حاول هذا المسكين أن يفتح الخليفة في أن يستأذنه السماح له  
برؤية أولاده فأمر الخليفة حرسه في الحال بأن يأخلوه الى المركب  
المسافر على أن يراقبوه جيدا .

والخليفة عبد الله هذا هو الذي سبب هلاك آلاف الناس . وهو الذي كان يعذب الاتحيين بأن يقطع أيديهم وأرجلهم تعذيباً . ولم ينس له حادثة قتله وشنائه أمراد قبيلة « البتاهين » في ساحة السوق . ولقد ذكرت كثيراً أن أصدقاءه كانوا أشد خوفاً من أعدائه على حياتهم منه . وحل هناك دليل يثبت فظاعة هذا الرجل أقوى من حادثة سفكه دماء الأشراف بهد أن اتفق معهم وعقد التحالف المعروف .

وكان كل من يدخل عنده يقف مكتوف اليدين مسبلاً عينيه إلى الأرض ينتظر أمره بالجلوس . وكان هو يجلس دائماً على عتريب مفروش مصمم عليه فرو فاذا أمر أحداً بالجلوس فأنما يكون جلوسه على الأرض مقعياً كما يقص عند الصلاة لا يتحرك حتى يؤذن له بالانصراف وكان لا يسمح لأي مخلوق بأن يتشخص ببصره نحوه وقد حدث مرة أن سوريا أصابه محبته سعيد رحمه سوء الحظ . وهو بعين واحدة لا يرى بالآخرى . بالخليفة بالمسجد فلاحظ الخليفة أن عين هذا السوري ترمقه فتعائى وأمرني بأن أبلغه أن الخليفة لا يحب أن يراه مرة أخرى يرمى إليه .

وكانت حاله في منزله على عكس ما هو عليه من طباع إذ كان لين العريكة يطبخ أمر ابنه حتى أنه في ذات يوم لما قال الولد لأبيه أنه أتم دروسه سرعان ما أمر المعلمين بالانصراف . وقد زوج ابنه عثمان هذا بابنة عمه بنت يعقوب ولم يتجاوز من العمر سبعة عشر عاماً . وأقام له أفراحاً لم يسبق لها مثيل فقد حلت موافقة الطعام ثمانية أيام حتى تمكن كل فرد من سكان أم درمان من أن يأكل . كما أنه زين المنزل المبنى بالطوب الأحمر والوجود بجاء بيت يعقوب بأقصر الرياض لكي يكون محل سكن ولده .

وبعد ذلك بقليل زوج ابنه هذا باثنتين من أقاربه وقدم له جوازي اختارهن هو بنفسه لابنه . وكان يحرم على ابنه الاتصال



بالخير كما كان يصرح دائما بأنه لا يسمح له أن يجتمع صلة نسب مع  
أي قبيلة أخرى .

ولما رأى أن لابنه علاقات مع الآخرين سرعان ما يجعله يسكن  
في منزل داخل السور بجوار منزله ليشهد عليه الرقابة .

. وقد زوج بنته لابن المهدي محمد ، وكان محمد هذا غير راغب  
في هذا الزواج لأنه لا يحب ابنة الخليفة مطلقا . وكان يرغب في  
الزواج بقرية له . إلا أن الخليفة عبد الله وهو صاحب الحول والقوة  
جلى أمره والرقيب عليه أرغمه على ألا يتزوج بمن يريد فتزوج بابنة  
الخليفة مرقسا وعاشا عيشة مرة .

وكان للخليفة ما يقرب من ٤٠٠ امرأة . وبحكم الشرع كان من  
بينهن أربع زوجات شرعيات والباقيات كن من بنات القبائل التي  
لوغمت على اتباع المهدي أي بمعنى آخر أسيرات وكان كلما أحب  
واحدة وأراد الاقتران بها اقترانا شرعيا طلق واحدة من زوجاته  
الشرعيات ليستبدل بها من يريد . وقد جمع في زوجاته بين البيضي  
والسود وقد قسمهن إلى أقسام بعضها مكون من ١٥ والبيض من  
٢٠ يراهن كلا من هذه الأقسام رئيسة وكل قسمين أو ثلاثة الأقسام  
عنها تحت إشراف سيده الأحرار المحظيات عند الخليفة وكان يمنهن  
حيا وتقودا وحيات أخرى تمكنهن من قضاء حاجاتهن ويطينهن أيضا  
الملايس بنسبة جمال وأخلاق ومركز كل منهن عنده . وتتكون تلك  
الملايس عادة من تسبيح قطني يصنع في البلاد السودانية ملون الجواش  
أو من حرير لامع وشيلان صوف مستوردة من مصر وكان هو نفسه  
الذي يباشر توزيع هذه الأشياء عليهم وفي بعض الأحيان يوزعها  
لقاد الخاص .

ولما كانت المجوهرات اللغنية قد حرمها المهدي كن يتزين عادة  
بالخرز والصفى وكن يضفون سمورهن • الا انه في الأيام الأخيرة  
لبست زوجات الظماء حليا من ذهب وقضة ولبست زوجة الخليفة  
الاصلية أكثر ما يصوره انصاره من حل •

وكان يشرف على حالة نسائه الضحية نسوة مخصوصات  
لا يتأخون عن انظاره بكل ما يحدث من الاصايات •

ولما كان يريد اختيار واحدة منهم ليجتمع بها كان يستعرضهن  
جميعا ويختار منهن من يشاء • وكان لا يختلط بنسائه الا إغوازه  
ولا يحرسهن الا الملاحون السود وقلما كان يسمح لواحدة منهن أن  
تتصل بأي كائن كان من أهلها أو أقاربها وقد تضي السنة دون أن  
تري الواحدة أي فرد من عائلتها •

وكان اسم زوجته الأولى « مسارة » وهي من قبيلته شاركة  
السراة والضرارة • وهي أم أولاده عثمان وخديجة • ومع أنها أصبحت  
زوجة الخليفة الآن الا أنها كانت تحافظ مظاهرها وعاداتها  
الاصلية فكانت تصل بنفسها أو تحت إشرافها طعامهم البسيط المكون  
من العصيدة وبعض الفراعخ • ولما أراد الخليفة أن يترقى لهم  
معيشته وأطلع على أنواع الطعام المصري وأصناف المأكولات التركية  
وأراد إدخالها إلى مطبخه تسبب عن ذلك شقاق بينه وبين زوجته  
كان سيقتضى حتما أن يفراقهما لولا تدخله بعض يعقوب وبعض أفراد  
أسرته •

وكان عنده ألفا رئيس يسمى « عبد القيوم » وكان هذا هو  
المشرف على تمهين بيت الخليفة وتناول من بيت المال المصاريف  
لأزمة ويتولى صرفها • كما كان تحت يديه الهدايا التي كان  
يجمعها الخليفة لمن يشاء يساعده في أداء هذه المهام وحط من الكتبة

والمساعدين تحت - لمرته كلهم أغوات حيث أن الخليفة كما قدمت ما كان يسمح لتغير الأغوات بالدهور من منزله .

وأما لباس الخليفة فكان عبارة من الجبة البيضاء وعلى رأسه عمامة من حرير وعلى كتفه حزام . وكان يلبس في رجله في أول الأمر سندلا إلا أنه غير ذلك بعد قليل واستبدل به لبس « بلفة » صفراء . وكان دائما يحمل في يده اليسرى عنقا يسير سيفا وفي يده اليمنى حربا يتوكأ عليها كأنها عصا . ويتبعه في سيره ١٢ صبيا خلفا مخصوصين له . جاءهم من الأحباش الذين أسرحهم أبوا انجيه وذكرى طومال . وكان واجبهم أن يكونوا دائما على حفرية منه ليكونوا رسلة عندهما يرى أي شيء . ولما يبلغ الواحد منهم السابعة عشرة من عمره يترك خدمة الخليفة الخصوصية وينتسج في حرس الخليفة النظامي . ويحل محله آخر من الصبيان .

وكان الخليفة يعتقد أنه باستخدام حشود السن يكون دائما في مأمن من اذاعة أسراره وبطبيعة الحال لا يخطئه واحد مطلقا في رأيه هذا .

وأما في داخل منزله فكان بطبيعة الحال يحل الأغوات محل هؤلاء الأولاد إذ كما قدمت ما كان يسمح لغيرهم بدخول داره .

عرضت على الخليفة منذ ثلاث سنوات فكرة من جانب متبعيه العربيين فارتاح اليها وعزم على تنفيذها . وكتفخص هذه الفكرة في قسم أفراد من حرس الخليفة إلى صفوف الضباط في الجيش العام . ولم يكن يعلم موافقته على ذلك الرأي حتى اختار بنفسه عددا من المجاهدين البارزين في جيش محمده أحمد وذكرى طومال .

ثم ياب الخليفة عند هذا بل أصدر أمره لأمرائه المقاتل الغربية حتى يحضروا المئات من الجنود الجدد لينضموهم تحت الوية ضباطه ولكن تلك الأوامر لم تلق الطاعة الاجتماعية من ناحية الأمراء . وفي كل خطوة من خطواته التنظيمية الأخيرة كان معنيا باضطهاد الدقلبيين والمصريين وإخراجهم من دائرة حرمه لأنه لم يكن يثق بهم ولم يدل إليهم .

جد الخليفة في مبدئ ذلك الانقسام العربي حتى تمكن من تكوين قوة تتراوح بين أحد عشر ألفا وأثنى عشر ألفا من الجنود ونظم لذلك العدد الكبير أركاناً تشبه الطوائف سكنها أولئك الجنود مع نسايتهم وهي على مقربة من مساكن الخليفة ودود أبنة وفي حدود السور العربي الجديد .

وقسمت هذه القوة الجديدة إلى ثلاث كتائب يقودها على التتابع ابنه عثمان وأخوه هارون أبو محمد ( الذي لا تزيد سنه على الثامنة عشرة ) وابن عمه إبراهيم خليل . أما الثالث قام تطل مدة قيادته لكتيبته حيث حل محله رجل عربي حبلى اسمه رابع كان في حاشية الخليفة في بيته الخاص . وأنه لما يجب ذكره أن عثمان كان موضع احترام صفوف الجيش بقسميه الأعلى والأدنى فلقبه الجنود بممثل الخليفة . وتنقسم كل كتيبة إلى أجزاء منتظمة يحتوي كل منها على مائة جندي يرأسهم ضابط ويلقب برأس المائة ولذلك فالضباط مساعدون مدربون .

إذا عدنا لأنواع الجنود وجدنا السود منهم منقسمين في الأقسام المتفرعة من الكتائب وهم في ذلك ليسوا من الجنس العربي الحر ولكنهم تحت رقابة الأمراء الذين يصدرون أوامره المطاعة لكل من الفريقين على حدة لأن السود لا يخضعون للنظم العسكرية كما يخضع العرب .

وانا لا نغالى فى التقدير اذا قلنا ان جميع اولئك الجنود  
 حاسطون يبنادق ومنجوتون ولكننا نظهر امام الحقيقة اكثر دقة  
 وصداقا اذا قلنا ان البنادق المذكورة محفوظة فى المخازن لا فى ايدي  
 الجنود حيث لا تسمح ادارة الجيش العليا باخراج البنادق من مكانها  
 الا فى اعياد خاصة فى كل عام . اما فيما يخص برتبة الجندي  
 لانه لا يتجاوز نصف ريان درويش شهريا مضاعفا اليه ثمن ( ١٠ )  
 ادرجه من الذرة فى كل اسبوعين . وفى الحق لا يظهر الجندي  
 باكثر من تلك الذرة . اما نصف الريال فيكاد يكون مرتبا اسميا .

يجيء بعد ذلك ذكر مرتب كل من رأس المائة والامير وكل من  
 المركبين عال بطبيعة الحال اذا قسناه الى مرتب الجندي . هذا الى  
 ان كلا منهما ( رأس المائة والامير ) يظهر بمنح متتالية من النساء  
 والمبيد الخاصين للقوذ الخليفة .

اذا أنصتنا النظر فى مهمة الجنود والحرس وجدناها محصورة  
 فى :- اية شخص الخليفة واذن فاولئك جميعا مضطرون لرافقته فى  
 جولاته الحربية على أن يحميه حرسه الخاص أيام استعراض الجيش  
 العام . ومن العجب أن يسير ذلك الحرس فى وكاب الخليفة الى أى  
 مكان سار وفى اية بقعة لزل مما يدل على رغبته الشديدة فى الاحتفاظ  
 بحياته . ولما كان لغو الحرس كذلك اضطر الخليفة أن يقيم له  
 ميدانا خاصا فسيحا امام منزله ليكون لاصفا به مدى حياته .

يذكر القراء أننا اشرنا فى السطور السالفة الى كراهية  
 الخليفة للمصريين واتساع دائرة الكراهية الى حد أنه يمقت سماع  
 انغامهم ومع ذلك كان يستصحب فى رحلاته أفرادا ليسمعه الانغام  
 المصرية وغير المصرية الا أنه لم يقلع عن فكرة الكراهية فبدلا من سبع  
 اثنين من المصريين للنفخ فى البوق وتوقيع النغم كان يرافقه اثنان

من السود . وكان الخليفة يلقب رأس المائلة بكلمة « قبطان » ولقب الأمير عنده « بكباشى » أما القائد « أميرالاي » .

لا يسمى المتكلم عن الخليفة أن يقول : ان عيد الله كان في أكثر الأحيان يقتضى ويراقب جنوده ليلا حتى يثق من بقاء كل رجل من رجاله المحاربين في المكان الذى عينه له وقد كان أكبر هم الخليفة موجهها الى مركز طبعة الجيش . وإزاء هذا التدقيق الشديد وتلك اليد القاسية كان وحوش المائلة والأمراء يدعون المرضى في كتب من الليالي فيلحسون سرا الى بيوتهم وفى نفوسهم غصص وآلام فيخرجون منها بظهار استيائهم للورع .

تتضمن أعمال الخليفة العامة على ترديد الصلوات الخمس يوميا في الجامع الكبير فممنها يبدأ السحر يؤدي الخليفة صلاة الفجر وبعد ذلك يقرأ المحققون بعض الآيات القرآنية في حجرة المهدى ويستغرق ترديد القرآن وبعض الصلوات الخاصة مدة تقرب من ساعة .

وبعد ذلك يعود الخليفة الى مخدعه الخاص ولكنه في بعض الأحيان يخالف ذلك الترتيب في المسجد ليتحقق بنفسه مبلغ أذعان سكان أم درمان لأوامره الدينية الخاصة بحضور الصلوات الخمس حضورا ملظما . أما صلاة الظهر فيقوم بها الخليفة حوالى الساعة الثانية مساء وبعد ساعتين آخرين يؤدي صلاة العصر التى يذكر فيها المصلون بعد تأديتها بعض الأقوال دينية ولا تكاد تفرب الشمس حتى يؤدي الخليفة صلاة المغرب ثم ينتهى بعد ثلاث ساعات الى الصلاة الخامسة وهى صلاة العشاء . وفى كل من الصلوات الخمس يعلى الخليفة في محرابه القائم أمام صفوف المصلين . وذلك المحراب بناء جميل رباعي الشكل مكون من أربعة رفيعات مفروطة الشكل يملو كلا منها طبقة حديدية صلبة ولا ريب في أن الخليفة

يستطيع أن يتساعد كل ما يحيط بمحسرابه وهو في حالة عادية  
ومكان آمن .

هذا هو المحراب الذي يجلس وراءه مياطرة ابن الخليفة  
فالقضاة فاشخاص للائل يختارهم الخليفة من أخصائه .  
أما الجنود الذين يعمرونه فيجلسون على جانبي المحراب ويظل الجنود  
السود في الجوانب التي تحيط بالمسجد ملازمين سورا ضيحا يفصل  
بين المسجد والميدان . وإلى جانب الضباط أماكن مخصصة للأمراء  
وأغلب رجال القبائل الغربية . وقد عينت لأولئك الجهة اليمنى .  
أما الناحية اليسرى فيجلس فيها بعض الاتباع وقليلون من العرب  
المتقدمين إلى الخليفة ( على واد حلو ) ثم أنصار البجليين والدنقلين .  
وراء أولئك جميعا يجلس المصلون من المسلمين في صفوف تتراوح  
بين عشرة وأثنى عشر حتى إذا ما بدأ الخليفة تلاوة صلاته ودعا  
المصلون .

وعلى أية حال فإن المصلين لا يقلون عن بضعة آلاف . وبما أن  
الخليفة محسود الدائرة من موقفه بالمصلين فإن الأمر الظاهرين  
وبعض ذوي النفوذ من رجال القبائل مضطرون إلى معاونته الخليفة في  
قادية الصلاة . ولئن كان في صدر الخليفة رجل أو حشد على شخص  
من الأشخاص فإنه لا يتردد في الاقتصاص منه والزمانه بحضور  
الصلوات الخمس في المسجد بحيث يراقبه هو وغيره ( من المقضوب  
عليهم من الخليفة ) بواسطة اشخاص معينين لهذا الغرض .

السبب أن الخليفة - في كل هذه التخرجيات وذلك التقييد  
الديني - مدفوع بمامل صيانة الدين ولكنه لا يرمى إلى ذلك بحسب  
هل يضي إلى جانب ذلك الاحتفاظ بسيادته ونفوه على أتباعه  
جميعا . وأنه لواجب علينا في هذا الصدد أن نقول بأن الكثيرين من  
المصلين يسكنون في جهات بعيدة عن المسجد الكبير فمن السائق

عليهم أن ينحبوا من منازلهم إلى المسجد ويحودوا إليه خمس مرات يوميا وكل ما يستطيعون عمله هو أن يجتمع بعض الناس في منازل أصدقائهم وهذا ما يحقته الخليفة مقنا شديدا لأنه يفضي ما يسمونه « حياة الجماعة » وقد كان الخليفة عبد الله على اعتقاد ثابت في أن هذه الاجتماعات المذكورة البعيدة عن رقابته لابد أن تنتهي إلى المساومات والتكلم في شؤون الجماعة ومثل ذلك الكلام يصل إلى بحث أعمال وشتون الخليفة لهذا ينقلها باليوم والتجريح وذلك يرضى عنها خائفا وآخر يستلجها فلا عجب أن نرى من الخليفة جهدا شديدا ميلولا في سبيل تأييد فكرة اجتماع المسلمين تحت رقابته هو وحسنه الخاص .

نرى من الأقوال السابقة الخاصة بإقامة الفرائض الدينية أن الخليفة عبد الله أول من يصل بالناس في المسجد الكبير ولكننا لا نرى أن كل إنسان معرض للمرض الذي يحول دون قيامه بما تمود تأديته يوميا واخذ بالخليفة عرضه لذلك المرض أو لأي عذر طارئ يملكه من السير خمس مرات يوميا إلى المسجد الكبير وبالفعل تقيم عبد الله في بعض الأيام عن القيام بصلاته الدينية الكبير فكان يخلفه في الإمامة أحد القضاة أو ضابط من قبيلة تكدودي على أن يكون ذلك الضابط مشهورا بين الناس بصلاحه وتقواه . وعلى أي حال لا يسمح سلفا للإمام الذي يقوم بعمل الخليفة أن يقف في المحراب بل يكون في قيادته الدينية قائما في أول صف مجاور لذلك المحراب العظيم . ومع أن القانون الديني يحتم على الخليفة ( على واد هلو ) أن يمثل الخليفة عبد الله في تأدية الفرائض الدينية أثناء غيابة ( عبد الله ) فإن ( على واد هلو ) لم يكن يمثل في أغلب الأحيان .

كان الخليفة عبد الله في حياته اليومية يتلقى بين صلاة العصر وصلاة المغرب عدة تكاليف ويستنخ الأبناء الخاصة بشتون الأمة ويطلع على الخطابات الواردة له ويقابل القضاة والأمراء الذين سمح لهم



الخليفة قبل يوم المحاكمة بالتحدث معه وإلى جانب أولئك كان يسبح  
الخليفة في ذلك المبدأ من كل يوم بمحاكمة الأشخاص الاخصاء الذين  
يرغب التحدث اليهم .

أما مراسلاته البريدية الخاصة فمحدودة ومأثورة في مبيعيل  
طبيعية وهو يحتفظ لذلك بما يتراوح بين ستين وثمانين جملا لحمل  
البريد العام على أن يتولى رقابته أشخاص مخصوصون بصفة عمال  
بريد . ولا ينبغي تصور القارئ إلى أن أولئك مخصوصو العمل في  
بلد الخليفة وإنما هم موزعون في جميع أنحاء إمبراطوريته حيث  
ينقلون أوامره وتعليماته فينفذونها عاجلا .

ومما يذكر في هذا الصدد ابن ابراهيم عدلان اقترح عليه  
الاعفاء محطات خاصة للبريد على طول الخطوط الرئيسية المعروفة .

ولكن الخليفة رفض قبول هذا الاقتراح بنىء من الضجر بمد  
أن قال لابراهيم بأنه عنى قبل كل شيء بالأوامر السفوية التي ينقلها  
( الخليفة ) على الاخصاء من رجال البريد الذين لم يتأخروا مطلقا  
في تنفيذ أوامره باخلاص وأمانة علاوة على أن الخليفة كان يتلقى  
من أولئك المقربين اليه تقارير وإبابة عن أعمال الحكام التابعين له .

لم يقتصر امر البريد الخاص على الخليفة بل تعداه إلى الأمراء  
كل في منطقتة حيث كان للأمير رجال مخصوصون وعدد معين من  
الجمال لحمل البريد مع تعليمات خاصة لأولئك المنجهين إلى  
أم ترومان . ومهما يكن الأمر فلم تكن هناك طريقة للمراسلات البريدية  
العامية أي للمراسلات بين الأشخاص من عامة الشعب السمودائي  
ولكن على رغم ذلك كان العمالون يحصلون رسائل من بلد إلى آخر  
بطريقة سرية .

لم يكن الخليفة في جميع أيام زعامته واقفا بغيره عن دائرته فدعاه ذلك الى التشديد على الرجال المحيطين به حتى انه لم تكن تصدر رسائله من أحدهم الى الخارج الا بعد أن تمر على كاتب سر الخليفة . وما يذكر عن الخليفة عبد الله أنه كان يجهل القراءة والكتابة لحدا به ذلك الى الشك في كثير من الكتابات الواردة من الخارج الى الأمراء القريين منه وتبعها لذلك كان يصدر أوامره المكتوبة بمرور الرسائل على سكرتيريه الخصوصيين ، ومن أهم أولئك في نظره اثنان هما قاسم وعذر اللذان كانا عضطين دائما لشرح محتويات الخطابات لسيدهما الخليفة على أن الخطابات الواردة لمركز الخلافة ذاته لا يرد عليها السكرتيريون من ذواتهم بل يتلفون أوامر الخليفة في كل ما يكتبونه . ولم يكن جهل الخليفة القراءة والكتابة مانعا له من الوصول لبطيعة بواسطة المفتشين الذين يراقبون تلك الردود البريئة .

أما هذان السكرتيريان فقد عاشا مع الخليفة حياة تصمة مملوطة بالأوامر التي تنم عن رغبة عبد الله فيهما وقد كان ذلك الرجلان على ثقة تامة من أن الخليفة لن يفتقر لهما أسفر خلوة والويل كل الويل لأحدهما أو لاثنيهما في حسالة اذاعة سر عن أسرار الخليفة حتى لو كانت تلك الاذاعة غير مقصودة بسوء نية من جانب السكرتيرين ، ولم يكن الخليفة يقصر في حالة من تلك الحالات عن معاملة ذينك الرجلين بما حاصل به الاحمدى واشتقاق الأربعة الذين لفظ بهم حكم الاعدام بعد أن اتهموا باتصالهم بالاشراف .

إذا خلا الخليفة الى نفسه ونزع الى شيء من الراحة أو التحدث للناس فإنه لم يكن يحتاج لشئ أكثر من التحدث مع القضاة الذين لم يكونوا - في أغلب الأحيان - غير آلات صماء في يديه بحيث لم يكونوا يترددون في إصدار النسي الأحكام الاستبدادية ضد من يستلهم الخليفة أو يرتاب فيهم . فإني كنت ترى أولئك القضاة

يجلسون أمام الخليفة في وقت راحته في شكل نصف دائرة على الأرض الحارية من بل فرائش . ولم يكن يتجاسر أحده أولئك على دفع رأسه أمام الخليفة غافا جلسوا أرفعوا آذانهم وصمتوا انظروا لأوامر الخليفة المطاعة . وقد كانت الأوامر المذكورة في أغلب الأحيان تلقى بصوت خافت هادئ . والعجيب في الأمر أنهم لم يكونوا بحال من الأحوال يستطيعون دفع أصواتهم وبطيبة الحال لم يتوقع شخص معارضة أو اقتراحا من جانب أي قاضي وسواء أكان الخليفة مصيبا في رأيه أم غير مصيب فإن القاضي ملزم بالانحياز للأمر والتأني على ما سمح .

إلى جانب أولئك القضاة كان الخليفة في كثير من الأحيان يجتمع بالأمراء وبعض الأشخاص ذوي النفوذ الموثوق بهم عنده . وكان الخليفة على وجه عام يقف على شئون الرعية وأحوال البلاد بواسطة أولئك الأشخاص القريبين ، وما يذكر عن عبد الله أنه كان ماضيا في بث الفتنة بين أولئك القريبين منه حتى لا تتم الصلوة بينهم وحتى يصل كل منهم إلى أذاعة ما عنده إذاعة دقيقة لولاه الخليفة .

وكانت مناقشات الخليفة ومباحثاته نصف صلاة العشاء كل يوم . وتلك للمباحثات الخاصة مع محبوب وبعض أقربائه الأقربين . وكانت تستغرق مباحثاتهم في كثير من الأحيان بضع ساعات . وفي أيام خاصة تظل إلى ما بعد منتصف الليل . وعلى وجه علم كانت الاجتماعات العائلية البهجة خاصة بالبحث في أجمع الطرق للأشخاص من الأشخاص غير المرفوب في وجودهم أمام الخليفة بصفة خاصة وأمام ابنه وبعض أقربائه بصفة عامة . وأنه لما يجدر بنا ذكره أن أولئك الأشخاص كانوا لا يصلحون - في ذلك الحق على المكروهين - إلى مصالح عامة بل إلى ما قد ينبجم عنه ضعف لقواهم أو التقابل من أثرهم البارز في الدولة .

كان الخليفة في كثير من الأحيان يقوم برحلات صغيرة داخل المدينة أو في الجهات المجاورة على أنه في أيام خاصة من الشهر كان يقوم ببعض زيارات لاختصاصاته في ألم دومان . وليس هناك ما يدعو إلى بذل جهد من الشعب خارج أو داخل المنازل لتصرف ميماد مرور الخليفة لأن الأصوات المرتفعة من العشم ودق الطبول والتفخ في الأبواق أمام ركبه الخليفة . كل ذلك كاف لأن يسمع الناس ذلك الصوت الخاص على بعد مئات من الأميال فيهرع السكان لتقديم التحية لولاهم الكبير .

كان إلى جوار بيت الخليفة مكان فسيح للحرس ودار مسقوفة ينش يظل فيها الخيل معه أن ينظفها الحرس فإذا ما قال الخليفة انه يمتزم الجولان في المدينة أسرع حراسه إلى خيولهم وأسرجوها . فإذا ظهر الخليفة في رجة دائره الخارجيه خرج الضباط والحرس الخاص من كل النواحي للمعيطة وأسرعوا لحمايه مسيلهم وكان النظام المتبع في تلك الرحلة أن يتقدم الضباط وحرس الخليفة ثم يتبعهم عبد الله متمطيا جواده الخاص ، وحوله من النواحي الأربع دائره من الحرس الموثوق في اخلاصهم له ولك لتكاد تظن الناس الخارجين من منازلهم لمشاهده الخليفة مجموعات متتالية من الكتائب الحربية . أما الجنود فكل فصيلة تسير على افراد مكونة من اثني عشر متجاورين . ووزاء أولئك جميعا يسير للوكب اللاسق والمؤلف من الأمراء والاختصاصاء على ظهور الخيل ثم آخرون من الأكرباء .

نضيف إلى ذلك أن رجلا عربيا مسلما اسمه « أبو ذخية » كان يجاور الخليفة إلى يساره وكل ما كان لهذا الرجل من شرف هو أن يرفع الخليفة إلى جواده الخاص ثم يظل ملازما له أثناء نزوله من الجواد . هذا إلى أن الذي كان يقبل الناحية اليسرى من الخليفة

إنهاء سير موكبه هو كبير الخصيان ودليس فرقة العبيد في حاشيته  
الخليفة .

كان أمام الخليفة مباشرة في كل رحلة من رحلاته ستة من  
الناخبين في الأبناق اينانا يسرور الركب العظيم . لما السائرون  
وراء جواد الخليفة مباشرة فهم الضاريون على طبول خفيفة ترمى  
الى تحسين صوت البوق في اذن الخليفة الذي كان شديد الليل  
لسماع الأنغام . ومن اختصاص الآخرين ( الضاريين على الطبول )  
اصدار اشعارات معروفة في المدينة لسير الركب أو وقوفه فيما  
لأوامر ورشبات الخليفة . فالأما ما انتهى من أولئك جهة صف  
الحشم الخصوصي الذي كان يحمل أكرامه محافظ جلدية فيها أوراق  
دينية وعائلية ( خاصة بشئون الدولة ) .

وبعد أن تنتهي من صف القارعين على الطبول قرعا خفيفا  
تصل الى صفوف خصيان الخليفة وصدار خلفه وبين أولئك من  
يحمل آنية كبيرة فيها ماء للوضوء ويحصل غيره سجادة فاخرة  
لصلوة عبد الله ويسير الآخرون حاملين الرياح . وفي بعض الأحيان  
يتقدم المركب أو يخلله ركبه موسيقى مكون من خمسين سودانيا  
تكون آلاتهم الموسيقية من مستخرجات قرون الوعول وتقطع  
الجلود طبولهم المستوعة من تجاويف جذوع الاشجار الضخمة .  
وانه لمن الميسور لك أن تميز أنغام أولئك السودانيين بما فيها  
من ثنائير كبيح وبما اشتهرت به من اعتماد من كل توقيع مطرب .

تعود الخليفة الاليام يزحلاته به صلاة الظهر على أن يرجع  
الى داره قبل الغروب وفي أثناء كل من الرحلات المذكورة يسلل  
الضباط أقصى مجهوداتهم لاثبات شجاعتهم وفروسياتهم أمام مولاهم  
الخليفة . فمن أمثلة تلك الشجاعة تقسم أربعة من الضباط مجاورين

الى ناحية الخليفة بحيث يرمون رماحهم المنيعة في الهواء ويسمرون  
من مسهوات جيادهم الى البقعة الممتدة امام الخليفة ليحيوه  
واحين مددا ما انهبوا من ذلك اسرعوا لرتوب جيادهم وعادوا الى  
الصف الذي كانوا فيه دون اخلخل بنظام الموكب .

كان الخليفة في السنوات الاولى من حكمه يحضر الى ساحة  
الاستعراض العسكرية كل يوم جمعة حيث تجري حفلة عرض  
الجنود على اختلاف درجاتهم ولكنه اكنفى في سنى حكمه الاحيرة  
باستعراض الجيش اربع مرات في السنة هي على التتاقية يوم ذنرى  
لليلاذ النبوى ويوم للعراج واول ايام عيد الفطر ثم يوم عيد  
الاضحى . وكان مأ يذكر عن عناية الخليفة عيد الله بطفلة  
عيد الاضحى انه كان يجمع فرق جميع البلاد للجائزة مع جنود  
دارفور والعضارف للقيام بالاستعراض العام وسط دى الطبول  
وانبغ في الايواف . اما الصلاة في ذلك اليوم فكانت تقدم منه ومن  
جنوده الى الله الرحمن في ساحة الاستعراض حيث يصلى عيد الله  
اماما بالجند وهو والقمة في غرة مدينة العواجر - كانما هو في  
محراب المسجد الكبير - وفي ذلك الحين يحيط به خارج غرفته كثير  
من ضباطه الاخصاء وبعض اعيان السودان المتمعين بشقة الخليفة  
وجه . اما بقية الضباط والجند وعلية الجمهور فيوزعون انفسهم  
في صفوف متلاصقة فاذا ما تمت الصلاة سجد عبد الله الى متبر  
خضبي لالقاء خنبة يستظهرها بعد ان يقرأها له من كتبها من  
السكرتيرين . وفي نهاية الحفلة يطلق بعض الضباط رصاصي  
بنادقهم سبع مرات ايذاا بالتهاء الاحفال المقدس . وعقب ذلك  
يتقدم واحد منهم لتدريج خراف الضحية لارسالها الى السوق العام  
براسطة الجنود وتوزيعها صسقة على الفقراء . ولكننا لا نسى  
ذكر ما كانت عليه شئون المولة من الفقر والاضطراب بحيث لم يكن  
يتسنى ذبج العدد الكافى من الخراف لتقديمها للفقراء فكان ذلك  
داعيا الى استضافة الفقراء من لحم الخراف بتصاح الشريد .

**اعقاد الخليفة** تخصص اليوم الأول من أيام العيد الأضحي  
 لذلك الاستعراض للمسحوب بتأدية فرضة الشكر للقسمة للفرقة  
 الإلهية (أ) ما أسبغته على السودان من خير طول العام . ولم تكن  
 تجري في ذلك اليوم أية معاملة رسمية . أما المقابلات والعشريات  
 فكانت في الأيام الثلاثة التالية لليوم الأول حيث يسير إلى دار  
 خلافة عبد الله قبل مشرق الشمس في كل يوم من الأيام الثلاثة  
 أمراء دارمان والجهات المجاورة حاملين راياتهم ومن خلفهم أتباعهم  
 المتفائلون خيرا بالعيد فإذا جع كل أمير أتباعه سار بهم إلى الناحية  
 المخصصة له في ساحة الاحتفال ( وهي عبارة عن أرض مملوكة تحتفلها  
 أحجار صغيرة ) ومن تلك الجهة كانوا يسرون إلى دار عبد الله (إذا  
 بدت الرغبة من الخليفة في التوجه إلى دار الاستعراض . حتى  
 لا يتعب الأمراء وأتباعهم وصفوف الجند . وفي كل حال من تلك  
 الأحوال يصعد الجنود السير إلى حيث الخليفة لتقديم التحية للمهتدين  
 بالعيد وهم في سيرهم هذا يولون وجوههم شطر المشرق .

أما يعقوب ابن الخليفة وصاحبه أكبر مكانة في السودان بعد  
 أبيه فكان يحصل العلم الرئيسي وهو عبارة عن قطعة كبيرة منتظمة  
 الشكل من القماش الأسود توضع مباشرة أمام الحاجز المذهب القوائم  
 الذي اعتاد الخليفة الجلوس فيه في ساحة الاستعراض . على أنه  
 الخط المستقيم الواصل بين العلم والحاجز يبلغ امتداده أربع مائة  
 قدم . وبعد أن يتركز لواء يعقوب يضع الأمراء المختلفون على جانبيه  
 راياتهم المميزة لقبائلهم وقد يكون أكبر يرقى ظاهر بصد لواء  
 يعقوب يرق الخليفة على وادخلو الذي يركز في البقعة الشمالية  
 من الميدان مستازا بلونه الأخضر وقيام بعض ألوية على جانبيه .  
 هذا إلى أن الناحيتين اليسرى واليمنى من مركز الجيش مملوءان  
 بطوائف خاصة في الأولى يتوزع دابكو الخيول والبغال وفي  
 الثانية يقف صفوف النار الذين يتكونون من بعض المجاهدين وأتباع

يُحْضِرُ الْأَمْرَاءَ • عَلَى أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يَسْمَحُ مطلقاً لِمُضَارِبِي النَّارِ أَوْلَتْكَ  
يَعْمَلُ بِتَدَارُكِهِمْ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ مِنَ السَّنَةِ •

لَا تَكَادُ النُّجُومُ تَغْرِبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ الْمَذْكُورَةِ الْمُقَدَّسَةِ  
عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُخْرِجَ الْخَلِيفَةُ عَبْدَ اللَّهِ مِنْ تِلْكَ الْفُرْقَةِ الْمُدْبِئَةِ  
الْقَوَائِمِ فَيُرَكِّبُ جَوَادَهُ يَحِيطُ بِهِ ضِيَاطُهُ وَحَرَمُهُ الْخَاصُّ • وَلَمْ يَرَهُ  
الْإِثْلَاءُ مُسَيِّحِ الْجَيْشِ يَصْفُوهُ الْكَامِلَةُ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ حَيْثُ يُوزَعُ  
الْجَبَبُ وَالضَّائِمُ عَلَى الْمَرْضَى عَنْهُمْ مِنْ رِجَالِهِ •

كَانَ الْمُتَبَيَّنُ أَنَّ يَسْطَى الْخَلِيفَةِ صَهْوَةُ جَوَادِهِ فِي ذَلِكَ الْمَيْدَانِ  
وَلَتَنَّهُ فِي بَعْضِ الْأَوَاقَاتِ كَانَ يُنْزَعُ إِلَى رُكُوبِ جَبَلٍ خَاصٍّ مِنْ جَبَلَةِ  
حِصَانِهِ • وَقَدْ تَخَطَّى هَذَا التَّقْلِيدَ مَرَّةً وَاحِدَةً - عَلَى مَا أَذْكَرُ - فِي  
سَنَى حُكْمِهِ فَرَكِبَ عَرَبِيَّةً أَمْرَهَا السُّودَانِيُّونَ فِي الْخُرُطُومِ مِنْ حَاكِمِ  
عِلْمٍ سَابِقٍ وَيَقِيتُ بِعِدِّ ذَلِكَ مَلِكًا لِلْمُسْلِمِينَ وَمَحْظُوظَةً فِي بَيْتِ الْمَالِ •  
وَبِمَا أَنَّ رُكُوبَ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ أَمْرًا شَدِيدًا غَرِيبًا فَلَنَذْكُرَ طَرِيقَ مَرُورِ  
الْخَلِيفَةِ يَانْتَأَسُ وَهُوَ لَهَا فَتَقُولُ : أَنَا خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ فَكَانَتْ  
أَعْجُوبَةٌ لِنَاضِرِيهَا مِنَ الدَّرَاوِيضِ وَكَانَ يَجْرُهَا جَوَادَانِ وَتَسِيرُ بِسَطَى  
مُتَشَتَّةٍ نَبْدًا • وَالذَّاعِي لِذَلِكَ خَوْفُ الْخَلِيفَةِ مِنَ الْقَلَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي  
حَالَةِ عَدُوِّ الْجَوَادَيْنِ وَلَيْسَ ذَلِكَ غَرِيبًا عَلَى مَنْ لَمْ يَمْتَدَّ غَيْرُ رُكُوبِ  
الْخَيْلِ وَالْجِصَالِ • وَبَعْدَهَا يَكُنُ الْأَمْرُ فَإِنَّ الْخَلِيفَةَ لَمْ يَرْتَجِ إِلَى فِكْرَةِ  
رُكُوبِ الْعَرَبِيَّةِ فَارْجَعَتْ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ وَاسْتَمَرَ عَلَى عَادَتِهِ لِلْمُؤَلُوفَةِ فِي  
الْمَوَاطِنِ وَالْمَرْحَلَاتِ وَحِينَ الْخُرُوجِ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ مُبَاشَرَةً مِنَ الْمَسْجِدِ  
الْكَبِيرِ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَرِيبَةِ حَيْثُ رَايَةَ يَتَقَرَّبُ السُّودَاءُ فَاذْهَبَ مَا وَصَلَ  
إِلَيْهَا تَأَمَّلَ فِيهَا وَأَظْهَرَ احْتِرَامَهُ لِمَقَامِهَا • وَبَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ تَقْدِيمِ  
النَّحْيَةِ لِلرَّايَةِ الْيَعْقُوبِيَّةِ يُوَلَّى عَبْدَ اللَّهِ وَجْهَهُ شَطْرَ الْحَاجِزِ الْمُدْبِئِ  
الْقَوَائِمِ حَيْثُ يَجِدُ إِلَى جَانِبِهِ مَكَانًا مَسْتَقِيمًا مَصْنُوعًا مِنْ صَيْقَانِ الْأَشْجَارِ  
الْمُتَرَاخِضَةِ يَمُضُّهَا إِلَى بَعْضِ الْمَطْلَعَةِ بِحِصَالِ الدَّخِيلِ فَاذْهَبَ مَا انْتَهَى



الى ذلك المكان نزل من جواده واستند الى معجرب حيث يحيط به  
القضاة والمقرَّبون اليه .

انقضت التقاليد الدينية في السودان ايام الاهداء الكبرى  
خروج الخليفة من داره الى الناحية الغربية من المدينة حتى يصل  
الى ثكنات جنوده ومن الامور المقررة في مقابلات العيد وقوف الجنود  
حاملين دروعا مغطاة من الطرازين الأديبي والأكسيوي وعلى رؤسهم  
خوذات نفيلة ومغطاة قطعية غريبة الشكل من مختلف الألوان  
واعظم ما يميز هذه الاغطية لفائف مخصوصة شبيهة بالعمائم .

لما خيول فسرجة بالمشقة مبطنة وقد يكون هناك صب بين  
ملك الاغطية المبطنة وبين ما كان يضعه الفرسان على خيولهم وقت  
المبارزة في المصور القديمة . ولا تكون مغالين اذا قلنا ان المتفرج  
يوم استعراض الجند على خيولهم يظن انه في حلة من حلات القرون  
الوسطى او ما قبلها .

عندما تنتهي « التشرقيات » بتايه اليوم الثالث من ايام العيد  
يمود الجنود مع ضباطهم الى ثكناتهم في البلاد المجاورة .

### \*\*\*

ساعرض على القراء الآن صورة موجزة للرأى والأفراض  
السياسية التي كان ينزع اليها الخليفة عبد الله . فأكبر ما قلته  
أكثر من مرة بأن المهدي عسكيا أعلن نفسه هاديا للمسلمين في  
السودان منح حق الخلافة بعده الى ثلاثة اشخاص في السودان هم  
عبد الله وعلي واحمد ومحمد شريف على أن يخلفه بعد موته اولهم ثم  
يقتب الاثنان الآخران عبد الله بعد موته في حالة بقائهما على قيد  
الحياة بعده .

فقد انضم في المهدي فتولى الخلافة بعد موته أول الثلاثة  
عبد الله ولكن الخليفة الجديد ( عبد الله ) لم يفتأ - من اللحظة التي  
تولى فيها الحكم - يدس للآخرين بأذلا جهده في تقوية نفوذه  
واعلاء كلمته وجعل الخلافة ورئاسة في أمره فلم يرض ذلك  
السوريين من طبقة الاشراف الذين عدوا أنفسهم أكبر السودانيين  
فدوا وذلك واجع الى صلتهم بالمهدي . ومع ذلك قدموا التحية  
لعبد الله خوفا من السقوط الذي يصوبهم من جراء اشهار العداء  
للخليفة . الا ان عهد الله كان واقفا على حقيقة نيات منافسيه فضم  
الى حاشيته الكثير من فصائل السودانيين التاميين قليلا لملي وادخلوا  
ومحمد شريف حتى يصتوه باخلاص له على مصافحة منازعيه في  
الخلافة .

ليس يدعوا ان يشاهد السياسي كل ذلك الجزع من جانب  
عبد الله فانه غريب من لم درمان ولم يكن في حياته سوى وجل  
غلبت الاسرار من قبيلة غريبة واذن هو غريب جدا عن البلاد  
الداخلية وكان - يذكائه وبما يصل اليه من تقارير اتباعه - على ثقة  
انه لن يستطيع الاستناد الى تأييد البعثيين والدنقلين وسكان الجزيرة  
وغيرهم من قبائل وادي النيل واذن اضطر لارسال مندوبيه سريعين  
الى القبائل الغربية في الناحية الغربية ليخبرهم بالحج الى قبر المهدي  
والمهاجرة الى وادي النيل .

مضى مندوبو عبد الله ورسله في الجهات المجاورة لام درمان  
سميا حثيثا في سبيل الوصول الى اخره الناس بالمهاجرة الى قبر  
المهدي والبقاء في الأرض التي تقل جشمانه فدعوا الناس الى التمتع  
بثمرات الأرض الجديدة التي يتزحون لها ذاكرين لهم بانهم عبيد  
الله المختارون وأنه من مصلحة أولئك الملعونين أن ينهبوا لامتلاك  
الأرض الجديدة التي يتمتع سكانها الاصليون بثروة كبرى من مال

ومعاقبة وعبيد ، وقد ذهب المنصورون في اغرائهم سكان الجهات المجاورة الى حد أن وعدوهم بامتلاك كل ما في الأرض الجديدة .

أثر أولئك المنصورون بدعوتهم الحاسية تأثرا منجبا في نفوس السلاج مرحل الكثيرون من أفراد القبائل المختلفة الى لم درعان وكانوا في ذلك مدفوعين برغبة خالصة في التمتع بالفتى الذي سمعوا عنه . الا ان عند القادمين لم يكن كافيا لتعمير والبناء لم درعان قصد الخليفة عبد الله الى اصدار الأوامر لأمير دارفور وكردوفان حتى ينفذا أوامره بالقوة وتبعا لذلك تطلق سيل المهاجرين سواء كانوا طائسين أم مرغمين وانتهى الأمر الى نقص عيضم بعد أن سمعوا الشيء الكثير عن القسوة التي يقامسها من سيقوهم الى لم درعان .

كانت النتيجة المنطقية لذلك إحاطة الخليفة بالجمع الوفير من قبائل الرحل الغربيين عنه وعن أتباعه على أن أولئك المهاجرين البعد لم يألوا جهدا في اقتصاد أصحاب الحق الأصليين وأعداد أنفسهم لأن يكونوا الأسبياد المسبوحة أوامرهم .

لم يسر زمن على أولئك المهاجرين لأم درعان حتى امتلأت بهم وظائف الحكومة الرئيسية وكان أصحاب القسم الأكبر من هذه الغنيمة رجال النعاشي . وانك لتكاد ترى جميع الأمراء السابقين في جهة مجهولة بحيث لم تسمح لأحدهم كلمة بعد ذلك وقد استغنى من ذلك الحكم الأمير عثمان دجنة . ويرجع ذلك الى أن قبائل العرب الشرقية التي يحكمها عثمان يتكلم أفرادها بلهجة لا يعرفها عرب القبائل الغربية . وعلاوة على ذلك أصبح الكثيرون من أفراد تلك القبائل خاضعين للتفوذيين المصري والإيطالي وليس من سسبهم الى اتصال القلائل الباقين بثمان فجئة سوى كونه واحدا منهم .

وعلى أية حال فإن قبيلة النماقي تمكنت من الحصول على السلطان  
والنفوذ الكامل في جميع الجهات التي يضرب رجالهم بأرجلهم في  
أرضها . ولم يكن لهم غرض سوى ملء جيوبهم بالآيراد الضئيل  
التي يحصل عليه السودان الفقير .

كما يذكر عن أوامر الخليفة عبد الله قبل عام ١٨٩٥ أنه أعطى  
تعليماته لأمرى دنقلة وبربر بأضعاف نفوذ وقوة رجال مديريتهما  
إلى أقصى حدود الضعف فمما ذلك إلى تجريد السكان من أسلحتهم  
النارية وجعل ما لديهم من معدات القتال بحيث يتعسر مقدار الموجود  
من تلك الأسلحة إلى حد لا يخفى معه أي خطر .

لم يكتف الخليفة بذلك بل أصدر أمرا جديدا بالتشديد في  
معاملته رجال نوشكر وطوكر فافرى المأمورين في تشديدتهم بحيث  
قتلوا كثيرين من الجعليين والدناقلة ودخلوا آخرين إلى دارفور  
والقلايات رغبة في استئصالهم نهائيا في تينك الناصيتين . والآن  
استطاع الخليفة الله شر سكان تلك النواحي وضمن التفلسف على  
أية قوة معارضة هناك .

تطبق مثل هذه المعاملة على سكان الجزيرة الذين أقصوا بأمر  
الخليفة إلى جهات نائية من السودان أو الذين اضطروا إلى الحضور  
لام درمانهم وأفراد أسرهم حيث قاسموا الأمرين من الاضطهاد  
والفاقة . وما زاد في أفعال كواحلهم صدور الأمر بتسليم مايزيد  
عن نصف محصول أراضيهم الزراعية التي كانت موزعة على عرب  
القبائل الغربية وما زال الخليفة مستمرا في الضغط على أولئك  
حتى لوصل عام ١٨٩٠ إلى تفريق الأراضي على أقرباله وأصحاب  
الخطوة منهم . وقد بلغ الضيق بأصحاب الأرض الأصليين حدا  
التزموا عند حراثة الأرض وتخليصها لأسيادهم الجدد الذين وزعوا  
على أراضيهم كل ما يملكون من ختم وعبيد وعاشية .

نجم عن ذلك التعسف أعمال أرض الجزيرة القابلة للانتاج الوافر فيعد ان كانت أوفر أرض السودان ثمة واكثرها سكانا تضاهل هذان الخيران وكان ذلك التضائل مصحوبا بمرج سادا جميع المناطق التي كان الخليفة مضطرا فيها الى الانحياز لناعية الاحمال الذين عوملوا معاملة سيئة ونزل بهم السيف وساق بهم الطغيان الى حد لا يكاد يصدق العقل .

اكرر الآن ما قلته سابقا عن التضييق افراد القبائل المستمية الى الخليفة عبد الله عن جميع القبائل الاخرى في جميع الاحوال والظروف فانهم لا يستمعون باسمي الوهائف احكامهم والمراتب الشخصية لمعسب بل يستمعون بما هو اسمي من ذلك ماديا كان القسم الاكثير من الاموال والفتن التي ترد الى بيت المال من مديريات دارفور والتلابيات والرجاف يصل الى ايدي اولئك الافراد ولا يجد من يحاسبهم عليه . ومن غريب امر اولئك الطامعين انهم - وفيه في ملء جيوبهم باكثر قيمة من المال - دعوا الخليفة الى فرض ضريبة خاصة على الخيول غير مهال بالشكوى العسامة من جانب السكان الاصليين فلا ريب اذن في حصول فرقته على نصيب الأسد من الفتيمة .

اشتهر الخليفة عبد الله أيام حكمه بتوسيع نفوذه بواسطة الدسائس وبث الفتن فلا يكاد يتصل به زعماء قبائل غربية عنه حتى يفسد الفتنة بينهم ليفوز بجانبه ويضعفهم ومن أمثلة ذلك انه عند هزيمة وموت النجوشي ( الذي كان تابعا للخليفة الشريف الذي مسح منه عبد الله كل نفوذ على غيره من الأمراء ) وتسلح عبد الله فلول الجيف الموزوم تحت قيادة الأمير بونس وبهلا من رجال الجيف المتحزبين عين عبد الله أفرادا من الجمليين وزجال أم دوملا حتى يكون واقفا من حصوله كل نفوذ جديد .

وقد وضع الخليفة أولئك في يادى الأمر تحت امره مواطنهم  
 يعقوى واد العريق ولكن بدلا من ارسالهم الى دنقلة بحث بهم عبد الله  
 الى القضايف وما يذكر عن سوء نية الخليفة عبد الله نحوهم أن  
 علوا قهريا منهم عن الرحيل الى القضايف في الجهاد المين فاسرع  
 ( عبد الله ) الى اتهامهم بالصبيان ثم أصدر امره بنفى يعقوى وستة  
 من أمراءه الى الرجايف واحلال ستة آخرين بدلا منه تحت امره حامد  
 واد على ابن عم الخليفة .

خلق الانسان وفي طبيعته البشرية نزوع الى طلب الوفايه  
 من القوى وزغبته في التمتع بسند الاقوى فليس بدعا أن نرى سرى  
 جديده في صفوف البياح الامراء لان ائترهم فضلوا السير تحت  
 لواء الخليفة مباشرة لو تحت أسرة أخيه يعقوب حتى أن اشياح على  
 وادعلو انفسهم اسرعوا الى تنعيد هذه الرغبة ويجعل بي في هذا  
 الصدد أن اذكر شيئا عن سعى حامد واد جبار النبي الذي كان حاملا  
 رئيسا في حزم التبايعين . كان حامد هذا منتشيا لقبيلة حساميات  
 التي يرأسها على وادعلو وبما أن حامدا هذا كان على بينة مما يجري  
 وادغبا في تنفيذ فكرة الاستناد الى ذراع الأقوى لم يأل جهدا في  
 بث فكرة انضواء أتباعه تحت لواء يعقوب ولكنه ( حامد ) كان في  
 الوقت نفسه قصير النظر غير حبال بما يجري اذا- تصريحاته  
 فافضى برغبته الى اقرباء على وادعلو ولم يكتف بذلك بل تجاوزها  
 الى التصريح في اجتماع عام بأن الذى سيخلف الخليفة عبد الله بعد  
 موته هو أخوه يعقوب أو ابنه الخليفة عثمان - فاذا ما استقر الأمر  
 بين يعقوب أو انتهت السطوة الى عثمان تلاشى لفرؤ على وادعلو  
 وأصبح رجلا عازيا لا شأن له .

منما سمع الواقفون هذه التصريحات العلنية أجابه بعضهم  
 بأن المهدي أوصى الخليفة عبد الله قبل موته ( للمهدي ) بأن يخلفه

في الخلافة على وادخلوا فقال له حامد يان الأحوال تغيرت وأن  
عبد الله من الثورة بحيث لا يبالي بوصفه المهدي الذي صلبه .

لم يكن حامد يذكر اقواله هذه حتى أسرع بعض المتسائلين  
بالتمية الى بيلغ الحادث الى على وادخلوا فابهم الاخير حامدا بتهمة  
التحريض وبث الفتنة وعندما قنع حامد الى القاضي وسمح الاخير  
شهادته استشهد لم يبق مجال للشك في صحة ما اُتدلى به محيرو على  
فالتهم الحادث الى تاييم حامد بتهمة الزنادقة لانه شك في عيسى  
اوامر المهدي وتعاليمه ومع انه كان من المتطوع جدا أن يتدخل الخليفة  
عبد الله لنصرة حامد وتبرئة ساحته لم يستطيع الخليفة اظهار تدخله  
علنا فان ذلك التدخل دليل فاطح على جلاله وغبية عبد الله في حرمان  
على وادخلوا من الخلافة بعده واثبات جديد لصحة ما قاله حامد  
ومع ذلك لم تكن الحقيقة خافية على التسبب السوداني عموما وسكان  
لم حرمان خصومها .

لقد الامر وصدر حكم القضية بإعدام حامد ورغم كون عبد الله  
بذلك أقصى ما في وسعه لحمل على وادخلوا على ارجاء حياة التنفيذ  
فان ذلك لم يخفف من غلواء على وشدة حنقه وقد عرف وادخلوا أن  
تنفيذ الحكم في حامد انقضاء مباشر من الخليفة عبد الله . واذن  
ظهر على وادخلوا بتحقيق رغبته لنقل حكم الاعدام في حامد جاز  
النبي علنا في ميدان السوق الكبير بعد أن أعلنت به تهمة الزنادقة  
والتحريض على الثورة .

لا ريب في ان ذلك التنفيذ مؤلم جدا للخليفة ولأخيه  
يعقوب وبما أن خروج الخليفة علنا على الحكم دليل على رفضه  
الاحكام التي ضد الزنادقة كان من المنتظر أن يحرض الخليفة

أتباعه سرا على اظهار صفتهم من ذلك الحكم القاسى وهذا وقع فعلا  
فقد وصفت الامام من يعسوب الى رجال جميع العيائل المحافظة  
له وصدرت الامام من الخليفة الى اتباعه القريين بان يظهروا جميعهم  
صفتهم امام وامتيازهم من تنفيذ الحكم وسبيل اظهار ذلك القصور  
هو الامتناع عن حضور التنفيذ .

كان الخليفة فى اى نزاع قائم بينه وبين خصومه يعتمد اولاً  
وأخيراً على جنوده فان اولئك كانوا جداً لا نظام أية قوة معارضة له  
فى الداخل مهما كان شأنها سواء أكانت هذه القوة فى أم دومان  
ذاتها أم فى أية ناحية أخرى من الجهات المجاورة . واذن فهو السيد  
المستطاع صاحب القوة التى لا تقاوم فى داخل السودان . لما اذا  
خرج الامر عن الدائرة الداخلية فهو عاجز عن صد جميع الفارات  
التي تبعد طلائعها من الخارج فان قواد جيشه ليسوا من القوة  
والدربة بحيث يستطيعون مهاجمة قوة خارجية هجومًا يكفل لهم  
النصر على أعدائهم ، كما أن رجال جيشه ليسوا من الولاء والوفاء .  
فى آخر سنى حكمه - بما كان يمتلكه الخليفة فى أول أيامه ، ويرجع  
ذلك الى اطلاق جنود الحماسة الشديدة الأولى وهم الى جانب ذلك  
على قليل من الثقة او الايمان بالقضية التي يحاربون من أجلها ،  
والخطر من هذا وذلك تسرب القمك الى رؤوس المحاربين فى قدرة  
الخليفة وأتبساعه على مناوأة أية قوة خارجية ترمي الى احتلال  
السودان .

يرغب القراء بطبيعة الحال بعد ان اطلعوا على الكثير من  
تصرفات الخليفة الدينية والسياسية ان يقفوا على ما لديه من القوى  
العربية ولكن كان من المسير ذكر تقدير دقيق عن رجال الحرب  
السودانيين ومعداتهم فلا مانع من نقل بيان تقريري عن الموجود  
لدى أولئك المحاربين .



قبل وأثناء عام ١٨٦٥ تنقسم الواحى السودانية التى يشرف  
 ١ الخليفة الى أربعة أقسام رئيسية هى على التتابع ام درمان  
 الجاف والسودان الغربى والسودان الشرقى وسندكر فيما على  
 المحاريض، ومقدار مداتهم فى كل من الأقسام المذكورة .

القسم الأول : يتولى امره الجيش فيها ( ام درمان ) امير  
 عثمان شيخ الدين ويحارب ، أما أولهما فيتكون جيشه من أحد  
 ألف جندي من المشاة فى أيديهم إحدى عشرة ألف بندقية ولكل  
 نية ماسورة منساة ويحارب جيش الثانى ( يحارب ) من أربعة آلاف  
 المشاة وثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وخمسة وأربعين ألف من  
 فى الحراب والرماح هذا الى أن مخزن هذا الأمير يحتوى على  
 مدفعاً وأربعة آلاف بندقية . كما توجد فى ملازن جيش  
 نومان ست آلاف بندقية .

القسم الثانى : أمير جيش الجاف هو حرايى ولد دلة الذى  
 من بأمراء أربعة آلاف وخمسمائة من حملة الحراب وألف وثمانمائة  
 المشاة وتوجد فى مخزن ثلاثة مدافع وألف وثمانمائة بندقية  
 حلة الماسورة .

القسم الثالث : ينقسم ( السودان الغربى ) الى الثلاث  
 ؟ بيض وشاكا وبربر وأمر حده وللجهات الثلاث الأولى أمير واحد  
 حه محمود ( يعينه الثانى من أتباعه ) تحت امرته ستة آلاف من  
 حاة مثلاً وثلاثمائة وخمسون فارساً والثانى وخمسمائة من حملة  
 زريق والرماح وفى مخزنه أربعة مدافع وست آلاف بندقية  
 القاحية الرابعة ( بربر ) تحت امره زكى عثمان الذى يقود  
 ١ ومستمائة من المشاة وخمسمائة فارس وألفاً وثلاثمائة من حملة  
 حاح وفى مخزنه ستة مدافع وألف ومستمائة بندقية وبذلك تنتهى

الى الداحية الخامسة ( ابر حمد ) التي يقود جنودها الامير نور عتو  
وتحت ارضاد حبل الرئيس اربصانة من المشاة ومائة فارس  
وسبعمائة من حامل الرماح - وفي مخزنه اربعة مدافع واربعمائة  
بنديقية .

القسم الرابع : ينقسم ( السودان الشرقي ) الى احواراما  
والكضارف والفاسر واسوبرى والقلابان ودنقلة وسواردا .  
ومتلكر محتوياتها تباعا تحت حروف اولية .

( ا ) ينضمون جنود احوارايا تحت لواء الامير عثمان دجنة الذي  
يقود اربعمائة وخمسين من المشاة وثلاثمائة وخمسين من الفرسان  
والفا من حملة الرماح . وفي مخزنه اربعمائة وخمسون بنديقية من  
نظار الاسود الواحدة المتسعة .

( ب ) امير جيش الكضارف هو احمد فضيل الذي يصدر  
اوامره الى اربعة آلاف وخمسمائة من المشاة وستمائة فارس وألف  
من حامل المزاريق والحراب وفي مخازنه اربعة مدافع واربعة آلاف  
وخمسمائة بنديقية .

( ج ) يعول امرة الفاسر - الى جانب امارة الكضارف -  
احمد فضيل السابق ذكره ويكون جيش هذا الامير من ألف جندي  
من المشاة ومائتي فارس وخمسمائة من حامل الحراب ولى مخزنه  
ألف بنديقية .

( د ) القائم بإدارة شئون اسوبرى العسكرية هو الامير حامد  
واد على وتحت ارضاده تسعمائة من المشاة .

( ح ) الأمير في جيش القلايات جو عين نور ( وهو أقل أمراء جنود السودان شأنا ) الذي ياتمر بأمره خمسون من المشاة ومائتان من حملة الرماح والحراب . هذا إلى أن البنادق أكتى في مخزله .  
خمسون بندقية لا غير .

( و ) يقود جيش دقللة الأمير يونس الشليم . ولهذا الأمير ألفان وأربعمائة من المشاة وخمسمائة فارسي وخمسة آلاف من حامل الرماح وفي مخزله ثمانية مباح وألفان وأربعمائة بندقية .

( ز ) آخر الأمراء السبعة للنسيم الرابع هو سيورادا وأمير الجيش هناك زعيم سوداني اسمه حموده تحت قيادته مائتان وخمسون من المشاة ومائة فارسي وألف من حملة الرماح وفي مخزن الأمير مائتان وخمسون بندقية . ويأحصاء ما تقدم إحصاء علما نجد الأقسام الأربعة مفرقة إلى خمسة عشر معسكرا حربييا فيها اثنا عشر أميرا ومجموع الجنود المشاة في هوائي لقوذ الخليفة المذكورة ألفا أربعة وبلائون ألفا وثلاثمائة وخمسون ومجموع الفرسان ستة آلاف وستمائة وعدد حامل الرماح أربعة وستون ألفا والموجود من المباح في المخازن خمسة وسبعون وعدد البنادق ألف وثلاثمائة وستون .

هذا هو مجموع ما في البيان ولكن في الحقيقة لا تجد من البنادق المذكورة أكثر من اثنين وعشرين ألف بندقية صالحة للحرب ( والبنادق المذكورة من طراز رعتجت ) أما الباقي لمبارة من بنادق من ذلك الماسورة أو الماسورتين وغير ذلك من النماذج القديمة غير المنتجة . ومهما يكن أمر الأسلحة النارية المذكورة فقد أصغر الأمراء وأوامرهم يقطع أجزاء مختلفة الطول من أوابيس ( عواسير ) رعتجت والفرش الرئيسي من ذلك تخفيف ثقل البندقية ولم يبال الجنود بما قد يلحق بالبنادق من الضرر في حالة ذلك القطع غير المنتظم .

ذكرنا في البيان السابق أن مجموع حامل الحراب والرمح أربعة وستون ألفاً ، وأنه لمن الواجب علينا بعد ذلك أن نقول إنه ومع أولئك - على أقل تقدير - طاعنون في السن أو صغىرو السنان أى أنهم في كلتا الحالتين غير صالحين لنزول المعركة نزولاً يضمن لهم الفوز .

لما المدافع الخمسة والسييون - لفستمل على ستة من طراز كروب ذات الفوهة الواحدة القطر ( ولكن لا توجد جيخانة كافيته للمدافع الستة السائلة الذكر ) ثم ثمانية مدافع من أنواع والمدافع مختلفة ويتبقى بعد ذلك واحد وستون مدفعاً لحامية مختلفة الأشكال والأحجام على أنها تعباً جديداً بواسطة الفوهة ومن المعروف من طبيعة المدافع الأخيرة أنها تصنع في ألم درمان بمسلة خاصة وهذه ( الأخيرة ) من صنف رخيص غير فعال بحيث لا يحده مدى طلقة المدفع عن ستمائة أو سبعمائة ياردة .

لنتأمل الآن قليلاً في حدود نفوذ الخليفة وبعد ذلك نرى أنه سلطان الدراويش امتد في السنوات القليلة الماضية ( قبل عام ١٨٩٥ ) من وادى حلفا إلى الجنوب الشرقي حيث أبو حمد ثم سار شرقاً إلى سواكن وما جاورها ( بما في ذلك طوكر وضمور وبركة ) وأتى بعد ذلك جيتويا ( بما في ذلك كسلا والقلابات والاندادات الجنوبية الشرقية لبنى شانقول وجبال جوبى ) ثم مال من تلك الناحية إلى الجنوب الغربي مقابل النيل الأبيض ( بما في ذلك غاشودة وبهر والرجال ) .

امتدت ذلك النفوذ الدراويش من الغرب في اتجاه جنوبي شرقي داخل الصحراء الليبية الجنوبية ( بما في ذلك سليلة مديريات دنقلة وكردوفان ودارفور إلى حدود وادى ثم سار جنوباً

مستغرقا بحر العرب وبارا بلاد رنجا ( بما في ذلك دار فريت وجزر  
الجزال وكسم من منطقة خط الاستواء ) .

بعد أن انهزم النجومي اضطر اتباع المهدي إلى الهجاء عن القسم  
الشمالي من مديرية دنقلة وأصبح مركز طليعة جيشهم الآن  
( عام ١٨٩٧ ) في ناحية سواردا التي تبعد ثلاثة أيام - سيرا على  
الأقدام - عن دنقلة وأنه ليحصل هنا أن لذكر خبر التجربة التي  
تمكنت عام ١٨٩٦ من اخراج الدراويش من مديرية دنقلة وتأسيسه  
حكومة ذات نفوذ مصري ممتدة جنوبا لغاية مروي .

انتصر المصريون في طوكر وحندوب فساعد ذلك القبائل  
الداخلية على استرجاع ما كان لها من مناطق في الجهات المجاورة  
مباشرة لسواكن وطوكر ، كما انتهى لاستيلاء على كسلا إلى امتلاك  
الإيطاليين جميع الأقسام الواقعة شرقي كسلا . وإزاء هذا وذلك  
أصبح نهر عطبرة حد الخليفة المرقى في أواخر القرن التاسع عشر .

حدث تغير طاهر في مراكز الجنود فانتقلت القوة الرئيسية  
التي كانت معسكرة في الغلابات تحت إمرة أحمد فضيل إلى جهة  
التضاريف ولم تبق في تلك الغلابات سوى قوة ضئيلة . وقد انتهز  
رؤساء مناطق بني شانقوله وطور الفوري تم كتيرون من متسايفين  
الجهات القريبة هذه الفرصة فأعلنوا استقلال مفاطهم وسرت  
الصدى إلى الناحية الغربية القاصية ، فبعد أن أعاد رجال قبائل  
مسالت وناما وبني حسني وجر دلع الضرائب لأروا على حكومة  
المهدي ، وأخيرا أعلنوا استقلالهم واشتركوا عقب ذلك في محاولة  
دفاعية هجومية مع يوسف سلطان وإداي ، فاعتزم الخليفة عبد الله  
إرسال متطوعين لأشجار أولئك العصاة وأجبارهم على تقديم الطاعة  
والولاء له ، ولكنه عدل عن ذلك بعدما ظهر النفوذ الأوربي الجديد

فهر بحر الفزال ووقف خاتم موسى أحمد قواد عيه الله في دائرة  
نفوذه دون تمكن من التمسك .

اكتفى عيه الله بأصدق تلميذاته إلى خاتم - بعد القول بجم  
المراديين - بعدم التمسك إلى الجنوب قبل وصول مند جديد له من  
ثم - دومان .

## الفصل السادس عشر

### ملاحظات متنوعة

أشرت في الفصل السابق إشارة عامة إلى موقف الخليفة  
عبد الله من القضاء والقضاة والآن الفصل قليلا ما أجملته بالقول :  
إن القضاة هناك آلات صماء في يدى سيدهم الماكر النبيه فلم يكن  
الخليفة يسمح لهم بالفصل في القضايا الكبرى وكل ما يمكنهم من  
محقه هو ما يختص بالمنازعات المالية وقضايا الارث وتوزيع الاملاك  
وما شابه ذلك ، وعلى أية حال لهم في جميع أحكامهم الكبرى في  
القضايا المهمة كانوا ملزمين بالرجوع إلى الخليفة قبل إصدار  
الحكم النهائي ولا حاجة بنا إلى القول بأن الخليفة كان في كل  
ما يبل به من آراء إلى أولئك القضاة لا ينظر إلى شيء خلاف مصالحه  
الشخصية وأهوائه وأغراضه ، ولكنه في الوقت نفسه كان يجتهد  
— بما أوتي من خلق ودهاء — من الظهور أمام الشعب بمظهر المانع  
عن الحق والراغب في اتباع نصوص القانون ، وأذن فالقضاة أمام  
 مهمة شاقة جدا فهم من ناحية مضطرون إلى إرضاء أهواء الخليفة  
وتنفيذ أوامره التي لا تتفق — في غالب الأحيان — مع العدالة في  
شيء ومن الناحية الأخرى مضطرون إلى صوغ أحكامهم في قوالب  
قانونية تبث الشعب على الاعتقاد في تسبك الخليفة بالحق ومهما  
يكن الأمر فإن تسكين في المائة من أحكام أولئك القضاة لم تنطبق  
حتى على أبسط مبادئ العدالة - أما الدين في السودان حسبما

أرشدني الاختبار الى استنتاجه - فيتمشى على المبدأ القائل : الغاية تبرر الوسيلة ، وما أذكره في مدة انقاضي أن الدوائر الدينية كانت بين آن وآخر تصدر اعلانات ورسائل صغيرة تحض فيها المسلمين على التقيد بأوامر الدين وتادية الواجبات الدينية - وفي مقسمتها الصلاة - على الوجه الاتم لم الابتعاد عن جميع الملذات العالمية والتوجه الى عالم الخير الاعلى ولم تكن الأوامر الدينية المذكورة مقصورة على السودان بل تعدته الى جميع نواحي أفريقيا وبلاد العرب وبورنو ودار فلاته ومكة والمدينة .

اعتبر الخليفة شخصه قدوة للمسلمين عموما في السودان حكلي - ما دام في صحته الكاملة - يشبه الصلوات الخمس يوميا ليوظهر امام الناس متمسكا باهداب الدين مع انه في الواقع كان أبعد المسلمين عن التمسك بأوامر الدين ، ففي جميع السنوات التي كتبت فيها على اتصال وثيق جدا بالخليفة لم ألاحظه على الإطلاق يصلى الى ربه في حارة الخاصة ، ولم أسمعه يكرر - ولو بصوت خافت - بعض التعاليم الدينية التي يعرفها المسلمون جنينا سواء أكانوا ممن يقرأون ويكتبون أم من الجاهلين .

لم يكن ادعاء عبه الله التقوى من الاحكام بحيث يصطفه البعبعون لانه رغم ظهوره بالنقى كان لا يتردد في اصدار امره بالغاء حلة دينية وعدم تأدية فرض مذكور اذا كان في تأدية الفرض ما يحول دون تحقيق غرض أو طمع من أطاعه الشخصية ، وهذا يعود فنقول ان الخليفة كان يتذرع في مثل هذه التمديدات بالتضامن حتى يحمي الالفاء من الجانب القانوني ، وفي ذلك الموقف الحرج لا يتردد القضاء في اعلان أن ذلك الالفاء لازم في سبيل الاحتفاظ بالدين في حالة خاصة فاذا ما صدرت تلك الفتوى ارقاع الخليفة وأطمان ، الا أن القضاء في بعض الاحايين يقفون من أطاع الخليفة امام حالات لا يستطيعون معها بحال من الأحوال أن يصدروا أمر



واللغادون فيضطرون الى التويه فيلهون بان الالهام الديني امرهم  
بالقيام بهذا العمل المتصاد لحكمة قد تقيس عن اذهان البشر .

اعتماد الخليفة عبد الله مخاطبة أتباعه من منصة المنبر في  
المسجد الكبير ولكن بما أن عبد الله يجهل اللغة الدينية الاسلامي  
ويعرف الشيء القليل من قواعد الدين وأصوله فإن مدى خطبه  
الدينية محدودة ، وبمعنى آخر لا يمدى تلاوة جمل كتبها له أحد  
سكرتيره .

الذي عبد الله الحج الى مكة واستمضى عنها بدعوة المسلمين  
الى الحج لقبر المهدي مثل النبي الكبير وأنا على الرغم من مشاهدة  
كرومية السودانيين لهذه البسطة الجديدة نراهم مضطرين الى  
الضوضاء لأمر عبد الله ومازال أولئك السودانيون على نظامهم  
الجديد حتى أصبحوا الآن ( عام ١٩٩٧ ) ساعين من غير قصد الى  
تحقيق رغبة عبد الله وأخيه في الحج دائما الى قبر المهدي وقد  
ذهب بهم جميع في التقليد الجديد الى حد أنهم يسكرون ممن  
لا يرافهم في طريقة الحج هذه . وأنه من الزاوية والمثل أن نقول  
بأن السودانيين في تشبههم هذا لا يعبرون عن عينة ثابتة بل  
يرمون الى تحقيق رغبة مولا عبد الله .

أما فيما يختص بالتعليم والأوامر الدينية فمن الحق أن نقول  
انها في حيز العلم من الوجهة العلمية الواقعية ، وكل ما في الأمر  
أن بعض الأولاد والبنات يملكون مما آيات قرآنية وبعض جمل من  
الحديث المقدس لدى المسلمين ويكون ذلك الالتقاء بواسطة شيوخ  
دينيين في معاهد صغيرة مجاورة للمسجد ، ولئن قلنا ان الشيوخ  
يلقون الآيات على أولئك الصغار فانا لا ننسى بأن لذكر الى جانب  
ذلك أن الذي يحفظ من الآيات قسما صغيرا والمتبع في زمن الخليفة  
عبد الله أن يرسل عدد قليل من أولئك الأولاد الى بيت المال بعد

انعام دراستهم الأولية في المساجد فاذا ما ساروا الى ذلك البيت  
أصبحوا تلاميذ تحت التمرين لموظفي الحكومة الاثنيين وهناك  
يتعلمون مقدارا محدودا من المراسلات الكتابية العامة .

تخرج الآن الى التجارة في السودان فنقول بأن ذلك العهد  
الذي كان زاهرا والذي امتلئت فيه الطرق التجارية في السودان  
قد اضمحل فأصبحت الطرق - التي كانت تحتلها القوافل الكثيرة  
الضخمة - خالية بالصحراء المقفرة حيث محت الرجال الكومة معالمها  
أو حلت بقايا جلود النباتات في بعض مواضعها . وفي صدد ما نذكره  
يحسن بنا أن نضع بيانا للطرق التجارية الرئيسية الأربع .

أولا - الطريق الأربعينية من دارفور الى أسبوط أو من  
كردوفان عن طريق بيوضة الصحراوية الى دنقلة وواي حلفا .

ثانيا - الطريق من الخرطوم الى أسوان من ناحية بربر الى  
كرومكو عن طريق أبي حمد .

ثالثا - الطريق من الخرطوم الى مسواكن من ناحية بربر  
أو كسلا .

رابعا - الطريق من القلايات للقضارف فكسلا فمضوع .  
الطريق الحالية ( عام ١٨٩٧ ) التي تحتلها جمال القوافل فمن  
بربر الى أسوان ومسواكن .

بعد أن تم الاستيلاء على الخرطوم جلب التجار السودانيون  
الى أسوان مقادير كبرى من الحل الذهبية والفضية وما زال التجار  
في عملية الذهب والتصدير الى جهات خارجة من السودان حتى  
اضطر الخليفة الى إصدار أوامره المشددة للتجار بعدم حمل ذهبه

أو قضية معهم إلى مصر مهما كان يموّزهم الاتفاق وكل ما سمح به الخليفة لأولئك التجار الخارجين عن السودان هو مقدار من المال يبيته بيت المال حتى لا تضيق على الشعب السوداني وكونه في سبيل اتفاق غير منسوخ في نظر الخليفة . ولم يكتف عبد الله بتحديد مقدار ما يأخذ التجار معهم بأمر بيت المال بل جعل العملة التي يحصلونها من الطراز القديم على أن تحدد قيمتها في جواز سفر التاجر .

أدت القيود والتشديدات التي أجراها الخليفة عبد الله مع التجار إلى قضايا شأن التجارة بين السودانيين ولكن ذلك لم يستمر طويلا فانتعشت التجارة ونهضت بعد كسادها فطاعت إلى السودان حياته بتبادل أصناف تجارته الرئيسية كالصمغ وريش النعام والتمر الهندى وأوراق نبات السمانكى وما شاكل ذلك . وقد كانت الصلة المتبعة في هذا التبادل التجارى جميع هذه الأصناف في بيت المال إلى جانب ما فيه من إلحاح المخزون على أن تقدم جميعها للبيع في سوق المزاد العلنى تبعا للسعر المحل ولكن بما أن الأصناف المذكورة تستورد من جهات السودان القريبة التي أصابت أهلها الحروب الداخلية والعلقة والأمراض فمن المحقول فهم أن مقدار المستورد يقل بقلّة عند السكان المنتجين .

لا شك في أن الصمغ السودانى احتكار لسكانه . وهذا الصنف يختلف في أمانه باختلاف ألوانه المتبعة وأما تذكر ذلك لنقل به على فائدته في المبادلة علما بأن التبادل التجارى بين مصر والسودان لا يتم بالمال بل بالبضائع والذي تعرفه من المصريين أنهم يقدمون بدل ما يأخذونه من السودان بضائع جاهزة من منقستر لأن الحاجة إليها في السودان كبيرة جدا .

في حال التعامل بال نقد في السودان يشتري بيت المال أى صنف تجارى بمصرين ريالاً من العملة الجديدة مثال لبيعه للشوارى

السوداني ثلاثين ريالاً حتى يبقى المكسب في بيت المال وعندنا  
تتم المبائة بين الطرفين الرسمي والشمعي في السودان يسمح  
رجال الخليفة لأولئك التجار السودانيين بالسفر الى مصر لبيع  
تجارتهم وقيل سفرهم توضع بطالهم في موازين الشحن لتقدير  
ثقلها بالضبط وفرض ضريبة خاصة عليها بعد ذلك هي في الغالب  
ريال على ما زنته قنطار ! فاذا رغب التاجر شحن تجارته الى سواكن  
أو أسوان اضطر الى دفع ريال آخر على كل مائة رطل ولكن الريال  
في هذه الدفعة يكون من العملة الجديدة ، وأذن قد أصبحت  
الضريبة الإضافية منس الختم الأصل .

يود الحاج الى السودان من اقاليم خط الاستواء بكميات كبرى  
مرة واحدة كل عام وفي الغالب تمر تجارته بسواكن وبما أن المناطق  
المذكورة خارجة أو تخرج تباعا عن دوائر نفوذ المهدي فقد كان  
من الظاهر جداً لدى عبد الله أن الكميات المذكورة تتناقص في  
السنوات التي تعقبه .

أما باب الليل فلم تكن الدوائر الحكومية لتتطرق به كثيراً  
لأن الوارد منه قليل يجعله بيت المال من مناطق دارفور الجنوبية  
ومن الحق أن نقول بأن الهداويش ما لم يعودوا الى احتلال بحر  
الغزال بالقوة مرة أخرى - لا يستطيعون الاحتفاظ بتجارة الحاج  
احتفاظاً يضمن لهم مقداراً مذكوراً من الثراء .

لا يستطيع السودان جلب البضائع من مصر الا عن طريقين  
حما أسوان وسواكن . وقد كانت الحكومة السودانية فيما سبق  
تجلب مقداراً من تجارتها القادمة من مصر أو ما جاورها عن طريق  
سواكن الى كسلا أو من كسلا الى مصوع . ولكن حال دون استعمال  
هذه الطريقين احتلال السودان الغربي بواسطة الإيطاليين  
فلم يست البضائع المستوردة سوى أصناف من قيمة مالية طيفة

وتتكون في غالبيتها من مواد خاصة بجبلابيب النيسا، وجيب الرجال ومهما يكن الأمر فإن ذلك شيء غير جوهري لدى سكان السودان الذين اعتادوا التعلق بكل ما له رونق خارجي زاه وما فيه التزاويق الكثيرة بنفس النظر عن تناسب ذلك مع اللون السليم وبدون اهتمام بالتعاشي المتين . وفي الحق يكاد يكون من الصير جدا لأو من المستحيل وجود مقترين من طبقة عالة أو متوسطة في نواحي السودان .

بين الأصناف المستوردة إلى السودان الراولج الطرية من جميع الأصناف كزيت خشب الصندل والقرنفل والحبوب ذوات الرائحة الطيبة والسبب في استيراد ذلك النوع التجاري بكثرة هو استحسان السودانيين بين أهل السودان فإن ذلك لا يمنعنا من القول أن السكر والأرز والأنواع العادية من الحلوى والفواكه المختلفة تجد جميعها شازين بين أكثر السودانيين ثراء وله يجعل بنا أن نذكر في صدد التجارة أواخر الحكومة المصرية سابقا بمنع الحديد والتصدير والتخلص بتوعيه الأصناف والأحمر من دخول السودان حتى أصبح عسيرا على الأفندي في عام ١٨٩٧ أن يحصل على مقص أو موسى لخلق اللقن وقد كان من جراء هذا المنع ارتفاع أسعار أولى الطبع النحاسية إلى حد كبير من الثلث لأنه خلاوة على منع التصدير استعملت الكتيبات العسكرية على النحاس القديم القابل للتصليح فاستخدمته في صنع الخراطيش للبنادق . ولأن اضطراب السودانيين الموزون إلى الاستعاضة عن الألواني النحاسية بأوان خزفية في تحضير الطعام .

كان مفروضا على صاحب كل تجارة واردة للسودان أن يسلع خيرية عبارة عن عشر قيمة الوارد وله ألزمت الحكومة أصحاب التجارة المستوردة بسلع الخيرية إما نقدا وإما بضاعة مبادلة وقد

كانت المصرية تؤخذ أكثر من مرة على طول طريق القافلة • فإذا ما وصلت التجارة إلى أم درمان أخذت إلى بيت المال ووضع عليها ختم الحكومة ومن ذلك الوقت تجبى الحكومة مصرا جديدا • وأذن ولف التجار أمام ضرائب قليلة متعددة كما التزموا تقديم ما يشبه الرشوة إلى رؤسها لما كن الحكومة السودانية التجارية في المحطات المختلفة أي أن التاجر كان يدفع من جديده ما يقرب من نصف ثمن البضاعة التي دفعه أولا للبائع • وهم أزاله ذلك مجبورون على رفع قيم البضائع وعلى الرغم من ذلك كله نجد مكاسبهم في النهاية قليلة بالنسبة لغيرهم من التجار في مختلف الجهات المجاورة للسودان •

إن كثيرين من التجار الأغنياء في السودان فرحوا إلى مصر وعرضهم الأول ليس جلب التجارة منها أو بيع تجارة لها ولكنهم دعوا قبل كل اعتبار آخر إلى التخلص من جو السودان بضعة شهور يكونون فيها بعيدين عن سلطان الخليفة الشديد فان كل الذين تأسوا الأمرين من ظلم هذا الحاكم لم يجدوا وسيلة للتصالح على جواز هربون به من السودان سوى التجارة فلم يكن مسموحا للحكومة السودانية أن تعرض أي راجب في بيع أو جلب تجارة للخارج أو عنه •

كان الكثيرون من التجار مقيدون بأسرهم وزوجاتهم وبنينهم ولا يخالفون أي شك أو ريب في أنهم لو كانوا خائفين من تلك القيود لما رجعوا مطلقا إلى السودان ولفضلوا الصبي في مكان هادي كصر - خارج وطنهم الأصلي - من البقاء تحت يدي المفسد الشديد والاستبداد المطلق في السودان •

لئن أصيبت التجارة بكساد عظيم في السودان فثم تجارة لقيت الرواج الكبير والتأييد الكلي من جانب المهدي والخليفة

عبد الله ، واعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد الى مصر ليبيعهم أصبح أمرا محظورا ومعاقبا عليه فالخليفة بطبيعة الحال ممنه يتوسع تلك التجارة في جميع المديريات والنواحي الداخلية في دائرة نفوذه . ولم يمتنع عن مخاطبة الخليفة بعد منع تصدير العبيد - أن يحول دون امتثال مشيريه بالأمر على حذايه .

كان من المستحيل بطبيعة الحال - ونعم صندور الأوامر المشددة - من حكومة مصر بفتح تصدير الرقيق - أن يحول الخليفة عبد الله دون تجارة الرقيق في مصر وبلاد العرب ولكن القوافل التي كانت فيما مضى تقل القنادير الواقعة من عبيد السودان قد ولقت ولوقا يكاد يكون كليسا .

كان في السنوات التي بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ يرسل المند الكبير من عبيد الحبشة بواسطة أبي النجا ومن فاشوفا بواسطة ذكي طومال ومثل ذلك المقدارين كان يرسله عثمان راد آدم من دارفور وجبال النوبة وكان أولئك المرسلون الى السودان يباعون علنا في سوق المزااد العلني على أن تودع أناسهم في بيت المال أو في خزانة الخليفة الخاصة . ويمثل الحبشة والقسوة التي كان يعامل أولئك الرقيق أثناء شرائهم كانوا يعاملون وقت تسفيرهم الى الجهات .

عرف الجميع عن أبي النجا أنه استولى في بلاد الحبشة على الآلاف من المسيحيين ليبيعهم في سوق الرقيق في السودان وكان أغلب أولئك من النساء والأولاد وقد بلغت القسوة بأبي النجا ورجاله مبلغا دعتهم لسوق أولئك بالسواط أثناء مسيرهم على الاقدام من بلاد الحبشة الى أم درمان فافا ما عرفنا أنهم كانوا يؤخذون قهرا من عائلاتهم ويحرمون من الطعام الكافي لسد رمقهم في هذه المسافة الطويلة ويسعون على أقدامهم العارية عرفنا أنهم

كانوا أشبه بتطعيم من الألفنام فليس بدعا أن يعرف القراء أن المصلح الأكبر من أولئك العبيد كانوا يلهوون جوعا أو مرضا قبل الوصوله إلى أم درمان وأن الباقيين منهم - أثناء وصول أبي النجا بهم إلى أم درمان - كانوا في حالة سيئة شديدة يتعذر معها وجود الشمارين وإزالة ذلك كان الخليفة في كثير من الأحيان يتبرع بمقد من أولئك العبيد لبعض أخصاله .

بعد أن هزمت قبيلة التلوك سعى زكي طومال في الاستغاثات من ضعف رجالها ونسائها فحصل الممد الكثير من صنادل - كانت موصلة لنقل رجاله الحربيين - ونقلهم إلى سيدي عبد الله في أم درمان . وقد سمعنا في تلك الأثناء الشيء الكثير من اختناق المئات من جراء ازحام الصنادل البحرية بهم فإذا ما وفق الباطون نصيحة أخذ الخليفة بعض صغار السن منهم لضمهم إلى حرسه الخاص بصفة احتياطي ، أما النساء فكان يبعن مع الأولاد في سوقه المزاد العلني الذي كان يستغرق عادة بضعة أيام في أم درمان .

كان أولئك المتكودو الحظ يجلسون في غالب الأحيان هراة خاوي البطون أمام بيت المال فإذا ما قدر لبعضهم أن يسبلوا رجليهم أعطاهم عمال الخليفة أعرادا قليلة من اللثة دون تسوية ، فكان من الطبيعي أن يصاب المئات منهم بالمرض مما يرسلهم إلى عس عناية أسادهم الشاوين بهم وقت العرض .

في كثير من الأحيان كان يبنغ الضجر والتمب بضرات أولئك الحساد جدا يفشلون معه ألقاء أجسامهم في ماء النيل حتى يرحموا أجسامهم العارية وبطوتهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مناه ، فكانوا يموتون هناك وبما أنه لم يوجد من يعنى بانخراج جثثهم فإن النتيجة المنطقية هي اكتساح الجثث بقوة التيار إلى الشاطئ . فإذا



ما ظهرت جنبه الغيت خارج التساطع، مما يدعو الى نشر راحة  
كريمة في الجهات المجاورة .

هذا فيما يختص بالغريبين من شاطيء النيل أما الذين كتب  
عليهم الشقاء الأكبر فكانوا ينفون في الصحراء . حيث لا ماء  
ولا زرع . على طول الطريق بين دارفور ودمرمان وقد كان أولئك  
البائسون تحت إمرة رجال غلات القلوب ينفونهم الى أم دمرمان  
نهارا وليلا دون المن عليهم بشيء ولو قليلا جدا . من الراحة . وقد  
أكون عاجزا الآن عن وصف ما يتركبه أولئك الرجال المتوحشون  
المعترسون أثناء سيرهم بالنساء الى سوق العبيد في أم دمرمان .

كان من عادة أولئك المتوحشين الصبح أن يقطعوا آذان من  
يعجز من الأولاد أو الرجال أو النساء عن السير الى أم دمرمان .  
بمناسبة ما نزل بهم من الكلال . ليقيموا الآذان المقطوعة للخليفة  
علامة على مقدار من ماتوا من سبائهم وسط الطريق وقد أخبرني  
أحد أصدقائي أنه شاهد في مرة من المرات إحدى النساء مقطوعة  
الأذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد ، فشب دبيب الصلغة في  
قلبه فأحضرها الى القاهر وبعد أيام من الله عليها بالتشفاء في حين  
أن أذنيها قصتا الى الخليفة ذليلا على موتها .

وقد تيار القوافل المملوءة بالعبيد الى أم دمرمان لأن القسم  
الأكبر من الأجزاء الموردة للصيد . كدارفور . قد هجرها ساكنوها  
وفي أحيان أخرى كان يقدم رجال القبائل . كقبيلتي ثاما وصبال .  
فروض الخضوع الى الخليفة ليحميها من خطر الإسر . ومع ذلك  
استمر لضاية عام ١٨٩٥ ورود الكثيرين من الرقيق الأسود من  
الرجاف الا أن بعد المسافة بينهما وبين أم دمرمان كان يحول دون  
وصول الكثيرين أحياء الى بيت بلال .

اضطر الخليفة عام ١٨٩٦ - حيال نقص أو العدم المأمورين من الرقيق الأسود في القلابات وكردولان وشارلور - الى اصناف لوامر للامراء التابعين له ببيع ما يصل الى ايديهم من العبيد لزعماء القبائل المتحولين بحيث يضطر كل من اولئك الزعماء الى كتابة ورقة يذكر فيها اسم العبد ومقداره لما دفعه للأمير ثمنا له . وقد كان يسمح لهم الخليفة باعادة بيع من اشترؤهم من العبيد بالطريقة ذاتها .

لا ريب في أن بيع الرقيق في أم درمان ذاتها يجري يوميا ولكن من المحرم رسميا الآن ( ١٨٩٧ ) بيع رقيق الجهات والغوافل والسبب في السماح ببيع النوع الاول هو اعتبارهم ملك الخليفة وعكرا له على أن جميعهم أو اغلبهم كانوا يعتبرون ضمن الجنود . وإذا سلمنا بأن شخصا خارج أم درمان جلب معه سرا أحد العبيد المسلح فقد كان من الميسور أن يبيعه فيما اسميا لمبيت المال على أن يورده الى صفوف الجند مقابل قيمة مالية لمن جلب العبيد وذلك في حالة تمتع الرقيق بالصحة أما اذا كان الأخير غير لائق للخدمة فيبقى في دائرة نفوذ ميله على أن يصل في اراضي الخاصة .

أما فيما يخص بيع النساء والاولاد فامر مسوح به في اية ناحية من نواحي السودان بشرط أن يمضى على ورقة البيع اثنان من الشهود ، ويحسن أن يكون أحد الاثنين قاضيا ، وفي تلك الورقة يقر الاثنان بأن المرأة التي بيعت حق مكتسب للمسيء السوداني الذي اشترى والسبب في تنفيذ ذلك العمل والسماح به هو أن كثيرا من العبيد كانوا يهربون من بيوت مساداتهم فيمسكهم آخرون ويبيعونهم لغير مساداتهم الاولين مما أدى الى انتشار فكرة مرقاة العبيد في أم درمان وكان أولئك العبيد في كثير من الأحيان يؤخذون بواسطة أشخاص ظاهرين لضمهم الى منازلهم

أو كان يفرهم أولئك بترك الحقول والأراضي التي يعملون فيها  
وبعد ذلك كانوا يقبلون بالسلاسل لترحيلهم إلى جهات قائية حيث  
يتم بيعهم بألماني بخمسة جلد .

تنص الشريعة الإسلامية على عدم الاعتراف بشهادة العبيد  
الذين تتم المساومة على بيعهم في سوق الرقيق فكان أولئك  
البائسون والفقير على حقة حالتهم المزمنة فإذا علمنا بأن بعضهم  
عوملوا من أسيادهم معاملة حسنة فإن ذلك لم يكن ليرضى الرقيق  
على وجه عام .

أما الخليقة في أم دومان ذاتها في مساحة فسيحة على  
مسافة قريبة من الجنوب الشرقي لبيت المال بيتا عاديا مبنيا  
بالطوب وتعرف المساحة المحيطة بهذا البيت بسوق الرقيق وقد  
كنت في كثير من الأحيان أرى بأنى أرغب في شراء أو استبدال  
بعض الرقيق وبهذه الحجة وحدها كان يسمح لي الخليقة بالتوجه  
إلى سوق الرقيق فستجدت في ذلك فرعي متمنعة للوقوف بنفسى  
على كيفية إجراء عملية المساومة .

في تلك السوق كان يقف الاختصاصيون بملك التجارة لبيع  
ما لديهم من سلع بشرية بحيث يقف حول سور البيت الطينى عدد  
كثير من النساء والأولاد ويجلس البعض الآخر ، فهناك ترى العاجز  
والعارية والمزخرفة والمسرورة ، وبطبيعة الحال أسعد المذكورات  
حظا من المخطيات اللاتي يعن بشمن طيب ، وما أن تجارة الرقيق  
لمر جازر ومشروع جدا في السودان فمن حق الباعة والفاشرين أن  
يفحصوا رقيقهم فحصا دقيقا من حامة الرأس إلى باطن القدم بدون  
أقل تقييد كما لو كان هذا الرقيق من طبقة الحيوانات الدبيلة .

فكان الفسارى يفتح لم المرأة ليرى أسنانها وأضراسها ثم يامر  
البائع برفع ما عليها من غطاء في النصف الأيمن من جسمها لمحصنها  
المحصى المتيق ويمنى في ذلك عناية خاصة بتلصص ذراعها وبعد  
ذلك يطلب الفسارى من المبيعة أن تمسح إلى الإمام أو الخلف بضم  
خطوات ليتعرف كيفية مقبها ثم تلقى بعض أسئلة من الفسارين  
على النساء والأولاد للوقوف على مقدار ما يعلمونه ويعلمه من اللغة  
العربية وفي الحق يظل كل من أفراد الرقيق خاضعا لرحمة الفسارى  
كل ما يلقيه عليه من أسئلة .

ذكرنا قبلا أن بين الرقيق نسوة يسمين بالمطويات فنعود إلى  
القول بأن أثمانهن تختلف اختلافا كبيرا ، وهذا لا يمنع دخولهن في  
دائرة الامتلاك العامة الموجبة للرقيق فإن ذلك أمر عادي جدا ولم  
يكن يضطر في ياله واحدة منهن أن تعرض على طريقة البيع المذكور  
ورغم ما فيها من شدة في كثير من الأحيان . وكل ما في الأمر أن  
بعض النساء أو البنت يشترن بأنهن لدى أسرارهن في كثير من  
الأحيان أفضل مركزا من الرقيق . وبعبارة أخرى يظن الفسونه  
خادما ، وقد ينهب بالواحدة حظها السعيد إلى درجة تظهر معها  
أن مركزها لدى سيدها كمركز المراد الأسرة التي تنضمها بعد أن  
كانت في حالة سبية عند سيدها الأول الذي كان يعاملها معاملة  
وحشية قاسية . وبعد أن ينتهي الفسارى من استقصاءاته يتسامح  
مع البائع ليسأله عن ثمنها ثم يردف هذا السؤال بالاستفسار عن  
امراة أحسن من التي أمامه ليبيعهها له ، وقد كان الفسارى في كثير من  
الأحيان يشكو للبائع عدم تمتع المبيعة له بحال كاف وعدم ظهور  
مخاطيل الحسن على جسدها بوجه عام ، كما كان يشكو أحيانا من جهلها  
اللغة العربية جهلا تاما إلى غير ذلك من الشكوى التي لم يكن يقصده  
منها سوى تخفيض ثمن السلعة الأحمية التي تباع له بينما ترى  
البائع من الناحية الأخرى بأذا أقصى ما في وسعه لإظهار محاسن

تلك المرأة المتكورة الحبل والاطناب في جمال أخلاقتها ما لا داعي  
إلى تفصيله في هذا المقام .

هناك نقائص في المرأة أو البنت أو الولد تطغر البائع إلى  
تخليص الثمن وفي مقبلة النقائص المذكورة الغطيظ والسرقة  
والكذب ومهما يكن أمر البيع فالذي تعرفه أنه عند الانتهاء من  
المساومة والوصول إلى اتفاق يخرج البائع ورقة يوقع عليها هو  
والشاري التي يطلع الثمن في الساعة التي أصبح فيها سيدها  
لمسلخ البشرية التي اشتراها وكان الفسخ دائما بالمسلة المحلية  
السودانية ( مسلة الريالات الجديدة ) ويمكن على وجه الاجمال  
تقدير الثمن بما يأتي :

كان ثمن العبد الفاضل الكبير السن يتراوح بين خمسين  
ولماتين ريالاً وثمن المزة المتوسطة العمر بين ثمانين ومائة وخمسين  
ريالاً ، أما البنت ما بين الثامنة والحادية عشرة من عمرها فكان يقدر  
ثمنها ثلث ما لمنظرها وهو على وجه عام بين مائة وعشرة ريالات ومائة  
ومستين ريالاً . ويظهر بنا أن تقدير إلى أن الاثنان الأخيرة ذاتها  
تختلف باختلاف سعر السوق أو باختلاف الطلب لفئة خاصة من  
الرقائق .

لا توجد من الوجهة المحلية صناعات خاصة في السودان ومع  
استثناء المواد التي ذكرتها في المسالك السابقة لا نجد بضائع  
مصدرة من السودان .

كان فيما مضى ( قبل عام ١٨١٧ ) يرسل العسل المزركش  
بالذهب أو الفضة إلى مصر ولكن بعد أن قل ورود ذلك المعدن  
النفيسين - بتساؤل الأيدي العاملة من الرقيق - وبعد أن أصبح  
الهدى أوامر المستعدة ضد ليس الجواهر والحلى نقص أو وقف

التصدير للنواحي المجاورة عامة ولحصر خاصة . ومع ذلك لنرى  
السودانيين تجارة رابطة في الحرايب الطويلة والقصيرة والحدايد  
المستعملة لسروج الخيول والحديد والمضى القصيرة التي توضع على  
الإذراع . هذا الى ما اكتسبه السودانيون من بيع الآلات الزراعية .  
ولم يكتف السودانيون بذلك بل اشتروا في أصل السروج الخشبية  
للخيول والجمال والبغال وصنع ( المنجرب ) والصناديق الخشبية  
لتمحن الملابس ثم أعداد الأبواب والثنائيات والغرف البسيطة .

كان السودانيون في المئتين السابقة لانتضاء القرن التاسع  
عشر يعملون عملا جديا في بناء المراكب ولكن حال دون الاستمرار  
على ذلك الصل المنتج تستل الخليفة ومصاديقا جميع المراكب  
الموجودة في النيل ومع ذلك نهضت هذه الصناعة . يلا عام ١٨٩٦  
بعد أن أخذ الخليفة بتسيير المراكب . وهما يكن أن كان الرغبة  
في بناء السفن قد ضعفت ضعفا كبيرا . بعد أن في بيت المال  
المضرائب الثقيلة على كل مركب جديد .

من الصناعات التي عني بها السودانيون عم الأحيذية  
الصغراء والحصاء والسروج المختلفة الأنواع والأحجب 2 الجلدية  
لصغار الأولاد والبنات وأعمال السبوف وقربان الملى 1 الكرايج  
فتصنع بمقادير وافرة جدا من جلد فرس البحر .

هناك أيضا زراع القطن وتجارته في السنين الأخيرة في  
القرن التاسع عشر في السودان . فقد كان مصرحا لكل امرأة  
أو بنت أن تنزل لحصاء الخاص وإلى جانب هذا العمل الخاص  
وجدت في كل قرية أماكن صغيرة للفاذلات اللاتي يطن بمختلف  
أنواع النسيج . أما أرض جزيرة فليها ناسجات ولانسجون لأنواع  
مختلفة من الملابس القطنية الأتولب والعمود والجنجس التي يطن

طول كل قطعة جزئية منها عشر ياردات فلذا ما تم نسج الأقمشة المذكورة عليها أصحاب المحال الصغيرة إلى الأسواق بكميات كبيرة على أن يشتريها أفراد الطبقة العامة من رجال ونساء . ولا شك في أن أعلى نوع من الغزل ينسج في مديرية بربر ففي تلك الناحية تنسج النساء أغطية وجلاليب من الحرير الملون ويغزلن قطعاً حريرية تستعمل كعالم للأغنياء وبعض الأحزمة التي يلفها لابسو السائم الأغنياء فوق كسائوتهم الحريرية والقطنية ، وفي هذا الصدد نذكر الشيلان الحريرية التي تروج في مختلف الأقاليم ولها عظمى .

تقوم مديرية دنالده بمقدار كبير من نسج القطن ولكن هذه المائزّة مشهورة شهرة خاصة بصنع اغطية المراكب وأنه لو اُجب علينا في صدد تقرير الحق أن نشهد لرجال كردوفان بمئاة نسجينهم بطن النظر من بعد ما يصنعونه عن الجمال في المنظر .

إلى جانب غزل القطن تجده النساء والهنات عملاً آخر واسع هو صفر الحصر من جميع الأشكال والحجوم من أوراق شجر النخيل التي تباع بكثرة في جميع نواحي السودان ولا مقلحة في أن نعتن نوع من هذه الحصر هو الذي يصفر من التخيوط الضيقة من الأوراق المذكورة ومن قش السمير والقطح الجلدية الرقيقة . ولا تستعمل الحصر المذكورة في فرش الغرف لحسب بل تحت أطباق الأكل أيضاً بحيث تكون الحصرة في السودان غطاء للمائدة بدلاً من اغطية الكماش المستعملة في الغرب .

وقد تبلغ جودة عمل الحصر هنا ترسل معه مقادير كبيرة إلى مصر كتخف وطوائف للأوروبيين الذين يقصدون الكنتار المصري في شهور الشتاء .

أن نساء دارفور على مهارة خاصة في صنع الحصر المذكورة  
التي توضع بين ثنائها بعض الخرزات الزجاجية مما يؤدي إلى  
اكسابها رونقا جميلا جدا .

## ☆☆☆

اجتهدت في الصفائف السابقة أن أصور للقاري حياة  
الخليفة عامة وشئون السودان في عهده ولكن ذلك التصوير  
لا يأخذ شكله الحقيقي بدون الإشارة إلى حالة السودانيين الخليفة  
فأقول إن المهدي سعى جهده في ترك التمسك بالعوائد الدينية  
الرئيسية وإنشاء نظم دينية جديدة غبت أوامره في صفوف القسمة  
ودعا ذلك بطبيعة الحال إلى افساد الأخلاق لأن الناس اضطروا في  
الظاهر إلى مجاورة المهدي بينما هم في الواقع متمسكون بتعاليم الدين  
الاصلي . وفي هذا الاختلاف بين ما يعتقد المرء وما يدعى أمام الخليفة  
لاحترامه اغراء على الكذب . وهذا الاغراء الجزئي ينتهي إلى هو خلق  
مستطير . علينا أن نذكر بأن الناس خافوا بطش الخليفة من ناحية  
وتمسكوا بمصالحهم وشهواتهم من الناحية الأخرى فدعا ذلك إلى  
عباد خلق عظيم لا يستطيع وصله للقره . ومهما يكن الأمر فقد  
كان الغلب سكان السودان غير مرتاحين إلى الحالة الصاعدة في  
السودان عامة وفي أم درمان - حيث يقيم عبد الله - خاصة لأنهم  
أشفقوا على حرياتهم الشخصية من تصف رجال الخليفة عبد الله  
خطفوا حينذاك الانصراف إلى أهوائهم وملذاتهم والامراف فيها  
يهدد ما تسمح لهم أجسامهم .

تستطرد الآن إلى نقطة حيوية مهمة وهي علم وجود حياة  
اجتماعية أو تبادل بين النفوس . فكان الحل الوحيد الذي أصبح عليه  
السودانيون لهم هو الاغراق في بحار القهورات والميل إلى حب  
النساء حبا بهيميا لا ينتهي عنه حد ففكر حينئذ كل سوداني في



الحصول على أقصى عدد من النساء كزوجات له إلى جانب محظياته  
وسرايته فكان الخليفة - من هذه الناحية - مشجعا لرعاياه على  
السهر في طريق الفتنة المفسدة ، ومن دلائل ذلك التشجيع أنه أمر  
بتخفيض مصاريف الزواج الرسمية تخفيضاً ظاهراً ، فبعد أن كان  
صداق البنت عشرة دنانير أصبح خمسة وصار صداق الأرملة أقل  
من ذلك وصار لباس عادي ورداءان وبعض روائع عطرية .

إذا رغب السوداني في الائتران بينت وجب على والدهما  
أو ولي أمرها أن يعلن مصافقته وفي العادة لا يحول دون هذا القبول  
سوى مانع قوى جداً . وعلى أية حال فالآباء وأولياء الأمور مسئولون  
تأثماً عن زواج بناتهم أو من يتولون رعايتهم بحيث يصبح زوجات  
حتى يملن عمراً مناسباً .

ذكرنا قبلاً إغراق السوداني في الفتنة واذن فلا عجب أن نرى  
بأن حصول السوداني على أربع زوجات - وهو أقصى ما صرح به  
القرآن من عدد للزوج - أمر عادي جداً حتى أن السوداني في ذلك  
الحين عند الحصول على الزوجة حصولاً على متاع بسيط . هذا إلى  
أن السودانيات كن يرغبن رغبة شديدة في هذا الزواج . أما للحصول  
على بعض ملابس وكفية صغيرة من المال . وأما للرغبة في نظام  
جديد من الحياة لم يكن يعرفه في منازل آبائهن وأولياء أمورهن  
وفي الوقت ذاته كن في علم بأنهن - تبعاً لنصوص الشريعة -  
يستعلنن الانفصال عن أزواجهن بدون عتاء كبير .

في حالة الطلاق تستبقى السودانيات صداقهن إلا في حالة  
واحدة هي كراهيتهن للزوجا فيتحكم إذا ذاك رد الصداق إلى الزوج  
وقد عرفت في بعض الأحيان أن الزوج كان يترك المهر لزوجته  
المطلقة بمعنى اختياره . وأني أفرد عن لغة وإطلاق أن من السودانيات  
من يتزوج في عمر عشر سنوات بأربعين أو خمسين سودانية ( مع

مراعاة أن هناك طائفا مستمرا في حياة مثل ذلك السوداني ( كما  
إن من النساء من تزوجت في هذه الفترة الخمسة عشر أو العشرين  
زوجا على أن قانون الزواج الاسلامي ينص على انقضاء فترة بين  
الطلاق والزواج الجديد لا تقل عن ثلاثة شهور ، أما فيما يخص  
المحظيات فيبيع القانون السوداني الديني تمتع السوداني بأى  
عدد يزيد منهن ، ولا ريب في أن إباحة التمتع بالمحظيات أدت الى  
انتشار الوباء البكتي مع انتشار الأمراض السارية الخطرة .

قلنا ان المحظيات السودانيات خطر على الاخلاق وجماليات  
للأمراض الخبيثة ، ولنفصل ذلك نقول انهن لا يمتن جسيما في  
المزلة التي يعيش فيها سيمن ما لم يكن لذلك السيد أولاد من  
أحدهن فانها ( المحظية ) تضطر للبقاء في منزل قائنها ولا يجوز  
مطلقا بيعها لأخر ، ولكنهن في أغلب الأحيان يمتن لسيدهن على أن  
يبقين في حوزاتهم فترات قصيرة جدا على أن يمتن بسبب ذلك  
لغيرهم بأرباح جديدة ولا ريب في أن هذا الانتقال المستمر من بيت  
الى آخر يعرض الاخلاق والصحة لخطر جسيم وإلى جانب ذلك  
تدبل زهرة شباب المحظية وتضيع معالم جمالها ، فإذا أضفنا الى ذلك  
أن المحظية تباع لسيدتها في أول مرة وهي في سن صغيرة عرفنا  
ما تلحقه من الآلام الحقيقية التي لا تخف منها لثة بهيمية غير  
منصجة .

من المعروف عن تجار الرقيق في السودان أنهم في سبيل  
الحصول على مكسب تقضى لا يزالون بما يصيب النساء والبنات  
من ضعف في القوة وفساد في الخلق وتعرض لأخطر الأمراض  
فكانوا يشترون البنات الصغيرات ويسمخون لهن بالحرية المطلقة  
في اختيار المنزل الذي تسكن فيه البنت والحياة التي تحياها ولم  
يقل الفساد عند حد أولئك التجار بل تطفأ الى الشوارع أنفسهم

فلم يكن كثير من الأحياء كانوا يسمحون للتجار ببيع محظياتهن لفقرهم  
على أن يتعاطى أولئك الإسياد متفادوا معونا من الريح الجديد .

لا ريب في أن شر ما ينتج من فساد خلقى عظمه في دوائر  
الضباط السودانيين وجنودهم حيث يفرى أولئك المرييون الكمثرات  
من النساء والبنات للعيش معهم في تكتاتهم بصفتهم زوجات لهم  
فإذا ما دخلت التكتات وأصبحن كالسلح يتبادلن جميع الضباط  
بلا استثناء وسرية مطلقة ولم يكن الخليفة عبد الله ضد هذه الفكرة  
الأخيرة ، بل على النقيض من ذلك كان يشجعها اعتقادا منه أن النساء  
الضباط في الملّة وتماذيهم في أرضه شهواتهم يجعل مكانا للخلقة  
في نفوس ضباطه فوق كل مكانة ، وبذلك يضمن ولاه رجال الحرب  
لله . ودرغيتهم فيهم . منهم قربة سيادته عليهم .

لا حاجة بنا إلى القول بأن السماح بذلك الإباحة المنكرة قد  
أدى إلى الاعتقاد الخبيث الأمراض بين جميع طبقات الأمة سواء في  
ذلك الأحرار والرقوق الرجال والنساء . فإنا ذكرنا حرارة السودان  
وأثرها السييء في أي مرض سارى حيث استطينا أدراك الانحطاط  
الخلقى الذي حوى إليه السودان في ذلك العهد . علينا ألا ننسى  
أن السودان كان معروفا من جميع الأودية التي تعالج تلك الأمراض  
مما أدى إلى تعريض الصحة على وجه عام لخطر عظيم .

وجد في السودان في أوائل حكم الخليفة عبد الله قوم لمعنوا  
في ضروب الفساد وأطلقوا العنان لشهواتهم فعاقبهم الخليفة في  
مبدأ الأمر بتفويضهم وتثريتهم إلى الرجال ، ولكنه عدل عن ذلك بعد  
قليل من الزمن وانتهى إلى حل حاسم في نظره وهو ظهور مهولة  
كبرى . في معاملة شعب بيده عن الأخلاق القوية . في استعمال  
التسفيه والشبهة وصعوبة الجور مع شعب متمسك بأهل  
الأخلاق القوية وبما لذلك كان الخليفة عبد الله في آن واحد

يكره ويستحق الجميلين الذين سكنوا على شاطئ النيل بين حجر  
الجبيل وبريد لأن أولئك كانوا العرب الرحيد في السودان  
الذين مقتوا الفساد والردائل الخبيثة واحتفظوا بالأسر المفاضلة  
البعيدة عن التمهوات الشائنة . كما اعتاد أولئك الجميلون النظر  
إلى الأخلاق بصفتها حجر الزاوية في بناء الحياة القومية والركن  
الأساسي في تأسيس صحة قوة .

كان تشديد المهدي على نسائه ( زوجاته ) بالفا أقصى حد  
ولم يقف أمر صيانتهم عند حد الخوف من المهدي في حياته بل  
تمتد إلى الاحتفاظ بالشرف بعد مماته فكان محرما عليهن ومن  
أوامله ( بعد وفاته ) أن يسن سورة المحيطات وأن يسن سورة  
الفيجور وقد ساعد عبد الله على ذلك فبلغ احترامه لذكرى المهدي  
حدا دفعه إلى إنشاء بيوت خاصة للأرامل المذكورات حيث تحيط  
بالمنازل أسوار مرتفعة على مقربة من ضريح المهدي وقد عين عبد الله  
على ذلك عددا من الخصيان لمراقبة الأرامل المذكورات آنفا .

شدت الخليفة على زوجات ومحيطات ملته المهدي بعدم الزواج  
وسن قانونا حرم به عليهن أي زواج جديد ، فكان ذلك ضد رغبتهم  
ولم يكتف بذلك بل حرم البنات ( وأغلبهن من بنات موطنى حكومته  
السابقين ) من طلب الزواج به أن يقين في منزله أعداده لاقتراحه  
بهن في المستقبل . وما يذكر عن صف الخليفة عبد الله في  
مبايحتهم أنه لم يكن يسمح بمقابلة رجل أيا من حتى ولو كان من  
دوى قريباتهن ، وكل ما من به عليهن هو السماح لقريباتهن من  
النسوة بزيارتهم مرة واحدة في السنة - ومع كل ذلك التقييد لم  
يكن يسمح عليهن في العيى فكأن يقدم لهن ما يكفيهن بالجهد  
من الثوب واللباس فلا عجب إذا عرفنا أنهن كن يتطلعن دائما إلى  
التحرير من ربقة عبودية الخليفة .

أدرك عبد الله أن مسئلة وجوبه يؤدىان بلا نزاع الى زيادة الحاقدين عليه والسامعين الى الفتك به فكان فيما لذلك كثير الخوف على حياته فطرد بعنف وقساوة جميع السكان البازلين الى منازل صغيرة مجاورة لبيته وأحل محلهم حرسه الخاص الذى استمر فى تنميته يوما بعد يوم . وبعد ذلك بنى سوراً ضخماً حول مسكنه والسكان الصغيرة المجاورة وجص إليها كل أقبائه على أنه عاد بعد ذلك فظهر رغبة وخالجه الشك فى بعض أقبائه فآثر إبقائهم خارج مسكنه المسور ولطم الظهور دفعة واحدة بهذا الشك جعلهم الى جانب منازل الحرس الخاص ورغم ذلك لم يكن الساكنون فى دائرة الخليفة على وفاق وفى ارتياح تام لأن أواخر عهد الله كانت شديدة على حرسه الخاص مما أدى الى تبرعهم واستيلائهم الشديدة كما أنهم تنحروا من مرتباتهم الضئيلة وشكروا لرؤسائهم مراراً من تضيق الخليفة على حرمهم الشخصية وكان عدد المحيطين بالخليفة بضعة آلاف ينتمى أغلبهم الى العرب الخصى ولم يكن مسموحاً لهم على الإطلاق الاقتراب من ذويهم كما أن الخليفة حرمهم من ترك مساكنهم ولم يكن يصفح عن عفواتهم الصغيرة فكان ينزل بهم بالمقابض الصاموم .

بنى عبد الله عناية خاصة بحياته وكان شديد الرغبة فى الاحتفاظ بها من عبث الحاقدين عليه فكان لا يخرج فى النهار أو الليل والا وفى معيته أفراد معينون من حرسه الخاص وأثنان وثلاثة من خنجه الأمناء له ، وفيما هذا ذلك لم يكن يرافقه أى شخص آخر - حتى أقرب الأقبائل - ولم يكن يسمح للخليفة لأحد - خلاف الحرس والخدم - بمرافقته .

كان من المقرر أن كل من يسمح للخليفة بمقابلاته إياه يتجرد من سلاحه ( الذى يحصله السودانى دائماً ) ثم يفتشه أحد رجال الحرس قبل دخوله الى غرف الاستقبال الرسمية ، فكان ذلك العمل

من جانب الخليفة دليلا على سوء ظنه في رعيته فاذا أحسنا الى ذلك كراهية الشعب له استطعنا بسهولة ادراك ما كان يتحدث به الناس عن ظلم الخليفة وتصرفه وهن مخاوفه الشديدة .

على الرغم من هذه الشدة النادرة وتلك القسوة المؤلمة لم يوفق الخليفة في اكتساب جانب أية قبيلة حتى أن أفراد قبيلته الخاصة فروا منه ، وعلم بطبيعة الحال نتيجة منطقية مقولة .

عند انتقال أفراد قبيلة عبد الله الى قم دومان بعد القضاء مقاليد السلطة اليه - مضوا في الاعتناء على أصحاب الأرض فدخلوا غلالهم واغتصبوا ثمارهم وتكلموا بأولاهم فاشتد الكرب اشتدادا اضطر الخليفة لاصدار أوامره بعدم خروج التعاقيل من قم دومان الا بأذن خاص ولكن أوامره تجوهرت ثم دب دبيب المصيان في قلوب السكان حتى انتشرت فكرة التمرد انتشارا لم يكن مغروبا من قبل .

أما فيما يخص باخلاق أولئك العرب فحيث في ذاتها ولكنهم في الوقت نفسه يأنفوا في الكبرياء والاعجاب بالنسب فحسب . وذلك راجع الى صلتهم وفرايتهم بالخليفة فكانوا يدعون دائما أنهم أسياد البلاد وأصحاب الشأن الأعلى فيها الشيء الذي سوا صلتهم بالخليفة .

وقد انتهى بهم ذلك التصرف الى وشح اياديهم على خيرات الأرض وغلالها وماشيتها وحيولها فكان هذا الاستثمار مدعاة الحسد في القبائل الغربية السودانية حيث الأفراد الذين لم ينظروا الى التعاقيل ورجالهم نظره ود .

كل ذلك الاضطراب سبب من أهم الأسباب في حذر الخليفة وخوفه مما يجري حوله ، ولكن لا نعتقد أنه على علم دقيق بمقدار كراهة الشعب اياه وحقد عليه وعلى أية حال فقد كان هم الخليفة

متجها إلى أرضه أمراء القبائل بإرسال الهدايا المالية والمبيد سرا  
اليهم في أوقات الليل من الأيام المختلفة . أما الأمراء فلم يكونوا  
يترددون في قبول الهدايا المذكورة وهم على ثقة من أنها جمعت  
طلما وعدوانا . وقد يكون من دواهي الانشقاق على الخليفة أنه لم  
يكن متمعا بولاء الأمراء الحقيقيين رغم ما يمتحه اليهم من الهدايا .

من أعجب ما يروى عن الخليفة عبد الله أنه لم يفارق أم درمان  
إلى الضواحي مرة واحدة في أكثر من عشر سنين ، لأنه كان يخشى  
ترك تلك العاصمة التي استجيع فيها كل ما لديه من قوة وذخيرة  
ووضعت رقابته فيها جميع الذين خاف شرمهم بعد أن اضطروهم  
إلى التيسار بالصلوات الخبيثة يوميا في حضوره وسماع خطبه  
الدينية .

صرح الخليفة بأن أم درمان هي مدينة المهدي المنتهية وقد  
يكون تجريبا على القراء أن يسمموا عن أم درمان قبل عام ١٨٩٠ بأنها  
كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل  
ما لها من شأن أنها واقعة تجاه الخرطوم . غريب عليهم أن يسمموا  
ذلك في الوقت الذي علت فيه كلمة هذه الجهة وأصبحت أضخم  
وأعظم شأنًا من الخرطوم وقد سبقه إليها المهدي . فبعد أن كانت  
الأرض حقيرة غير منتظمة مفت إليها الاتجار الواوغة الظلال وأسس  
الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبد الله والخليفين محمد شريف وعلي  
واد هلو . أما عبد الله فقد وضع يده على جميع الأراضي الواقعة  
جنوبي المسجد ، وأما القسم الشمالي فاقسمه الخليفان محمد شريف  
وعلي واد هلو .

كما يذكر عن المهدي في حياته أنه صرح علنا في المسجد الكبير  
بأن أم درمان محلة وقتية لأن رؤيا النبي التي ظهرت له في إحدى  
الليالي أمرته بنقل الخلافة إلى القمام بعد التغلب على مصر وبلاد

العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله  
وآمال أتباعه .

بعد أن تقلت العاصمة إلى أم درمان تم تبليطها وتخطيطها وقد  
بلغ طولها المخطط من الشمال إلى الجنوب ما يقرب من ستة أميال  
الانجليزية وقد أصبحت نهاية الحد الجنوبي مقابل الطرف الغربي  
للبحر الأحمر .

اتجهت الرغبة من يادى الأمر إلى المسكن على مقربة من  
شاطئ النيل أملا في تسهيل الوصول إلى الماء الكافي ، فنجح عن  
تلك الرغبة الزيادة في ناحية وقلة في الناحية الأخرى فلم يبق سكان  
شمال واحد في مسافة ثلاثة أميال عرضا مع نحو أميال مستنة طولاً .

أنشئت في يادى الأمر في تلك الناحية آلاف من الأكواخ  
المصنوعة من القش فلم يكن ظاهراً منها سوى المسجد الكبير الذى  
أحاط به حائط من الطين طوله أربعمائة وستون ياردة وعرضه  
ثلاثمائة وخمسون ياردة ولكن ذلك لم يرق في عينى الخليفة  
فاستعاضى عنه ببناء من الطوب المحروق الذى تم تبييضه بعد ذلك  
بمسحوق بناتين من العرب . وبعد ذلك أقيم الخليفة لنفسه ولأخيه  
وأقربائه بيوتاً من الطين ثم حلوا الأمراء حلوهم وتبعهم في ذلك  
الجنباة أم درمان .

ذكرت في فصل سابق وصفا لضريح المهدي ولكنى لم أذكر  
أنى شاعرت - قبل مقادتي الأخيرة لأم درمان - ضياع لون الفسحة  
البيضاء التى على الضريح ولا بأس من العودة إلى التفصيل فأقول  
بأن فوق قبة الضريح ثلاث كرات نحاسية غارغة الواحدة فوق  
الأخرى ويربط هذه الثلاث رمح مقوس في آخره حلقة رئيسية  
تزين الضريح . ومن أعرب ما سمعته من السودانين أن الخليفة



وضع هذا الرمح حول الكرات الثلاث ليمثل استعداده لمحاربة الطبيعة إذا حدث ما يحول دون تطبيق وعيائه .

كان عيد الله في كثير من الأحيان يقضى سبلات من الفناء منفردا داخل ذلك الضريح ( مزار المهدي ) والمعروف أن غرضه الأساسي من ذلك هو تلقي الوحي الخاص منه ولكن قلت عنانيته بهذه الزيارات الدينية بعد أن تسبب الكثيرين من أتباع المهدي وذعماء أتباعه ، وبطبيعة الحال كان من العسير بل من الصعب أن ينقطع عبد الله هذا الانقطاع الفجائي فاضطر إلى التجال المعاذير وتبعا لذلك لمعز إلى رجاله حرسه الخاص أن يذيعوا بهذه الناس أن السبب الحقيقي لانقطاع عبد الله عن زيارة صيد الله هو خوفه من البقاء بمفرده داخل الضريح ، وقد كان متفقرا أن يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يلحبه عنه الفزع ولكن عبد الله لم يجز عن الرد فكان يقول انه من غير المرغوب فيه لو من الأمور غير المسموح بها بقاء أي شخص خلاف الخليفة داخل ضريح المهدي .

هنا ما كان يعتقد به عبد الله إلى الشعب السوداني في حين أنه ( عيد الله ) خالف وصايا صيد الله لا بالقول نصيب بل بالفعل أيضا .

كان من المتبع فتح جميع الأبواب المؤدية إلى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج إلى ضريح المهدي ، وبما أن القانون القديم كان يحتم على كل رجل من أتباع المهدي أن يردد صلوات الترحم على جثمان المهدي وروحه ، فقد كان من الميسور على المشاهد أن يرى الآلاف من الناس متلفين في القرض ومختلفين في طريقة تلاوة الصلوات والأدعية ، ولم يكن قصصهم محصورا في الصلاة للمهدي ولكنه تمدد إلى طلب الحماية والرحمة من الله الرحمن

بشفاء الشهيد ( ٢ ) الذي قد وقع في قبره الآخر ، ولكن في الحقيقة كثير الريبة في أن الصلوات المذكورة خارجة للترحم ثاني الدور - وفي قول علي ما اعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصديق كله - ان اغلب الصلوات الصادرة من قلوب أولئك المتحسين الى مقام العرش الالهى تتطلب من الله الفداء الفصحى السودانى من ظلم وحسد عند الله المستبد الذى خلف سلاكن الضريح الطيب في نظر السودانين .

يقع بيت الخليفة الرئيسى في الإفاحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير ويحيط بهذا البناء الرئيسى حائط ضخيم يحتمل بالمطوب الأصفر ومقسمة نواحيه الى حيان صغيرة متلاصقة وبطيقة المجال قرب المباني الى المسجد هي التي يسكنها هو وأفراد بيته المقربون ، وفي الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته وإبنات النسيان ومغلاظه الخاصة . وما يستوعب الألفاظ في الجهة الشرقية من مسكنه المركزية للمسجد الكبير قوام باب خشبي ضخم ( لا توجد أبواب في داخل المسجد من النواحي الثلاث الأخرى ) يجتازه المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ويمكن الاستقبال الرسمى .

إذا ما دخل انسان في اجتياز الممر الرئيسى كان عليه ان يمر بما يشبه التحليز ومن ثم يسير الى رحمة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانبيهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذي يستقبل الناس في حنة البقعة . يوجد في الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل بين تلك الغرفة وبين غرفة المتدخول ولا يسمح لأحد باجتيازها سوى الشبان من حرس الخليفة .

أما المساكن التي سبقت الإشارة إليها فمكونة على شكل قاعات متصلة بين كل واحدة والأخرى رواق صغير . وقد تمكن

الخليفة من انفسه دور فان على سلف مجموعة من تلك المساكن  
ووضوح في ذلك الدور المبني على الطراز الجديد ( عام ١٨٩٥ )  
منازل يتسكن الناصر من احكامها من مضاعفة منظر عام واضح لام  
دعمان \*

امتازت بحرف استقبال الخليفة بالبساطة الكلية واليعة عن  
الزخرفة وكل ما في الغرف من زينة هو أغطية المنجرب الممتدة  
في كل غرفة وعلى الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل أما غرف  
الخليفة فمزخرفة بكل ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتزيين  
في السودان \* ففي كل الغرف الداخلية أسرة نحاسية وحديدية  
تعلوها ناموسيات ( للوقاية من الناموس الذي يعد لكبة السودان  
وبله ) كما أن أراضى الغرف مفروشة بالسجاجيد ولوح المراتب  
البطيخة المغطاة بحرية ووسائد موشاة لطرفها بالحبر الخالص  
ولوح الأبواب والنوافذ متاخر من الألوان والأنسجة ولا ريب في  
أن ذلك القى ما يطبع اليه الخليفة من زخرف وأبهة في السودان  
إما الأروقة فمستلقة بالحصر المصنوعة من أوراق شجر البوم ثم  
يقلد المنجرب \* فإذا قلنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبد الله  
في أول سنو حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة  
ما استطاع الى ذلك سبيلا \*

تكلما كثيرا عن بيت الخليفة ومساكن رجاله والقريين اليه  
والآن نذكر شيئا موجزا عن بيت ابنه عثمان فنقول أنه يقع في  
الناحية الشرقية من تلك المساكن ويكاد يكون هذا البيت مفروشا  
بالفراش والأثاث الموجود في منزل أبيه ولا نقالي اذا قلنا أنه النعم  
وأكثر نزوها الى الثروة من مسكن أبيه \* فقد يمتاز هذا البيت  
عن بيت الخليفة بالنجفات النحاسية المعلقة من سقف الغرف والتي  
أحضرها عثمان خصيصا من الخرطوم \* هذا الى أن بيت عثمان واقع  
وسط حديقة كبيرة يمتد اليها طمس النيل ويستغل فيها يوميا مئات

من الرقيق الأسود وقد عني أولئك عناية فائقة معرض الحديقة في  
أحسن وأجمل منظر لسيدهم عثمان الذي كان طول حياته موقفا  
يكل ما هو جميل - ومن الغريب في أمر أولئك العبيد أنهم كانوا  
واجتهدا في ذلك والمضي مختارين رغم التعب الذي لا قوه ورغم

القوة التي لم يكن يكفئهم في عملهم الشاق  
صرف الخليفة عبد الله وأبنة عثمان الخلب أوقاتها في البناء  
وتجديد نظم ما القاه قبالا وقد بنوا أقصى ما يستطيعان من جهته  
في سبيل البقاء في حياتهما على الأرض متمتعين بأقصى ما تنزع إليه  
تلهاسها من بهجة وسرور .

ولد سفا يعقوب أخو الخليفة حنوحا فلم يكن غريبا والحالة  
هذه أن يتنطق يوميا مئات من العمال ( وأغلبهم من الرقيق ) إلى  
يعني الخليفة وأبنة حنوح الحجار والطوب وكل ما يتعلق بالبناء .  
لما بيت الخليفة على واحد حلو فصغير من ناحية وبعيد عن معالم  
الزينة والزخرف من ناحية أخرى .

كان لعبد الله - إلى جانب بيت الخلافة الرئيسي - بعض منازل  
في الناحيتين الشمالية والجنوبية من أم دومان ولكن المنازل الأخيرة  
مبنية بناء بسيطا عاديا لا شيء من الزخرفة فيه والغرض من بنائها  
هو استعمالها كلما كن استراحة له وللمقربين إليه عندما يرسل  
بشاة من جنوده إلى الجهات المجاورة لأم دومان أو عندما يخرج  
لاستعراض الجنود القادمين حديثا إلى أم دومان ، ولم يكن يستطيع  
( عبد الله ) البقاء في منزل من المنازل المذكورة أكثر من يوم  
أو يومين في المرة التي يخرج فيها .

بنى عبد الله خلاف للمنازل المذكورة منزلا على مقربة من نهر  
النيل مجاورا لمعسكر الحكومة القديم بعد أن ردم الخنادق التي

كانت متاخمة للحصن المذكور . وقد كان يلحظ الى هذا المنزل عندما تشرع السفن البخارية في مغادرة أم درمان الى الرجاف وغرضه الرئيسي عن ذلك الوقوف بنفسه على كيفية سير السفينة ومقارنتها .

الى جوار بيت الامانات ( الترسانة ) المكون من بناء ضخم حجري جعلت فيه المدافع والبنادق والسيرة وكل ما يختص بالحرب والى جوارها ( في البناء نفسه ) خمس عريات كانت ملك الحكام السابقين والبيعة الكاثوليكية وقد عني عبد الله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافات قصيرة حراسا خصوصيين ( دهبانات ) واحد لكل واحد كنسكا مشفيا ومهمة اولئك هي منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدخول الى الترسانة .

وجد في الناحية الشمالية للترسانة مباشرة بناء لحفظ رايكات. الامراء المقيمين في أم درمان والى جانب ذلك البناء محل نصف دارى ( يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما ويصعد اليه الصاعدون بسلام مدرجة ) لحفظ ابواق وطبول الخليفة العربية . فاذا ما صبرا الى الناحية الشرقية قليلا وجدنا مخزن الخراطيش والاسلحة الصغيرة .

ذكرنا في الفصول السابقة شيئا عن بيت المال فنقول الآن انه يقع في شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل ويمتاز هذا البناء بضخامته واتساعه الى اجزاء بارزة تكاد تكون اربعة متساوية الحجم وفي تلك الاربعة تجميع البضائع الواردة لام درمان من جميع نواحي السودان ومن مصر كما ان فيه ( بيت مال ) مكانا لمخزن الحبوب وآخر لجص الرقيق . ويقع على مسافة قريبة جنوبى بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى ( سوق النبيذ ) وقد اثبتا عبد الله في جوار البناء الاخير بيتا سماه ( بيت المال الحربى )

بعد أن استقرت خلافة عبد الله وسلمه المهدي في أم درمان ثم تنظيم المدينة وهي على الصوم قائمة فوق أرض مستوية ولكننا نجد في بعض النواحي هنا وهناك تلالا صغيرة تبرز ذلك المستوى . أما قرية أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حراء تكاد تكون حجرية في مجموعها وتتخللها في أجزاء متفرقة أراض رملية . وما يذكر عن تصف عبد الله أنه - في سبيل راحته والتمتع بما يرضى شخصه - أنشأ الطرق والقوارع الجديدة وهذا العمل حميد في حد ذاته إلا أن الخليفة في سبيل هذا البناء قد علم بيوتا كثيرة ولم يطلع لأصحابها للكدوى الحظ قرشا واحدا ، فدل بذلك على أنه يرمي من وراء تنطيه العميد في ذاته إلى منفعة خاصة هي للذة النظر إلى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من همم منازلهم دون تعويض .

ملا شأن أم درمان ونقص قدر الخرطوم في زمن خلافة عبد الله فأصبحت الخرطوم عبارة عن أنقاض وخرائب ولم يبق فيها من المباني الظاهرة سوى المرفأ وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم بواسطة الوسائل التلغرافية التي أحسن استغلالها موظفو إدارة التلغراف في الحكومة السابقة .

أبقى عبد الله قسا كبيرا من السور المحيط بببيت المال والمؤدى إليه ( لم يكمل هذا البناء في زمن عبد الله ) وعلى طول هذا البناء امتدت حوائط لبيع المواد التجارية المختلفة وإلى جوارها حوائط منفصلة وأماكن صغيرة مستقلة للحائكين والبجارين والتصابين والخيالين ومن شابههم . هذا إلى أن عبد الله على نظام المحسين الذين كانوا مسئولين عن حفظ النظام في المدينة . وأنه لما يفرغ من أن أذكر المسائق وآلات الإعدام التي كانت موزعة في جميع نواحي أم درمان فقد كانت أكبر دليل على حالة المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم .

كان سكان ثم درمان موضعين في مساكنهم تبعا لقبائلهم فكان  
العرب التايمنون للقبائل القريبة يسكنون غالبا في المحلات الجنوبية  
أما القسم الشمالي فكان منحصرا لسكان وادي النيل ورغم وجود  
المحسين والمهاجرين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضا على  
كل قبيلة أن تمن من بين رجالها من يقومون بحفظ الأمن والسلام  
في القبيلة ذاتها على أن يبلغ أولئك عن أي اضطراب أو خلل في  
القبيلة إلى رجال الحفظ المحليين من قبل الحكومة .

إذا استعينا القوامع المنتظمة التي أنشأها وخططها الخليفة  
عبد الله أرضاه لرأسته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن  
مبشرات ومطقات معلومة بقاذورات وبطبيعة الحال أجد شخصي  
عاجزا عن وصف الأضرار الصحية المنبشة من تلك القاذورات  
الكرهية الرائحة هي الأماكن الويائية التي أصبحت فيها كل أوساخ  
أم درمان . ويكفي القول بأن جثث الخيول الميتة ترمى في تلك  
النواحي وأن الجمال والحمر والماعز تزمع الطرق الضيقة وتلاها  
بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يسهل الخليفة هو أن يصدر أوامره  
قبل أيام أعياد مخصوصة في كل سنة باكتساح هذه الأوساخ  
وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتمنى التنظيف حد القاء الجيف  
المنتنة في زوايا الحارات ، فإذا ما جاء فصل الشتاء المطر حمل  
الهواء ( للقبيل بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الأوساخ  
والجيف ) بعض أمراض وبائية تسبب على قتل المئات من السكان  
المساكين .

كانت الممارن قبل عهد الخليفة عبد الله قائمة ومثل المدينة  
ولكن تيرم الأحياء وتلزمهم من الروائح التي أصيب بها السكان  
من ذلك النظام اضطرب عبد الله إلى إنشاء مكان فسيح خاص بإعدامه  
لنفس الموتى وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان  
استعراض الجنود .

سهل على القارىء ان يتصور انتشار الأمراض في السودان  
بعد ان عرف القارىء غير القليل من الروائح الكريهة وأوساخ البهايم  
في جميع نواحي أم درمان تقريبا الا أن ذلك الانتشار لا يستعنا من  
تخصيص الأمراض الخطيرة السائلة هناك . فنقول ان الحصى  
واللوسيطاريا هما شر ما ييل به ساكنو أم درمان ولا تكاد تنقطع  
حتى التيفوس الوحشية بينه نوفمبر وعادس من كل عام .

نتكلم الآن قليلا عن مياه أم درمان فنقول : ان الآبار المفيدة  
والينابيع المدة لجلب المياه الصحية انشئت قبيل عام ١٨٩٥  
وتلك الميون الصحية اقيمت في الناحية الشمالية من المسجد  
الكبير . أما الآبار الملوثة في نواحي أم درمان الجنوبية فمأواها  
أجاج في غالب الأوقات . وهي في مجموعها تختلف في الصق بين  
ثلاثين وتسعين قصفا ، وقد تم حفرها بواسطة المسجونين تحت رقابة  
الحراس الفيلطي القلوب . وما يذكر في صدد السجن والحراس  
أن المرء في أم درمان يسمع كثيرا من المارة قولهم ( لكه لخلوا  
صاحبنا الى السعير ) ومعنى السعير عندهم هو السجن الذي يلقى  
فيه المخطوب عليه عذابا شديدا . أن مجرد لفظ هذه الكلمة  
( السعير ) يولد الاضطراب والفرع في نفوس جميع سامعيها .  
لما السجن فقام في الناحية الجنوبية الشرقية من أم درمان على  
مقربة من نهر النيل وهو مسيج بحائط ضخيم وللسير الى السجن  
يمر الانسان برحلة خارجية قصيرة يجرسها نهارا وليلا جنود من  
السودانيين المخيفين فإذا ما عبر المرء تلك الردة وصل الى ساحة  
داخلية مكونة من تحف طينية صفيرة لاقطة للمسجونين المنكودي  
الحظ الذين اعتادوا . وهم في السلاسل والاصناد الثقيلة - قضاء  
سجاية اليوم في ظل ذلك الهناء وهم في سكون وجود كاملين  
لا يتخللها من الاصوات سوى رنين السلاسل والأوامر القاسية  
الصادرة من الحراس القلائد القلوب وصراخ وتأوهات بعض  
المسجونين المضطهدين من جراء ما ينزل على أجسامهم من سيئات



الجلد والتأديب والويل كل الويل لمن تفرغ لسطط الخليفة  
ومخالفة أمره فامثال أولئك يرسلون في أثقل الأغلال بعد أن يحتم  
عليهم مراقب السجن البقاء في أصغر الغرف والامتناع عن الاختلاط  
بباقي المسجونين .

وفي الغالب كانوا يأخذون من الطعام ما يكفي لبقاتهم أحياء  
أي أن أمر مراتب السجن كان صادرا ببقاتهم دائما في حالة الجوع  
الضديد التي لا تعرضهم للموت مقابل الكمية القليلة التي يتناولونها  
للشقاء ، أما المسجونون المعاديون فلا يتناولون مقادير منظمة من الطعام  
ومن المسموح لهم جلب الطعام من منازلهم وقد حدث في كثير من  
الأحيان أن الحراس السلايين النهمين التهموا الجزء الأكبر من  
الطعام الوارد من منزل أحد المسجونين قبل إيصاله إلى غرفة  
المسجون ، وفي أحيان أخرى كان أولئك المسجونون المتصاء يحرمون  
من كل ما يرد إليهم من بيوتهم الخاصة عند حلول الليل .

كان السجناء يقدون المسجونين كطليح من الختم إلى غرفهم  
الحجرية التي كانت خالية من التوافد خلوا كلياً ، وبالتالي كانت  
محروجة من الشمس والهواء النقي ولم يكن أولئك السجناء  
القضاء يسمحون بمرعات أو توصيلات من المسجونين فكانوا  
يسوقونهم ليلاً إلى الغرف الحجرية شديدة البرد ، وفي الحقيقة كان  
أولئك المكتوبون يساقون إلى قبور لا فرق بينها وبين قبور الموتى  
سوى أن النازلين فيها أحياء أشقياء يجور قويمهم على ضروبهم رغم  
كونهم في الحسب سواء . ولقد كان الحراس في كثير من الأحيان  
ينهبون في الصباح المبكر إلى تلك الغرف السوداء المظلمة فيجلبون  
بعض المسجونين المتصاء قد ماتوا متخفقين لعدم وجود ذرة من  
الهواء في غرفهم المظلمة من جميع نواحيها ولمعهم تمتعهم بالغذاء  
الكافى من الناحية الأخرى . وأنه لمن المزعج حقاً أن يساعد المرء  
عشرات من أولئك الموتى في أجسام الأحياء خارجين من كهولهم إلى

فضله السجن كل صباح بعد أن قضوا ليلتهم منهوكى القوى غير  
قادرين على النوم في ذلك الوسط المخيف المضرب بالصحة .

إذا ما بزغ نور الصباح خرجوا من غرفهم الصغيرة وهم  
أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة - واستظلوا بظل حيطان السجن  
وقضوا بقية النهار في السهر على راحة أجسامهم من ألم الليلة  
السابقة وعملوا إلى اكتساب قوة جديدة يستطيع بها كل مسجون  
مواجهة ما ينتظره في يومه من آتائب وآلام .

من المحزن جدا أن كلا من أولئك الأحياء النعساء كان يفضل  
الموت على تلك الحياة الشاقة المؤلمة ولكن الواقع خلاف ذلك فقد  
سعى كل إلى البقاء في الحياة مهما قاسى من ألم وهنك وقد كانت  
حركاتهم إلى الله محصورة في اقتناضهم من القشة التي اعتمدت ومع  
أن السجن كان مزدحما ومعرضا المسجونين للاختناق ومع أن  
المسجونين كانوا يلاقون من العنف أهوالا ومصائب وآلاما مبرحة -  
مع ذلك لم أسمع ملة أقامى في السودان أن واحدا من المسجونين  
سعى إلى الانتحار .

والأمر الآن تشارلس نيوفلد الذي قضى بضع سنوات في  
ذلك السعير السوداني معرضا للمرض والصف والاضطهاد فقد  
كان من المتوقع موت هذا الرجل بين آن وآخر ولكنه بقي على قيد  
الحياة بواسطة المساعدات التي وصلت إليه بواسطة خادمه الأسود  
الأمين الذي أحضره معه من مصر ، وإلى جانب تلك المساعدات كان  
الأوروبيون المقيمون في أم درمان يقتنون ما يستطيعون من عون إلى  
هذه المسجون الأوروبي الباقس .

فضل تشارلس البقاء على قيد الحياة رغم كونه كان راسخا  
كمت سلاسل ثقيلة حول رقبته وقدميه ومما تذكره عنه أنه رفض

في ليلة من الليالي البقاء في غرفة حجرية وصفتها بأنها « آخر مرحلة مؤدية الى نار الجحيم » فجوزى على تمنته هذا بالجلد بسياط السودان الموجبة ومع ذلك تحمل الام الجلد بصبر عدهق فلم يشك لحظة واحدة حتى اضطر الجلادان الى سؤاله في دهشة وذهول « ما الذي يدعوك الى عدم التضرع وما الذي يمتنعك عن طلب الطور ؟ » فاجابها نيوفله بجملة بجملة غريبة ( وقلب حديد ) نالت احترام واحجاب السجنائين ( هذا التضرع وذلك الطلب الذي يدل يصدران من الآخرين أما نحن اذل نفسى بشىء من ذلك ) .

بعد ان قضى هذا الهائس ثلاث سنوات في السجن خلقت السلاسل التي كان يرصف فيها ثم نقل الى الخرطوم ولم يبق من الاغلال الا ما كان حول السائقين . وعندنا وصل الى سجن الخرطوم أمر بتكرير وتنقية ملح البارود المعد لعمل البارود وكان ذلك التكرير تحت مراقبة واد حاميين الله وفي ذلك الحين تصنعت حالته كثيرا وقد كان يمنح مكافآت شهرية ضئيلة مقابل هذا العمل فكانت تلك المكافاة مساعدا له في الحصول على حاجاته الضرورية للحياة .

كان يصل تكرير ملح البارود مجاورا لبناء الكنيسة التابعة للارمنالية الدينية في الخرطوم فساعد ذلك التوفيق زميلنا تشارلس على التجمعة من مخالفات الضنك والتعب حيث كان مسوحا له ( نيوفله ) بعد الانتهاء من عمل النهار الضيق المؤلم ان يقضى ليلة في حقائق كنيسة الارمنالية . وليس من شك في أن انكاره حينئذ كانت متجهة الى أسرته في إنجلترا ولا ريب في أنه كان فيما بينه وبين نفسه يلحن ذلك اليوم الأسود الذي اخراه وراءه في بترك مصر الى السودان حيث وقع في قبضة الخليفة عبد الله .

كان من المسير جدا على هذا الرجل أن يتوق الموت ويملكى  
 حقيقته دون أن ارتكبه ولقد يكون من توفيق هذا الرجل في وقت  
 قريب أن يجمع بأصطفائه وأكربائه الذين تلقوا إلى رؤيته حرا  
 طليفا من الأسر المفرج ولئن كان من المسير وجود العدد الكبير من  
 الأصطفاء ( الذين يريدون مساعدة تشارلس ) في أوروبا فإن الحقيقة  
 هي أن تخلص هذا الأسير البائس من يد الخليفة المسمى لا يتم  
 إلا بمول الله وجهه .

إن قلبي ليتوجع وليكاد يتمزق حزنا وألما كلما شرعت في  
 كتابة شيء مما يقاسيه المسجونون في صجين ( صيد ) أم درمان  
 ورغم ذلك سأذكر شيئا عن الرجل البائس الشيخ خليل الذي  
 أرسل من مصر معه رسائل خاصة إلى الخليفة عبد الله فيها بيان  
 عن عدد أسماء الأسرى الذين سلموا في واقعة كوشسكي والذين  
 عوملوا معاملة حسنة لم يكن الخليفة يجهلها كما أنه لم يجهل  
 قرب الإفراج عنهم وقد ورد في إحدى الرسائل المذكورة طلب من  
 أولى الأمر المصريين في مصر تسليم سيف وعلم لربات الجنرال  
 غوردون للشيخ خليل لأن أصحاب الشأن في مصر لم يشكوا في  
 أن الأسماء المذكورة موجودة عند عبد الله .

كان يوافق خليلنا هنا شخص مصري اسمه بشارة فبعد أن  
 اطلع مسكرتير الخليفة الخاص على الرسائل وقرأها لعبد الله أمر  
 الأخير بعودة بشارة لمصر دون أجابة على الرسائل أما خليل البائس  
 ( وهو مصري المولد ) فقد قُبِلَتْ يداه ورجلاه بالسلاسل الثقيلة  
 بعد أن ألهمه الخليفة بتهمة الجاسوسية .

أسيئت معاملة خليل إلى أقصى حدود الاساءة وحرم من الضاء  
 الكافي فأصبح مزيل الجسم إلى حد لم يستطع معه القيام من  
 الأرض وقد بالغ معذوره في إحاقته حتى أنهم لم يسمحوا له بماء

للمعرب وأخيرا نلذ قضاء الله وحكم الموت الهادي في خليل فتلقاه  
بسرور وهو على ثقة من أن موته أعظم منفعة له من آلامه المبرحة .

تتكلم الآن عن باليس آخر اسمه صالح وهو تاجر يهودي من  
تونس فقد جاء هذا البائس الى كسلا باذن من أبي حرجه فلم يكده  
يصل اليها ( كسلا ) حتى صدر أمر الخليفة باعتقاله وترحيله الى  
أم درمان حيث ظل معتبرا في السبيل ( السجن ) لغاية كتابة هذه  
السطور ( عام ١٨٩٧ ) وهو عبادة عن هيكل عظمي لا أمل له في  
الحياة الا بمساعدة زملائه ورجال فرقته الذين اضطروا الى اعتناق  
الدين الاسلامي فلم تكن من ايصال كميات قليلة من الطعام الى  
صالح هذا .

بين المسجونين اثنان من العرب العبابه اتهما يحمل رسائل  
الى الاوربيين في أم درمان فاعتقلا وماتا في السجن بعد أن هلكا  
جوعا فلم يسبقهما أن يضطرب الاوربيون المقيمون في أم درمان ازاء  
سوء معاملة الخليفة معهم من ناحية غير مباشرة ولكن من حسن النسل  
اتضح أن الرسائل واردة الى رجل قبلي من الرباه في مصر .

كان عبد الله كثير الميل الى الوشائيات وتصديفها وما نرويه  
في هذا الصدد أن عسكر أبا كالم شيخ قبيلة جمعة الكبيرة كان  
مشهورا بصداقته للخليفة عبد الله ولأبيه من قبل ولكن تلك  
الصداقة لم تجده شيئا عندما وصل الى أذن الخليفة أن عسكرا  
هنا تكلم بشدة ضد الحالة في السودان ، ففي ذلك الحين أمر  
عبد الله بالكاء عسكر في السجن راسقا في الاغلال الثقيلة تأديبا  
له وزجرا لغيره . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل لقي الى الرجايف  
وحملت زوجته . التي كانت مشهورة بجمالها الرائع ، من بين  
أراضي زوجها . أثناء توديبه قبل نفيه . الى دار عبد الله لتكون  
واحدة من حريمه .

سبق في الفصول السابقة ذكر الشيء الكثير من الأمير  
السوداني الشهير (زكي طومال) ، وهنا نقول : انه عندما صعدت  
أواخر الخليفة باعتقال هذا الأمير هو على معاملة سيئة جدا لكل على  
البلطة القاسية والانتقام القبيح فقد بنيت له غرفة من الطين  
شبيهة بالقبر وأغلق بابها على من فيها ولم يسمح له بشيء من  
الطعام على الإطلاق وكل ما من به الخليفة هو مقدار صغير من الماء  
سلم له من كوة صغيرة في الغرفة الحصرية وقد تمكن زكي طومال  
الشفاج من البقاء ثلاثة وعشرين يوما حيا بواسطة الماء إلا أن الجوع  
أنهكه للدرجة الموت ، ومع ذلك لم يفك طومال لحظة واحدة ولم يطلب  
عفوا من عبد الله رغم بقاءه في ذلك القبر القبيح . فقد كان زكي  
طومال من تاجيته شديد الإياد بعيدا عن التذلل ، وعن الناحية الأخرى  
كان واقفا من عبث السبي إلى هذا الغزو من رجل اشتهر بانتقامه  
المريع وقساوة قلبه وقد ظل على تلك الحال إلى اليوم الرابع  
والعشرين من سجنه حتى حمله الموت إلى عقره الأخير ليرتاح من  
قساوة منفيه في السجن وانتقام عبد الله في الخارج .

في فجر اليوم الرابع والعشرين سمح بعض الحراس الغلاظ  
القلوب زفرات الموت من غرفة زكي طومال وعندما سكن الصوت  
وتساقط أولئك الطغاة من حوت الأمير أسرعوا لرف البشري إلى  
سيدهم عبد الله ، فأمر الأخير بحمل جثة الأمير ( زكي طومال ) إلى  
الناحية القريبة من أم درمان وهناك دفن على كومة من الخرق  
البالية وظهور مقابل مكة ( دفن زكي على هذه الصورة يرمي إلى  
تحقيره بإبعاد وجهه عن القبلة ) فانه الخليفة عبد الله لم يكتف  
بتعذيب غريمه طومال في الحياة بل أراد مواصلة التعذيب والانتقام  
منه في موته بإبعاده عن مكة ليحرمه من السلام والراحة في العالم  
الثاني .

كان عبد الله شديد الخطر على الجميع حتى انه لم يتأخر  
عن الضحك في القاضى أحمد الذى يحد أقرب المتصدين به أهمية

بنيانته فامر الحراس بالقساة في الشرفة التي القوا فيها زكي طومال من قبل وبعد يومين من سجن أحمد هذا دخل اليه في غرته قاضيان يامر من الخليفة وهناك سالا زميلهما الياسي أحمد عن المكان الذي خبا فيه أمواله فاجابهما أحمد بجملة « أخبرا سيديكما عبد الله الخليفة أني ذهبت الدنيا ولا أعرف مكانا أجد فيه الذهب أو الفضة » .

تعايل القاضيان كثيرا على زميلهما السابق وسميا جهدهما في الوصول الى معرفة المكان الذي يوجد فيه ماله وعلمهما فسادا عادا ادراجهما مطاطني الراسين الى الخليفة ، وقد كان ذلك الامر كله قبل مفادرتي أم درمان ببضعة أيام . وقد تأكدت عقب رجوعي الى مصر أن القاضي أحمد توفي بعد أيام في سجنه على الصورة التي توفي بها زكي طومال .

ان المرء يستطيع من مجلد كامل يفتاح ونسوة الخليفة ضد المسجونين في السجون ( السجن ) ولكن من العبت انجاب القاريه يذكر فطاح وحسية لولكيت بأمر هذا الظالم المستبد الغليظ القلب عبد الله .





## الفصل السابع عشر

### وسائط النجاة

كنت أرى من وراء بقائي الى جانب الخليفة عبد الله والتصاليق به الى الخرس من دوج الفائلة فقد رغبت في تصرف طباعه من ناحية ومن تعرف احوال السودان من الناحية الأخرى بطريقة تكاد تكون رسمية ، أما الخليفة عبد الله نفسه فكان بتقريبه اياي يقصد شيئين متقاربين ويرمى الى فائدتين ، فقد كان على ثقة من اني الموظف المصري الاجنبي الوحيد الملم بشئون السودان انما كليا دقيقا واني جئت البلاد السودانية ودرستها وأصبحت على معرفة كاملة باغاة المتخاطب الداخلية وسأذكر الخرس الثاني بعد قليل .

كان عبد الله على جهل فاضح بالشئون السياسية وقد ذهب به فكره الى أن خروجي من السودان خطر داهم عليه هو شخصيا لاني اذا ولقت الى النجاة لمعنى ذلك اني أتمكن بسرعة من اغراء الحكومة المصرية او أي حكومة اجنبية عن السودان الى دخول تلك البلاد واستقاط نفوذ عبد الله ، وفي ذلك الحين أتمكن من ايجاد صلة متينة ورابطة وثيقة بين الحكومة الجديدة وبين أفراد وزعماء القبائل الذين يكرهون حكم عبد الله اشد كراهة ولذا ينتهي الامر الى إنشاء حكومة نظامية في السودان .

قلت ان غرض عبد الله الاول من بقائه هو المصطفى يسلمون  
السودان أما الغرض الثاني فيرجع الى نزعة نفسية فقد رغب  
عبد الله في ارضاء كبريائه باستخدام الرجل الذي كان فيما مضى  
حاكم اقليم دارفور بأكمله وحاكم قبيلته ، ففي استخدام الرجل الذي  
تمتع فيما مضى بهذه السلطة بعد عظمة لعبد الله في عيون السودانيين  
خصوصا اذا بقي الرجل المذكور ( مؤلف الكتاب ) كاسير بين يدي  
الخطيف ، ومن المنعش ان عبد الله لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور  
بهذه العظمة الكاذبة فكان بين آن وآخر يقول لرجال القبائل القريبة  
و انظروا هذا الرجل الذي كان فيما مضى سيدنا وحاكم قبيلتنا  
والذي قاسينا الالام تحت حكمه الجائر انظروا اليه اليوم تجسده  
خادمي وسامع أوامري والملتزم تنفيذ ما أمير به اليه في أية لحظة .  
انظروا الى الرجل الذي انغمس في بحر الشهوات وكان عنقادا  
وزاء تبار المصطفى تجسده اليوم لا سيما جيته القلعة وسائر حاشي  
القبائل فلا ريب ان في أن الله وحرف رحيم » .

كان عبد الله كثير الخطر والخوف مني . ولم يمن كثيرا بلغني  
من الأسرى الأوروبيين الذين عاشوا عيشة بسيطة قوامها الاتجار  
في المواد المختلفة في حرم قريب من ميدان سوق أم درمان حيث  
يتواغروا خلسة لعجارتهم ظلوا فيها آمنين لا يسكر صفوهم أي  
تدخل من الأحمالي .

كان الأب أوهر والد نسايا يعيش هو وأهله ما يكسبه  
من تسبيح القطن وعاش الأب فغذيتول وبيوروچنتو ( وكلاهما من  
طائفة الارسالية الدينية المسيحية ) بياعين للساعات في الدائرة  
المركزية للسوق ، وقد عاشت السيدات الأوروبيات الى جانب أولاده  
الأوروبيين حتى نجون منهم وقت تدبير الهرب مع استثناء الأخت  
ترينه جويجولتي .

ينبغي بعد ذلك جوست حويزي اسد الكتاب الاجابى ثم طاطه  
اخرى من اليونانيين والسوريين والمسيحيين واللاتباط ويبلغ مجموع  
لؤلئك خمسة واربعين رجالا ونساء تزوجوا وتزوجن من مسيحيين  
ولموا في السودان أو مصريين ومصريات .

تسمى المنطقة الداخلية لؤلئك المسيحيين المسلمين ( تطلق  
على المناسبات من غير المسلمين بوجه عام وقد أطلقها أنواع المهدي  
عربيا مائلا لاسم الخليفة عبد الله ، ومهما يكن الأمر فلم يكن  
على كل من لم يدينوا بالاسلام ) وقد اشتغل لؤلئك بأموالهم  
وانتخبوا من بينهم اميرا ائتمروا بأوصاياه وأوامره وقد كان ذلك  
الرئيس للمسيحي مسئولاً لدى الخليفة عن كل ما يجرى فى شأنه  
ومن كل شخص غير مسلم فى أم درمان واسم الأمير الحال ( فى  
عام ١٨٩٦ ) نيكولا وهو رجل يوناني يطلق عليه السودانىون اسما  
عربيا مائلا لاسم الخليفة عبد الله ، ومهما يكن الأمر فلم يكن  
مسموحا لأى شخص من لؤلئك المسيحيين بمقابلة أم درمان وقد  
كان مفروضا عليهم أن يضمن الواحد منهم الآخر ومن نتائج ذلك  
أنه عندما سافر الأب ووزينولى صدرت الأوامر باللقاء زميله وضامته  
يبدو فى السجن ( السجن ) وقد زادت المراقبة واشتد الاضطهاد  
على لؤلئك المنكوبين بعد قرار الأب أوجر والدن . فقد أنشأ الخليفة  
خصيما مكانا حصينا لمجزم فيه من الناحية الشمالية الشرقية  
من المسجد الكبير حيث كان مفروضا عليهم أن يحضروا الصلوات  
للخمس يوميا وقد كان الخليفة عبد الله داهية فى ذلك الأمر فانه  
أمر بأن يذهب الشخص من لؤلئك ( غير المسلمين عامة والاوربيين  
بصفة خاصة ) مرة فى اليوم للمسجد ، وعين للاحصاء مراقبا يقف  
بعد نهاية الصلوات الخمس يوميا تقريرا الى عبد الله يتكلم بواسطته  
من معرفة المتفهب واذ ذاك يرقح ضميره لأنه يشق من لقاء جميع  
لؤلئك المحبوزين فى ناصيتهم الجديدة .

كانت مساكنهم الصغيرة متلاصقة وبما لذلك كان من اليسير جدا اتصال الواحد بالآخر ما خلف عنهم الام الوحشة والاضطهاد اما اطفال اولئك الأشخاص وأولادهم الصغار فكانوا ملزمين بالبقاء في التكايا السودانية حيث يتعلمون القرآن .

وقد وصفت فيما سبق كيفية سكنى وما أحاط به في الحياة السودانية وبقي على أن أضيف لما تقدم أنه كان مسموحا في أن أتكلم مع قلائل من الجرس الخاص الذين كانوا - مثل - اما تحت الرقابة واما - وهذا خلافا طبعاً - كجواميس للخليفة يراقبون الأجانب ويكتبون التقارير الوافية عن أقوالهم وسركاتهم ثم يرفعونها كل مساء الى دار الخليفة أما دخول المدينة ( أم درمان ) فكان غير مسموح به الا في النادر هذا الى أن منعت عنياً كلياً من زيارة المنازل أو زيارة الناس ليأتي الصبح .

ومما أرويه عن ميول الخليفة الشخصية أنه كان مولعاً جداً بالساعات الصغيرة وساعات الحائط على اختلاف حجومها ، وقد وضع على الخليفة - فيما وضع من مهمات - مهمة تنظيف الساعات الكبيرة واصلاح ثلاث ساعات للجيب يتناوب حملها وقد تمكنت بواسطة هذه المهمة من زيارة ساعاتي أرمني يسمى أرئين بدعوى أن ساعة من ساعات الحائط في دار الخليفة تحتاج الى الاصلاح .

كان بيت الخليفة عبد الله قائماً على مقربة من ميدان سوق أم درمان حيث كنت أقابل بهن حينئذ آخر مع الراد مخصوصين كنت أرغب رغبة صادقة في مقابلتهم والتحدث معهم . اما فيما يخص سوقى مع أرئين بالاع الساعات فلم أكن اثق فيه على الاطلاق ، وكل ما دعاني الى التوجه اليه في اوقات مختلفة هو نزوعى الى الالتقاء بالأشخاص المميزين ، ولئن اضطرت الى الكلام معهم فلم يكن أرئين يسمح ما يفور بيننا من حديث .

كان أغلب وقتي مقضيا في الفسحة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ولم يكن مسموحا على الإطلاق كتابة أى شيء لأن عبد الله كان يرى من العار أن أعمل شيئا أن أتلم جديدا لم يكن هو يعرف عنه قليلا ولا كثيرا . ورغم ما أبداه عبد الله من حذر وريبة كان يضطر الى دعوتى لاصطحابه فى المسجد الكبير أو فى بعض الرحلات الداخلية الخاصة ، وكانت وظيفتى معه شبيهة بوظيفة مستشار حاكم الدولة . وازاء أكتأبى هذه كلها لم أكن ممن يتناولون مرتبا من الدولة فكانت تبعا لذلك على خفض من الميكن فكان طعامى عاديا جدبا يتكون غالبا من العصيدة والبقول الحقة وفى يوم أو يومين من الأسبوع كنت أتناول قطعة صغيرة من اللحم بعد شراها خصيصا من السوق .

تأكد عبد الله من رغبتى فى الحرية وتطلعى الى الفرار من قيد الأسر ورغم ما بذلته لتحويله عن ذلك الفكر لم أستطع نفى ما فى مخيلته من شكوك وريب وفى الوقت نفسه كان يخشائى ويتسلنى . فقد وهب لى الكثير من العبيد وعرض على الزواج من بنات أسرته واجتهد فى تقديم هدايا كثيرة لى ليحول بينى وبين الفرار بطرق لطيفة ، ولكنى أصررت على الرغضى ابه فزاد ذلك من مخاوفه وشكوكه وتأكد أنى أتطلع لأول فرصة أتمكن فيها من مفاداة أم درمان الى الخارج وفى ذلك الصل خطر عظيم عليه خاصة وعلى بلاده عامة .

بعد سقوط الخرطوم سعى أفراد أسرته لى أوروبا جهنم للوصول الى معرفة أخبارى الوثيقة ولكنهم تأكدوا أن الظهور بهذا المظهر خطر داهم على ازاء عسف الخليفة وشكوكه .

لم يدخر فون جسنر ( فحصل النشأ والمجر فى القصر المصرى ) جهدا فى استقصاء أخبارى . وقد وجد هذا الشخص الكبير المقام تلميذا ظاهرا من جانب الضباط الملتحقين بالجيش المصرى

وغيرهم من الموطنين . ودعا أذكره من أولئك الآخرين أنهم كانوا  
الواسطة في وصول الأخبار إلى أفراد أسرتي عن طريق حاكم  
صواكن عام ١٨٨٨ فاني شخصيا لم أكن أستطيع إيجالها إلى  
الضباط لأنى - كما قلت في المصنفات السابقة - كنت محروما من  
الاختلاط بأي شخص أجنبي والتزاور مع أى موظف رسمى .

ما تقدم يقف الثارى على مقدار فزع الخليفة وسوء طنه وقد  
زاد ذلك الرب وصول خطاب من الهرنود روستي ( الذى خلف  
الهر لون جسر في القنصلية النمساوية في القطر المصري ) إلى  
الخليفة يطلب منه فيه التصريح بقبول تيسير يعطى الرعايا  
النمساويين المقيمين في السودان . والحق أن أكبر ما أثر في الخليفة  
وحول وجهته هدى هو ورود خطاب من القنصل النمساوى يستعلم  
فيه عن الحالة في السودان . ومن المضحى أن الخليفة عبد الله  
استطاع كظم غيظه فطلب منى كتابة بيان عن الموقف الأخير في  
لم درمان خاصة والسودان عامة . وبطبيعة الحال لم يبال الخليفة  
بخطاب الهر لون روستي وكل ما عنى به هو اتهامى بالتباعد من  
ناحية والكلاب من الناحية الأخرى لأنى كنت أخبرته قبلا أن جميع  
الرعايا الأوربيين في السودان من الإيطاليين مع استثناء  
الأب أومر والهر النمساوى فقد جاء طلب القنصل النمساوى بخطابا  
ومكذبا ليبنى . ومن الحق لم أرم من وراء ادعائى أن الأجانب  
في أم درمان جميعهم غير نمساويين إلا إلى شيء واحد هو الخوف  
عما قد يحيق بهم من سوء عبد الله في حالة غضبه على شخصى ، فله  
يحيل إليه في اليوم الذى يريد فيه الاقتصاص منى أن يهلك جميع  
الأوربيين لاقتصاصهم إلى الجنسية التى أنسى إليها في حين أنى  
كنت أسعى جهدى لحملهم على التوجه .

كان الخطاب الوارد من الهر روستي ضربة قاضية على جميع  
تدبيراتى التى كنت بها لصالح اخوانى . ومع ذلك مضيت إلى اقناع

والخليفة بأن الغرض من كتاب روستي هو ضم جميع الأوربيين  
القيمين في السودان تحت القمار النمساوي ، ولكنني هنا حاولت  
إقناعه فقد عدت إلى مواجهةي بعد أن كان مكتوما من قبل ثم اتهمني  
بالكذب الصريح ومحاولة غشه .

وضع أفراد أسرتي مقدارا من المال تحت تصرف تتصل  
النمسا الجنرال ليستصله وقت الحاجة لمساعدتي وقد تمكنوا من  
إيصال مقادير مالية مختلفة لي بواسطة العرب وذلك بعد التسهيلات  
الشديدة التي تفضل بها على كثيرون من الضباط الملتحقين بالجيش  
المصري مع معاناة المأجور ونجت مدير الإدارة الحربية ولا أنسى  
في هذا الصدد أن أقول للقراء بأنني في كثير من الأحيان كنت استلم  
مقادير أقل من المذكورة في الرسائل التي سلمها إلى أولئك العرب  
ولكنني كنت مضطرا إلى تقرير حصولي على المبالغ كاملة ومما يكن  
الأمر فقد كنت شاكرا لمن أرسلوا لي المال بمقدار شكري لمن أوصلوه  
إلى يدي لأن الآخرين ساعدونا مساعدة كبرى في حل رسائل  
وتقارير سرية إلى أفراد أسرتي دون وصول الجواسيس إليها .

كنت شديد الحيلة في صرف المبالغ فقد اجتهدت في الظهور  
بمظهر اليأس الذي لا يجد ما ينقذه حتى لا تنطرق الريية إلى  
نفوس النمساويين وحتى لا يقف الخليفة على حقيقة أولئك الأشرار  
الذين تفضلوا بمساعدتي ، وتبعاً لذلك عشت أبسط عيشة ودلست  
ما وفرته لأصدقائي المعوزين .

وثق أصدقائي القيمين في القاهرة - بعد أن حرمني الخليفة  
من أي اتصال بالخارج - أنه من المستحيل عليهم العمل على  
إقناعي ، ولذلك فكروا مليا في الطريقة التي أتمكن بها عند منوح  
الفرصة من الفرار والنجاة من مصف عبد الله ، وفي الحق كنت  
عارفا من اللحظة الأولى التي وقعت فيها في الأسر أن نجائي لا يتم

الا بواسطة الفرار في الفرصة المناسبة ، وعلى الرغم من قضاء سنتي عشرة سنة في عذاب وتمتد ير الاضطهاد لم يلعب الأمل لحظة واحدة من خاطري فقد كنت على ثقة من الفوز بأمتيتي في النهاية بعد صبري المجهيب .

قضيت السنين ولم يعلم انسان حقيقة ما في نفسي وما اعتزمت تنفيذه ، ولكني ذكرت عرضا عرضا لابراهيم عدلان ولقد وعدني الأخير وهذا صادقا بأنه سيبذل أقصى ما في وسعه لاتقاضي .

ولكن من صود الحظ قد وقع غضب الخليفة على ابراهيم عدلان هذا بعد أيام من وعده الشريف فنفي من أم درمان ، وخسرت أنا بذلك الثمن صديقا مخلصا وحاميا شجاعا نبيلًا .

عندما مات ابراهيم عدلان أفضيت بسرى الى شخصين أثق ثقة كلية في أمانتهما وقدرتهما على كتمان السر ، ورغم كوني على ثقة - بالنسبة الى ميلهما لي من ناحية والى كراهيتهما الشديدة للخليفة من الناحية الأخرى - من رغبتهما الشديدة في تخليصني من قبضة عبد الله لم أوفق في سعيي ، ولم تسلم مفاوضاتي معهما أي نتيجة ، ولم يكن ذلك لثقة وجود المال الكافي لاتقاضي واستعماله في هربي وإنما يرجع الى خوف ذينك الشخصين من اقتطاع أمرهما وظهور اسميهما بعد فراؤي وبما أنهما صاحبا عائلتين في السودان فلم يكونا يرتانان لي أن العمل الوحيد الذي يوصله الخليفة اقتصاصا منهما هو تليفهما لم حصل زوجة كل منهما الى دار حرم عبد الله ثم تشريد أولاد كل من الرجلين ، وهذا بلا ريب قصاص قطيع وعقاب لا تحمله النفس .

في الوقت نفسه لم يكن أفراد أسرتي مساكين بل كانوا يدبرون كل الوسائل الممكنة لاتقاضي ودعمهم جميع اياي الى بذل كل



ما يستطيعون من عون وتضيد وربما انهم كانوا على جهل كل بما  
 يجري في السودان وعاجزين عجزا مطلقا عن يد المساعدة من  
 فينا الى في ام درمان لم تكن امامهم وسيلة سوى دفع قيم مالية  
 تستخدم لحسابي عند قنصل النمسا في مصر وقد كانت تصدر  
 الى الاخير تعليمات من وزير خارجية النمسا باستعمال الاموال  
 المذكورة على احسن صورة ممكنة لا تقاوى وانه من الواجب على ان  
 اذكر بالثناء البارون هنر فون اجبرج ( سفير النمسا القروى في  
 احدى دول اوروبا الآن عام ١٨٩٥ - والذى كان فيما مضى قنصلا  
 للنمسا في مصر ) فقد سعى بهذه لا تقاوى في الفرصة الملائمة  
 وبطبيعة الحال لم يكن من الحكمة التوصل لمساعدتي بواسطة اى  
 شخص فامر العرب خطير يستلزم الاستناد الى الوثوق منهم ثقة  
 تامة ولذلك عند الاتصال النمساوى الى اختيار افراد مؤتمنين  
 يسعون لي من جانب موظفي الحكومة ، فانتهب الاتصال لهذا الغرض  
 الكولونيل شيفر بك وبعد مدة غير كبيرة امتعان بالمأجور ونجت  
 الى اظهر في ظروف كثيرة عطفيا كبيرا ولا ريب في انى مدين  
 بحريتي لكل من المأجور ونجت والبارون هنر فون فبدونهما لم يكن  
 ميسورا الحصول على اشخاص امناء من العرب يوصلون الى المقادير  
 المختلفة من المال ، وسأظل طول حياتي شاكرا لدينك الرجلين الكبيرين  
 جهودهما المتواصلة في سبيل نجاح مساعيهم وتسهيل أمر الفرار  
 على شخصي العاجز امام الخليفة السعيد السطوة - ومع ان الجميع  
 فشلوا في مساعيهم وبدا منهم لمساعدتي ما ادخل الريبة في قلب  
 الخليفة وفي قلوب جواسيسه المنتشرين حوله فاني لا ازال اذكر  
 تلك المهارة الفارقة التي بدت من جانب الرجلين الفاضلين الاخيرين  
 حتى ان عبد الله لم يدر في خلفه حولهما اى شك .

في الايام الاولى من شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل الى ام درمان  
 من مصر الشيخ بكار أبو زبيبة رئيس فرقة جمال دققله وقد كان  
 هذا الرجل من العرب العياضة فلم تكده قطعا قفصاء ارض السودان

حتى أحضر أمام الخليفة وهناك قال لمولاه انه فر من مصر وقام  
عن طريق أسوان طليبا عفر الخليفة والسماح له بالاقامة في بربر  
ولقد سهل له مهمته هذه جملة خطايات توصية الى زكي عثمان أمير  
بربر ، ولم يكده هذا الرجل يمر في ساحة المسجد الكبير ويلتقي به  
حتى أسر لي في اذني « اني اكبت لمساعدتك فاجتهد في مقابلتي »  
فاجبته « ان المقابلة تكون غدا بعد صلاة المغرب في هذا المسجد »  
وبعد النهاية من جوابي اختفى عن نظري وعلى الرغم من ونوتني في  
النجاة وارتياح ضميري الى اني سألتجو يوما من ذلك العشر فاني  
لم اكن شديد الايمان بذلك القول الاخير لاني اختبرت اقوال  
السودانيين والعرب فوجدتها في غالبيتها وعدوا كاذبة واقوالا  
لا ترمى لغير تبرير موقف قائلها وقت وقوف امامي وتبعا لذلك  
قضيت اليوم التالي كما اقضى كل يوم عادى فلم افكر في المقابلة  
او فليجتها لاني لم اكن امل تحقيقها وفي حين حدوثها لم يكن  
يلحظ بالي ان نجاتي مستحق بعدما مباشرة .

بعد الانتهاء من صلاة المغرب في اليوم التالي مر بكنار في  
طريقه الى الخارج بباب المسجد الذي تقابلنا فيه اليوم السابق .  
لتعجبه بخطر شديده ثم دخلنا معا الى القسم المحجوب عن الانظار  
في بناء المسجد ، وعلمنا غابت عنا عيون الناس وبصفت عن مجلسنا  
آذان السامعين مسلمي يكثر صندوقا من الصليح يبدو من راحته  
انه يحتوي على كمية من البن وقد قال لي صاحبي العربي « لهذا  
الصندوق قاع مزدوج فالتمه واقرأ الاوراق الموجودة في آخر القاع  
الثاني وسأبذل لك هنا غدا في الباب نفسه » .

أخفيت الصندوق تحت عبائي ثم رجعت الى مكان وكان  
مقدرا لي ان أتناول العشاء في تلك الليلة مع الخليفة فارتجف قلبي  
عندما سمعت تلك الدعوة لاني كنت أحمل صندوقا كبير الحجم الى  
حد ما بحيث يمكن ظهوره تحت ملابس بكيفية بارزة ومن سوء

الغريب أنى وشجعت أمام الذى كان يصدق فى طول وقت المشاء ولكن من حسن حظى - الى جانب ذلك - أن الخليفة كان شديد التصب طول يومه فدار كلامه حول مواضيع عامة ، وهذا كله لا يمنع استمرار ريبته وعدم تردده فى انزال العقاب الصارم بى وقت منوح الفرصة . الا أنى لم أتردد فى كل مرة أقابله فيها فى الظهار واللى واخلاصى له وبطيعة الحال كررت ذلك فى ليلة المضاء ومن الغريب أنى استطعت بعد أخذ قطع صغيرة من اللحم وكمية من الليرة المسلوقة ادعاء المرض فاذن لى الخليفة بالانصراف الى حيث ألقى ليلتى كل يوم . فأسرعت الى المنزل وهناك أشعلت المصباح الزئبقى الصغير وفتحت الصندوق بمديتى فوجدت ورقة صغيرة كتب عليها بالفرنسية الكلمات الآتية :

« بكار واد أبو زبيبة رجل مختص أمين » الامضاء

( الكولونيل شيلو )

جئنا ( أنا وأحمد ) لتسأل عما أصاب الرجال المرسلين لانقاذنا وأغلب ما اتجه اليه ظن كل منا هو أن الدواوينى قابلوهم فقبضوا عليهم بعد أن شكوا فى أمرهم وإرتابوا . ومهما يكن الأمر فقد وصلنا الى حيث كنا منتظرين مخاوف وآلاما مبرحة وعندما فارقت أحمد عند ساحة الاستعراض طلبت منه أن يخبرنى فى المساء عما يحدث وفى الوقت نفسه أكنت له أنى مستعد لمحاولة الفرار فى أية لحظة .

لم يكن يبدو السحر حتى وصلت الى كوخى الذى تركته منذ ساعات قليلة وأظن أنه من الخير أن أترك للقارىء تصور شعورى وحالى بدلا من الصبح الى وصفها فهذا الوصف مما لا أستطيعه ومن حسن الحظ أنى وصلت قبل قدوم أحد الضباط ( واسمه عبد الكريم ) برسالة من الخليفة يسألنى فيها عن سبب تقييى عن

صلاة الصبح فأجبتني بأنني كنت مريضا وفي الحق كانت ملائمتي كافية  
لإجراء الضابط بوقوعي في قبضة المرض المرجح .

عينا انتظرت الأخبار من أحمد في ذلك المساء ولم أعلم منه  
إلا بعد يومين من العرب الذين كانوا مبعثين لانقاذي ، فقد رأى أولئك  
أنه من المسير جدا تخليص من الأسر ومن المجازفة الخطيرة التقدم  
لانقاذي فاصعدوا إلى الرجوع من حيث أتوا وعدم الوفاء بوعدهم .  
وإذن عجزنا عن تنفيذ خطتنا وقد حمدنا الله حمدا عظيما إزاء منه  
علينا بالرجوع إلى أماكننا دون مراقبة أحد ودون وقوف الخليفة  
وجواسيسه على سر قفينا في الساعات القلائل المذكورة سالفا .

بعد أن رجعت سالفا لمكانى في أم درمان كتبت إلى صديقي  
في مصر شارحا لهم كل ما وقع لي فلم يلقوا باستمرا في تدبير  
وسائل المساعدة وهنا اتجهت أنظارها إلى الأب أوهر والدني الذي  
عندما كان في مسينا زاد أفراد أسرته وأخذ منهم أقرابا من الأثير  
تقوى الإنسان على احتمال السفر الطويل وتطرد اليوم من البر .  
وقد جهز الأقراب المذكورة أوتو كارشيارى وبعد إعبادها وصلت  
في كاملة آمنة وقد وضعت تلك الأقراب في زحاجة صغيرة تمكنت  
من دفعها بمنية تحت الثراب في بقعة لا يمر بها أحد غري .

أصبحت واتفا الثقة كلها في عبد الرحمن واد حرون الذي  
أرسلته إلى مصر برسالة إلى البارون هنر ليمن له ( عبد الرحمن )  
الوسائل التي يراها نافعة ومثمرة في طريق فرادى . وقد تم للمرة  
الثانية اتفاق بين السفارة النمساوية في مصر وبين هذا التاجر  
- وقد تدخل في هذا الاتفاق للجور ونجت وملهم بك شقير ونعموم  
أفندي شقير - هل أن يأخذ عبد الرحمن ألف جنيه ثم يطي المكافأة  
( ١٠٠٠ جنيه ) لعبد الرحمن في حالة واحدة هي وصولي إلى القطر  
بالمصري سالفا ، وقد سلمت السفارة النمساوية هذا الرجل مائتي  
جنيه لأعداد الأشياء اللازمة قبل الخروج في الفرار .

في ذلك الوقت عين المأجور ونجت حاكما لسواكن وقد خشي  
قدم نجاح عبد الرحمن فأجرى اتفاقا بينها بالسائف مع رجل عربي  
اسمه الشيخ كزار ، وكان المتفق عليه معه السعي الى الفرار من  
طريق طوكر أو كسلا -

في يوم من الأيام سلمني تاجر في أم درمان ( قدم ذلك التاجر  
من سواكن ) ورقة كتب عليها ما يأتي :

« مرسل الكيم الشيخ كزار الذي سيسلمك بعض ابر الحياطة  
بكتليل على أن الذي يكتلك هو الشيخ ، وتأكد أنه رجل أمين وضجاع  
ثقة فيه ثقة تامة وقبيل أصديق التحيات من ونجت »

الامضاء : ( أوهو والبر )

عرفت بعد ذلك بكتليل من أحد أقربه عبد الرحمن زاد هرون  
أن الأخير وصل الى بربر من مصر وأنه بدأ يجري المعدات اللازمة  
لفرادي ولكنه اعتزم - في سبيل إبعاد الريب والشكوك علي - عدم  
العودة الى أم درمان فكان هذا الفرار من جانيه سبب كثر لي -

بدا اليوم الأول من شهر يناير عام ١٨٩٥ بعد أن قضيت  
سنوات قسوة واضطهاد الى جانب عيد الله المستيد العالم ، فهل يمر  
ذلك العام كما مر أسلافة ؟ وهل لأمل في خير جديد تحصل عليه في  
عالمنا الجديد ؟

على أية حال كنت في مستهل ذلك العام شديد الثقة وقد جال  
بخطري هائف ديني بقرب الإفراج عني من ذلك الأسر فكان  
قلبي يحدثنني بأن أصدقائي المخلصين الكثيرين في الخارج سيوفقون  
لا محالة الى أفسلتي وأنهم سيكسرون أغلال الأسر ويمكنونني  
بفضلهم وكرمهم من مشاهدة أفراد أسرتي مرة أخرى على الأقل لبل

موتى وانى سائهم بالعودة الى الوطن ومساهلة وفاق الصبا وتماكن  
سرودى القديم .

فى ليلة من الليالى النصف الاول من شهر يناير عام ١٨٩٥  
مر بى فى الشارع شخص لم تقع عليه عيناي من قبل وقد اشتهر  
لى هذا الرجل اشارة فومت منها انه يقصد مبنى حوت يسير  
فخصيت ان يكون جاسوسا فاطهرت له علامة التذمر والاستياء  
فاجابنى بعد ذلك الى الرجل الذى يحمل الابر الصغيرة « فلم  
اكلمه اسبح ذلك حتى عني البشر والسروى فقلت الرجل الى زاوية  
مظلمة صغيرة مجاورة لكوني وهناك رجسوت ان يسرع في شرح  
مهمته لى . فبدأ بتقديم ثلاث ابر صغيرة وورقة صغيرة ثم قال لى  
بعد ذلك « ان الفرار مستحيل فى الوقت الحالى » . و اضاف الى ذلك  
قوله « قد اثبت بعد ان اعتزمت عزما اكيدا حلك معي الى كسلا  
ولكن الفرار الى تلك الناحية اصبح فى الوقت الحالى عميرا بعد  
انشاء محطات حربية فى كل من القاهر واسوى وخور رجب  
والعطية المتصلة بعضها ببعض اتصالا مباشرا الى كسلا » وزاد على  
ذلك قوله بان احد جماله قد مات وانه خسر كثيرا من ماله بالنظر  
الى كساد القشون التجارية واذن ليست لديه وسائل كافية لاقتاذى  
فى الوقت الحالى وتبعا لذلك طلب منى ان اعطيه خطابا للمهاجر  
ونجت اسأله فيه تسليمه ( الرجل المذكور ) مقدارا جديدا من المال  
وقد وعدنى هذا الشخص وعلم اكيدا بأنه سيرجع الى فى بحر  
شهرين .

اما انا شخصيا فقد وقلت ان الرجل لن يسمح بتعرض حياته  
للخطر فى سبيل القاذى وبما أنه اخبرنى بعزمه الاكيد على السفر  
وعدم تمكنه من التأخير طلبت منه بالحاج ان يقابلنى فى المسجده  
الكبير مساء اليوم التالى . وعندئذ افترقنا فرجعت الى مكانى العادى  
عند باب الخليفة .

أما الورقة التي سلمها إلى الرجل من سواكن فتحتوى على توصية ومدح فيه ( الرجل ) من الأب أوهر والهد وقد أجهت على هذه الورقة اجابة مختصرة شرحت فيها كل ما وقع لى وعندهما تقابلنا فى الليلة التالية سلمت شيعتنا هذا خطابى فأسرع فى ضجه إلى جيبه أملا منه أن فيه ما يضمن له الحصول على مقدار جديده من المال حسب طلبه . وفى الحق كتمت شديد الغزع كبير القنوط وعلى هذه الحالة عشت إلى منزلى حيث مروت فجأة بمحمد ابن عم صديقى عبد الرحمن . وكانما قدرت الاتفاقات أن يسير إلى جانبى فى تلك اللحظة حيث همس لى أذننى : نحن على استعداد « وأضاف إلى ذلك : « اشترينا الجمال وأحضرتا للرحمدين فى الطريق والوقت المهد للنجاتك هو الربيع الأخير من القمر فى الشهر القادم . فكن مستعدا » ولم يصف إلى ذلك شيئا . وقد شعرت هذه المرة شعورا صادقا بأنه من الواجب الاعتماد على الناس الذى يتخلل الأمل فى فترات مختلفة .

قبل أن ينتهى شهر يناير من عام ١٨٩٥ وصل إلى أم درمان حسين واد محمود مزودا بتعليمات وتوصيات الوارون هيدلر والمأجور ونجحت . وقد أخبرنى هذا الرجل العربى الجديد أنه على أهبه الاستعداد ليعمل على الغراء وقد رجاى حسين هذا أن أكتب لأصحاب الثبان فى مصر بصفة ما عمله ( حسين ) وأن يحمل ما أكتبه إلى مصر أحد أشقاء حسين أثناء رحلته للقطر المصرى . وبما أنى كنت عقيلا باتفاقى مع عبد الرحمن اضطررت إلى الانتظار للوقوف على ما يعمل له يوفق إلى النجاح ، فى حالة فشل مساعيه ( عبد الرحمن عولت على الاستناد إلى حسين هيدا . وحتى لا أصدم الأخير - بدلا من تقديم السكر له على الأقل - أخبرته بأننى فى الوقت الحالى أرى صحفى غير قادرة على موالاة رحلة كبيرة وأنى سأخبره بعزمى الذهابى فى آخر شهر ابرير . وفى الوقت نفسه أعطيت خطابا لمصطفى فى مصر ذكرت لهم حاجة والهيدلر خاصة

بأنى عولت على الفرار مع عبدة الرحمن متمنياً فى سمعهم هذا توفيقاً تاماً . وفى حالة فشل - وقد دعوت الله الرحمن أن يحول دون هذا الفصل - لا أجيد غير ( حسن ) وسيلة لفرارى . وانى لا اكتم القارى حقيقة ما دار فى نفسى بعد أن كثر عارفى سرى والواقفون على رغبتى فقد خضيت أن يفتضح السر عند الخليفة وأذ ذاك تنزلة على صواعق عصفه وغضبه فانى لم أكن أتوعد لحظة واحدة فى الثقة بأن الخليفة فى حالة رغبة جزئية وشك بسيط فى سمعهم سيقتضى الى اشتق صتوف الموت . بعد أن يلقىنى فى المسجن ( السجن ) وبطبيعة الحال كان عهد الله يتلمس أى ظرف للفتك به لأنه كان فيما بينه وبين نفسه يتخافنى كثيراً .

أخبرنى محمد يوم الأحد ١٧ فبراير سنة ١٨٩٥ فى كلماته القليلة أن الجبال الممتدة للفرار ستحصل فى اليوم التالى على أن تستريح من تمها يومين وفى ليل ٢٠ فبراير نتم مشروعتنا الخطيرة وزاد على ذلك أنه فى مساء الثلاثاء ١٩ فبراير سيغير الى أشارة أنهم متها أن كل شيء قد انتهى على أحسن صورة وأذركت أنا مستقوم بالرحلة الطويلة الشاقة التى تحتاج الى صبر طويل وعزم ثابت .

فلما انتظر بأمل وخوف للأمل ينفعنى اليه ما قضيت من أعوام طوال فى عيش مرير قد ينتهى بعد يومين الى حرية مطلقة وأما الخوف فلما قد يترسنا فى سبيلنا ، وعلى أية حال كعنت شديد الشوق الى مساء الثلاثاء حتى جاء ذلك الليل والفتيت بمحمد على باب المسجد الكبير حيث عسى فى أذى بمرصة داعياً الى الاستعداد للسفر ثم افترقنا على أن نتقابل الليلة القادمة .

انى اعترف للقراء الى قضيت القسم الاكبر من تلك الليلة فى حالة اضطراب شديد ، فكنت بين أن وأخر لقول : هل يفصل ذلك



التدبير كسابقه ٩ « وما زلت أردد القول « هل يعترض سبيلنا حادثه غير منظور يقضى على كل ما لدى من آمال ؟ « وإذا ذلك الاضطراب الفكرى لم استطع النوم لحظة واحدة حتى بدا الفجر فمن شدته التصب أغرقت في النوم الصيق ساعتين أو ثلاث ساعات تمتعت بمثلها أن أكون في لقطات يمكننى من الابتداء لى رحلتى الخطيرة .

جان صبح اليوم التالى الذى كان عددا لبعثه الخطير - فبدأت فى تنفيذ المشروع بالهيئة الوحيدة المطلوبة وهى ادعاء المرض غوقفت لدى باب الخليفة وحسب ما ظهرت بمظهر الضعيف للمريض وطلبت من رئيس شباط حرس عبد الله السماح لى بالتغيب عن صلاة الفجر فى يومنا هذا بعد أن أخبرت هذا الضابط المذكور أنى تناولت مقدارا من الشاي والتعب الهائل لتغيب ما بى من الم على أن أبقي هادئا فى منزل فى اليوم التالى . وقد حسنت الله لائى تمكنت من الحصول على الاذن بالتغيب عن الصلاة وزيادة على ذلك وعد عبد الكريم بأنه سيمتحن عنى لدى الخليفة فى حالة سزال الأخير عن قفبى ، ولم آكن فى شك من أن الخليفة علقا لا يرانى فى صلاة الفجر سيمسأل عنى بطريقة مكرة يريد بواسطتها الوثوق على حقيقة عملى والتثبت من وجودى فى المنزل الا أنه سيدعى طلب الاستفسار عن صحى يوسال من يرانى من قبله ، واذا فالمسألة خطيرة ومهما يكن الأمر فلم تكن أمامى أية وسيلة خلاف هذه الاستعداد عن الامتناع عن صلاة الفجر .

قبل الغروب سمعنى ذلك اليوم جمعت خطمى وبعد أن انقسم اولئك على الاحتفاظ بالسر وعلى علم ذكر ما أقوله لهم لائى شخص آخر أخبرتهم أن شقيق الرجل الذى أحضر لى رسائل وتقودا مالية ومساكن صغيرة من اقربائى عند صبح سنوات قد وصل أخيرا بأشياء أخرى جديدة وبما أنه وصل بدون علم الخليفة فقد اضطرت الى عدم افشاء سر مجيئه للأخير حتى لا تقوم حوله أية شبهة بدون

وجه حق وعلاوة على الكلمات السابقة قلت لخصمي اني اعترفت  
 ذميمة الرجل المذكور في تلك الليلة لانني اعترفت الانضاء اليه  
 بأقوال يذكرها لأقربائي بعد عودته الى مصر وعقابلة قصص النمسا  
 في التطر المصري ، وللأسراع في تنفيذ الرغبة وابتعاد الرجل عن  
 عيون الرقباء فضلت الانضاء اليه بما عندي في أقرب ساعة ممكنة  
 من الليل - وبطبيعة الحال صدق الختم أقوال لأهلهم اعتادوا في  
 السنوات الطويلة التي قضاها بمصر سماع الأقوال والأخبار الصادقة  
 مني ، وعلاوة على ذلك طبع أولئك الختم في الحصول على أشياء من  
 الطرائف التي أحضرها الرجل معه من الخارج - وأذن اضطروا الى  
 الاحتفاظ بما سمعوه وعدم اذاعة سر ذلك الرجل .

في مسيل تنفيذ مشروع الخيط طلبت من خادمي الأيمن  
 ( أحمد ) مقابلتي في صباح اليوم التالي في الطرف الشمالي من  
 أم دومان على مقربة من ميدان فير على أن تكون بهنلي مع هذا الخادم  
 في الوقت المحدد - وددت على ذلك أن نصمم له بعض الاضطراب  
 أو القلق في حالة تأخري عن الميعاد لأن العمل الذي رغبت في  
 اجتازه يقتضي بطبيعة الحال وقتا كبيرا وعلى أية حال ألححت عليه  
 ( أحمد ) بعدم مفارقة مكان المقابلة حتى أسلمه المال الذي آخذه من  
 للرجل العربي الذي - حضر من الخارج وبعد أن يستلمه أحمد  
 يوصله الى منزلي ويأخذ مكافأة على ذلك .

لما الختم الآخرون فقد شددت عليهم في الاحتفاظ بالسر  
 والتزام الصمت الكلي لئلا يصيبني خطر جسيم من جراء المتضاح  
 الأمر المكتوم .

أنهت كلا من خدامي على حدة أنه في حالة استعسار أحد  
 الخدم ( الخادم ) يكون جوابه على الضابط باني  
 قضيت ليلة شاقة جدا اضطرت اذاعها الى مفادرة فراشي ( المؤلف )

لبلا في مصبة خادمي أحمد لسماح نصيحة طيبة من شخص لا يعرف  
أحد مقروء . ولكن الذي يعرفه جميعنا ( الخدم ) هو ذهابه الى  
شخص خبير بالمرض وعلم بوصف الادواء الناجمة .

وعبت بعد كل ذلك التضايل أن أسبك حيلتي وأحسن نميل  
روايتي الخيالية فافهمت خطمي ياني « مضطر للحصول على مقدار  
كبير من المال في صباح اليوم التالي فلا حاجة بي الى قسم كبير  
مما مضي لذلك لرى أن أحسن وأفضل مكان يفرق فيه ما مضي هو  
أيتي خطمي الأمانة » وحقت القول بالعمل فنفقت كلا منهم بعض  
ريالات . وكل ما رعبت اليه من تضليل هو تأجيل الميعاد الذي يلزم  
فيه خبر فرادي . فقد كنت على ثقة من أن سر تقيبي سيعرف لا محالة  
سواء أذكر خطمي حقيقة على أم لم يذكرها ولكني الى جانب ذلك  
عرفت أن تكتم أولئك الخدم سيؤخر انتشار الخبر بضع ساعات  
تساعدني في الاعتماد مسألة جديدة عن المكان الذي فررت منه .  
أما الخدم الذين أكثرت لهم الوعود فلي انتظار المال الجديد الذي  
يوزع عليهم بسطاه ١١

أدعت واختلقت من الأقوال كل ما يستطيع العقل التحايل  
به على كتمان أولئك الخدم السودانيين ولكني وجدت - الى جانب  
ما قلته ورقيته - الحاجة ماسة الى حسابي تدخل الخليفة واستفساره  
عني . فادركت أن الخليفة سيسأل عني فيلتي من خطمي إجابة تدعو  
الى الرية والشك وحينئذ يأمر الخليفة أحد الخدم للبحث عن أحمد  
وهذا البحث يستغرق زمنا بطبيعة الحال ، فإذا ما وصلوا اليه ذكر  
أحمد للخليفة حكاية الشخص المنتظر قدومه لتسليم ما هو خاص  
بي ( المؤلف ) وتلك العملية الجديدة تستغرق وقتا آخر يقببه  
فشل الباحثين . وعندئذ نحسب ينقب عني العسس والجنود  
والضباط بعد أن أكون في الواقع اكتسبت الوقت المساعد للفرار .

بعد أن أدركت ذلك عدت إلى الهام خفي بما ينطقون به  
عند الكليفة في فترات مختلفة •

بعد أن أدت صلاة العصر عدت إلى منزل فجمعت خفي مرة  
أخرى وشهدت عليهم بالاحتفاظ بالسر لهم ثم وعدتهم بالعود  
الكثيرة بما ساقطه لهم من هدايا وأموال وبعد ذلك خرجت من عتبة  
البيت الذي يمكنه أكثر من عشر مئتين وقيل خروجي توصلت إلى  
الله تعالى أن يحفظني في رحلي الشاقة وأن يحييني من حياة الأسرى  
والسودية •

## الفصل الثامن عشر

### فرارى

بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس ادبنا فريضة صلاه  
المساء مع الخليفة فى المسجد الكبير وبعد ذلك عاد ( عبد الله )  
الى منزله فى بيته الخاص ثم مرت ساعة لم يحدث فيها أى تدخل  
من أى جانب فى سير الأمور سيرها العادى وفى نهاية تلك الساعة  
ذهب سينى وولاي الخليفة عبد الله الى فراشه ولم أكد اتق من  
اقدام الخليفة عن حركاته حتى حصلت الفرو النظيفة التى تموت  
استعمالها فى الصلوات الخمس يوميا ثم ارتدت، مطلقا صوليا  
لوقايتى من البرد ثم مرت فى طريق المسجد الى الناحية الشمالية  
من أم درمان - ولكنى سمعت صوتا خفيفا فخشيت وقوف من يعوق  
فرارى الا أنه تبين الصوت بعد ذلك لعرفت أنه صادر من محمد  
الذى عينته الظروف الحسنة واسطة لفرارى .

عند ذلك الصوت وقعت فوجئت الى جانب محمد الهادى  
الصامت حمارا معبدا لوكوى فامتطيت الدابة وأسرعت فى مسيرى  
الخطر فى ذلك الليل اليميم \* ومن أحسن ما أذكره من دلائل  
توفيقى فى هربى الأخير أن الريح الباردة الشمالية اشتدت الى حد  
اضطر معه كل الأحميين الى الاتزواء فى بيوتهم الصغيرة اتقاء خطر  
البرودة القارصة .

سرتنا في طريقنا ( انا ومحمد ) فلم تصادف من الناس احدا حتى وصلنا الى الطرف الآخر من أم درمان وفي قسم من ذلك الطرف وجدنا بيتا صغيرا مغريا قائما على زاوية من الطريق الشمالية ومن تلك الدار الصغيرة خرج رجل عربي ومن وراءه جمل بعد للسفر فلم تكلمه حينئذ الرجل على حتى بادرنى بقوله « سيحيتك ذلك الجمل في رحلتك وسارشدك في الطريق الى مصر » -

قال لي محمد بعد ذلك : « اسم هذا الدليل زكي بلال وميسير معك أولا الى الجمال المحطة لاجتياز الصحراء بالراكبين في بقعة خاصة فاسرع تلقى النجاة واني شخصيا اتمنى لك سفرا سعيدا واسأل لك من الله الوقاية والأمن » ذكر زكي بضحك كلمات للجمل دعته ( الجمل ) الى البروك على الأرض فاعتطى زكي صوته ودعاني الى الجلوس على جزء من السرج وراء مباشرة لعلم بوجود جملين في تلك اللحظة وبعد ساعة من رحلتنا وصلنا الى بقعة اختبأ فيها بعض الجمال تحت الاشجار الصغيرة وعلى أية حال كان كل شيء على استعداد تام وكانت انا شخصيا خاضعا لأي أمر يصدر لي من زكي مرشد في تلك السبيل الخطيرة واذن سمعت كلامه عندما أشار على بركوب جمل خاص .

قلت لزكي قبل متابعة رحلتنا « هل أعطاك محمد اللواء ؟ فاجبت ( زكي ) لم أستلم شيئا . وای لواء تمنى ؟ فاجبته بأن اللواء الذي اعليه هو ما يسمونه اقراص الاثير التي تمكن المسافرين من مطاردة النوم وتمنحه قوة على مواصلة السفر الطويل الشاق .

ضحك زكي بعد ذلك وقال لي « النوم !! النوم لا تفكر في هذا الموضوع فان النوم لا يجد الى عيني سبيلا وان الله من فوقنا رحيم قادر يمكننا من مطاردة النوم دون الاستمالة بدواء انساني » -

لم أجد جواباً على ذلك سوى قولي « لقد أصبت أيها الصديق  
بالصواب وأنا مشترك معك في الدعاء إلى الله بصدق الوعد الأعلى » .

واصلنا السير في طريق شمالية وقد كان من الممكن أن تسرع  
بينا الجبال في طريقنا إلا أن أمرين حالاً دون ذلك هما شدة ما في  
الليل من حلوة وبرودة من ناحية وانتشار أعشاب الجبال وشجر  
الميسوما في طريقنا من الناحية الأخرى . وعلى أية حال لم يقف  
بينا جلالتنا طول الليل وظلمتنا ندعو الله أن يمن علينا بالسلامة  
حتى اشرق نور الصباح البهيج فوجدنا أننا ( أنا و زكي ) عند أول  
وادي بشره حيث يجد المسافرين وادياً صلتنا إلى ما لا يقل عرصة  
عن ثلاثة أميال . وتلك الناحية مزروعة ببذور النخلة من فصل  
القمح حيث يجد أفراد قبيلة الجليليين الساكنون على شاطئ النيل  
رياً كافياً من مطر السماء .

انضم إلينا بعد أن غادرنا طرف أم درمان الشرقي قائد آخر  
صغير السن اسمه حامد بن حسين واذن وصلت إلى وادي بشره  
فتمكنت في ضوء الصباح من مشاهدة زكي بلال فإذا به شاب  
صغير السن مسترسل اللحية وإلى جواره حامد بن حسين وهو  
شاب في مقتبل العمر . عندما وقفت الجمال الثلاثة صياحاً سألت  
الرجلين قائلاً « من أية قبيلة أنتم ؟ » .

فاجابا متضامنين « نحن من جبال جيليف أيها السيد ولكن  
وأننا أن إرادة الله وحدها هي التي تساعدنا على ارتياحك إلينا » .

طال الحديث بيننا نحن الثلاثة بعد أن استأنفت إلى ذيتك  
الرفيعة وانتهر أكبر المرشحين معنا ما لقيه في من صراحة وبساطة

فقال لى : الى اى مدى بعدنا عن اعدائنا وبعدكم من الزمن نصل الى الجهة التى يضل فيها اعداؤنا عن الوصول اليها ؟ » .

اجبته على الفور : سيبحث على رجال الخليفة بعد الانتهاء من صلاة الفجر ولكن تق ائهم سيبحثون أولا بالصك فى فراوى يعقب ذلك البحث عن البصالة التى يركبها الجنود للبحث على وكل ذلك يستلزم وقتا فثق ان لدينا ما لا يقل عن اربع عشرة ساعة . »

فرد على حامد قائلا : ليس هذا بالقى الكثير جدا ، ولكن اذا ساعدنا الله وقوى جبالنا فى سيرها فان لدينا لا ذاك املا قويا فى قطع شوط بعيد آمن . »

اضطرت عندئذ الى القاء السؤال الاخرى على حامد : هل لا تعرف قوة جبالنا على السير وهل لم تختبرها قبلا ؟ فوجلت عندما اجابنى قائلا : انى لى الحق لا اعرف عن تلك البصالة المتلفة شيئا لاننا اشتريناها على عجل فى الوقت الذى سمعنا فيه خبر رغبتك لى الفرار ، ولكن الذى نثق منه هو ان الذى اشترينا منهم الجبال قوم مسودون بامانتهم من ناحية وبمتانة جبالهم من الناحية الاخرى . »

ومهما يكن من شئ فقد تابعتا فرارنا باسرع ما نستطيع وقد عدونا بالبصالة عدوا لا تتصور فى الارض سرعة لحيوان كذلك التوجه قامت بها جبالنا الامينة ، على انا لى الحق اشفقنا على تلك المخلوقات غير الناطقة لما انتابها من شدة وتعب وما خفف الامر اتبساطه الارض وسهولة تربتها رغم ما تطلها من اقوام وحفر وبعض التلال الحجرية الصغيرة ويمكننى التصريح دون مبالغة انا والينا العدو دون وقوف الى ظهر يومنا ذاك حيث نادانى مرشدى فجاء قائلا :



« قلب حالا ! ولديرك جمالنا في تلك اللحظة ولكن سرين في عملنا هنا » .

خضعت للأمر فوقنا وبركت الجبال . إلا أنني دعشت جفا وتولاني الفزع لوقوف الجبال في حين أنني أشاهد الجمال وجوادي في مسافة بعيدة ولم أكن أشك في أن الأعداء قادمون للانتفاض على وعلى المرشدين اللذين معي . فاعدت مسلي « من طراز متجوز » للنفاع عن نفسي وعن معي وقت الهجوم وعند ذلك قلت لمن معي « إذا كنا الآن مكتشفين أمام عيون أعدائنا فلنسر في مطاردة الهرب بهوء ونظام لأن بورك جمالنا ووقوفنا متجاورين بما يبعث الشكوك والريب إلى أولئك الجنود الذين يتبعوننا ونحن نلبي أية طريق هم سائرون ؟ » .

أجابني حامد بن حسنة « انك على حق في كل ما تقول فما الطريق التي يسرون فيها فهي الشمالية الغربية » .

تيقظنا بعد ذلك من غفلتنا وغيرنا طريق سيرنا فجعلناها الشمالية الشرقية وكنا مطمئنين كثيرا وواقفين بأنا سرنا غير منظورين من أولئك المراقبين . ولكننا فزعنا جدا عندما شاهدنا على بعد ألفي متر تقريبا أحد الجنود التابعين للخليفة مسرعا امتطاء جواده ومتجها إلى ناحيةنا .

قلت لحامد بعد ذلك « أخبرك يا حامد بأني مسير جنباً مع ذكي فهل تستطيع إيقاف ذلك الرجل الكأدم أينما واجبه عما يلة من أسئلة ؟ وعلى أية حال فاطلب منك أن تمنحه » .

لم يكده يصل حامد أينما حتى قال بصوت مرتفع « اشكر فضله شكراً جزيلاً على نجاتك فان الرجل الذي كان يتعقبنا صدوق

خاص لي اسمه الشيخ موزال وقد كان سائرا في طريقه الى دقلية  
ليحضر كميات من البلح الى أم درمان وقد استفسر مني الرجل  
عن سبب مراقبتي للرجل المصري الأبيض صاحب العينين الغميصيتين  
بصني الصقر ؟

عندما انتهت حامد من كلامه أجبتني ( المؤلف ) على الفور  
« ماذا كان جوابك على سؤال ذلك الشيخ ؟ »

فقال حامد بأنه طلب من ذلك الشيخ بصفته صديقا متعلما  
له أن يحتفظ بالسر واعطاء في سبيل ذلك عشرين دينارا من عمله  
ماريه تريزه . ثم أردف ذلك بقوله في « نحن العرب فيأثرون كثيرا  
الى اقتناء المال فلم يكده يحصل مني صديقي على ذلك المبلغ حتى  
أقسم لي قسما غليظا بأنه لن يقضى مرنا بحاله من الاسوال وأنه  
سيمسك لسانه عن الكلام في حالة التقاء متعقبينسا به » أما هو  
ما يخص برفاق صاحب الشيخ فمن العبادة بدرجة لا يميزون  
معا بين الأبيض والأسود ولا يرقون الفرق بين العربي السوداني  
والأودي الأبيض ما دام المطلوب تمييزهم عنصري الوجوه - هنا  
الى أن الولوف مع أولئك مكن ذكرى ومكنني ( المؤلف ) من قطع  
مسافة بعيدة عن الأنظار .

عندما غربت الشمس تجاوزنا تلال هويجي ثم نزلنا عن  
جبالنا للاستراحة في الغلة . وبقينا هناك نحوا من ساعة وتلك  
الناحية التي عسكرنا فيها تبعد مسير يوم غربى شاطيء النيل ولم  
تكن في راحتنا الصغرة ترمي الى راحة أجسامنا بل كنا أولا وآخرنا  
نقصه استراحة جبالنا صاحبة الفضل في حملنا الى حيث نتصع  
بالحرية \* وأظن أنه لم يكن ميسورا لنا الاستمرار في العدو بعد  
أن والينا إحدى وعشرين ساعة دون انقطاع منذ غادونا طرف

أم دومان الشصاني • ولم نأكل طوله يوما وكل ما تمكنا من تغذية  
أنجسامنا به هو قليل من الماء لكل من الثلاثة العاديين •

في تلك الساعة التي ارتحنا فيها وأرحنا جمالنا كتبنا شديدي  
التعب ولكننا على الرغم من ذلك أكلنا بلقة وشوية مفتوحة مقدارا  
من العيش القفار وكمية من البلع •

بعد أن أكلنا قال لي مرشدي حامد • لنقسم الأكل لجمالنا  
وبعد ذلك توالى السير السريع لما ألت غاظتك في أحد حبال  
التعب • •

أجيت به بسرعة • • لبيت أشعر يقى من ذلك التعب الذي تمبته  
لأننا في أوروبا بعد الوقت من ذهب لما كنا في صغرى تعبنا ذلك  
فاني أزيد عليه في حالتي هذه بأن الوقت حياة كاملة فلتتبع جد  
في عملنا • •

تولانا الجوع عندما رفض كل من الجمال الثلاثة تناول شيء  
من الأكل • لأننا قلنا في الحال أن الجمال لن تستطيع السير وأن  
المالح لها من الأكل هو شدة ما انتابها من تعب الاجهاد في العدو  
وعلى أية حال عملنا في تلك اللحظة بعد أخذ مشورة حامد إلى إيقاد  
نار قليلة الكمية فوق مقدار كبير من الخشب المحروق وصبينا على  
الخشب والنار جزءا من الراتنج •

بعد الانتهاء من تلك العملية وضع حامد الخشب والنار فوق  
قطعة خشبية مستطيلة ومر بها حول الجمال ذكرا بعض كلمات  
لم أفهم منها شيئا •

تصاقلت عندئذ بقىء من اللحفسة ماذا تصنع يا سامع  
 قاجابنى ء انى أخشى جدا أن يكون فقهاء وقضاة الخليفة عبد الله  
 قد رفقوا جالنا بما يعرفل سبرنا وينجح مقاصد الخليفة ء وهذا  
 الخوف ينفعلنى الى استبصال الترياق العربى الذى يفسد سم  
 الجاسدين ء

لما ذلك القول فلم يجد مكانا فى خاطرى بالطبع وكل ما أجبت  
 به عليه هو ء انى أخشى أن تكون الجمال من الفئة الثانية فى  
 السوق ء وأخشى الى جانب ذلك أن تكون قد تعبت ويتبلى أن يتروك  
 قسط آخر من الراحة لها عسى أن تتقوى وتنهض بهذه ذلك ء

انتظرنا نصف ساعة فى مكاننا ظنا بأن الجمال ستاكل يجد  
 ذلك ء ولكنها امتنعت عن تناول أى طعام لمضمينا ضياع الوقت  
 وليكن أعدائنا من الوصول إلنا فاضطرونا الى اعداد جمالنا للركوبه  
 وبالفعل قمنا على ظهور جمالنا لحواصلة العدو ء أما الجمال فامتنعت  
 عن الجرى وكل ما سمحت لنا به هو سير عادى جدا فالتزمنا مطاوعة  
 الجمال فى رغبتهما فى سيرنا البطىء هذا حتى وجدنا أنفسنا وقت  
 شروق الشمس عند الأرض المرتفعة شمال غربى حتمه ء

شعرنا عندئذ بضعف الجمال وتضاؤل قوتها فولد ذلك فى  
 نفوسنا جزعا مستعرا وأصبح من المؤكد لدينا أن الجمال لن تستطيع  
 الوصول الى المكان الذى نريد للانتهاء إليه ء - وهذا المكان هو  
 الواقع على مسير يوم شمالى بربر فى طرف الصحراء - حيث اقتضى  
 الاتفاق السابق تغيير الجمال ء

عندما أقبل الظهر أرحنا جمالنا فى ظل شجرة باسقة واتفقنا  
 على السير الى ناحية جيليف - الواقعة على مسير ما يقرب من يوم  
 فى الطريق الشمالية الغربية - حيث أطل مستحبنا فى التلال غير

المسكونة وغير المطروقة حتى يتمكن مرشدناى ذكره وحامده من أحضان  
جمال سالحة لاكمال الرحلة .

عند غروب الشمس كانت الجمال سالحة للسفر السريع بما  
أن أدتاحت فسطا واغرا من الزمن فركبنا الجبال ذاتها ووصلنا فجر  
اليوم التالى الى سفح جبل جيف حيث لا مراكب من بنى آدم على  
الاطلاق .

شكرنا الله فضله عندما بلغنا تلك البقعة ثم نزلنا عن جمالنا  
وسبقناها امامنا فى رحلة شاقة مرنا فيها على الاقدام ما يقرب من  
ثلاث ساعات فى وادى لا تتخلله غير الصخور المربعة المنظر .

ينتسب مرشدناى ذكرى بن بلال وحامده بن حسين الى قبيلة  
كيايشى ، لجبل جيليف معروف لديهما حيث ولغا الى جواره فهما  
اذن على معرفة تامة بكل ممر فى ذلك الجبل فاستحسن رفيقناى  
فى تلك البقعة خلع السروج عن الجبال ووضعها على صخرة بجانبنا .

قال فى حامده بن حسين عندما بلغ ثلاثتنا حله الصخرة : لقد  
وصلنا الى وطننا ولا ريب فى أن الوطن يحصى ابنه الذى يلوذ به  
فاحسبنا أيها الضيف وكن واقفا أنه لن يصيبك أى أذى ما دمت فى  
أرضنا . فاسترح هادئا ولازم تلك البقعة حيث لا يشاهدك متعقب  
فوق مراقب خارجى . وما هى على بعد ثقل من مائة متر عين الله  
الشهيرة المتفجرة بين الصخور فسادهم اليها بالجبال لأسقيها منها  
وسيحضر لك ذكرى قرية صغيرة معلومة من ماء تلك العين وفوق ذلك  
ساخى الجبال فى مكان أمين بحيث لن يستطيع الجن ذاته الوصول  
الىنا والى جمالنا والآن فلتنتظر هنا حتى انتهى من التفكير فيما  
صفتبه بعد ذلك .

بقيت وحدي ولا أكنم الثأري حليفة اضطرابي ووجلي فهو ذلك  
 القفر الموحش وعلى أية حال استسلمت الى التقادير ودعوت الله أن  
 يخلصني فكثرت في السمر السريع الى الحدود المصرية واخلفت افكر  
 وتنساوري الهواجس من كل ناحية وبقيت على تلك الحال ساعتين  
 كالمثني جاء بعد انتهائهما صديقي زكي بن بلال حاملا قربة الماء على  
 كتفه ولم يكذ يصل الى في وحشني حتى ناداني قائلا :

« ذق طعم ماء وطني العزيز نليا خالصا حيثما للشاربين ولتثق  
 أيها الضيف العزيز أن وطني الذي حملك سالما سيودعك سالما حتى  
 تصل الى الأرض الأمانة حرا ، وذلك أن كل شيء سيجري في أحسن  
 صورة بحون الله ولطفه وأن النهاية مستبعدة جميع ما حاق بك من  
 الآلام ومصائب لا في تلك الرحلة فمصعب بل في السنوات الماضية  
 الطوال التي قضيتها أسيرا في أم درمان » .

شربت مقلوبا قليلا من الماء فوجدته شغيا جدا مصباحا لقول  
 زكي الذي أعجبتني منه حبه الشديد لوطنه رغم ما هو الوطن فيه  
 من فقر ووحشة على النازحين اليه .

قلت لزكي « اني واثق من الفوز ولكنني أخشى التأخير »  
 فأجابني على الفور « مصلحتي » كل شيء بإرادة الله وعسى أن ييسر  
 الله لنا الخير في هذا التأخير واذا فلننتظر حامد بن حسين ساجدين  
 واثقين في لطف الله .

وصل اليانا حامد بعد مرور بضع دقائق على ظهر اليوم المذكور  
 وبعد مجيئه تناولنا نحن الثلاثة حامد وزكي وأنا طعامنا البسيط  
 العادي المكون من الخبز والعمر ويتنا تناول طعامنا استصوب  
 زكي ركوب جملته والوصول الى الأصدقاء الواقفين على سر نجاتي

على أن تستغرق تلك الرحلة يومين متوالين يتمكن زكى بواسطتها  
من الحصول على جمال جديد .

قال لى زكى قبل رحيله ساركب الجميل يفسدون لأنه أقوى  
الجمال الثلاثة ، ولم يصب بعد بالكلال الذى يحول دون مواصلة  
الرحلة الجديدة . وما نحن فى مساء السبت فساو اصل رحلتى  
طول الليل وسحابة يوم الأحد حتى اذا أحياني الله الى صباح يوم  
الاثنين وصلت الى البقعة التى انقضت مع اصديقاتى على الالتقاء فيها .  
وقد اضطر الى البقاء هناك يوما أو يومين فى حالة عدم وجود جمال  
مستعدة لمواصلة الفرار وعلى أية حال - ما لم يعقني مانع قهرى  
جدا - سارجع الى مكنتى هذا - الذى أنا فيه الآن - يوم الخميس  
أو يوم الجمعة على أكثر تقدير .

أجبت صاحبى زكى بن يلال قائلا لرى الخير فى تأجيل المواعيد  
أفد كورة وتأكد أنا فى انتظارك هنا لغاية يوم السبت ، لما اذا وصلت  
ألينا قبل ذلك فلا مانع وعلينا أن نضاعف الشكر له فى تلك الحال  
ولكن الشيء الوحيد الذى نرغب دائما فى أن تذكره هو أن مصيرنا  
بين يديك بعد إذن الله فلا تهمل فى شيء على الإطلاق ، وأطلب اليك  
الى جانب ذلك أن تكون حذرا أشد الحذر فى اختيار الجمال بحيث  
تكتفى أجودها وأقدرها على مواصلة السير حتى لا يصيبنا فى المرة  
الجديدة ما أصابنا فى سابقتها .

وشرح زكى يده فى يدي بعد سماع أقوالى وودعنى قائلا  
« ثقل فى حملنا الحصن ثم اعتمد على نيتى الحصنة واخلاصى  
القلبيد » .

فاجته شاكرا وقلت له : الله وحده قادر على أن يحييك ويرجعك إلينا عاجلا في سلم وعافية ، ٠ وضع زكي بمعدته قليلا من التمر في قطعة من القماش ليأكل وقت جوعه أثناء رحلته الصغيرة ثم حمل سرج الجمل على ظهره ثم وصف له حامد المكان الذي اختبأ فيه الجمل يقمارن الذي استعان به صاحبنا زكي في سيره وقبل عموه شاند علينا في أن نضلل أفكار الناس - إذا وجدنا أناس في ذلك القفر - عنه وما هي الا دقائق حتى احتفى زكي عن انظارنا ٠ ثم عمدنا بعد ذلك الى ابعاد الأحجار الصغيرة عن الأرض التي قررنا قضاء ليلتنا نأتمن عليها حامد وأنا وقد وقفنا في عملنا هذا توفيقا عظيما ٠

بقينا حامد وأنا صامتين فترة طويلة شغل فيها كل منا بالنظر الى الطبيعة والتفكير فيما راق له أن يفكر فيه وبينما أجول ببصري في ذلك القفر الواسع قال لي حامد : عندي اقتراح أود عرضه عليك ويتلخص ذلك الاقتراح في أن لي قريبا اسمه ابراهيم باشا له النفوذ الكلي على منطقتنا الجبلية هذه بصلته شيخها ولهذا الشيخ منزل في سفح التل على مسافة أربع ساعات من مكاننا الذي نحن فيه الآن ، ولئن كنا الى الآن محجوبين عن أنظار الأعمى فمن الخير أن نعلم شيخنا ابراهيم بوجودنا حتى يكون على بينة ويدل إلينا بما يراه ملائما لنا في عزلتنا هذه ، وسأذكر له موقفنا بالضبط بدون ذكر اسمك ، وهو مضطر اديبا على الأقل - بما لي عليه من حق النسب - أن يؤويني ويهد لي ولك مكانا آمنا وينصح لنا بالمخادرة في الوقت المناسب وذلك في حالة تمكن دارس الأمر ومعقبه من اقتفاء خطواتنا عند سفح التل - وهذا بعيد جدا - فإذا وفقت على رأيي فاني أسعد إليه في جنح الليل حتى أراه وأنا في لمن من عيون المراقبين ، وبعد مقابلته أرجع اليك قبل صباح اليوم التالي ، لا أكتب القارئ حليقة ما جال في خاطري من سرور يداخله شيء من الخوف وعلى أية حال أجبه بالموافقة لئلا له وإن المشروع حسن ويحسن



بك ان تحمل عليك عشرين ريال تقسمها حذية لصاحب المنزل  
ولا يزيدك توصية في الامتناع عن ذكر ذلك لئلا كائنا من كان . \*

تركني حامد عند غروب الشمس فبقيت وحدي هذا للأفكار  
المتضاربة والهواجس المختلفة فتذكرت افراد أسرتي وأصدقائي  
الصديقيين « في أوروبا ومصر » وذكرت يصلة خاصة أصدقائي  
الحرب والسودانيين الذين لم يعد اختلافهم في الجنسية والدين  
دون اعترافي لهم بالشكر الخاص وتقديرى ما قدموا به في سبيل  
راحتي ونجاتي وانى لن انسى جهاد اولئك الاصدقاء الذين لم  
يوجههم رجوعهم بعد نجاتي الى حيث يقاضيهام اعدائي ويحاسبونهم  
حسابا عسيرا . تذكرت في عزلي القصيرة هذه أعز من لي في  
الدنيا واقصد بهم شقيقاتي وأصدقائي المغربين وكنت أسأل الله  
في كل لحظة أن يمن علي بنعمة العودة الى وطني العزيز ومازلت على  
حالي هذه حتى غلب على النوم فالتقيت بجسمي الضعيف على الأرض  
القربة ولم أستيقظ من نومي اللذيذ - رغم خشونة الأرض التي  
لمت عليها - الا قبل الفجر وبعد قليل من صحوي سمعت صوت  
قمتين فتأكدت أن مرشدني حامد هو القادم وبالفعل وصل حامد  
وقال لي « تسير الأمور في أحسن أحوالها فان نسيجي الشيخ  
ابراهيم يرحب بضيفه الذي لا يعرفه ويسأل له الوقاية وعون الله  
فلتتدرج أيها الصديق بالصبر لأن هذا كل ما تملكه الآن ولعله  
خير ما يملك الانسان في محنته » \*

جلس حامد بعد عودته من منزل الشيخ ابراهيم على حجرين  
كبيرين قائمى اللون بحيث أصبح من المسير إيجاد فارق في اللون  
بين بشرته والصخر الذي يحمله . لما غرض حامد الأساس من  
جلسته هذه فهو مراقبة الناس بطريقة تبعد انظارهم عنه .

بقى حامد في مكانه هذا وأما أنا فجلست على الأرض الى  
جواره مستظلا بشجرة ممثلة القروع تصادف وجودها بين الصخر

السوداء ولم يكن لنا حدث في تلك الفترة سوى ماضي وحاضر البلاد الصحراوية التي ظلمتنا وقد سمي حامد جهده في شرح حالة وطنه الذي كان يذكره بالاعجاب ويصف عليه عطف المخلص للأرض التي ولد فيها .

بعد أن مر وقت الظهر بساعات قليلة سمعت من الخلف وقع أقدام قادت وجهي إلى ناحية الصوت قرايت على بعد مائة وخمسين ياردة وجلا يتسلق المنحدر المقابل لمكان جلوسنا عاملا على وضع فروة مستطيلة في يده على جزء من ذلك المنحدر وفي الوقت نفسه شاهده وهو يضع عصاه على رأسه وقد أدركت في الحال - بعد اليقين من الجهة التي كان قادما منها - أنه يقصد الوصول إلينا من ناحية وأنه رأانا من الناحية الأخرى .

كنت في حالة اضطراب فبادرت حامد بقوله : مهما يكن الأمر فإن القادم أحد أبناء وطني فقد سمعت صوته ووقع نظري على سمعته وعلى أية حال فانه أفضل التقدم إليه والتكلم معه قبل التواصل على رأيي هذا ؟ فاجبته : لا ريب في أنني معضلك في كل ما تراه ملائما لنا في تلك الحال فأسرع لمقابته وإذا اقتضى الحال تقديم شيء من المال لا تتأخر عن ذلك .

ترك رفيقي حامد مقعده الصخري وسار إلى الرجل ينطلي مرسية ملاحظة ثم وصل إلى قمة التل واختفى عن بصري ولم تمر بعد ذلك بضخ دقائق حتى تساعدهما كليهما ( حامد والرجل الآخر ) قادمين إلى مكاني بشجرين باسمين وقيل أن يصل حامد إلى قال بأعلى صوته وهو في حالة بفر واعتباط : أنا موافقان سعيكما الحظ فالرجل واحد من أنسبائي الأحرار لأن والدته ابنة خالة والدتي .

اقبل الرجل نحوى وقدم يده للسلام على فصاحته منتظلا  
ثم قال لي عندما جلس على الحجر المجاور لكالى « السلام عليكم ايها  
الصديق ولتكن والفا انك لن تصاب باذى من ناحيتي » .

اعطيت هذا الصديق السودانى الجديد كمية من البلع  
وطلبت منه فى رفق وأتب أن يفوق هذا الطعام البسيط الذي  
اعانتنا على الجوع فى رحلتنا المتعبة ثم سالته بعد ذلك عن اسمه  
فاجابنى قائلا « يدعونى الناس على واد فيض وأظن أنه من الوفاء  
لك أن أخبرك الحق » .

أسرعت بعد ذلك فى استيضاح الحقيقة فأجابنى بمنتهى  
الصراحة « لم أكن متجها الى الخير فى تصرفى معك ولولا الالتقاء  
بقريبي لكان الشىء لاحقا بك لا محالة وتفصيل ذلك انى غبرت الأرض  
التي كانت ترعى فيها ماشيتى فوصلت منذ أيام قلائل الى سفح  
الجلال الذي تراها الآن منحدرة الى الجنوب وبعد ذلك اتجهت الى  
الشمقوق القائمة بين الصخور عساني أجده ماء وغيرا نقيا أشرب منه  
كما تتروى منه جبال وبقية ماشيتى لأن الماء الذى كان لدينا قبل  
ذلك غير كاف لمن يبيع الأسماك والشهور مع عدد قليل من  
الفاشية » ولم أكنه أصل الى تلك الشقوق حتى شاعنت آثار خطوات  
جبل فتمقتب الأثر وبعد مسافة مئات من الياردات وجدت آثار  
قضى رجل أبيض مبتدئة من مكان بعيد عن الأنظار فتحقت أن  
رجلا غربيا دخل تلك الأرض واختبأ بين صخورها وغبة فى الفراغ  
دون شعور المراقبين بمروره فملت أدراجى مصمما على العودة ليلا  
ومضى بعض رفاقى لنسهل عليك رحلتك الباقية بالانقباض على  
وارحتك من الدنيا وما فيها من تعب ومشقة فالجهد قد الذى حال  
دون اتمام عملى الاجر لى حيث أرسل الى ابن خالتي - حامد الذى  
أقمنى الأمر كله فى وضوح النهار وأكرر الشكر لله لاني لقيته فى

الصباح لمؤ أن ذلك كان ليلا لما عرفت حامدا ولانتهى الأمر هو  
انتهاه .

انصت حامد لكل ما قاله ابن خالته باهتمام ومكون وبعد  
الانتهاء قال حامد : سأخبرك يا علي واد فيض قصة صغيرة فالصمت !  
كان والدي منذ سنوات طويلة وقت أن كنت شابا صغير السن  
وأيام حكم الإنثارك لهذه الجبال - شيخ المنطقة التي نحن فيها وكان  
المحكّمون اليه من الرعايا كثيرى العدد . وفى ليلة من ليالى ذلك  
المهد وصل الى بيت أبى وجل حارب طلب منه الأمان وقد كان هذا  
الرجل مطارفا من جنود الحكومة لأنه اتهم بالصوصية والاعتداء  
على حياة بعض التجار فتمكنت الحكومة من أسر زوجاته ، أما هو  
فوجد عضدا قويا وتصيرا أميناً حيث أطلقه أبى واحتفظ بالسرا .

مرت بعد ذلك الطائى سنوات انتقل فيها خلالها والدي الى  
منطقة بربر فتمكن بعد دفع المال وتقديم ضمانات متنوعة من  
اصدار العفو عن هذا الرجل المطارد الذى لم يستطع متهووه ايجاد  
جريمة معينة يحاكم بمقتضى ارتكابها ولم يكتف والدي بذلك بل  
ذهب الى الجهات المختصة وقدم نفسه كفالة عن زوجات ذلك الرجل  
وبذلك حصل على أمر نان باطلاق سراح زوجاته بعد أن قاسى في  
السجن الكثير من الآلام والأتعاب وبعد كل ذلك بسرنى أن أخبرك  
بأن الرجل المذكور اسمه فيض .

بينما يتابع حامد أقواله قاطمه على واد فيض قائلا : وأضيف  
الى أقوالك بأن الرجل المذكور هو أبى الذى ولدنى وربانى ، ثم  
تغيرت ملامح وجهه واستمر فى قوله : ولدت فى زمن متأخر  
وسمعت هذه القصة يا حامد من والدى العزيزة قبل موتها وارا  
ذكر تلك الواقعة الطيبة أطلب من الله الرحمة ليا . وبعد وفاة

والدتي قال لي شقيقتي الأكبر أن خير ما أعمله في الحياة هو القيام  
بالجميل نحو ابن الرجل الذي أدى جسيلا لوالدي وأذن فأنا مدين  
لك بالسكر يا حامد حتى توفي ما على أبي نحو أهلك فثق أنني حاميك  
وحامى من معك بنظر النظر عما تفومان به من خير أو شر لأنى أذكر  
شبيثا واحدا هو أنني مدين لك بالجميل فاثبتنى حتى أرسدك الى  
أحسن مكان أمين تقتبى فيه مع صديقك الأيضى .

رجعنا بعد ذلك جنوبا الى ناحية التلول مسافة لا نقل عن  
التي يارحة ثم اتجهنا الى بقعة شبيهة بالكهف تتخللها الواح صخرية  
تجيب من ورائها عن الأنظار ولا ريب أن البقعة المذكورة كافية  
لاختفاء اثنين باليمن من ضخامة الجسم ما بلغنا .

أخذ على وأد فيض يسدى إلينا تصالحه وتلميحاته بعد ذلك  
فقال : « علمنا يحين المساء احضرا امتعتكما الى هذا المكان بالرغم  
من علم وجود ما يدعو الى الخوف في أية ناحية مجاورة لأن التلول  
التي امامنا بعيدة عن أقدام الأدميين الا أن الخطر الشديد يهوجنا  
هناجا يجب الليل أن تخافوا بقعة آمنة هادئة مساء لتقضي ليلتكما  
عليها بعيدين حتى عن رقابة الجن وقد كدعولى امانتى الشديدة لكما  
الى القول بان من المستحيل أن تكونا واتقن الثقة كلها في أن  
بعض الأنظار لم تقع عليكم وأن بعض الناس ما اعتزموا ما كنت  
معتزما تنفيذه قبل ملاقات حامد وأعنى بذلك أنتهاز فرصة ظلام  
الليل للاقتضاض عليكم » .

بعد أن انتهى على من قوله الصادر عن الخلاص شديد قال  
: « لقد أطلقت في حديثي وقصيت وقتا طويلا بعيدا عن مكاني  
فما اضطر الى العودة لتسقط الأخبار واستماع ما قد يدور حولكما  
من نبا على أن أهود اليكما غدا في ساعة من ساعات الليل المظلمة

وستعرفاننى بصوت خفيف يشبه الصفيح قالى الوداع حتى ألقاها  
فى خير غدا .

أصغيتنا الى نصيحة على واد فبضى فاخترنا مكانا للنوم وفى  
فجر اليوم التالى قبل شروق الشمس عدنا الى كهفنا ثم صعد حامد  
ابن حنين قبل الظهر الى قمة أحد التلّول لمراقبة الناس وكان عمله  
هذا شبيها بالضابط الذى يقف فى أعلى القلعة لمساعدة طلائع  
العدو . ظل حامد ساعات فى مكانه هذا ولم يأت الى المفارة  
إلا عندما أحس بالجوع الشديد وقد قدر لنا أن ينتهى ما معنا من  
خبز فى ذلك اليوم فلم يبق فى جرابنا سوى مقدار من البلح .

بعد أن غرقت الشمس بساعتين سمعنا صوتا خفيفا يشبه  
بالصفيح فتأكدنا أن صاحب الصوت هو على واد فبضى وقد تحقق  
هنا لحسن الحظ حيث وفى صاحبنا بوعده ووصل إلينا فى الميعاد  
المضروب من قبل . ولم يكن على وليا فى وعده فحسب بل كريما  
أيضا حيث أحضر لنا فى عزلة هذه كمية كبيرة من اللبن فى ثربة  
من جلد الغزال ( اعتاد العرب السودانيون دبح جلود الغزالان  
الصغيرة واعتمادها أوالى اللبن ) وإلى جانب ذلك مقدار من الخبز  
المصنوع من اللّرة .

قال لنا على عندما وصل إلينا وبعد أن سلم علينا : قلت  
لزوجتى انى خارج لمائة ركب الحبيج السائر الى أم درمان لزيارة  
قبر المهدي ولّى الرغبة فى اظهار شيء من الكرم العربى لأولئك  
المسافرين فى رحلتهم الشاقة وفى الحق لم يمنعنى عن ذكر  
الحقيقة لها إلا خوفى من انتقاد الخبير لأن امرأتى ثرثرة .

ابتسمت فى وجه على وقلت له : « يظهر أن الأمر واحد فى  
جميع البلاد فإن الكثيرين من الرجال فى بلادنا الأودية يشكون

من نقل الحديث بواسطة زوجاتهم « فارتاح كل من حامد وعمل الى قولى هذا وبعد الانتهاء قال على « جيت الولدى الضيق وسرت الى مجالس الكثيرين من المشايخ ليلة الالمس وصبح اليوم فلم أسمع ما يخيفكم فكلا واشربا مرتاحين سرورين لاني على ثقة تامة في حطكما الحسن » .

قبل اكل الخبز الشبيه بالكحك وحرب اللبن فلعنا الشكر الجم لعل ازاا هديته الثمينة لم طلبت منه بعد ذلك ان يرجع الى بيته حتى لا يثير الريب والشكوك في نفوس أبناء عسيرته بعد تقيبه الطويل عنهم ، ثم أسرت الى حامد ان يمنح عليا خمسة ريالات قبل رجوعه الى بيته .

عندما استأذن صاحبنا على في الانصراف قلت له « نود ان نراك دائما ايها المخلص الوفي ولكن الخير في ان ترتاح في بيتك وان تبتمد عما يتير اي شك لان ذهابك واياك يتيران الزبية بين رجال قبيلتك وقد تترك خطواتك اثرا بارزا على الرمال يستطيع بواسطته متعقبونا ان يهتفروا الى مكان اختيائنا هذا ، ولا نطلب منك العوجة الا في حالة سماع أخبار غير سارة تستدعي هروبنا الى مكان جديد ، واذن فالوداع من آخ يشكر لك جزيلا ما قسمته له من ولاء واخلاص » .

سار حامد بن حسين بعد ذلك مع صديقه على واد فيض بضع دقائق وبعد رجوعه قال لي « رفض على قبول الريالات الخمسة رفضا باتا ولم أستطع التعليل عليه واقناعه بقبول الهدية البسيطة الا بعد ان أكدت له بان رفض المبلغ يكسر خاطرك - المؤلف - » .

بعد ان سافر على الى بيته وعاد حامد الى الكهف قضينا ( حامد وأنا ) فترة صغيرة في الكلام ثم سرنا الى مكان النوم الهادي

حيث قضينا ليلتنا الى صباح اليوم التالي دون أن يعكر صفو النائم قلق لمر اضطراب ، وعند اشراق الشمس علت الى الكهف وسار حامد الى قمة التل لمراقبة الناس كما عمل في اليوم السابق ، ومما أذكره عن ذلك اليوم أنه مر ساكننا دون وقوع أي حادث مزعج ولكنني أذكر الى جانب ذلك أنه كان طويلا علينا حتى خيل لنا أن ساعاته أطول من الساعات اليومية العادية . فكانت كل ساعة من ساعاته يوما كاملا حيث مرت الأفكار المتعاقبة وأخذت أذكر سني الأسر وحوادث المسف والاضطهاد وفي الحق كنت صبوراً جداً على ذلك المصنوع ومسواه أصبرت أم لم أصبر فلم يكن أمامي ما يعزيني في تكبتي وما يفرج عني بليتي سوى اعتقادي الراسخ في لطف الله وفضله وثقفي في قرب تمتعي بحرية دائمة صحيحة هي تلك التي خلق الناس ليتمتعوا بها في الحياة .

لبل انتهاء كمية الماء التي في قربنا ذهب حامد الى الشقوق القائمة بين الصخور المجاورة ليملا القرية وفي الوقت نفسه فكر في احضار الماء للجبلين اللذين أتهكهما التعب من قبل والأكل الرديء إلا أنهما لم يجئنا من الطعام سوى أوراق الاشجار والاجمات . قال لي حامد قبل ذهابه للشقوق : سأرجع بعد أربع ساعات تقريبا فالتزم السكون والهدوء في مكانك وإذا ظهر في مدة غيابي القصيرة أي مخلوق آدمي - وأسأل الله ألا يظهر في تلك الفترة أحد - فأخبره أن حامد والد شيخ حسين قادم بعد قليل من الزمن لأن الشخص الذي ينفي يظهر سيكون من أبناء وطني بلا جدال فإن الشخص الغريب يخشى المجيء الى ناحيتنا ومهما يكن الأمر فلا تخطئ مع الشخص . الذي يظهر لك - في الحديث وأول ما أحضرك منه هو صفك القهقري فلا ترق دم أحد مهما ارتببت فيه وانتظر حتى أعود اليك .

أجبتني على الفور : سأفقد نصيحتك مهما تكن الحال وعلى أي حال فانا واثق أنك ستجديني في هدوء وأمن عندما ترجع الى .



بعد ان شاب حامد عنى بضع ساعات عاد وقربته مملوءة بالماء  
ثم قال لى « لقد سررتى وجود الجمال فى حالة احسن بكثير من الحالة  
التي كانت عليها وقت وصولنا الى ناصيتنا وعلى الاقل هي فى راحة  
كافية » وبعد ذلك اظهر لى أنه فى جوع شديد ولم يكتف حاله حيث  
قال لى « أعطيت كمية من البلع لائى جوعان وساخضرت الى العودة  
لكمة التل لمراقبة الناس » .

مر ما تبقى من يومنا فى هدوء وامن ولكنه كان بطيئا علينا  
كيومنا السابق وعندما جن الليل سحب كل منا شخصه الى مكان  
النوم وبعد ان تحدثنا بصوت خافت جدا بعد ان دعونا الله ان يبقى  
لنا نعمة الصبر نام كل منا ملء جفنيه حتى صباح اليوم التالى .

ذهب حامد صباح الخميس الى مكان المراقبة المحروق وقبيل  
الظهر تمناحه نازلا بسرعة من قمة التل فأسرعت الى تجهيز  
بنطائيتى .

قبل وصوله الى سألته عن الخبر فاجابنى « انى اشاهد رجلا  
متجها بسرعة الى مكاننا الاول الذى كنا فيه قبل مجئى على واد فيض  
فلا بد ان يكون هناك شئ مهم فانتظر فى مكانك لائى سأذهب للاقاة  
ذلك الرجل هل ان أراجع اليك بعد ذلك » .

جلست فى مكانى وانتظرت مدة خيل الى - رغم قصرها - أنها  
الابد الطويل ثم رفعت بصرى بحذر فاذا بى اشاهد رجلين من مسافة  
يسيرة قاصدين مكانى . وقد تكلمت عينائى من تقرير ان القادمين  
هما حامد بن حسين وزكى ابن بلال . فخرجت من مغارتي وحينئذ  
أسرع زكى قائلا بأعلى صوته « السلام عليكم يا مسينى فابتهج  
بالا لآنك مستسمح ما يرشيك ويسرك » وبعد ان سلم على يدا به

قال : حضرت ومعى جيلان جديدان كاملا القوة وقد خيأتها فى مكان  
امن مجاور لبلعتنا هذه وسارجع الآن لاجسادهما .

لم تطف ساعة حتى احضر زكى الجميلين . فقلت له بسرود  
كلى : انك سريع جدا فى عملك العظيم فاجبرنى لعمرك منذ  
هادرنا ؟

اجابنى زكى : هادرتك مساء السبت انقائت فركبت جمل طول  
الليل وسحابة اليوم التالى - الأحد - وقد كان جمل بشان موغقا  
فى سيرة الريح وعم وعورة الأرض وفى صباح الاثنين وصلت الى  
اصدقائى وفى الحال عنى أولئك الأصحاب باحضار الجميلين اللذين  
تراهما الآن ولبعد المسافة لم يتمكن من الحصول على الجميلين قبل  
صباح الثلاثاء فغادرت المكان وقت الظهر وصرت سيرا بطيئا فى  
عودتى حتى لا اتعب الجميلين وتأكد أنا فستطيع الآن مباشرة  
رحلتنا . وقد سهوت أن اخبرك بأن اصدقائى بعد أن تكلوا معى  
ذهبوا الى الخيمة القائمة على رأس الصخرة لاعطاء التعليمات  
لرجال مخصوصين للاستعداد وقت الطلب وقد أخبرتهم بأننا قد  
حصل اليهم مساء الجمعة أو بعد غروب الشمس يوم السبت على  
أقصى تقدير .

سألت زكى بن بلال بعد ذلك : هل احضرت معك خبزا ؟ فانا  
لا املك من الطعام سوى كمية من البلع . فاجابنى : انى شديد  
الأسف لتسببان ذلك الأمر الحيوى وقد يرجع ذلك الى عيالتى  
الشديدة ، فهوت عليه الأمر عندما شاهدته عظامه الرأس وقلت  
: لا أهمية للخبز لانا نستطيع اتمام رحلتنا القصيرة هذه حتى دون  
الاستمئان بشئ من البلع .

قال حامد لزكى : اسرج الجمل الخفيف اللون ثم اذهب مع  
صديقنا وانينا الى الصخرة العميقة واسق الجمال ماء ثم انتظرنى

هناك وأما أنا فسأحمل السرج على ظهري وأسير وراء جبل الذي  
يسطيع بعد راحته أن يقطع المسافة القصيدة الباقية للغاية تلك  
الصخرة ، ولكن أرى من الخير ألا تذهب مباشرة إلى عين الماء بل عليك  
أن تختفي في بقعة مجاورة حتى تصل إليها فمن المخاطرة أن تسير  
مباشرة إلى مكان الماء لأننا لسنا موقنين بأن المكان غير مطروق بأقدام  
الرعاة ، ففي الأرض جمال كثيرة تحتاج إلى الماء .

سرت مع زكي وفي إحدى قيادة أحد الجمالين قاصدا معه  
( زكي ، الصخرة التي تنبثق منها المياه ثم اختبأت في مكان  
أرشدني إليه رفيقي .

قبل غروب الشمس يساعتني حطر حامد وزكي بثلاثة جمال  
اوثقت قبل حضورها وحصل كل من الصديقين قرية مملوءة بالماء  
وحال وصولهما ركب ثلاثتنا الجمال الثلاثة وسرنا في طريق شرقية  
شمالية مرجين إلى الناحية الشرقية معتقدين التحلل التي كانت  
فيما مضى وعرة جدا وعميرا تسلكها ولم يكن يركب يرخي الليل سلوله  
حتى وصلنا إلى المستقر القصب يحيد من أنظار الناس . واصلنا  
رحلتنا طول الليل بدون توقف وكان سيرنا على الجمال بطيئا شبيها  
بالمسير العادي وعندما بلغ نور الفجر بصرنا حامد بأننا قطعنا ما يقرب  
من نصف المسافة في طريقنا الوعرة وفي رحلتنا الخطيرة .

وأضاف حامد إلى ذلك : أنا اليوم في أخطر وادق أيام رحلتنا  
لأننا أصبحنا مجاورين لسطح النيل وسنضطر إلى اجتياز مراع  
تأبئة لكبائل النهر فتسال الله اللطيف بمياده أن يصل بنا إلى أرضنا  
دون وقوع عيون المراقبين علينا .

في طول رحلتنا هذه لم يتغير منظر البلاد الخلوية الصحراوية  
إلا في القليل النادر الذي نجد فيه بقعا من الأعشاب يتخللها بعض

الكبات فليومنا • أما الأرض في غالبيتها فرملية تنتشر الأحجار في  
بعض نواحيها •

سارنا في رحلتنا الأخيرة دون وقوف في الطريق ولم يكن  
لدينا من الطعام سوى التمر الذي أكلناه على ظهور جمالنا وعندما  
بلغت الشمس سميت الرأس شاهدنا قطيعا من الغنم يفود بعض  
الرعاة فاضطرونا إلى تحويل خط سيرنا حتى لا يرونا وعندما شعرنا  
أنهم شاهدونا أسرع زكي بن بلال بجملته اليهم ليلتقط الأنباء وبعد  
أن قابلهم رجع إلينا نطمأنا بأنهم لا يعرفون شيئا عنا وعن هروبنا  
من أم قومان • تابعنا السير فشاهدنا آثار خطوات جمال وحاشية  
وحير فضسنا وقوعنا في قبضة المتعقبين ولكننا حمدنا الله لأن الناس  
لم يظهروا في ذلك الوقت وبعد قليل من رحلتنا وصلنا إلى جزء  
منبسطة فسيح من الأرض مرة أخرى •

قال لي حامد • هل تلاحظ البقعة الرمادية اللون الثالثة على  
مخافت من الیاردات أعلم خط سيرنا • تلك طريق الكوافل من بربر  
إلى وادی حير ودار شيفية. فإذا جا اجتزنا تلك البقعة بعيدين عن  
الأنظار فليس بعد ذلك ما يخيفنا لأن كل ما بين تلك البقعة والنهر  
هيارة عن أرض حجرية لا أثر للإقدام فيها ولا شيء من النبات  
أو الأعشاب من جهاتها واذن هي بعيدة عن أقسام الإحصين وعلى أية  
حال من الواجب عليك أن تنصت لكل تعليماتي من الآن وأولها سير  
الجمال ببطء حتى إذا ما قطعت جمالا خمسمائة خطوة أو يزيد  
وصلنا إلى مكان الأثر وبذلك نتحول في الطريق المؤدية إلى بربر  
سائرين بضع دقائق • ثم نسير مسيرنا مرة أخرى إلى الجهة  
الشرقية • •

بعد أن انتهى حامد من ذلك القول نسكت سكوت المواقفة ثم  
قال لي • هل ترى تلك الراية الصخرية الواقعة على بعد ثلاثة أميال

تعبيراً ؟ هناك منجد مكاناً أميناً هو الوحيد الذي نستطيع عنده  
تضليل متعقبينا بحيث لا يفلتون على أى أثر لأقدامنا .

أصبحنا إلى تعاليم وأوامر حامد فاجتزنا طريق القوافل التي  
لا يجتازها الناس إلا في القليل وأكبر امتياز لها اختفاء آثار  
العابرين . وعلى أية حال نقابلنا في المكان الموعود .

ابتسم حامد في النهاية وقال لي : حب الجمال على السير  
ولا تستغن عن أقصى مساعدة ممكنة من تلك الجمال الأمانة لانا الآن  
في شديد الحاجة إلى خدمتها ومهما يكن الأمر فقد انتهى كل شيء  
على خير وولقنا الله توفيقاً عظيماً .

منذ غادرتنا أم درمان لم أشاهد ابتسامة واحدة في وجه حامد  
قبل هذه الأخيرة فأدركت في الحال أننا نجونا من الخطر بساذاتنا  
شاطيء النهر .

واصلنا السير وكل منا يضرب جملة الشدائد التي يبدون  
وحدة حتى تركنا صفاً من الغلال إلى يميننا ووصلنا إلى قرابة .

أما قرابة هذه فعبارة عن نجد وعلى التربة منطحة أرضه  
بعبارة سوداء تختلف في حجمها من القطعة المائلة لقبضة الرجل  
إلى القطعة المائلة لرأسه وما تمتاز به تلك العبارة في الأرض  
المذكورة أنها قائمة في صفوف منتظمة يخيل لمن يشاهدها أن أفراداً  
عنوا برصفها على ذلك النسق البديع وإلى جانب العبارة توجد  
صخور فردية يعتمد كل منها عن الآخر مسافة تكاد تكون واحدة في  
جميع الصخور . ولا شك في أن الجمال تعجز عن السير بسرعة في

مثل ذلك الخط الحجري الصغير وذلك مما يساعدنا في خطتنا  
ومما نعدّه دقيقا جديدا لنا بمئة الله لتسهيل نجاتنا •

قبل أن تغرب الشمس ظهر لنا من بعيد ذلك النيل السعيد  
بسياحه العذبة فكان موقمه بين الأراضي المجاورة تحسبها بالخط  
الفضي اللامع وسط البقعة المدنية بما فيها من ألوان قاتمة وخضراء  
ورملية •

تدرجنا من أعلى النجد في طريق ملتوية يزيدنا وعورة ظلام  
الليل وما زلنا في سيرنا البطيء على الجمال حتى وصلنا الى واد قائم  
بين تلال حجرية • وبعد وصولنا وقفنا لراحة جمالنا التي انزلنا  
السرّج عنها وكنا راغبين في السير على الاقدام ما يقرب من ساعتين  
حتى نصل الى شاطئ النهر •

جلس حامد وزكى على الأرض بعد انزال السروج عن الجمال  
الثلاثة وأخفا في عملية أكل البلح بلية وأمانة ويملأهما ياكلان  
قالا لي معا : قربنا الى الغاية التي سميننا اليها منذ فكرنا في الهروب  
فانظر هنا مع الجمال الثلاثة لانا ( حامد وزكى ) سنذهب الى بقعة  
ورة للنهر نعرفها جيدا وفي تلك البقعة ستلتقي بأصدقائك الذين  
يسهلون لك بقية رحلة النجاة • تركنى الصديقان وبقيت وحدي  
تأملًا في المستقبل وقد حوت أمام مخيلتي في تلك الأثناء صور  
فراد أسرتي وصورة مجسمة لوطني العزيز وبعد أن كتبت من  
"فكر انطرحت بجسمي للنهسوك القوي على الأرض فتمت  
استيقظ الا قبل نصف الليل فلم أجد أحدا من الصديقين  
حامد وزكى ) فداخلتني الوساوس وتأكنت أن عدم حضورهما  
سيحول دون عبوري النهر في الفرصة الملائمة ليلا • وعلى أي حال  
صبرت حتى سمعت قبل الفجر ساعتين وقع أقدام فتبينت القادم  
فعرفت أنه حامد •

سالت حامدا عن الاخبار في حالة فزع وقلق فاجابني بما حلي  
 لي الياس قائلا لا عني مطلقا فانا لم نتكلم من المتور على اصدقائك  
 في المكان المين لم بحث اليك لانك لا تستطيع البقاء هنا بمفرده  
 معه بزوع الفجر لانك قريب جدا من مساكن الاعميين فليس يدعنا  
 ان نضع عليك اظفار الرقباء . ولذلك عدت معه ان تركت صديقي  
 زكي للبحث عن اصدقائك الجدد الذين سيسهلون لك مهمتك  
 الجديدة القليلة فاحمل القربة المائية وجراب البلع على كتفك لاني  
 من التمس بمكان لا أستطيع معه حمل شيء اكثر من جسمي الذي  
 قصه قدامى واعلم انه يتحتم علينا الرجوع الى قرابة حيث تظل  
 هناك الى التقاطع النهار متعظبا بين الاحجار والصخور .

اصفيت الى اواخر حامد وثقلتها فوصلت الى اللبد بعد مسير  
 ساعة مع حامد وبعد ان سرنا مسافة اخرى في الظلام وقف حامد  
 فجأة وقال لي :قف هنا واصنع حلقة من الاحجار كذلك التي يصنعها  
 رعاة الجمال في الشتاء لوقاية انفسهم من البرد الشديد وبعد  
 الانتهاء من صنع تلك الحلقة ثم في جوانبها الداخلية والى مسرور  
 لانك متين في صنعها الآن حتى اذك تكاد تكون مرييا كانك واحد  
 منا نحن عرب السودان وتاكده ابي .سأحضر اليك في المساء لاري  
 الحال التي انت عليها واما الآن تسارجع الى الجمال . فلا تخف  
 ولا ترتب في أي شخص قد يراك لان رجال الناحية التي ايت فيها  
 يعرفونني جيدا فاذا سألني احلهم أي سؤال اجبتة ياني حضرت من  
 قبليه لمشاهدة بعض المقيمين هنا . ومن حسن حظي وجود بعض  
 القارب لي في هذه الناحية .

رجع حامد الى الجمال وبقيت انا وحلي في بقعة منعزلة

مخيفة النظر .

أقيمت الدائرة الحجرية وكان ارتفاعها نصف متر ولم أجعل  
 في الداخل مكانا لغير جسمي وقربتي وبندقتي فلم يكند بشيء وضع  
 النهار حتى انسحب إلى مفارتي الصغيرة وحطوت في أرضها الرملية  
 بضة عميقة تسكنت فيها من القاء ظهري ومد جسمي بحيث لم يرى  
 أحد وفي ذلك الوقت تدفقت إلى رأسي ذكريات الماضي وآمال  
 المستقبل وفكرت بصفة خاصة في الماضي الحبيب حيث غصبت الديقة  
 عهد الله ونقصته العديدة على بعد هروبي ولم يخف على العزع  
 في ذلك التصور سوى مرور صور أحيائي وأقربائي بمخيلتي في  
 الوقت نفسه ، ومازلت أعلم النفس بالآمال والأمان رغم اشتداد  
 المعيات وخطورة الموقف ولكني بعد ذلك وجدت فسادت نفسي عن  
 انتصير الذي حدا بي إلى مظهر الخوف الجديد وعن الداعي إلى عدم  
 تسكي مبدأ الصبر ومهما يكن الأمر فاني كنت في أشد أوقات  
 الخطر بعيدا عن الاستسلام الكلي للقنوط كما كنت منذ صادرت  
 أم درمان واتقنا لي حتى الحزن وثوقيق الله إياي إلا أن ذلك لم يمنح  
 شعوري اليوم شعورا خاصا بالخوف وقد يرجع ذلك إلى القسبة  
 القائم بين مفارتي الصغيرة هذه وبين القبر الذي قد يضمني في  
 القريب العاجل ، أهود فأقول إن القبر مصير كل حي وإن الناس  
 بالخير من أعمارهم ما يلغوا سيصلون إلى القبور التي ضمت آباءهم  
 وأجدادهم من قبل ، فسواء أطال عمر الإنسان أم قصر قاته لن يصل  
 إلى النهاية إلا غير تلك الحفرة الضيقة وأذن سأموت كما مات  
 الناس ويسوتون ولكن الصعوبة في شيء واحد إذا مت هنا وذلك  
 موتي متبوذا مهجورا غير مودع أعزائي وأقربائي ، فإيا ساكن السماء  
 ومسير الفلك العوار لا تكل عني وكن رحيفا بعينك في ذلك القار  
 لوحش ، فارحم اللهم عينك الأنيم ولا تماقبي على ذنوبي فقد طلبت  
 اخذران من جلالك وأنت الواسع الضفران ، اللهم ارحمني ، والطفه  
 بي واسمح لي بمشاهدة أصحائي وأعزائي والرجوع إلى وطني  
 العزيز مرة أخرى قبل موتي ا . .



بعد أن ناجيت الماضي وذكرت آمال المستقبل الزمت الصمت  
مرة أخرى وفي نهاية الأمر فكرت في الأمر - على الرغم من داخري  
صاحبي - فانتبهت إلى أن الذي أنفدني في نهاية رحلة النجاة قادر  
على إغاثتي في الختام .

مرت بمخيلتي الآمال فذكرت أنني ساعبر النهر هذه الليلة  
لم اجتاز الطريق وأصل إلى الصحراء غدا وفي مدى يومين أو ثلاثة  
سأجتاز كل خطر وأصبح في أمن كلي بحيث استطيع الامراع بملاقة  
من تمنيبت السنين الطوال إن أعطى بهم لي خير .

بعد أن انتهيت من ذلك التفكير ابتسمت مرة أخرى ابتسامة  
مملوطة بالثقة والامل من عطف الله وعونه. ثم مسكت معطفي الصغير  
ولففت به وجهي حتى أرى نفسي من حرارة الشمس ومن انظار  
المراقبين . ثم بقيت منتظرا ما يقدره لي ربي وأنا على ثقة تامة في  
الخير . بعد مرور الظهر بميل سميت صسوتا خفيفا فرفعت رأسي  
ونظرت من خلال الأشجار المتراصة فصدق ظني حيث عرفت أن  
القادم هو حامد الذي أقبل إلى بابتسامة الصديق المختص قائلا لي  
« أسعد حالا وأبهر فقد وجدنا الأصدقاء المميزين لمراقبتك » فطرت  
فرحا عندما سمعت هذا القول وتلقت أن نجم سعدي قد تجل في  
الافق مرة أخرى .

عندما أقبل حامد جلس خارج الكومة الحجرية ثم قال  
تستطيع « أن تفرج عن نفسك الآن وتخرج من مفارئك الضيقة هذه  
لأنني عينت لك مراقبين في الجهات المجاورة ينقلون إلينا كل ما يحدث  
حولنا . فلا تخش شيئا لأن صاحبنا زكي وجه الرفاق الجدد الثلاثة  
وقد حضر الآن واحد منهم إلينا ليعرف مكان إقامتنا وهم جميعا على  
استعداد وسيحضرون إلينا ماء ولكنني أحذرك أشد الحذر وأصبح

لك بالاعتماد من كل ما يريب لأن هروبك من أم درمان أصبح معروفا  
في المنطقة التي نحن فيها . فتعال معي الآن أو انتظر حتى يحين  
الليل وعلى أي حال فانا ذاهب الآن فهل تستطيع معرفة الطريق  
بفردك ؟ وهل ترغب في عودتي اليك لأخذك معي ؟

فأجبت : لا داعي لعودتك مرة أخرى لأنني أعرف الطريق  
وسألتني بك في المساء .

عندما غربت الشمس حملت بتدقيتي وقرية الله على ظهري  
وتركت البقرة التي كنت بمخيلتي فيها فذكريات مؤلة وآمال كبار  
وعندما وصلت الى الرفاق الجدد وجدت اثنين منهم غرايتهما غريبتين  
عني رغم بقائي السنين الطوال في السودان بين أبنائها .

حياتي ذاك الرجلان وقال لي : قد أرسلنا اليك صديقك أحمد  
وإد عبد الله ونحن من قبيلة جهباب ومنسحب بك الى النهر حيث  
يصل إلينا أحمد وإد عبد الله نفسه لمساعدتك في اجتياز النهر  
وستكون الجمال على انتظارنا في الشاطئ الثاني من النهر لتعبر  
هذا النهر والآن فلتودع صديقتك القديمتين لأن مهمتهما قد انتهت ؟  
صليت بعد ذلك على صديقتي المخلصتين الحميمين حلمد وزكي وشكرت  
لهما اخلاصهما بكلمات خارجة من أعماق القلب . ثم قلت لهما  
: أودعكما وكل ثقة في الالتقاء بكما في وقت سعيد هو وقت السلم  
والأمن .

اخذا ( أبا والرفيقان الجديدان ) جلين وتركنا القامات  
ليصديقتي القديمتين قارنيت الى ظهر الجمل وركب خلفي أحمد  
الصديق الجديد .

سألت هذا الجديد : ما اسمك ؟ فاجابني قائلا : يدعوني الناس باسم محمد واما اسم صديقي فاسحاق . سألته بعدئذ : هل تجتاز معي الصحراء يا محمد ؟ فاجابني بقوله : لا يا سيدي قهناك من كلفوا بتلك المهمة وعلى أية حال فالخير في أن يسير الجمل سيرا بطيئا وبحسن بك أن تعطى وبيهك على الرغم من اضطلام الشديد . فقد وردت الأوامر من يوبر من ثلاثة أيام بمراقبة الطرق مراقبة دقيقة ووضعمت الطرق المائية تحت مراقبة شديدة أخرى ومهما يكن الأمر فلا خوف عليك من بلدنا .

بعد أن سرنا بجملينا ما يقرب من ساعتين في طريق شرقية هيمالية بانحدار شرقي وصلنا الى النهر . وتمكنا قبل نزول النهر من سماع أصوات الآلات المائية وكلام وضحك العبيد وزوجاتهم .

عندما وصلنا الى كومة صغيرة من أوراق الأسجار حس محمد خضه أذني . ادع الجمل للبروك ببطء ورفق حتى لا يصدر منه صوت يلفت الانتظار .

برك الجملان على الأرض ولم يصدر منهما صوت على الإطلاق . وقد تركني الاثنان على أن يعودا مع أحمد فبقيت متفردا في الظلام ؟ الحالك واستمررت على ذلك نحوا من ساعة وأخيرا رأيت أربعة رجال قادمين . فأسرع أطولهم نحوي وضممني إلى صدره وعانقني طويلا قائلا لي في صوت خافت : أنا أخوك أحمد عبد الله من قبيلة جهيناب وأول ما أطلبه منك هو أن تصدق قولي وهو أنك بحمد الله نأج من كل خطر ولما أتت يا محمد ربا اسحاق فاخليا السرجين عن ظهرى الجملين في رفق وتؤدة ولا تسمعا احدا من الناس صوتا ثم انفضنا الفريتين الفارغتين واربطاهما حول رقبتى الجملين ثم اصبرا بالنظر من شاطئه في نقط ومواضع مختلفة ثم انتظروا أوامري غدا على مقربة من دار مقاتلة الثيران .

التفت الى أحمد واد عبد الله بعد ذلك قائلا : اتبعني ، وحمل  
أحمد سرجا وحمل الرجل الرابع سرجا آخر ثم سارا قتيقتهما وبعد  
بضع دقائق وصلنا الى شاطئ نهر النيل المنفس حيث وجدنا في  
ركن صغير قاربا صغيرا يكفى بالجهد لحملنا وقد صنع اصلقائي  
الجلد هذا القارب بأيديهم .

نزلنا الى حافة النهر ودكبتا القارب الصغير الذي اقلع بنا الى  
حيث يريد بنا الله وقد استغرقت عملية عبور المجرى أكثر من ساعة  
وعندما وصل الى الشاطئ الثاني صعدنا الى الأرض ورجع أحمد  
الرفاق بالقارب الصغير ثم صنع في قاع ( القارب ) ثقباً وأصبغنا  
ففرق القارب والغرض من ذلك اخفاء كل أثر لعبورنا النهر .

أما نحن فسرنا على الناحية البرية ما يقرب من نصف ساعة  
وعندما وصلنا الى بقعة خاصة طلب مني أحمد عبد الله انتظاره لأنه  
ذهب لاجتماع طليق ملوّه باللبن ومقدار من الخبز .

قال لي أحمد بعد عودته بالطعام : كل واشرب ولا تفكر في  
شيء فقد اجتزنا الخطر وأقسم لك بالله وببيتنا أنك ناج وأن الله  
سيمنحك بملافة أحيائك جميعا ، كنت عازما ومفكرا أن تتم رحلتك  
الليلة ولكن أرى الوقت متأخرا جدا فالخير في بقائك هنا الى مساء  
الغد ، وعلاوة على ذلك فانا مضطرون الى أن نسقى الجمال غدا ، وما أنا  
قريبان هنا من مساكن الناس فسيسمع بك ابن أختي ( ابراهيم علي )  
الى مكان بعيد نوعا لا تصل اليك فيه ميون الرقباء ، فانتظرنى  
هناك وسأحضر لك دابة تركبها أما اذا كنت شاعرا بالقوة على قطع  
المسافة على قدميك فاني استغنى عن احضار الدابة ، فأجبتني على  
الفور : انى قوى ولا ريب في انى قادر على المشى فأين ابراهيم علي ؟

أجابني أحمد : هو إلى جوارنا وميكون مرشدك في الصحراء  
للقرة . \*

كنا حقا في ليلة مظلمة يزيدنا غللا ما في مغيلتي من  
وساوس أصرح بأنها ليست مربعة كما كانت الحال قبل اجتياز  
النهر . والآن فلنتروك الوساوس للرجع إلى ما حدث في الرحلة  
فأقول أن إبراهيم ذهب أولا بقربة فارغة في يده سائرا في طريق  
القفار الخوازية للنهر إلى أبي حمدة ، وقد تبعت صاحبي الجديد هذا  
وبعد أن سرنا ما يقرب من ثلاثة أميال انجليزية نزل إبراهيم إلى  
النهر وملا القربة ثم غير خط السير بعد ذلك متجها إلى الطريق  
البرية . أما السير فكان شاقا جدا لأن الجسارة الضخمة التي  
غطت التلال وقامت حوايلها عائقا سيرنا السريع لما عن شخصي  
فكنت كاليائس في سيرة أتخط مرة نحو اليسار في ذلك الحجر  
وأتسكع أخرى نحو اليمين في ذلك التل ، كأنما أنا في أقبم حالات  
الشك . ومازلنا في حالنا هذه حتى وصلنا إلى حفرة في الأرض  
فأمرني إبراهيم بالوقوف عندها حيث قال لي بعد صمته الطويل  
« هذه هي البقعة التي عينها لي خالي فانتظر هنا هادئا وفي مساء الغد  
سأحضر الجمالين لمواصلة الرحلة وسأترك لك الخبز والماء فأودعك  
الآن لأنني مضطر إلى القيام بجمع معداتنا وأرجو أن التاك في غير  
هذا » إذن بقيت وحدي مرة أخرى لا يرافقتي سوى ضوء الشمس  
واختلاف الابتكار ، ولكنني على أية حال كنت مطمئنا ولم يكن الليل  
بساعاته القليلة الباقية وصباح اليوم التالي بالشئ الكثير غير  
المحتمل ، لأنني نجوت من الخطر بعد عبور النهر واقتربت من الوصول  
إلى أحيائي ووطنى . غربت الشمس يومنا الجديد وبعد غروبها  
بساعة سمعت صوت سير حيوانات بسرعة تحوى فخطرت بندقية  
وإذا بي أجد أحمد عبد الله وفي صحبته رجلان على حمارين . أتبل  
أحمد مسرعا نحوى وضممني إلى صدره ميتسما ثم قال « الشكر لله

الذى نجاك وينجوك ، وأما الرجلان اللذان معي فهما شقيعاى وقد  
حضرنا معي ليسالا لك السلامة .

حيث الرجلين الجديدين تحية اخلاص ثم ادرت وجهي الى  
احمد واقلت له : ولكنى لا أفهم حقيقة ما جرى وأدرك من شكركم  
المتكررة انى نجوت من خطر عظيم ، فأجابني احمد بالطبع لم تعرف  
ما تم ولم تسمع عن الخطر العظيم الذى نجوت منه بأعجوبة فاصغ  
إلى أحدثك عليا ! منذ ثلاثة أيام علم زكى عثمان أمير بربر - ولا نعرف  
الخصم الذى علم منه - ان الحامية المصرية فى مورات حصلت على  
إمدادات جديدة كبيرة الأهمية وعظيمة الأثر رغبة فى مهاجمة القوة  
المهدية فى أبى حمد ، فاضطر زكى عثمان الى ارسال مند يدفع غارات  
المصريين ، وبالفعل قام اليوم من بربر ستون فارسا وثلاثمائة بيادة  
وعروا بمسكنتنا ولا شك انك تعرف المحاربين أنهم يسعون الانصار  
وهم فى مجموعهم ضيقان الأجسام مقتربون اقرب الى الوحوش -  
فى الفلك بالناس - منهم الى الآصمين .

أبناء مرود اولئك كنا نجهز لك قسما من خروف ذبحناه  
ليكون زادا لك فى الطريق لنهضى الجنود عنسما راوا ما نقوم  
بتجهيزه وبعد أن ارتابوا فى عملنا تفرقوا وتهبوا منا ما نهبوه وقد  
كنت حقا شديد الحذر من ناحيتهم وشديد الخوف على ما قد  
ينتابك من عسفهم اذا صادفوك فى طريقهم ، ولكنى احمد الله الآن  
لأنهم اجتازوا الطريق الى أبى حمد ولتصحبهم كمنة الله وليصحبنا  
نصره وعونه فليجلاله الشكر الدائم اذا حمايته لنا .

صحت بعد ذلك فترة حتى فترة الهول بعد نجاتى من ذلك  
الهول المروع لم سيحدث من خسران كامل للخائف الصمد الذى نجاى  
من ذلك الخطر العظيم بعد اذ لم تكن تتوقه .

علمت بعد ذلك ان الجنرال كشمير باشا رئيس اركان حرب الجيش المصري وصل الى وادى حلغا للقيام بالمتاورات المعتادة وان الضابط ماتشل بك قائد الأورطة السودانية الثانية عشرة ومائتين من الهجاة الى حلغا من كورمسكو عن طريق مورات وهذا سبب الاضاعة عن تقوية حامية مورات وعن الهجوم المزعوم على أبي حمد .

قال أحمد : بعد ذلك مستأخسر الجمال قليلا لأنى امرت بأسراجها فى داخل الحلوذ اتناء مجيء الدراويش تحوفا من ان يستصلها الآخرون - اذا زلوتها - لى قتل الخيرة وبعض العقاب العسكرية فإذا كنت شاعرا بالرشوة فى البقاء هنا الى صباح الغد فانى موافقتك على عمالك لانا تستطيع بذلك الحصول على جمال ملوطة بالقوة ) فاجبته على الفور ( انى لا أرهب لى أى تلخير وأفضل فى جميع الأحوال القيام بالرحلة حالا فان تأخير اللند والحاجة الى جمال كاملة القوة لا يحولان دون الاسراع فى الرحيل وعلى أية حال فانى ملوطة ثقة بان الجمال ستصل البنا سريعا .

قبل منتصف الليل وصلت البنا ثلاثة جمال صحبة النخ فندهما لى أحمد عبد الله قائلا لى ( هذان مرشدك الجديدان ابراهيم على ابن أخى و يعقوب حسن أحمد الرباىي الاخضاء ومسير بك هذان الى القمينخ حامد قضاي زعيم حرب الاعراب الخاضعين للحكومة المصرية ، وهنا الأخير سيعينك فى الوصول الى أسوان ) .

بعد ذلك ملأنا قربن الماء وزااصلنا وخلعنا - ونعد البنا فى الرحيل قال لى أحمد بن عبد الله ( أرجوك ان تتجاوز من القصير فى اتمام معدات الرحلة فان الخطأ ليس من قاجيتى ولكن نزعمت من الإكل الطيب فلهديك من البلع والخبز ما يكفى لمقاومة غائلة الجوع ) .

ركبنا الجمال ثلاث ساعات ونصف ساعة في طريق شرقية  
شمالية نحو الجانب الشرقي وكان ذلك قبل اشراق الشمس وعندنا  
بزغ نور الفجر وجدنا أنفسنا في الجهة الشرقية من وادي الحير  
( سمى باسم الحير البرية التي تسكنه ويكاد هذا الوادي يخلو  
من النبات ) .

قمنا في سبيلنا فدللت الطلائع على أنا في صحراء حيث  
تجاهدنا الرمال المستنة في كل ناحية وبقايا التلال في بعض الجوانب  
ولم نجد على الإطلاق شجرة أو شيئا من الزرع الأخضر . وبعد أن  
سرتنا على تلك الحال يومئذ كإبلهم - دون استراحة على وجه عام -  
رؤسنا إلى تلال توراني التي كانت محتلة فيما مضى بقبائل عرب  
يشابون . يمتد هذا الوادي في اتجاه شمالي شرقي في معظم جهاته  
وتتخلله متعشرات وعرة تقوم على جوانبها أشجار الليموسا . وفي  
كل جانب من تلك التلال توجد أشجار مسماة باسم التل العام  
« تورانية » .

حقق إبراهيم على لأطفيه من أهل الجبل فتلقاه الوادي فرآه  
خلوا من الناس فنصبح لنا بنحوه فدخلناه ثم أسرعنا في إرواء  
جملنا بالماء العذب وملء قربنا الثلاث أما البئر فنأزلة في قاع  
الوادي ما يقرب من عشرين قفحا ومتجهة إلى ناحية مركزية على  
بعد خمس وعشرين ياردة والنزول إلى عمق البئر بواسطة مدرجات  
حجرية صلبة . وبما أن الأبار في السودان أماكن اجتماع الناس  
فضلنا ترك البئر واللحلب إلى مكان في داخل الوادي فتركناها  
( البشر ) وواصلنا سيرنا إلى الداخل عدة لا تقل عن ثلاث ساعات  
مجتازين تلال توراني .

كان الفرق عظيما بين المرشدين القدماء والجدد ، فالسابقون  
كانوا يمتلكون شجاعة وإخلاصا وعلى استعداد لتضحية حياتهم لم



سبيل النفاذ حيالي لما اللاحقون فعل التقيض من ذلك لأنهم كانوا دائما يتفكرون من عملهم الذي يتخيل لي أن أحمد عبد الله أجبرهم عليه إجبارا ولم يتأخروا عن اظهار خدمتهم لأنهم لا ينامون النوم الكافي ولا يأكلون الاكل الجيد . واني أذكر جيدا أن أعمال ابراهيم على ويعقوب حسن أدى الى اضاءة حذاشي ومستنوق خاص لي في الطريق وقد سبب لي ضياع حذاشي تمبا كثيرا في المستقبل .

وصلنا في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي - الخميس - الى أحرار أبي حمد وقد فضلت البقاء سخيئا عن الأنظار هناك على الرغم من عدا سكانه هناك مندوبا لاتباع المهدي .

ذكرت قبل أن أحمد عبد الله أمر ابراهيم على ويعقوب حسن بالوصول بي الى الشيخ حامد فضاي ولكنني أضيف الى ذلك أن هذا الرأي لم يرق في أعينهما .

جاءني هذان الرجلان مصرا وذكر لي المخاطر التي تنتهدهما بغيابهم أياما كثيرة عن قبيلتهما . وبما أنه أصبح من المؤكد جدا وقوف الخليفة على خبر فراري وعلى قسم من الطريق التي اجتزتها لم يكن لدى شك في أنه سيستجوب الكثيرين ممن يرقاب في مصاعبتهم له في الفرار خصوصا من قبيلة أولئك الجدد لانتمائها في الصداقة الى الحكومة المصرية واذن ليس الخطر واقعا على هذين الرجلين لحسب بل على صديقي المخلص أحمد عبد الله أيضا . وانيرا اتفق رأيهما على التعلب الى شخص يعرف كلاهما وبواسطة هذا الشخص أتابع رحلتي بأمان .

تأكدت بعد ذلك أن الخير في رجوع هذين الرجلين لأن بقائهما معي خطرين خائفين - فضلا عن عدم اخلاصهما السيد في مهمتهما - قد عرضني لخطر جسيم واذن قبلت بسرور طلب الرجلين

وانى لا أخفى على القراء حقيقة كراهى المدينة لهما لأنهما كانا  
مجردين عن الاخلاص - غير مباليين بما قد يصيبني من شر ما داما  
واقفين من نجاتهما وحدهما - ازاء ذلك طلبت منهما الاسراع فى  
الذهاب الى المكان الجديد حتى يرسما الى قبيلتهما ولا غرابة بعد ذلك  
ان يكون ابتمادهما عنى فوزا جديدا لى ومصدر راحة تامة وحلو  
فكرى .

عند غروب الشمس حضر الرجل الجديد وهو من قبيلة عرب  
امرات واسمه حامد جرهوش البالغ من العمر حوالى خمسين عاما .  
وعندما حيانى حامد هذا قال لى : « بسى كل رجسلى الى مصلمته  
الحاصة لمرشدك - ابراهيم ويعقوب اللذان أعرفهما معرفة تامة -  
يرجبان فى ان أدلك على الطريق من مكاننا هنا الى أسوان ، وتأكد  
انى مستعد للقيام بذلك ولكنى أريد الوقوف على ما سأحصل عليه  
اذا هذا العمل الشاق » فاجبته على الفور : « سأعطيك يوم وصولنا  
الى أسوان مائة وعشرين ربلا من عملة ماريه تريزة علاوة على هدية  
خاصة أقصمها تبعا لما تقوم لى به فى هذه الرحلة الجديدة » .

كلم لى حامد بعد ذلك يوم وقال لى : « انى مرتاح الى ذلك وأقبل  
للمهمة فان الله ونبينا شاهدان على صديق ما أقول - ولما عن وعندي  
فانى أعرف عنصرك وأثق ان الرجل الأبيض لا يكذب وأذن سأسير  
بك الى حضيرتك فى طريق جبلية غير مطروقة بأقدام الأحميين  
ولا يعرفها من مخلوقات الله سوى الطير الذى يحلق فى العمور دون  
ان يتقل أسرار الناس الى الناس فأسند للرجل لانا متواصل  
عملنا باذن الله يوم غروب الشمس » .

اخترت أقوى الجمال الثلاثة لمواصلة الرحلة وأخذت قربتين  
مملوءتين بالماء والقسم الأكبر من البلح وكمية من الفرة وعندما سيمر

الليل وصل حامد الى المكان المحدد لابتداء السفر . اما ابن حامد  
فسار راكبا الجمل الوحيد الذى يملكه للبحث عن غلال فى رويات  
القرية من الهر وتبعها لذلك اضطر حامد لمرافقة ابنه سألوا على  
قدميه . ولم يساعده على عمله الساق هذا سوى ارادته الصادقة  
وقسمة القوتين . اما ابراهيم وصقوب فعادا الى البياتهما وبطيعة  
الحال لم اودعهما وداع الحزن ولم اذكر لهما فى معرض الشكر  
سوى كلمات قلائل لاني اكره ما قلته قبلا عن سرورى العظيم  
لابتعادهما على .

بعد ان واصلنا سيرنا يومين اجتزنا فى اثناهما ثلاثا صخرية .  
وصلنا فى صباح الاحد الى بشر صغيرة تكاد تكون خالية من الماء  
واسمها « شوف الصين » وعلى الرغم من ظهور ابتعاد القادمين اليها  
بقيت تبعا لرغبة مرشدى فى مكان يبعد ساعة عن هذه النقطة .  
كان طعمنا عبارة عن التمر وكمية من الخبز صنعتها بأيدينا  
واقصد بذلك ان هذا الخبز كان لوقايتنا من الهلاك جوعا فان أى  
مخبز اودى يعرض للخطر العام اذا وجد بين جيرانه رغيث من  
الأرغلة التى نعملها لانها فى مجوعها كريمة فى منظرها وطعمها و  
طريقة صنع الخبز التى قام بها مرشدى هى جمع كمية من الحجارة  
حجم كل واحدة منها لا يزيد على حجم بيضة الفرخة وبعد تكوينها  
يضع عليها أفرادا صغيرة من الخشب ثم يعجن الدرة فى الماء ويوضع  
فى آنية خشبية ثم يشعل النار فى الخشب والحجارة الصغيرة  
بواسطة حاك الصوفان على حجر الصوان .

بعد اشتعال النار فى الخشب ينزع حامد الجمر من الحجارة  
المنتهبة ليضع عليه الصحن وبعد ذلك يرد الجمر الى الحجارة . وبعد  
ان ينتهى من ذلك التخليل النارى يضرب الصحن بالصفا الصغيرة  
حتى يزيل ما فيه من الرماد وأثار الحجارة الصغيرة .

هذا هو الغيز الذي نأكله فان لم نكن مدبوعين الى آكله بللة  
النظر اليه فلس اقل من أن يدفعنا الى تناوله جوعنا الشديد .

بعد أن ارتحنا قليلا على مقربة من البئر واصلنا السير بطمع  
ساعات حتى انتهينا الى المسطحات الاولى لجبال عتايي الممتدة بين  
البحر الاحمر ونهر النيل والتي يسكنها في ناحيتها الجنوبية عرب  
بهاون وامران ، وفي ناحيتها الشمالية قبيلة المباشنة .

تفرغ من بعض تلك النواحي الخالية من النبات اودية مملوءة  
بالغابات يسكنها دعاة الجمال التابعون للقبائل السالفة الذكر .

اجتزنا بعد ذلك وادبا قريبا غير مطروق وواصلنا رحلتنا دون  
راحة لاني كنت شديد الرغبة في مشاهدة أعزائي في اقرب وقت  
يمكن انهمن في نهايته السلامة من انتظار رحلتنا المتعبة المزعجة  
وولهم كوتنا فاجين من كل خطر لاننا تركنا الحدود المهدية وصرنا  
على الاراضي المصرية ، رغم ذلك أصر مرشدي على البقاء بمديين عن  
هيون الرقباء والناظرين كائنين من كانوا لانه خاف من أن تقع علينا  
هيون بعض التجار الذين يتعاملون مع السودان .

وبما أن منزله قائم على الحدود وأنه كان مضطرا - لأسباب  
مختلفة - الى اللهاب ليربر فمن الواجب على أن أذكر خلعتي لي  
- في موقفه الخطير هذا - حق قدرها .

وفي الحق لم أجد بيت من شلعت في السودان رجلا اوى  
عزيمة وأسمى روحا من صديقي الأخير هذا على الرغم من ضعف  
جسمه - ولا ريب في أن الطعام غير النظامي والسير المتواصل في  
كثير من الاحايين أثرأ سينا في صحة هذا المتكلم في السن .  
وعلاوة على ذلك شعر صاحبي حامت بالبرد الشديد الذي أوقعه

لُنُجُوراً فِي حَيَاتِهِ لِلرَّضَى . فَاضْطَرَّتْ أَشْفَاقاً عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُ عِبَادَتِي  
لَتُدْفَعَتْ وَأَبْقِيَتْ لِنَفْسِي الْمُخْطَفِ الصَّغِيرِ وَالْحَزَامِ الصَّوْفِيِّ الْكَبِيرِ وَقَدْ  
وَصَلَتْ بِي الرُّغْبَةُ فِي سُرْعَةِ الْوُصُولِ إِلَى أَسْوَانٍ حَمْدُ دَفْعَتِي إِلَى أَنْ  
أُعْطِيَهُ جَسَدِي وَأَسِيرَ عَلَى قَدَمِي الْمَسَارِيَةِ تَحْتَ الْأَحْجَارِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ  
( سَبَبٌ صَبْرِي عَارِي الْقَلَمِ هُوَ اضْطَاعَةُ حِذَائِي كَمَا قُلْتُ قَبْلًا بِوَاسِطَةِ  
إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ ) وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْفَتْرَةَ أَشَقُّ مَرَاحِلَ مِنَ الْوَجْهِةِ  
الصَّحِيَّةِ .

خَيْلَ الْيَتَا قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى أَسْوَانٍ بِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَنَّ الْجَمْلَ  
يَتَأَمَّرُ عَلَيْنَا فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ غَرِيباً فَقَدْ اتَّبَعَهُ الْمَسِيرُ  
التَّوَّاصِلَ دُونَ رَاحَةٍ إِلَّا فِي النَّاصِرِ وَعِلَاقَةٍ عَلَى ذَلِكَ أَصِيبُ فِي مُقَدِّمِ  
الْقَدَمِ بِجَرَحٍ زَادَ وَاتَّسَعَ عِنْدَمَا اسْتَطَعْتُ الْجَمْلَ يَحْبِرُ مَدْبُوبٌ  
فَاضْطَرَّتْ إِلَى أَنْ أَقْطَعَ جِزْءاً مِنْ حِزَامِي لِأَلْفَ بِهِ بَطْنَ الْقَدَمِ وَالْجِزْءَ  
الْمُجْرُوحِ مِنَ الْجَمْلِ عَلَى أَنَّ أَثَرَهُ هَذِهِ اللَّفَاقَةُ كُلُّ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً  
وَقَدْ تَقَلَّيْتُ ذَلِكَ مِنْ رِعَاةِ الْجَمَالِ مِنْ دَارْفُورٍ وَكُلِّ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ  
مِنْ خِلَافِهِ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ الْجِلْدَ بِدَلِّ الصَّوْفِ .

آخِرُ الْأَمْرِ قَدَرُ اللَّهِ اللَّطِيفِ بِعِبَادِهِ أَنْ نُنْزَلَ فِي صَبَاحِ السَّبْتِ  
١٦ مَارِسَ مِنْ أَعْلَى مَنَحَدَاتٍ طَرِيقَنَا فَتُشَاهِدُ نَهْرَ النَّيْلِ السَّعِيدِ  
وَمَدِينَةَ أَسْوَانِ الْمُتَمَتِّعَةِ عَلَى شَاطِئِهِ وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَقْرَبَ بِالْمَجِزِ الْكُلِّ  
عَنْ وَصْفِ السَّرُورِ الَّذِي مَلَأَ قَلْبِي بِعَدِّ الشُّكْرِ لِلَّهِ إِزَاءَ النِّجَاحِ وَالضُّمُورِ  
بِتَحْرِيرِي مِنَ الْعِبُودِيَّةِ فَقَدْ بَلَغَتْ الْإِلَهِيَّةُ وَقَضَى اللَّهُ عَلَى مَصَائِبِي  
وَنَجُوتِ حَقٍّ مِنْ أَيْدِي الْبِرَابِرَةِ الشَّهِيدَةِ التَّعَصُّبِ وَوَقَعَتْ عَيْنَايَ  
أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى مَسَاكِنَ شَعْبِهِ مُتَمَدِّينَ يُخَضِّعُ لِلْقَانُونِ وَالنِّظَامِ وَيَتَأَمَّرُ  
حُكَاةً بِأَوَامِرِ الْعَدَالَةِ فَحَسْبُ .

وَاتَّجَهَ - سَاعَةً وَصُولِي إِلَى أَسْوَانٍ - قَلْبِي الطَّرُوبِ إِلَى عَرْشِ  
اللَّهِ الْأَسْمَى شَاكِراً لَجَلَالِهِ حِمَايَتِهِ وَرَيْيْتِهِ الْمُرْشِدَةِ . قَوِيلَتْ بِأَعْظَمِ

مظاهر الترحيب من مسكرات الضباط الانجليز الخاضعين لاصحاب  
الممو الخديو وفي مساكن الضباط المصريين الذين لم يعلموا  
الا عندما اتقوا بن ابيه رحلتى المدحشة وقد نساق كل من اولئك  
الضباط المصريين الكرام الى التفرج عن كبرى التقديم وفي جلب  
السرور الذى ينسينى الامل ونكباتى السابقة . كان المحافظ  
المسكرى فى ذلك الحين فى اسوان الكولونل هنتر باشا وكياو  
ضباطه الذين اذكروهم فى هذه اللحظة هم البكباشيون جاكسون  
وسدنى وماتثيل بك ووطسون، وقد قدم كل منهم اقمى ما يستطيع  
من مجاملة صادقة فشكرت لكل من اعماق قلبى ودعوت لهم بالخير  
وقبل تغيير ملابسى بملابس جديدة من التى اقمها لى اولئك الضباط  
طلب منى صديقى البكباشى ووطسون السماح له باخذ صوري  
- ووطسون هنا من ادق الرسامين - فقبلت طلبه مع الشكر .

اما عن صديقى حامد جرهوش فقد دُعيت له - بواسطة بطرس  
بك سركىس صديقى القديم ووكيل اتصالية انجلترا فى اسوان -  
مائة وعشرين ريالاً من عملة ماريه تريزه وقدمت لحامد علاوه على  
ذلك هدية مالية وبعض الملابس والاسلحة وفوق هذا وذاك قدم  
له هنتر باشا عشرة جتيهات انجليزية تذكرا لوصولى سالما الى  
اسوان ، وبعد ذلك ودعنى وداع الاخلاص وعاد الى قبيلته مسرورا  
مبتهجا .

بعد قليل من وصولى الى اسوان وردت لى تلفرافات التهانى  
اولها من الماجور لويس بك بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن مسكر  
واحد حلفا . ولانها من رئيس الوكالة السيامية النمساوية فى  
مصر وهو البارون مولر فون اجيرج الذى تصب كثيرا فى سبيل  
انقاذى . ثم من صديقى المختص الماجور ونجت بك .

ول من حياني من أبناء وطني تحية شخصية هو البارون  
فكتور هيرنج ثم أولاده وقد كانوا جميعا في لهيبينهم في النيل .

صلدف وصولي يوم قيام احلى يواخر البريد فاغتصمت الفرصة  
وتكنت بمساعدة ذوي الشأن في أسوان من مواصلة رحلتي بعد  
ظهر اليوم المذكور ( ١٦ مارس ) .

رافقني جميع القباط الانجليز والمصريين الى الباخرة ووقعت  
الفرقة العسكرية السودانية التقيد التمساري الوطني على موكبها  
فلوحت عيناى الدموع حنيا الى الوطن العزيز ثم دخلت السفينة  
طارفع الهتاف من جميع الركاب على اختلاف جنسياتهم ففكرت لهم  
جزىلا ثم شكرت للقباط المقيمين في أسوان عنايتهم بى وأخلاصهم  
لى . وفي الحق لم أكن مستحقا كل ذلك التكرم وهذه الحفاوة ولم  
أجد - مع شعورى بالنجل الشديد - سوى تقديم الشكر والدعاء  
للجميع بالخير .

كان معى فى سفرى مانبل بك قائد الفرقة السودانية الثانية  
عشرة والذي كانت مناورات من وادى حلفا الى كورمكو عن طريق  
جودات سببا فى اكل الطعام المهدى لى عندما وقع عليه الجنود  
السودانيون وسببا فى تغيير خط سيرى .

عندما وصلت مساء الأحد الى الأقصر تجل عطف الأوربيين  
المسافرين معى مرة أخرى وهنا تلقيت عن طريق البارون هول  
تلفراغا من شقيقتي العزيزات صادرا من عاصمة وطنى العزيز  
( فينا ) فما أبهج تلك الساعة التى قرأت فيها تلفراغا عليه امضاء  
باسماء شقيقاتي العزيزات وعنوان فينا العزيزة .

هي الساعة الخامسة من مساء الاثنين وصلنا الى جرجا أقصى  
محطة جنوبية للسكك الحديدية المصرية ومنها ركبت القطار الى مصر  
حيث وصلت الساعة السادسة من صباح الثلاثاء ١٦ مارس .

على الرغم من تلك الساعة المبكرة جدا في الصباح وجدت  
على المحطة البارون هولر فون ايجرج وجمع موظفي السفارة  
النمساوية الدكتور كارل وترفون جورا كوشى وهناك أيضا وجدت  
صديقي العزيز ونجت بك الذي لا أستطيع في كلماتي القليلة هذه  
أن أعبر عن شكري له . والى جانب أولئك شأهت مراسل  
« الشمس » والآب روز نيولى وآخرين بحره ومع أولئك فوتوغرافى  
ياخذ الصور المختلفة .

بعد أن صرفنا بضع دقائق في تبادل التحيات سرنا الى السفارة  
النمساوية حيث بقبت مدة طويلة ضيقا عند الرجل الطيب الشديده  
الاخلاص البارون هولر الذى قام بمجهود عظيم فى سبيل حريته  
والذى لم يكن عمله ناجما عن واجبه بصفته ممثل النمسا فى  
الحكومة المصرية ولكن كان صادرا عن عاطفة حية مشفقة على شخص  
أصيب بالأمر المزعج .

عندما وصلت الى السفارة وجدت الغرف الخاصة مزينة بأعلام  
وطني العزيز ومملوكة بالأزهار والورد وقد كتب على باب السفارة  
« تحية صادقة للضيف الكريم » .

فى ذات اليوم الذى وصلت فيه الى مصر تسلمت لتفراقات  
التهنئة - بنجاتى - من أفراد أسرتى وأصدقائى ورفقائى فى المدرسة  
قديما ومن صنف عديده فى أوروبا بصفة عامة والنمسا بصفة خاصة .  
وانى لا أنسى العطف العظيم الذى تقبل به على صاحب السمو



الملكى السوفى ولهم يوفى رزى برج وصاحب السمو البرنس لوى  
استر هازى وقد كان كلاهما فى حملة بوسنه عندما كنت أحارب  
مع فرقتى العسكرية ، ولا ريب فى أنى سأذكر دائما كامات التشجيع  
التي نادى بها ذاك الرجل العظيم ازاء مصائبى الأول وكلمات  
التهنئة بعد الفرار من رفر الخليفة عبد الله المشهور بطغيانه .

بعد عودتى الى مصر بقليل تشرفت بمقابلة حضرة صاحب  
السمو خديو مصر الذى أعم على برقية الباشوية . دخلت السودان  
منذ ستة عشر عاما كملأزم أول فى الجيش النمساوى ، وعندما عينت  
حاكما لدارفور منحت من الحربية المصرية لقب اميرال ، أما الآن  
فرقيت الى درجة اللواء حسب نظام الجيش المصرى .

بعد أيام قلائل من تلك المقابلة السامية كنت واقفا فى شرفة  
السفارة متطلعا الى جمال حديقته فى فصل الربيع فسمعت طيرا  
مائيا أليغا الى جانب الأعشاب فتذكرت فى الحال طير فالزدين التابع  
لاسكانيانوقا توربها الكائنة فى روسيا الجنوبية ، وفى الحال دخلت  
غرفتى وكسيت له بيانا كاملا عن طير الكرعى الذى أطلقه فى عام  
١٨٩٢ والذي قتل فى دار شيفيه . وفى الحق كنت مسرورا جدا  
بكتابة خطاب تفصيلي الى صاحب الأصل لذلك الطير ، وما هى  
الا لثرة صغيرة حتى ورد لى من فالزدين رد على خطابى يشكرنى  
فيه جزيلا ما ذكرته عنه ، ويدعونى لزيارته ولكنى لسوء الحظ لم  
أتمكن من القيام بتلك الزيارة النفيسة لأنى ارتبطت بمواعيد كثيرة  
جدا حالت دون قبول الدعوة الجديدة .

كثرت الدعوات الرسمية والخصبوسية وتعدت الزيارات  
بحيث لم أستطع القيام بعمل رسمى جدى قبل مرور بضعة أسابيع .

كان أول عمل لي بطبيعة الحال كتابة تقرير رسمي مفصل  
أرسله لرؤسائي الحربيين وبعد ذلك بفترة بدأت في كتابة قصة  
حياتي في الأعوام الستة عشر الأخيرة .

أما صديقي القديم وزميل في الأسر الأب أوجر والدن الخطيب  
الدينى في سواكن فقد انتهز أول فرصة وحضر خصيصا الى مصر  
لتحيتي، وفي الحق كان اجتماعنا سبب سرور جديد لا استطيع وصفه  
وقد شعرت براحة كلية لأنى تمكنت شخصيا من تقديم شكرى  
الجزيل لهذا الصديق المخلص إزاء ما أبداه نوعى من مساعدة  
وتأييد . الى أشعر بثقل في رأسى ودوران قد يعقبه الانهيار كلما  
أتذكر الحالة الماضية وأقارنها بالحالية ، وكلما أسرد حوادث مدة  
اثنى عشرة سنة قضيتها أسيرا في القى حالات الأسر . وإزاء ذلك  
كله لم أستجع قوى تفكيرى قبل مرور فترة غير قصيرة .

الآن أتمتع بألى رجل من شعب متعلم ورجال مسالمين فنرجع  
أفكارى الى البرابرة المتعصبين الذين عشت معهم زمنا طويلا قاميت  
فيه الآلام ، وواجهت المخاطر ثم أعود فأذكر رفائى الذين لا يزالون  
تحت الأسر المضى وألقى نظرة أسمى على الأمم الواقعة فى جبال  
الأسر . فله أجزل الشكر على فضله العظيم حيث تنجاني من الخطر  
الفاوح وأوصلنى بالسلامة الى شعب هادى أمين .

## الفصل التاسع عشر

### الختام

بعد أن قضيت أكثر من ستة عشر عاماً - من بينها اثنا عشر عاماً في الأسر الشنيع - في أفريقيا منقطع الصلة عن العالم المتحضرين قدر لي حظي السعيد أن أعود إلى أوروبا إلا أنه من الواجب علي أن أقول بأن تفيراً عظيماً في سبيل العمران حدث في أفريقيا على هذه المدة ، فكثير من المناطق التي خلت فيها أمثال المحترمون لفينجستون واسيك وجرائت ويكر وستالي وكرون وبرال وجنكر وشو ليفورت وهولب ولبنز ومات غيهم بارواهم العزيرة في سمبيل ألبحت عنها أصبحت ( المناطق ) قابلة الآن للنهوض المتحضر من المدنية . في كثير من المناطق التي قام فيها المكتشفون قبلاً كثيراً من المخاطر توجده الآن قوى ومحطات عسكرية تساعد على نشر الأمن وتسهيل التجارة التي تمد أهم عناصر التقدم في الجهات المذكورة .

لئن تطلعتنا إلى الدول صواحبه السكان في تلك المناطق فانا نجد في الشرق إيطاليا وألمانيا وفي الغرب الكنفو (بلجيكا) وفرنسا وألمانيا وتسمى كل من تلك الدول صعيماً حثيثاً في زيادة النفوذ في جهات مختلفة ، وترمي جميعاً إلى وضع الأيدي على أفريقيا الوسطى وقد بدأ رجال القبائل المتوحشة - الذين يعتبرون أقرب

الى الحيوان منهم الى الانسان - يفركون حاجياتهم الضرورية وان  
 هناك اناسا ذوي مراتب سامية في انفسهم ويرجع ذلك الى التقدير  
 الذى حصلوا عليه من المدنية والتقدم ولا شك عتدى في أن الممالك  
 الاسلامية الصغيرة الشمالية كوادى بورنو وفلاتا سينرك زعمائها  
 حاجتهم للتعاون مع الدول العظمى في سبيل الاحتفاظ بحكمهم  
 الوراثي .

ذكرت المناطق السابقة ولم اذكر الى الآن بقى للبقعة التي  
 قضيت فيها اكثر من عشر سنين ودرغيتي في ذلك منحصرة في  
 تخصيص الذكر والكلام عند ورود اسم السودان بين المناطق  
 الافريقية .

والآن اتول بآنا نجد في الناحية المتوسطة من افريقيتنا بين  
 الاراضي المذكور اخيرا وحيال القوى الاوربية الباسطة نفوذها في  
 الشمال والجنوب والغرب نجد في تلك الناحية السودان المصري  
 الذى يخضع اليوم لحكم الخليفة عبد الله واشياع المهدي وهم أشد  
 الحكام قساوة وأكثرهم طلبا للرعايا .

ان الأوربي كائنا من كان لن يستطيع اجتياز ذلك السودان  
 كزائر أو عامل ، وأقصى ما يحدث لذلك الأوربي لا يختلف عن أدنى  
 ما يصيبه سوى اختلاف جزئي لا يؤثر شيئا في النفس التي اعتادت  
 الحرية والتي خلقها الله في جسم الانسان لتشعر بسعادة الحياة  
 الهائلة البعيدة من العسف والمظالم من ناحية الحاكم صاحب الأمر .  
 وللايجاز أقول بأن أقصى ما يصيب الأوربي في السودان هو الموت  
 وأدنى ما ينتابه هو البقاء طول حياته أو أغلبها أسيرا مغلوبا على  
 أمره . قد لا يجد في الحقيقة فرقا بين الموت وبين تلك الحالة المؤلمة  
 ولكنى عن شخصي أجد اختلافا ظاهرا هو تمتعي بالنجاة، والعداوة  
 الحرة قبل موتى الطبيعي الهادى .

اذن يتعرض الأوروبي السائر لتلك البلاد البعيدة عن المدنية  
والممتدة جنوبا على طول الليل الى الزجاف وشرقا الى غربي كنفلا  
على مغربة من وادى - الموت - التريخ أو لميسر مريزة تحيط به  
مظالم المستعبدين .

لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما اصف من شدة  
على الأوروبيين ، ولم تكن نحن الغربيين نقضجر من أمثال تلك المظالم  
فما هي الا عشر سنوات منذ وقع السودان في قبضة المهديين حتى  
شاهدنا المظالم تترى والمسف يتوالى والله لمن الحق أن اصرح بأن  
السودان ظل أكثر من سبعين سنة - منذ دخله محمد علي - تحت  
حكم مصر والمصريين ، فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع  
ومستعدا لقبول كل جديد تأتي به المدنية ويدعو اليه العمران .

تحت حكم المصريين انتشر التجار المصريون والأجانب على  
السواحل في مدن السودان الرئيسية ، وفي الجردوم ذاتها كان للدول  
الأوربية المظنى فملكون محترمون من الجميع ، وقد كان الأجانب من  
جميع الدول الأوربية متمتعين بحق السفر الى السودان والخروج  
منه ، وهم في كل من تبتك الحالتين على اتم ما يتمنون من أمن وجهد  
وسلم . وإلى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان وأبعد  
الممالك الأوربية بواسطة الرسائل التلفزيونية والبريدية المنظمة .

إن أعظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصري الطويل هو  
قيام كل فرد يشعأثره الدينية وينشر العلوم حسيما يوحى اليه  
هيمره ، فكثت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين في أماكن  
قريبة يتصلها ابتأها بمطلق الحرية وفي هدوء واطمئنان ، كما كنت  
ترى مدارس المسيحيين الأوروبيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة  
لا فرق في ذلك بين الفلسفة منها والدينية والعلمية المحضة .

كانت المناطق السودانية مقبولة بقبائل مختلفة وكان العداء في كثير من الأحيان شديدا بين رجال القبائل ، ولكن حزم الحكومة المصرية أدى إلى نشر السلم بين السودانيين على وجه عام سواء أكانوا في ذلك الزمان أم مرغين .

جاء دور المهديين فانقلب الحسن إلى سي ، وأصبحت الحال للمهدية الجديدة غير الحان المصرية الأولى ، فانتشر الميزج والاضطراب في البلاد السودانية وقد أبنت في الفصول السابقة مقدار طمع وموه إدارة الموظفين الجدد ما وصل بالبلاد إلى حد أصبح ميسورا حقه نضوب الثروة .

صحبت جهدي في الفصول السابقة إلى شرح ما قام به محمد أحمد لاستغلال الموقف والظهور بين القبائل المتقاتلة فقد أيقن ذلك الرجل أن السبيل الوحيدة التي توفق بين أولئك المتخاصمين هي صييل الدين ، فادعى أنه المهدي المرسل من الله تعالى لتحرير البلاد من التبر الأجنبي ولإحياء الدين فكان ذلك العمل من جانب المهدي سببا رئيسيا في إيجاد حالة التعصب الديني الشديد الذي زاد موه الحاجة في الاثنتي عشرة سنة الأخيرة ، ودعا إلى تمر لا من الأجانب لضرب بل من السودانيين أيضا الذين وقعوا في حبال الفوضى والظلم .

كان من المستحيل نجاح الثورة بدون التعصب هذا إلى الألفنا به ( التعصب ) أمام حالة حرجية هي حالة الحرب والجهاد بين المختلفين في الدين ، ومن الخريب في أمر ذلك المرحان أنا لم نجد حالة توازن بين التعصب المقتوت والسماع الحبيد فكنا قديمين في حالتنا من القرون الوسطى أو ما هو أبعد لهذا .

صعيت - عنهما ذكرت حياتي وأعمال في القصور الأولى  
وعندما ولدت أعلم نذير التعصب الديني - إلى السور بخطى متثنية  
في سبيل تعصب الأسباب الرئيسية التي دعت إلى الحالة الحاضرة  
وقد قررنا هنا أن الحالة تغيرت عما كانت عليه في زمن المهدي  
وأوائل حكم الخليفة عبد الله فانا نذكر إلى جانب ذلك أن الموقف  
لا يزال خطيرا وهو في حاجة إلى الأيدي العاملة بنشاط بعد مرحلة  
السبيل التي يتحتم عليهم عبورها للاحتفاظ بالمدينة ونشر الولاية  
العدل في ذلك الفضاء الراسع من الأمة التي حوت إلى حالة مكرية  
مؤلة لا نستطيع وصفها بعد أن ضحك فيها المستويان الرئيسيان  
لبقاء الأمم وحما الخلقي والديني . وإلى جانب ذلك نذكر ما يطرح  
إليه الجميع سواء في ذلك الوطنيون والأجانب . من عمل شامل  
وطائفة مختلفة .

إن أول ما يتبادر إلى ذهن المفكر في شئون السودان بعد قيام  
حكم المهديين هو عصر المهدية الناشئة الجديدة التي وجدت في سبي  
حكم المصريين منذ عهد محمد علي ، فليس من شك في أن تغيير الحال  
وحلول الفوضى محل النظام يولدان في العقل شعورا صادقا بالقضاء  
كل أثر ظهر للمهدية في السودان قبل المهديين، وهنا ما حدث بالفعل  
فقد اندثرت معالم المهدية رغم طراوتها وجدتها ، والسبب الرئيسي  
في اندثارها هو انتقال الحكم إلى أولئك المستبددين الجيلة بل ذهب  
إلى أكثر من ذلك فأقول أن سبب ضياع المهدية راجع إلى ظهور  
نفوذ أولئك الهمجيين الذين أسسوا على أنقاض الحكومة السودانية  
المصرية السياسية نظاما جديدا كان إلى حد ما متتبعيا خطوات النظام  
الماضي في العرض ، ولكنه خالفه في الجوهر ، فبدلا من الحق والعدالة  
والأخلاق في حكومة العهد المصري نجد الظلم والباطل البربري  
والنرجس من نظم الأخلاق في حكومة المهديين وأتباعهم . وأنه لمن  
الواجب على أن أقرر للقراء - غير منطوق في ذلك بنزعة الثار لنفس

ما قاست من ويلات ولكنى مدفوع بوزاع الضمير وغبة في تقرير  
الحقيقة كلها - باني لن أستطيع ذكر أمة ظلت في حياة المدنية أكثر  
من نصف قرن ثم صبغت الى الدرك الاسفل من الهمجية غير  
السودان .

لتفكر لحظة واحدة في تلك القوة الجديدة التي برزت بروز  
النمر ودعت الى الفوضى في ربوع السودان مما اعتبرها الأوروبيون  
بحق عقبة كاثاء في سبيل المدنية الناضجة . ونذيرا بفشل المستعمر  
الكبرى التي بدلوها في السنوات الأخيرة في الكثير من جهات تلك  
القارة الأفريقية البسيطة .

سحيت في الفصول الأولى الى تبیان أثر المهدي عندما صاح  
في الناس أول صيحة وعندها ظهر نفوذه الواسع في السودان فقد  
كان هذا الرجل سيد السودان الحقيقي فلم يكن يصدر أمرا حتى  
يسرع الاتباع لتبليغه وجم على استعداد لتفديته بالقلوب والأرواح .  
كما أتى ذكرت التنصيب الدميم اللعين الذي أوجده المهدي في حياته  
ثم أردفت ذلك بشرح تضائل ذلك التنصيب بعد موته ( المهدي )  
حيث حل محل القوة الدينية نفوذ جديد للخليفة عبد الله كان يتنزع  
فيه بالدين تدوعا اسما ، ولكنه في الحقيقة كان مدفوعا بمنزعة الظلم  
التي وجدت بين جتبيه منذ عرف الفارق بين الخير والشر . ولم تكن  
القسوة مقصورة على الخليفة عبد الله ولكنها تمدته الى عرب القبائل  
الغريبة فقد حل أولئك محل الجنود المصريين فاهلكوا الزرع والنسل  
وحكموا السكان المنكودي الخط بقضيب من حديد ، فطلق أولئك  
السودانيون كل مرارة رايتلام الله جسر أولئك الجند المستبدين  
عما جعلهم يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصري ، ثم دفعهم أكثر  
من ذلك الى التلذذ المنفر بالنورة والمطعم الى حكومة تمنحهم الهدوء  
والسلم .



١٠ انه لمن التطويل غير المصود بل من التكرار الممل الموجه  
 لنفسه أن أعود لذكر الفظائع التي ارتكبتها الخليفة عبد الله وأتباعه  
 على سبيل استغاثتهم بمراكزهم الدينية والحكومية ، ولكن من واجبي  
 هنا أن أذكر للرأي أن خمسة وسبعين في المائة - على أقل تقدير -  
 من مجموع السكان في السودان ملثوا إما بالحرب وإما بالجوع  
 وإما بالأمراض الوبائية الفناكة فيبقى لنا بعد ذلك الثل من خمسة  
 وعشرين في المائة ليسوا في حقيقتهم أحسن حالا وأفضل عيشا من  
 الرقيق .

تذكرني كلمة الرقيق الأخيرة بذلك الطفيان البادي في تجارته  
 في السودان ولئن كان الرقيق في بادئ أمره مقصورا على العبيد  
 فإنه بعد امتداد نفوذ عبد الله - يضم إلى دائرته العهد الكبير من  
 الحبشيين الأحباش والسوريين والأقباط والمصريين المسلمين .

إن القسم الواسع من السودان الذي يحكمه الخليفة عبد الله  
 اليوم قد تغير قن نظامه عن النجكم المصري ولكنه تغير لا يشرف  
 صاحبه ، فقد أصبحت المناطق الخصبة المثيرة الأهلة بالسكان صحراء  
 مغطاة يخاف الناس وتوجها . فانك اليوم تجد السهول الكبرى التي  
 وطنتها أقدام قبائل العرب الغريبة شبيهة بالمصحارى لا يظهر فيها  
 من المخلوقات غير الوحوش الضارية أما مواطن الأحميين على شاطئ  
 النيل فأصبحت مغطوة ببشر القبائل المرتحلة بعد أن طرد أولئك  
 أصحاب البلاد الأولين أو استبقوهم لا شيء سوى فلاح الأرض  
 واستثمارها لخير الأسياد الجدد .

١١ . حرم السكان الأصليون من جميع وسائل الدفاع عن النفس  
 وأصبحوا - بعد ما نزل بهم من جور وعسف - في حالة قلقوا معها  
 كل أمل في الحصول على العطف من ناحية أولئك الأسياد الجدد .

ضعفت أو تلاشت فيهم قوة المقاومة واذن غالباً يكون من السكان الحاصلين على المساحات الضيقة المرفوعة على النهر ليسوا أفضل من المبيد في غير حالة واحدة هي حين تعرضهم للبيع في سوق الرقيق .

ما الذي يستطيع أولئك الهالكسون المنكوبون عمله لمواجهة أسيادهم الجند الأقوياء ؟ انهم أمام أحد أمرين فاما التسليم والبقاء في عيش الدل . واما الاعتراض وفي تلك الحالة يلاقون آجالهم بحد السيف .

انه لمن الغفلة والجنون المطبق أن يفكر أحد في أن المناوئين على أمرهم في عهد الخليفة عبد الله يستطيعون إنهاء حالتهم المزرية بشدة داخلية لأنهم لا يملكون شيئاً من معدات الدفاع أمام قوة الحكومة الظالمة ، واذن لابد من وصول العرب والمند من الخارج إلى أولئك المنكوبين . وعلى السكان المحليين أن يتحلقوا أن الخير في الفيات وعدم الظهور بعد ظهور حكومة عادلة جديدة ، لأن ظهور أي دليل من دلائل الضعف والمقاومة لروح المدنية الجديدة سيضر القادس المقصود ضرراً بلياً .

انه لمن الواجب على السودانيين - في سبيل الاحتفاظ بثقتهم المنسود والابتعاد عن مصائب الضعف والمظالم - أن يتجنبوا أن تكون الخليفة في ضعف مستمر ، لأن ذلك الضعف أعظم مساعد لارتقاع كلمة الحق ورجوع عصر المدنية .

عندئذ يستطيع السودانيون الوثوق في القوى الجديدة الخارجية التي ستساعدهم في تنظيم قيود الضعف والتطويع بالامبراطورية الهندية الجائرة .

التي اطلب من القارئ ان يتأمل في الحكم على ضياع نفوذ المهدي وعبد الله ومن الاعماء فقد يتصور البعض مما سبق ان ذلك النفوذ المهددي سيزول قريبا ولكنني أعود فأؤكد انه غير قابل للاستبراس في هذه ذاتة ، ولكنه عرضة لذلك المتصور بمؤثر خارجي فمحسب على ان ذلك يستغرق زمنا غير قليل .

احيل قراء الكتاب الى الفصول الأخيرة السائلة ليمرّفوا مقدار ما اتخذ عبد الله في سبيل الاحتفاظ بقوته الداخلية طول حياته حيال أعدائه الداخليين ، فليس غريبا ان يظل ذلك الاعتقاد راسخا في فكر الخليفة وقائلا للتصديق عند الجميع ما دام عبد الله في أمن من انه اعتداء خارجي وتدخل اجنبي ، ولذا فمن المؤكد ان هذا الرجل سيظل صاحب السلطان طول حياته . اما بعد موته فمن المحتمل بل من المؤكد ايضا ان انقلابا عظيما سيحدث في ربوع السودان وأن انقلابا هائلا سيتولد بعد الضغط الطويل .

واقرب ما يتبادر الى الذهن هو ان ذلك الانقلاب ينتهي الى سخر الأسرة التي عنى عبد الله منذ تولي خلافة المهديين بتأسيس حكمها الثابت ، ولكن لا أستطيع التأكيد بأن ذلك التغير سيقرب السودان الى مصادر المدنية أكثر مما هي الآن .

إذا عرفنا ذلك وجب علينا ان نقرر ان الخير لا يتم للسودان الا بواسطة مساعدة خارجية . وهذا يكن من غير فان الغرض السابق قد لا يتفق اتفاقا رقيقا مع مقتضيات الحال في السودان اليوم .

ان الذين يرغبون في دراسة حالة السودان الحاضرة يلزمون قبل أي اعتبار آخر ان يدركوا بان السودان اليوم ليس هو ذلك

السودان في أيام اسماعيل باشا عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة المصرية في الوقت الذي كانت فيه البقاع والأمم المختلفة المجاورة للنيل المصري أما في دول الهمجية وأما عابدة للأوثان حيث لم يستطع الأوربي ضمان التجارة لنفسه إلا اجتاز أحدها علاوة على أن جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة من القارة الأوربية معروفة لدى الأمم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا في غير القليل النادر .

كان السودان إذن زهرة تلك البقاع والتميز عن جميع ما جاوره بما له من مدنية ونهوض ، وكان ذلك كله في العهد المصري ولكنني أقول - كما قلت قبلا - أن الهمجية تطرقت إلى جوانبه عندما جاء عهد المهديين .

كان السودان على مقدار مذكور من المدنية والنهوض فأصبح متكونا متخطيا في طرقات الجبال والطلم بما أن القيم مقابلين لحكم فيه إلى قوة حمجية وحشية تكره النفوذين : الأوربي والعثماني على حد سواء .

تلك هي الأمة التي تعترض الطريق من النفوذ المركزية القائمة على وادي النيل إلى البحر الأبيض المتوسط كما أنها الأمة التي تضع طابعها على المناطق التي كانت في وقت من الأوقات متمتعة بالنهوض والسلام وقابلة لكل مصدر من مصادر التجارة والمدنية والنهوض ، وأنه من الموزن أن نذكر تدور السودان وظهور ذلك الاضمحلال جليا لأن المناطق التي كانت متصلة قبلا أنطت نهوض وتقوى في حين نرى السودان متدهورا .

أصبح من السهل وجود التبادل بين المناطق السلفاء الذكر والعالم الخارجي وتطلق مسيل التجارة بحيث لا يعترضه معترض

كما كانت الحال قبلًا . فاصبح كل اجنبي آثما على حياته من الخطر  
 في . حالة اجتياز أية منطقة وذلك بفضل حماية الحكومة الأردنية  
 ويكاد يكون أحسن ما أذكره عن تلك المناطق أن العناصر الهمجية  
 القائمة فيها أصبح أفرادها يدركون أن الخطأ والجهل كل الجهل  
 في مقاومة تيسار المدنية وأن الخبر كله في التمتع بظل التهوى  
 الحديث .

لننتقل فترة من التعميم إلى التخصيص ونسائل عن حقيقة  
 الموقف الحالي في السودان فنقول : ان النفوذ المصري في الشرق  
 السوداني يسير سيرا بطيئا جدا لاسترداد ما كان له من أراض في  
 الجهات المجاورة لسواكن وطوكر ، أما في الجنوب الغربي فقد  
 استولى الإيطاليون على كسلا وأجبروا المهديين على إقامة خط دفاع  
 قوي في الشاطئ الغربي من نهر عطبرة .

نسير مسافة إلى الجنوب فلا نجد في الوقت الحالي رغبة بين  
 الأقباش في تغيير ما بينهم وبين الدلاويين من علاقات قديمة .  
 أما في المناطق الجبلية التابعة للأزغلو والنيل الأزرق فقد جعل  
 السكان بمداتهم للخطبة ورغبتهم في الابتعاد عن طاعته .

تجده جنوبا مسافة طويلة أخرى إلى منابع النيل فنجد حركة  
 جديدة للنفوذ الإنجليزي وليس ذلك غزيرة ففي تلك الجهات استطاع  
 استنيك وجرت ويكي تغليب أسسائهم وأسم أمتهم الإنجليزية  
 بما قاموا به من اكتشافات مينة ، كما أنهم اكتسبوا حب الأهالي  
 بما بذلوه من مجهود ضد الرقيق وتجارتهم . ولا شك أن هذه الجهات  
 مستتصلا قبل مرور وقت طويل بشاطئ النيل بواسطة سكة حديد  
 لا تساعد على فتح الجهات التي تجتازها فحسب بل ستساعد على  
 إيجاد مخرج لتجارة الخط الاستوائي الجنوبي وما جاوره من الجهات

وإذن للنفوذ الانجليزي اثر ظاهر هنا ، بعد ذلك نذكر ولاية الكنفو  
الحرّة التي تمكنت في السنوات القلائل الأخيرة - بفضل ما يلقاه  
من مجهود عظيم - من ضم مقدار كبير من الأراضي الى نفوذها .

كان النفوذ الجديد لولاية الكنفو الحرّة عظيما فلم يقتصر  
على مسيو مواد بانجي بل تعداه الى مناطق كثيرة من مديرية بحر  
الغزال وفي خط الاستواء حتى ان تلك الاية تمكنت من التقدم الى  
المكان المجاور لنفوذ الدراويش في الرجاف الكثيفة على وادي  
النيل .

فيما وراء ذلك النفوذ نجد على مقربة من اويانجي العليا  
مساكن الفرنسيين وأحلامهم حيث يسكنون السبي المتواصل في سبييل  
تحقيق آمالهم في تلك الناحية كما حققوها في جهات مختلفة من  
القارة الافريقية . اذا ذهبنا بعيدا الى الشمال الغربي وجدنا نفوذ  
الحليفة في المناظر القائمة هناك ممدا يمتد القبائل المختلفة التي  
سيصبح أفرادها قريبا أو بعد زمن طويل خاضعين بحسب ارادتهم  
للفنود الأوربي المنته الى داخل أفريقيا من الساحيتين الغربية  
والشمالية .

اما في النهاية الشمالية فستقيم القوة المصرية التي بدأ الخليفة  
عبد الله يدرج خطرها وحق أنها ( القوة المصرية ) ستكون أول من  
يتقدم للتدخل في شؤون امبراطوريته المظفرية المزعزعة  
الأركان .

من ذلك البيان الموجز نطلع على الموقف العالي - من الناحية  
الدفاعية الهجومية - للمهاضي في السودان فانه كامل المدة ومعين  
القمهرة في داخل أملاكه ومناطق نفوذه ، ولكنه مهدد من جميع  
الجوانب الخارجية وهو ازاء ذلك التهديد لا يملك ما يدفع به غارة

المحتاجين لأن الصعب الذي يمكنه لا يخلص له بطبيعة الحال وقت  
الخطر والسبب في ذلك معروف لدى القارئ وهو الرغبة في  
التخلص من جور عبد الله بأية وسيلة ، وعندى قليل من الشك لى  
أن امبراطورية الخليفة ستتحطم ويتفكك ظلها قبل هجوم قوى أية  
دولة متقدمة .

الآن ما الذى يجب عمله ؟

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد  
التي كانت مصر سيدها الشرعية وماكنتها قبل حكم المهديين ؟

هل تدرك وتفهم جيدا كل مشكلة من المشاكل المتعددة -  
السائرة عجدة عن الهوى الى شواطئ النيل الصالحة للملاحة -  
أن الواجب يلقى عليها بضم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة  
مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية الى الأراضي التي تحصل  
عليها كل متهم ؟

هل تسمى المشاكل المتعددة ضمعا شريفا في كل ما يمسله  
وتفكر كل على حدة في أن الفضيلة تقتضى التجرد عن الهوى وعدم  
تخصيص مصالح مصر للخطر ؟ هل ترضى كل مشكلة وضاء المخلص  
الشريف بضم التقدم لسفك الدماء وانفاق الأموال في سبيل غير  
مفروعة كل ما فيها مكسب لا يجيء الا من اعتلاء غير مفروغ ؟

هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل في شئون  
مصر وحقوقها المشروعة ؟

تلك أسئلة تدخل في دائرة السياسات الدولية والتدريسية  
وقد لا يكون من على البحث فيها ومناقشتها والافصاح عن  
مواقفها .

ان كل ما ارمى اليه هو الانضاء بأرالى المجردة من الهوى  
والتي يدغمنى الى تقريرها وانزع من ضميرى يذكرنى دائما بأهمية  
وفائقة بقيمة السودان مصر . وانى اصرح بمناصري لذلك الزايد  
ودفاعى عنه بكل ما لى من قوة .

ان الاسباب التى دفعت محمد على الى امتلاك السودان عند  
ثلاثة أرباع قرن ( نذكر القارىء المصرى بأن سلاطين باشا كتب  
مؤلفه التى نترجمه فى عام ١٨٩٥ ) كانت ولا تزال ومستبقى وجبهة  
جدا . ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر .

فالواجب اذن قائم فى حفظ وادى النيل من أى اعتداء واذن  
يجب على المستولين أن ينظروا بعين اليقظة والحذر الى أى تقدم  
من جانب دولة او دول اجنبية الى طريق النيل العظيم لأن الامر  
الذى لا رية فيه ولا جدال هو أن انشاء مستعمرات على شواطئ  
النيل أمر عظيم الخطورة لأن الدولة المستعمرة فى تلك الناحية قد  
تغلب مصالحها الشخصية ومطامعها الجديدة على مصالح مصر وسعادته  
المصريين وتلقهم ورعا لهم .

اذكر من الصفحات الأخيرة من كتابى فى الفصل الأخير أنى  
أشرت فى مواضع متفرقة من مؤلفى الى الأهمية العظمى التى لبحر  
الغزال وقد لا يكون من التكرار ذكر ما لذلك الاقليم السودانى  
العظيم من أهمية وما له من شأن بالتحفة للسودان على وجه  
عام .

ان ذلك الاقليم ( بحر الغزال ) انصبب انابيب السودان  
ومساحته فى مجموعها من اكبر المساحات المنتجة واعظم ما يتناز  
به بحر الغزال أنه يستمد ماء ريه من مجموعة جبال ومجار عالية



على انه في كثير من نواحيه منطى بالجبال والغابات التي تآوى اليها  
الايال . اما الموديان الواسعة فخاضعة لحكم القيصان .

ان خصوبة تربة بحر الغزال تعد من الخيرات النادرة في  
السودان فمن السهل الحصول منها على كميات كبرى من القطن  
والخطاط . هذا الى كثرة ما في البلاد من اغنام وماشية .

اما عدد السكان فاستطيع تقديره بما يتراوح بين خمسة  
وسبعة ملايين عدا . والكثيرون من اولئك يحملون لحمل السلاح  
الا ان المعاداة المستمرة بين رجال القبائل المختلفة تحول دون اي  
اتفاق عام بين السكان ، وذلك اكبر مساعد للدولة الأجنبية على  
التقدم للاقليم الكبير المذكور والحصول على نفوذ ظاهر فيه وانشاء  
قوة عربية داخلية فيه منجاة الى جانب تلك الدولة فمن السهل  
بطبيعة الحال اتحاد قوة موالية في منطقة عرفت باشتداد الشعبان  
بين افرادها وتناثر رجال قبائلها المختلفين .

كل ذلك مما يفرى القوة الأجنبية الى التقدم ، ولكنى اعوذ  
فاذكر التقدم المجرد عن الهوى وعسائى آكون مغاليا في تولع مثل  
ذلك العمل من أية دولة لا ترمى لغير شيء واحد هو مد نفوذها  
وتوسيع سلطانها .

كانت مشراع الرق ميناء بحر الغزال منذ ظهر حكم المصريين  
في السودان وقد اعتادت البواخر الصاعدة من الخرطوم اجتياز  
تلك الميناء في فترات دورية كل عام، ولكنها في بعض الأحيان كانت  
تتعمقل في طريقها لما يمرضها من الأعشاب المائية التي كانت بين  
آن وآخر تسمد طريق النيل الأعلى ، عند الناحية الجنوبية من فاشودة  
مباشرة يخرج النيل من بقعة يظن أنها كانت مقر بحيرة قديمة .

تتعرض ذلك السير القسيح البطيء مجار مختلفة الجداول وأنهار وفي كثير من الأحيان تقف السدود في طريق السير السريع فكان المسافرون في كثير من الأحيان مضطرين إلى قطع هذه السدود العشبية بالسيوف والقنوس . وهنا يذكر في هذا الصدد أن بعثة السير صموئيل بيكر تأخرت عاما كاملا عن النهاء مهمتها بسبب اعتراض تلك السدود ( البعثة المذكورة استغرقت ما يقرب من أربعة أعوام من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٤ ) .

بالإطلاع على ما يقدم نجد مركز بحر النزال من الوجهتين :  
الجغرافية والحربية - مع مقارنته بمراكز باقي أقاليم السودان -  
عظيم الأهمية ، وأذن فوجود أية قوة أجنبية في السودان لا تنظر لغير مصالحها الشخصية ونزاعاتها الاستعمارية أو بمعنى آخر لا يهمها بقاء المصالح المصرية في السودان سيجمل بقاها ( القوة الأجنبية ) في مركز ممتاز يعرض مصر للخطر ، بل أذهب إلى أكثر من ذلك فأقول إن ذلك البناء سيحول دون تحقيق رغبة المصريين في استرداد غالبيتهم الأولى التي فقدوها في السودان ، وهو حالة رجوع مصر إلى السودان مع بقاء تلك القوة الأجنبية سيكون نفوذ مصر في خطر دائم . والسبب الرئيسي في كل ذلك هو أن القوة الخارجية التي تستغل بحر النزال أو تسيطر عليه ستكون صاحبة النفوذ المطلق هناك ، وسيظل تحت يدها كل مورد من موارد الخير في ذلك الإقليم الذي يعد من وجهة الرجال والمواد أكبر وأعظم أقسام وادي النيل .

تكلمت كثيرا في الصفحات السابقة عن كل ما أعزله من حركات ومطامع الأدبيين في هذا الصدد ، وأن لا أستبعد أن أية معزولة حربية من بجانب دولة أجنبية في سبيل الوصول إلى النيل عن طريق مضارع الرق أو بحر الحمر أو بحر العرب ستلقى اعتراضا

كثيرا من جانب المهديين ، ولكن في الوقت نفسه أقرر انه اذا حدث  
مثل ذلك الاحتراض وقابله نضال من جانب القوة الأوروبية الجديدة  
فالتنتيجة المحتملة جدا هي ضياع مناطق المهديين من أيديهم .

لو أن الخليفة عبد الله على علم بأن الأوروبيين : البيض ،  
الموجودين في بحر الفزال أقوى كثيرا مما يتصور وأكثر عددا وأعظم  
تعبيرا مما يعرف عنهم بواسطة التقارير غير المضبوطة التي تقدم  
اليه بين أن وآخر - لو أنه على علم بذلك لما تردد في مهاجمتهم قبل  
استئصال الخطر . وفي تلك الحال يكون مضطرا إلى إرسال عدد من  
جيوشه من أم درمان . وهذا العمل صعب وغير ميسور التنفيذ لأن  
احتياطي جنوده يكاد يكون معدودا ومحصرا في تقوية مواضع الخطر  
من عطيرة مقابل كسلا وفي مديرية دنقلا . هذا البيان الموجز يوضح  
لنا ضعف قوة الخليفة ويثبت ما أشرت اليه سابقا عن علم تمكن  
عبد الله من أي وقوف في وجه امتداه خارجي ، ولا ريب أن مثل ذلك  
التفود معرض للضياع ومهدد بالتلاشي خصوصا اذا ذكرنا إلى جانبه  
العداء الشديد الموجه من سكان البلاد الداخلية لحاكمهم عبد الله .

نعود الآن عودة مطيعة إلى الموقف الدرويشي في دارفور  
وكرديان فنذكر قبل كل شيء أن القوة الحسالية للأمير محمود  
لا تتعدى بضعة آلاف من حامل البنادق والضاربين بالرماح ، وأولئك  
على قلتهم ليسوا في بقعة واحدة ولكنهم موزعون في مخافر  
الغابات . أما محمود نفسه فيقيم في الفاشر مع القسم الأكبر من  
تلك القوة على أنه في مناوشات دائمة مع قبائل دار حجر ومسال  
وتاما وبني حسين وحسوتر ولبيائل أخرى في منطقتي كبكبيه  
وكلوك .

لم يوفق الأمير محمود توفيقا متواصلا في عمله ولله يرجع  
ذلك - إلى حد ما - لقلة عدد المقاتلين معه أمام أعدائه الكثيرين ومهما

يكن من شيء فاني أذكر لتقرير الوقائع أن أخذ كبار مساعدي محمود  
 الحريين واسمه فضل الله قد قتل أخيرا في معركة هجومية وهزم  
 جنوده المخاربون معه ( وعددهم ستمائة ) في معركة حامية مع القبائل  
 المعادية الثالثة . واني أذكر جيدا أن الأوامر صدرت - في الوقت  
 الذي غادرت فيه أم دومان - الى الأمير محمود بإرسال قوة لتأديب  
 الثوار من الفاشر، وبالظاهر أن هذه القوة نجحت نجاحا جزئيا عرضه  
 شيئا من الخسارة السالفة الذكر التي مني بها الدراويش .

قد يحسن بي أن أذكر كلية سطحية عن القبائل المذكورة  
 المعادية لنفوذ المهدي فأقول : أنها من الوجهة الظاهرية الصورية  
 مستقلة أي أن استقلالها اسمي ولكنها في الواقع تدين بشيء من  
 الطاعة الى سلطة وأدای . وأفراد القبائل المذكورة يصون في  
 الوقت نفسه على شيء كثير من الولاء لأصحاب النفوذ في سلطنة  
 وأدای ، وأذن من الخطأ الواضح أن يعتقد معتقد - كما شاع بين  
 الكثيرين من الأوربيين وغيرهم في السودان وخارجه - أن أولئك  
 الثائرين كانوا عاملين تحت قيادة رايح الزبير . لأن هذا الزعيم  
 السوداني ( رايح ) شديد العداء لؤادای ولن يسمح بأن يكون  
 للألمريون بأمره على شيء - ولو قليلا جدا - من الولاء لؤادای .  
 وعلاوة على ذلك فإن نفوذ رايح هذا لا يمتد في مسافته الى الناحية  
 الشرقية والمعروف والمحقق أنه ( نفوذه ) قائم في الأقسام الواقعة  
 الى جنوبي وغربي بحيرة تشاد .

على تلك الحالة كانت العشون جارية في تلك المناطق الجنوبية  
 والغربية عندما غادرت السودان . ولم أكد أصل الى البيئة المتصدية  
 حتى قرأت في المصنف تقارير وأنباء غريبة ومتناقضة في بعض  
 المواضع عن الحال في الاقليم المذكورة .

تكلمت كثيرا عن احتمال تقلص ظل الامبراطورية المهدية وتلاشي نفوذها في الوقت الذي تتقدم فيه دولة متدنية الى قلب السودان ولكني يجبرتم الواسعة في السنين التي قضيتها في قلب النفوذ الدويشي اناقدم بمحض الاخلاص بكلمة تحذير الى الامة التي قضيت السنين الطوال في الاضادة بذكرها وطلب انتقام المستمر لها ، ومعنى آخر اريد التقدم بالنصيحة الى الامة التي دعوت لها بحياة ناهضة سميلة اراء تجديده عهد السودان المصري .

اني اذكر لها في ايجاز كلتي أن الله والجزر لن ينتظرا انسانا كما انهما في بعض الاحيان لن يتركا فرصة البقاء لانسان .

اريد في ختام مؤلفي أن اكون أكثر صراحة فاقول ان مصر التي تطلعت وتكشفت الى استرداد ما فقدته في السودان من يدى الخليفة قد تقف في سبيلها امة أخرى لا تكفى باستخلاص المناطق من يدى الخليفة بل تعد الى عرقلة المساعي المصرية والى ادخال وسائل الرى الهندسية في الجهات التي تسته منها مصر حياتها اناثية وفي ذلك خطر جسيم على مصر لأن الدولة الجديدة صاحبة الومسائل الهندسية تنتظر الى خيرا أولا فتهدد مصر تهديدا ظاهرا . واذن - وهذا اخف الضررين واحون الشرين - مستحرم الدولة الجديدة صاحبة الحق القديم من خيرات التجارة الواسعة التي كانت - تحت ادارة طيبة في السودان - مصدر ثراء ونهوض للقطر المصري صاحب الحق الشرعى ولكل اقاليم النيل المنضوية تحت لواء مصر .

بهذه الكلمات القليلة الصادرة عن اخلاص شديد نحو الامة التي علمت اليها بعد اثني عشر عاما من سنى الاسر الشديدة على النفس - اقدم في ختام مؤلفي الى مصر ولكني قبل الختام اشير

الى حادثة واحدة قد تساعد على رد ما فقدته مصر من حيث الأمل في الاسترداد . عندما أجبرت في شهر ديسمبر عام ١٨٨٣ على الخضوع والنسليم لرجال المهدي كنت مجتزا بسيف نفيس من صيوف الوطن النمساوي وقد سطرت عليه بحروف عربية اسمي كاملا غير منقوص في تفاصيله ولكنني حرمت مع الأسف حق حمل ذلك السيف وبالتالي وقع بين ايدي رجال المهدي وبطبيعة الحال لم افكر لحظة واحدة في استرداد ذلك السيف العزيز ولكنني عندما ذهبت الى لندن في شهر أغسطس عام ١٨٩٥ لمضغور المؤتمر الجنراني تسلمت هذا السيف بواسطة المستر جون كوك أحد رؤساء شركة كوك وكان ذلك في مكتبه في لندجست سركس . وقد ظهر لي أن المستر جون كوك اشترى ذلك السيف من وطني في الأقصر عام ١٨٩٠ عندما كان مارا بإخضرته في شاطئ النيل عند أسوان . لقد شتف المستر جون بالثناء السيف لوجود الاسم العربي المخفور عليه وبعد أن تم شراؤه تمكن بواسطة صديقي المأجور ونجت من الوقوف على صاحب الاسم المأثور وهو بطبيعة الحال اسمي .

ويخيل لي أن المهدي قدم صيفي هدية لأحد أتباعه الذين اشتركوا في الحرب على مصر تحت قيادة النجومي في عام ١٨٨٦ وأنه عندما تقاب الجنرال سر فرسيس جرنيل على النجومي في توسكي وقع حامل سلاح بين المقتولين أو الأسرى وبعد ذلك أخذ أحد أفراد توسكي ذلك السلاح ثم سار به الى مصر ووجد يحكم المصادلة في الأقصر أثناء مرور المستر جون كوك الذي تمكن من ابتياعه كآثر عربي .

ان فقد السلاح في مجاهل دارفور ثم الحصول عليه في قلب لندن أمر مدهش جدا وهو فوق المصادفات العادية . واذن لا تقووط

ولا بأس فقد ترجع الأكاليمة التي لقيت الى يدي صاحبها القديم  
رجوعا لم يكن يخطر على بال .

عشت في خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة عيشة ملحشة  
لا يكاد يتصورها العقل وقد سميت جهدي في أثنائها الى الحصول  
على اختيارات واسعة من أبسط عيشة في أيام العادية القصيدة عن  
مظاهر لها كلفة .

شرحت لقرائي في الفصول السابقة كل ما حدث لي على أبسط  
صورة . ولست أرمي من وراء ذلك الى توليد الاهتمام والشعور  
بالخطر في قلوب المهتمين بالامسارى الأوربيين في السودان نصيب .  
ولكنني قصت أكثر من ذلك أن تكون لتفاصيل أهمية كبرى عنما  
يجد وقت العمل وعنما يبحث العاملون بحسبا جديا في خلاص  
المفلوجين على أمرهم . وعنما يسمح الله باستخدام معلوماتي  
ومجهوداتي في سبيل اعادة الظلم الدويش وإزالة حكم سيدي الجائر  
وعسوى عبد الله الذي سيظل ألد أعدائي طول الحياة التي أحيها  
في الدنيا .

بعد أن يزول ذلك العهد الجائر أدعو الى تأسيس الحكومة  
العادلة التي تمنيت كثيرا ظهورها في السودان ، فبذلك يزول الظلم  
ويحل العدل والهدوء في اقليم كبير محتاج الى الهدنة الهادئة .

تم الكتاب





## فهرس

المصطف	الموضوع
٥	تقديم
٩	تمهيد
	الفصل الأول
١١	تمهيد
	الفصل الثاني
٢٢	القاحتى فى دارفور وتاريخها السابق
	الفصل الثالث
٤٥	حكومة دارفور
	الفصل الرابع
٥٩	رواية الخليفة من المهدى
	الفصل الخامس
٨٧	الثورة فى جنوبى دارفور
	الفصل السادس
٩٥	حصار الأبيض وسقوطها
	الفصل السابع
١٠٣	المهدية فى دارفور

الموضوع	الصفحة
القصص الثامن	
حملة هكس باشا	١٣٦
القصص التاسع	
سقوط دارفور	١٥٢
القصص العاشر	
حصار الخرطوم ومقرها	١٧٢
القصص الحادي عشر	
حكم الخليفة عبد الله	٢٥٧
القصص الثاني عشر	
بعض الحوادث الأخرى	٢٦٩
القصص الثالث عشر	
حملة الأجباش	٢٨٢
القصص الرابع عشر	
تشت وتفرق	٣٠٢
القصص الخامس عشر	
ملاحظات متنوعة	٣٢٢
القصص السادس عشر	
ملاحظات متنوعة	٣٥٧
القصص السابع عشر	
وسائل النجاة	٣٩٩
القصص الثامن عشر	
حرارى	٤١٩
القصص التاسع عشر	
الختام	٤٦٥

## صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ •  
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر •  
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :  
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة •  
د. محمد نسيان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطيء المصرية في التصود الواسطي •  
عليه عبد المسيح الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ •  
لعي الطيحي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي •  
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية •  
علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مغوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل •  
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصعلة الحزبية •  
محمود فوزي ، ١٩٨٧

- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية .  
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - على شعراوي وعصر التنوير .  
د. نبيل راتب ، ١٩٨٨
- ١٣ - الكلية الاستعمارية المصرية للسودان : رؤية تاريخية .  
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الولاة  
العثمانية .  
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي .  
د. علي حسني الخربوطلي ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر : دراسة  
عن دور الجمعية الخيرية ( ١٨٩٢ - ١٩٥٢ ) .  
د. طهي أحمد شلبي ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني .  
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية .  
د. علي السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين .  
د. أحمد محمود صايون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين  
محمد زحلول وعبد الرحمن فهمي .  
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف في مصر ابلان العصر العثماني ، ج ١ .  
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر .  
جمال يدوي ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في عصر ايمان العصر العثماني ج ٢ ، امام التصوف  
في مصر : الشحراني .  
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الولدية والقضايا الوطنية ( ١٩١٩ - ١٩٢٦ ) .  
د . تجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامي والغرب ،  
تأليف : هاملتون جب ومارولد بولين ، ترجمة : د . أحمد  
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة ،  
د . سعيد اسماعيل علي ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،  
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد  
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ .  
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد  
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،  
د . مينة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - المؤلفون في مصر في عصر محمد علي ،  
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،  
شكري القاسي ، ١٩٨٩

- ٣٢ - هؤلاء الرجال من عصر ، ج ٢ ،  
لمس المطبوع ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقي : نظرة على الانفتاح  
الراحة ورؤية مستقبلية ،  
د. خالد محمود الكومي ، ١٩٨٩ .
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية الليبية ، منذ مطلع الصور الحديثة  
حتى عام ١٩٩٢ ،  
د. يونس لبيب رزق . محمد مزين ، ١٩٩٠
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،  
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامي والغرب ، ج ٢ ،  
تأليف : عاملتون بويرين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم  
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ علي يوسف وجريدة المائدة : تاريخ الحركة الوطنية  
في ربع قرن ،  
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر  
العثماني ،  
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان ( ١٨٢٤ - ١٨٢٧ ) ،  
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الاملاحة الكلاسيكية ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،  
د. عبد المنعم النسيوتي الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : المؤلف والكلاسيك ، رؤية عصرية ،  
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

- ٤٢ - تكوين مصر عبد المنصور ،  
 محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،  
 ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،  
 د. محمد عفيفي ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،  
 تأليف : وليم الموروي ، ترجمة وتقديم : د. حسن  
 حبيبي ، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ( ١٩٣٩ - ١٩٥٧ ) ،  
 ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،  
 د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الاسلامي .  
 د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية ( ١٩٤٨ - ١٩٧٩ ) ،  
 د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والتضاييا الوطنية ( ١٩٤٦ - ١٩٥٤ ) ،  
 د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،  
 ( أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس  
 الأعلى للثقافة ، في أبريل ١٩٩١ ) أعدها للفر :  
 د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والتواصل الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ،  
د. الهام محمد علي شعني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،  
د. محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،  
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،  
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتطبيق : د. حسن حلي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن التعليم للتوفيق ،  
د. حلي أحمد شلبي ، ١٩٩٢
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل اللغة ،  
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصفحة ،  
د. إبراهيم عبد الله المسلي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - التأسيسات الصناعية في مصر ، من التمهيد إلى التأسيس ( ١٩٥٧ - ١٩٦١ ) ،  
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،  
عبد الحميد توليق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،  
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،  
لمس الطيبي ، ١٩٩٣



- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الإسلامية ،  
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،  
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم  
رمضان ، ١٩٩٣ .
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة  
وثائقية ،  
د. محمد نمان جلال ، ١٩٩٣ .
- ٦٥ - مؤلف الصحابة المصرية من الصهيونية ( ١٨٩٧ - ١٩١٧ )  
سهايم نصار ، ١٩٩٣ .
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي  
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣ .
- ٦٧ - مسائل السلام العربية الإسرائيلية : الأصول التاريخية ،  
( أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس  
الأعلى للقناة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات  
جامعة عين شمس ، في إبريل ١٩٩٣ ) أعدها للنشر :  
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ .
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،  
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن  
حبيشي ، ١٩٩٣ .
- ٦٩ - نبوة موسى وفودها في الحياة المصرية ( ١٨٨٦ - ١٩٥١ ) ،  
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤ .
- ٧٠ - أهل اللغة في الإسلام ،  
تأليف : أ. س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبيشي ،  
ط ٢ ، ١٩٩٤ .

- ٧٦ - مذكرات اللورد كلرن ( ١٩٣٤ - ١٩٤٦ ) ،  
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف احمد  
عسرو ، ١٩٩٤
- ٧٧ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية مصر  
في العصر الفاطمي ( ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ) ،  
أمانة احمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ جامعة القاهرة ،  
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني  
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٨٠ - أهل الذمة في مصر ، في العصر الفاطمي الاول ،  
د. سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥
- ٨١ - دور التعليم المصري في النضال الوطني ( زمن الاحتلال  
البريطاني ) ،  
د. سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٨٢ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،  
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتمليق : د. حسن  
حبشي ، ١٩٩٤
- ٨٣ - تاريخ الصحافة السنكلورية ( ١٨٧٣ - ١٨٩٩ ) ،  
نعمات احمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٨٤ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،  
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي  
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٥ - فننة السموس والتنافس الاستعمار الأوروبي  
( ١٨٨٧ - ١٩٠٤ ) ،  
د. السيد حسن جلال ، ١٩٩٥

- ٨١ - تاريخ السياسة والصناعة المصرية ، من هزيمة يوليو الى نصر أكتوبر ،  
د. رمزي عيضايل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في عصر فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية ،  
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،  
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الاول ،  
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،  
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٩١٠ - ١٩١٤) ،  
د. أحمد الشريفيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كلون ، ج ٢ ، ( ١٩٣٤ - ١٩٤٦ ) ،  
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتطبيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التلوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية ،  
محمد الحميد توليق زكي ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الكوالم المصرية في العصر العثماني ،  
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ،  
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،  
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي  
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الولدية والقضايا الوطنية ( ١٩١٩ - ١٩٣٦ )  
ج ٢ ،  
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري ( ١٩٢٤ - ١٩٥٨ ) ،  
د . نبية يبرسي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ( ١٩٤٦ - ١٩٥٤ ) ،  
ج ٢ ،  
د . سمير إسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. التطور التاريخي الأفريقي المعاصرة ،  
( أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس  
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات  
الأفريقية بجامعة القاهرة )  
أصدرها للنشر د . عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة ( ١٩٥٨ - ١٩٧٠ ) ،  
تأليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من  
القرن التاسع عشر ،  
د . أيمن محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،  
د . محمد سعيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيادلة المصرية ( العصر اليوناني -  
الروماني ) ج ٢ ،  
د . سمير جحى الحمال

- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر المصور : تاريخ مصر القديمة ،  
 ١ . د . عبد العزيز صالحي ، ١ . د . جمال مختار ،  
 ١ . د . محمد إبراهيم بكر ، ١ . د . إبراهيم نصحي ،  
 ١ . د . فاروق القاضي ، أعطاها للنفس : ١ . د . عبد العظيم  
 رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحظيرة القومية ،  
 اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحيد  
 كلفاني ، اللواء / محمد عبد الحفيظ ، السفح / جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،  
 د . تيسير أبو حرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،  
 د . علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر ( ١٩١٤ - ١٩٥٢ ) ،  
 د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر والقضية الديمقراطية ( ١٨٠٥ -  
 ١٩٨٧ )  
 د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ علي يوسف وجريدة الأزدي : تاريخ الحركة الوطنية  
 في ربع قرن ، ج ٢ ،  
 د . سليمان صالحي
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،  
 تأليف : دليب هيو ، ترجمة : عبد الحيد فهمي الجبال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ج ٤ ،  
 سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ،  
 سليم خليل النقاش

- ١١٠ - مصفحة الأملاك في الدولة الإسلامية ( عصر سلاطين  
المماليك ) ، ج ١ ،  
د. البيومي اسماعيل الشرييني
- ١١١ - مصفحة الأملاك في الدولة الإسلامية ( عصر سلاطين  
المماليك ) ، ج ٢ ،  
د. البيومي اسماعيل الشرييني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صنقى ،  
د. محمد محمد الجرادى
- ١١٣ - الوزير باشا ودوره في السودان ( في عصر الحكم المصري ) ،  
د. اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر .  
أحمد رشدى صالح
- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،  
أحمد شليق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق ( عاشق الحرية ) ،  
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القفس في مصر العثمانية ( ١٥١٧ - ١٧٩٨ ) ،  
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظام المالية في مصر والنشأته زمن سلاطين المماليك ،  
د. البيومي اسماعيل
- ١١٩ - التباينات في مصر الرومانية ،  
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث  
لؤيس جرجس
- ١٢١ - معركة الجلاء ووحدة وادي النيل ( ١٩٤٥ - ١٩٥٥ )  
د. محمد عبد الحميد الحناوى

- ١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦  
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البعلوي  
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن  
د. محمد تيمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧  
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨  
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - ملهعات ألوجهة المصرية السوزية ( ١٩٤٣ - ١٩٥٨ )  
إبراهيم محمد محمد إبراهيم
- ١٢٨ - معنارك عسكارية  
جمال بسوى
- ١٢٩ - الدين العام ( وآثره فى تطور الدين المصرى )  
( ١٨٧٦ - ١٩٤٣ )  
د. يعقوب محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ كتابات الفنانين فى مصر ( ١٩٨٧ - ١٩٩٧ )  
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ ( ١٩٥٢ - ١٩٥٨ )  
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرؤوف أحمد عمر
- ١٣٢ - دار الثنوب السنلى فى مصر ج ١ ،  
د. ماجدة محمد حمود
- ١٣٣ - دار الثنوب السنلى فى مصر ج ٢ ( ١٩١٤ - ١٩٢٤ )  
د. ماجدة محمد حمود

- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى  
مخطوطة - ضياء نامة - للدار نعل  
بقلم / عزت حسن الفتى الدار نعل  
ترجمة / جمال سعيد عبد الفتى
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجيزة  
( ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م )  
د . محاسن محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق  
تقديم د . عبد العظيم رمضان
- ١٣٧ - تيجار التوابل في مصر في العصر المملوكي  
د . محمد عبد الفتى الأحمري
- ١٣٨ - الإخوان المسلمون  
وجنود التطرف الدينى والارهاب في مصر - السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الفتاوى المصرية في القرن العشرين  
محمد قايى
- ١٤٠ - سياحة مصر في البحر الأحمر -  
في النصف الأول من القرن التاسع عشر - طارق  
عبد العاطى غنيم
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر مملوكى المالكية  
أطلق أحمد تصار
- ١٤٢ - متكرات في نصف قرن ج ١  
أحمد شليق باها
- ١٤٣ - معلوماتية البطالة في القرنين الثاني والأول ق م  
د . منيرة محمد الهجرى
- ١٤٤ - كظوف مصر التاريخية  
في عهد الخديوى اسماعيل ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ) -  
د . محمد العظيم خلاف



- ١٤٥ - النظام الإدارى والاقتصادى فى مصر  
فى عهد دقلديانوس ( ٢٨٤ - ٣٠٥ م ) -  
د . منيرة محمد الهنجرى .
- ١٤٦ - المودة فى العصر المملوكى  
د . أحمد عبد الرزاق
- ١٤٧ - حسن البنا ( منى .. كيف .. وكذا ؟ )  
د . رفعت السيد
- ١٤٨ - القديس عوفى وتأسيس كنيسة الاسكندرية  
تأليف / د . سمير فوزى  
ترجمة / تميم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الجزائرية فى القرن الثامن عشر  
صباح محمد عبد المعلى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية أصولها وتطورها  
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة  
السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية  
( ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م )  
د . سحر محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية ( الكلمات السياسية )  
د . عليا عبد السميع الجنزورى

١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في  
العصور الوسطى

د. علي عبد السميع الجنزوري

١٥٥ - عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر  
١٨٠٥ - ١٨٨٣

د. عبد الحميد البطريق

١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث في العصر  
الإسلامي

د. سمير يحيى الجبال

١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع في العصر  
الإسلامي والحديث

د. سمير يحيى الجبال

١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية في مصر ( ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /  
١٢٥٠ - ١٥١٧ م )

د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ - حزب الوفد ( ١٩٣٦ - ١٩٥٢ م ) الجزء الأول

د. محمد فريد حشيش

١٦٠ - حزب الوفد ( ١٩٣٦ - ١٩٥٢ م ) ج ٢

د. محمد فريد حشيش

١٦١ - السيف والنار في السودان تأليف سلطان باشا

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٩/١٥٥٤٦

ISBN — 977 02 — 6518 — 6



هذا الكتاب تتبع أهميته من أنه وثيقة نادرة، وهى من أهم الوثائق التى نشرت عن الحوادث التاريخية التى جرت فى مصر والسودان فى فترة السيطرة المهدية على السودان، وقد كتبه ضابط نمساوى، هو سلاطين باشا الذى كان حاكماً لدارفور عام ١٨٨٤ واعتقله جيوش المهدي، فادعى الإسلام، وفر إلى الجيش المصرى واشترك فى استرداد دنقلة وأم درمان، وعمل موظفاً فى خدمة حكومة السودان حتى عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الأولى، فترك الخدمة وعاد إلى النمسا، وعندما عقدت الهدنة سنة ١٩٤٨ أتدب عضواً فى بعثة مؤتمر الصلح فى باريس.